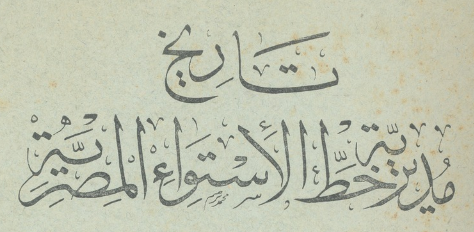


من فتحها الى ضياعها

من سنة ١٨٦٩ الى ١٨٨٩ م

الجزء الأول

للأمير

عمر طوسون

سنة ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٧ م.

مطبعة العدل بشارع كنيسة الأمريكان نمرة ٣ بالاسكندرية



من فتحها الى ضياعها

من سنة ١٨٦٩ الى ١٨٨٩ م

الجزء الأول

للأمير

عمر طوسون

سنة ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٧ م

مطبعة العدل بشارع كنيسة الأمريكان [illegible] بالإسكندرية



الخديو اسماعيل

كلمة شكر واجبة

لاريب أن الفكرة التى اختلجت فى نفس الخديو اسماعيل والتى دفعته الى فتح مديرية خط الاستواء وضمها إلى السودان أو بالأحرى الى الأملاك المصرية ، فكرة جد صائبة إذ بها تم لمصر الاستيلاء على نهر النيل من منبعه الى مصبه ، وأصبح فى قبضتها تلك البحيرات العظمى التى يخرج منها هذا النهر السعيد الذى عليه مدار حياة البلاد .

ولو أنه عهد بهذا الفتح الى قائد مصرى لكان ذلك أدعى الى مضاعفة إعجابنا وثنائنا على هذه الفكرة ولكن لعل للسياسة دخلا فيما حصل ، وعلى أى حال فأنه فكر وعمل ونجح فهو حرى بالثناء العميم والتقدير العظيم ، رحمه الله وطيب فى الجنة مثواه ؟

عمر طوسون

اهداء الكتاب

هذا كتاب وضعناه عن مديرية خط الاستواء ، وقد سبق لنا ان قلنا فيما كتبناه عن هذه المديرية مرارا أنها الزم لمصر من مدينة الاسكندرية . وسيتضح صدق هذا القول لمن يقرءون هذا الكتاب بل سيعرفون منه أكثر من ذلك أن هذه المديرية هي جنة افريقية ، وأنها الفردوس الارضي المفقود الذي فقدته مصر بعد أن استحوذت عليه وبذلت في سبيله بدر الاموال ومهج الرجال .

وكما حفت جنة الآخرة بالمكاره فقد حفت هذه الجنة الارضية بها فأحيطت بالمياه الآجنة التي تكمن في قاعها جراثيم الأوبئة ، ويفرخ في سمائها الذباب الفتاك بالناس والحيوان ، وقد أحاطها بنوها بالظبي والرماح بعد أن سقوها السم الزعاف ، وجعلوا من هذه الأسنة المشرعة ومن أجسامهم المتراصة سياجا عليها . ومع كل هذا فقد شقت مصر طريقها اليها بجنودها المصريين والسودانيين الأبطال ، ذوي القوة والبأس والصيال ، فاستهدفوا جميعا لهذه الأوبئة الوبيلة ، وتلقوا بصدورهم طعنات هذه الأسنة المسمومة المصقولة ، حتى اذا فتحها الله عليهم ورسخت أقدامهم فيها ، وعملت أيديهم في تطهير جوها ، وتمدين أهلها ، أخرجتهم منها السياسة الماكرة وأبعدتهم عنها أبالستها .

واذا كانت العادة قد جرت باهداء المؤلفين كتبهم وكان لا بد لنا من اهداء هذا الكتاب ، فاننا نهديه الى من يكون لنا في اهدائه اليهم الامل الوطيد في استرجاع هذا الفردوس الارضي المفقود ، ألا وهم أبناء وادي النيل عامة وشباب مصر والسودان خاصة . فهؤلاء الشبان الأبرار الأطهار هم معقد الأمل ومناط الرجاء ، وهم هم الجديرون منا حقا بهذا الاهداء ، وفي هممهم وحرارة دمائهم وغيرتهم الوطنية الحقة ما يكفل لمصر تحقيق كل آمالها إن شاء الله ، وان طاول الزمان وماطلت الأيام ، وما ذلك على الله بعزيز والسلام ؟

عمر طوسون



مقدمــة

ألقى حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٨ م أثناء زيارة قام بها لمدينة المنصورة عاصمة مديرية الدقهلية ، وكان فى هذا الحين رئيس مجلس الوزراء ، خطبة سياسية استعرض فيها حالة البلاد وشؤونها المختلفة . فقال فى الفقرة الخاصة بمشاريع الرى الكبرى ان جانباً من منطقة السدود والمنطقة التى سيقام فيها خزان بحيرة البرت نيانزا واقعان فى أرض بريطانية . ولما كان هذا القول غير مطابق للواقع أرسلنا اليه بتاريخ ١٤ نوفمبر من تلك السنة الخطاب الآتي الذى نشرته جريدتا الاهرام والسياسة فى ١٦ من هذا الشهر ونشره المقطم وكوكب الشرق فى ١٧ و ١٨ من الشهر المذكور :—

حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا رئيس مجلس الوزراء .

اطلعنا على خطبة دولتكم بالمنصورة ولفت نظرنا منها قولكم عند ذكر خزان جبل الأولياء : (ولقد درست وزارة الاشغال هذا الموضوع من مدة بعيدة واسترشدت فى درسها بكبار الفنيين حتى انتهت الى وضع برنامج شامل لتحقيق مطالب الرى تضمن اقامة خزان بمنطقة جبل الأولياء فى السودان وشق قناة لتحويل مجرى النيل من منطقة السدود التى يضيع فيها كثير من المياه

فى غـــير جدوى . وهذه المنطقة يقع بعضها فى السودان وبعضها فى الأملاك البريطانية ثم اقامة خزان بحيرة البرت الواقعة فى الاملاك البريطانية) — الى أن قلـــتم :

(ولو سلمنا بنظرية القائلين بوجوب وقف أعمالنا على النيل الخارج عن الحدود المصرية لتمشى حكم هذا التعطيل ليس على جبل الأولياء فقط لوقوعه فى السودان الذى لاننكر سيادتنا عليه بل تتناول بالأولى مشروعات أعالى النيل بما فيها منطقة السدود التى تقدمت وزارة الاشغال للقيام بالأعمال فيها بطلب مبلغ مليون ومائة الف جنيه فى سنة ١٩٢٥ وأقرها مجلس الوزراء على هذا الاعتماد كما أقره البرلمان فى سنة ١٩٢٦ فى حين يعلم الجميع أن من هذه المنطقة ما يقع فى السودان المصرى ومنها ما يقع فى الاملاك البريطانية) .

هاتان هما النقطتان اللتان لفتتا نظرنا بنوع خاص فى خطبة دولتكم . ذلك أن منطقة السدود المذكورة جميعها داخل ضمن حدود السودان المصرى القديم حسب ما كان عليه قبل الثورة المهـــدية . وكذلك مخرج النيل من بحـــيرة البرت نيانزا المراد عمل السد فيه لجعل تلك البحيرة خزاناً هو أيضاً جزء من مديرية خط الاستواء المصرية ظل محكوما بمصر حتى آخر عهد أمـــين باشا وهـــو آخر مدير لتلك المديرية السودانية المصرية الى نهاية الحكم المصرى الفعلى للسودان .

وقد شمل الحكم المصرى جزءا من شواطىء هذه البحيرة وأقام فيه المعاقل العسكرية التى بقيت حتى شاهدها استانلى فى سياحته المشهورة عندما توجه الى هذه الجهة لتخليص أمين باشا ظاهراً ولمحـــو الآثار الباقية لمصر بتلك المنطقة فى الحقيقة . ثم توجه الكابتن لوجارد الى هناك واستخدم الجنـــود المصرية

المتروكة فيها باسم الشركة البريطانية الشرقية الافريقية واستولى على أوغندة والقسم الجنوبي من مديرية خط الاستواء . وبسطت الحكومة البريطانية حمايتها على هذه البلاد ثم عقدت بعد ذلك مع مصر معاهدة سنة ١٨٩٩ م .

ولو احترمت هذه المعاهدة كما تدعى لكان أول واجب عليها ارجاع هذه البلاد وجعلها تحت ادارة حكومة السودان حيث ان هذه المعاهدة تشمل عموم الأراضى التى تكون منها السودان المصرى القديم كما كان عليه قبل الثورة المهدية ولكنها لم تفعل هذا الواجب ولم ترعه فى تطبيق هذه المعاهدة . وهذا لا يجعلنا نعتبر عملها الذى استندت فيه الى القوة وحدها عملا شرعياً فان انجلترا التى أخرجت مارشان من فاشودة بحجة أنها جزء من السودان المصرى ما كان ينبغى لها بعد ذلك أن تسلخ جزءاً منه لنفسها . وهذه الحجة لا تزال الى الآن باقية .

واننا كتبنا الى دولتكم هذا محافظة على حقوق مصر وبياناً للحقيقة .

وتفضلوا دولتكم بقبول مزيد سلامنا ؟

عمر طوسون

١٤ / ١١ / ١٩٢٨

* * *

واننا لعلى يقين بأن حضرة صاحب الدولة محمد باشا محمود خدع فى حسن نية فى أثناء المحادثات التى دارت بينه وبين الحكومة البريطانية عن المسائل الخاصة بمياه النيل لأنه لما كانت انكلترا تعتبر هذه الأراضى أرضاً بريطانية وتنعتها بهذا النعت دائما كان من الجلى أن هذا هو الذى لابد أن يكون قد حدث مع دولته وأنه لم يفه بكلماته هذه إلا تحت سيطرة تأثره بأن ماسمعه يوافق الحقيقة .

فهو من هذه الوجهة معذور إلا أنه فى رأينا ليس معذوراً كل العذر . ذلك

لأنه كان عليه قبل أن يرسل هذا القول وهو رئيس الحكومة أن يتحرى إذ أنه من الواضح الجلى أن صدوره منه يترتب عليه مالا يترتب على صدوره من شخص آخر .

وبما أنه لابد أن يكون كثير من المصريين غيره واقفين أيضاً فى هذا الامر فقد رأينا من المفيد عمل تاريخ لهذه المديرية التى هى أهم مديريات السودان القديم لمصر والتى تولى فتحها وحكمها حكمدارون من قبل الحكومة المصرية وذلك لكى يعرف أهل وطننا الى أى حد وصل امتداد ملكهم فى السودان وأى الأراضى سلخت منه .

وقد كانت هذه المديرية المصرية آخر المديريات التى ظلت تحت الحكم المصرى اثناء الثورة المهدية وكانت انجلترا تعلم أهميتها وتعلم أن الذى يحكمها يتحكم فى حياة مصر كلها فسعت فى أثناء الثورة المذكورة لابعاد الهيئة المصرية الحاكمة عنها وابقاء الجنود المصريين النظاميين مع ذخائرهم وأسلحتهم فيها ريثما ترسل اليها رسولا من قبلها يتحد مع هؤلاء الجنود ويضمهم اليه فتوطد قدميها فى تلك الجهات بواسطة الجنود المصرية المتروكة هناك وعلى حساب مصر .

وهذا هو ماحصل فعلا . فقد تكونت شركة انكليزية أوعزت بها الحكومة البريطانية سراً وهذه الشركة ألفت حملة تحت قيادة السائح استانلى وتوجهت الى الجهة المذكورة وأحضرت منها الهيئة المصرية الحاكمة وتركت فيها الجنود المصرية النظامية . ومن غفلة الحكومة المصرية فى ذاك الوقت أنها دفعت مبلغ عشرة آلاف جنيه مصرى على سبيل الاشتراك فى نفقات تلك الحملة وأمدتها بسبعين جنديا سودانياً بذخائرهم وأسلحتهم أخذوا من الأورط السودانية بالجيش المصرى . وهؤلاء الجنود لم يعد منهم إلا عشرة فقط

أما الباقون فقد أيــدوا فى هـذه الحمــلة المشئومة التى كانت لغــير مصلحة البلاد .

وبعد عودة استانلى ألفت شركة أخرى بايعاز الحكومة الانكليزية أيضاً تدعى الشركة البريطانية الشرقية الافريقية British East African Co., Ltd., وأرسلت هــذه الشركة كابتن لوجارد Captain Lugard مع بعض الضباط السودانيين الذين أحضرهم استانلى Stanley مع أمين باشا من تلك المديرية ، ومن المحزن أن ذلك كان بعلم نظارة الجهادية (وزارة الحربية) المصرية فى ذلك الوقت ومساعدتها .

وتوجه الكابتن لوجارد مع هــؤلاء الضباط الى مديرية خط الاستواء فوجدوا الجنود المصرية المتروكة هناك ورئيسهم أمير الألاى سليم بك مطر عند شاطىء بحيرة البرت نيانزا . فاتفق معهم على أن يدخلوا فى خدمة الشركة السالفة ويحتلوا أوغنــدة ومديرية خط الاستواء . وقد حصل ذلك فعلا .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر منقبة حسنة لهؤلاء الجنود تقابل منا ومن المصريين جميعاً بشكرهم وعاطر الثناء عليهم . ذلك أنهم ـ عليهم رحمــات الله الواسعة ـ اشترطوا قبل دخولهم فى هذه الشركة أن تعرض شروط خدمتهم فيها على الحكومة المصرية لتوافق عليها كما انهم كانوا يجعلون العلم المصرى يخفق دائما فوق معسكرهم . فاعتبار أنفسهم جنودها الى هـذا الحين وعدم قبولهم العمل فى هذه الشركة بدون أمر حكومتهم وموافقتها مما يدل دلالة واضحــة على عظيم أمانتهم على الشرف العسكرى .

ولكن ألا يدل عمل هؤلاء الجنود البررة على أنهم كانوا ينتظرون من

حكومتهم ألا توافق على خدمتهم فى تلك الشركة . غير أن الذى كان مع الاسف والحسرة غير ما كانوا ينتظرون .

وهكذا استولت بريطانيا على مديرية خط الاستواء وضمتها الى أوغنده التى كانت تابعة لمصر أيضاً وجعلت منهما وحدة وضعت عليها حمايتها . وهذه المديرية هى أهم المديريات التى لاغنى لمصر عنها لكونها حاكمة على البحيرات الاستوائية الكبيرة التى يخرج منها النيل والتى ستبنى عندها خزانات المياه التى عليها مدار حياة مصر .

واليك تاريخ فتح مصر لهذه المديرية وتاريخ حكمداريها من سنة ١٨٦٩ الى ١٨٨٩ م ، أى من فتحها الى اغتصاب الانكليز لها .



السير صمويل بيكر باشا

حكمدارية صمويل بيكر باشا

من سنة ١٨٦٩ الى ١٨٧٣ م

تمهيـد

فى سنة ١٨٦٨ م كان اقصى نقطة وصل اليها الحكم المصرى فى جنوب السودان هى « فاشودة » . أما الاقـــاليم الواقعـــة جنوب هـذه الناحية فكانت الى بحيرات خط الاستواء العظمى التى يخرج منها نهر النيل ، خارجة عن هذا الحكم ويتردد عليها الرواد والنخاسون . وكان من بين هؤلاء الرواد الذين ترددوا على هـذه النواحى الرحاله الانكليزى المسمى سير صمويل بيكر كما كان يتردد عليها فى كثير من الاوقات بعض عصـــابات مسلحة يستخدمها النخاسون وتجار العاج الذين كانوا يجوبون ارجاءها ويبثون الفزع والجزع أينما ساروا أو حلوا ابتغاء الحصول على متاجرهم البشرية وغيرها .

ومن السهولة بمكان عظيم ان يتصور الانسان كيف يكون حال البـــلاد الخاليـة من أى نوع من أنواع الحـكومات المتمدينـة وما ينشأ عن خلوها من هذه الحكومات من اقفـار القرى وانقراض السكان بسبب سفك كثير من الدماء وانتشـار الفوضى وحـدوث الخراب الى غير ذلك ممـا كان حاصلا بالفعل فى هذه البقاع .

وكانت هذه المنطقـة الشاسعة المترامية الاطراف عامرة بعـــدد وافر من

السكان وكان يحتاج هذا العدد الى حكومة منظمة لتحميه شر النخاسة والطوارىء الاخرى فيستطيع أن يأخذ حظـــه فى الزيادة والنماء ويستغل الثروة العظيمة التى فى أرضه وينميها .

وكان المغفور له الخديو اسماعيل يريد أن يضمن لمصر امتلاك منابع النيل فأمر مراعاة للانسانية والسياسة واقتداء بجده العظيم محمد على باشا بتجهيز حملة لضم الاراضى الواقعة فى جنوب فاشودة لغاية البحيرات الكبرى الى أملاك الحكومة المصرية لكى يقضى على الحالة الهمجية التى فى تلك الجهات وليكفل لمصر امتياز مراقبة منابع النيل الذى تستمد منه ثروتها وعليه مدار حياتها .

وفعلا تقرر اعداد الحملة وكان اذن لابد من ايجاد رئيس لها . واتفق فى أوائل سنة ١٨٦٩ م أن سير صمويل بيكر الآنف الذكر كان فى مصر بمعية البرنس دوغال Prince de Galles ولى عهد الملكة فيكتوريا ونجلها الذى كان يريد القيام برحلة الى الوجه القبلى . وكان سير صمويل هـــذا قد قام حديثاً بزيارة فى تلك النواحى النائية واستكشف بحيرة البيرت نيانزا فوقع اختيار الخديو عليه وقد دارت محادثات فى هذا الشأن بينه وبين نوبار باشا أولا ثم مع الخديو اشترك فيهـــا ولى عهد انجلترا المذكور الذى كان يؤيد تأليف هـــذه الحملة ويشجع على ارسالها أثناء تلك المحادثات .

وقد تم الاتفاق بين الحكومة وسير صمويل بيكر وحرر عقد بخدمته مدة أربع سنوات براتب سنوى قدره عشرة آلاف جنيه انكليزى ومنح سلطة مطلقة تخول له حتى الأمر بالاعدام . واليك ترجمـــة الأمر العالى الذى صدر بتعيينه رئيساً للحملة المصرية :

نحن اسماعيل خديو مصر قد أمرنا بما هو آت :

نظراً للحالة الهمجية السائدة بين القبائل القاطنة فى حوض نهر النيل ،
ونظراً لأن النواحى المذكورة ليس بها حكومة ولا قوانين ولا أمن ،
ولأن شرائع الانسانية تفرض منع النخاسة والقضاء على القائمين بها المنتشرين بكثرة في تلك النواحى ،
ولأن تأسيس تجارة شرعية في النواحى المشار اليها يعتبر خطوة واسعة فى سبيل نشر المدنية ويفتح طريق الاتصال بالبحيرات الكبرى الواقعة فى خط الاستواء بواسطة المراكب التجارية ويساعد على إقامة حكومة ثابتة ،

أمرنا بما هو آت :

تؤلف حملة لاخضاع النواحى الواقعة فى جنوب غوندوكورو لسلطتنا ،
ولأبطال النخاسة وإيجاد تجارة منظمة ؟
ولفتح طرق الملاحة مع البحيرات الكبرى الواقعة فى خط الاستواء ،
ولاقامة خط من النقط العسكرية ومستودعات للتجارة يبعد بعضها عن بعض مسافة ثلاثة أيام للماشى فى أنحاء أفريقية الوسطى ابتداء من غوندوكورو .
وقد فوضنا رئاسة هذه الحملة إلى سير صموئيل بيكر لمدة أربع سنوات ابتداء من أول ابريل سنة ١٨٦٩ وقلدناه حقوق السلطة التامة المطلقة حتى السلطة المتعلقة بحياة وإعدام كل من له علاقة بالحملة .
وقلدناه كذلك نفس هذه السلطة على كل النواحى التابعة لحوض النيل جنوب غوندوكورو .

* * * *

وقد سميت هذه الاراضى التى فتحتها مصر وضمتها إلى أملاكها « مديرية خط الاستواء » وكانت حدودها كما يأتى :

فى الشمال	مصب نهر السوباط .
وفى الجنوب	أوغنده التى بسطت مصر نفوذها عليها .
وفى الشرق	الحبشة .
وفى الغرب	مديرية بحر الغزال .

والحد الجنوبى هو أهم هذه الحدود وهو الذى ينبغى أن تعيره مصر اهتمامها عند البحث فى حقوقها بهذه المديرية .

وقد بسطت مصر نفوذها أيضاً على بعض البلاد المجاورة لهذه المديرية مثل أوغنده السالفة الذكر والأونيورو ثم جاءت انجلترا واستولت كذلك على هاتين المملكتين وضمت إلى الأولى مديرية خط الاستواء بعد اقتطاعها من الاملاك المصرية .

وكل هذه البلاد لم تفتحها مصر دفعة واحدة بل بالتدريج وفى عهود حكمدارين متعددين كما سنبين ذلك فيما بعد :

سنة ١٨٦٩ م

اعـــداد الحملة على هـــذه المديرية

بعد أن تم تعيين سير صمويل بيكر Sir Samuel Baker حكمداراً لمديرية خط الاستواء أخذ يعمل بجد ونشاط فى ترتيب الحملة على هذه المديرية واختيار المساعدين له من ذوى الـكفايات إذ كان يعلم حق العلم أن نجاح مثل هذا العمل يتوقف على هذين الأمرين .

وكان الوقت لديه قصيراً بحيث لاينبغي التفريط فى ذرة منه لأن السنوات الأربع المحـددة لخدمته كما سيرى فيما بعد ربما لاتفى بالقيام بعمل كهذا متشعب الأطراف لاسيما اذا راعينا ماتستلزمه مثل هذه الحملة من الرحلات الطويلة وما تحتاج اليه من الزمن فى قطع المسافات الشاسعة عدا ما يطرأ فى أثناء ذلك من العقبات .

ولما كان مفوضاً تفويضاً تاماً من الجناب الخـــديو فقد أمر بانشاء باخرة بدولابين قوتها ٣٢ حصاناً بخارياً وحمولتها ٢٥١ طناً ، وأخرى برفاسين ذوى ضغط شديد وقوتها ٢٠ حصاناً بخارياً وحمولتها ١٠٨ أطنان ، وثالثة أيضاً برفاسين ذوى ضغط شديد وقوتها ١٠ أحصنة وحمولتها ٣٨ طناً ، كما أمر بانشاء مركبين من الحديد طول الواحد ٣٠ قدماً وعرضه ٩ أقدام وحمولته ١٠ أطنان . وأوصى بعمل آلات بخارية لقطع الاخشاب ونشرها مع مرجل (قزان) يزن ٨٠٠ رطل

وكل ماذكر كان يتحتم نقـــله من الاسكندرية الى غندوكورو أى

مسافة ٤٨٠٠ كيلو متر على ظهور الجمال وعلى متون السفن ومن بين ذلك مسافة بضع مئات من الأميال فى فيافى بلاد النوبة .

وعندما تم تجهيز هـــذه البواخر سميت الأولى « الاسماعيلية » والثانيـة « الخديو »، والثالثة « نيانزا » . أما الباخرة « الاسماعيلية » فجهزت بعد سفر سير صمويل بيكر أعنى فى غضون حكمدارية غوردون باشا Gordon Pasha وقد استعملت للقيام بالخدمة مابين « غندوكورو » والخرطوم فكانت تقطع هذه المسافة فى ظرف عشرة أيام . واشتركت فـــيما بعد مع أسطول الحكومة فى الدفاع عن الخرطـوم حينما حاصرها جيش الدراويش فى سنة ١٨٨٤ م وأسرها هؤلاء عندما استولوا على تلك المدينة . وعلى ظهر هـذه الباخرة اجتاز المهدى النيل من أم درمان الى الخرطوم عند أول زيارة له لهـذه المدينة بعد سقوطها فى يـــده .

وتم تركيب الباخرة « الخـديو » فى عهد حكم سير صمويل بيكر عندما كان يقوم برحلة فى جهة الجنوب فى اقليم الاونيورو Ounyoro وهى التى نقلته فى عودته من هذه الجهة الى الخرطوم وكان ذلك عند انتهاء مأموريته .

وبعد سير صمويل بيكر عاد غوردون باشا الى غندوكورو Gondokoro على ظهر الباخرة المذكورة ثم أمر بفكها وحملها الى « دوفيليـه » Doufilé فوق شلالات « فولا » Fola حيث أعيد تركيبها وخصصت للقيام بالخدمـة فى النهر بين هـذه النقطة وبحيرة البرت نيانزا وبداخل البحيرة نفسها لأن هذه الشلالات تعوق الملاحـة مباشرة بين « غندوكورو » والبحيرة . وظلت هـكذا تعمل فى هـــذه المنطقة حتى بعد سفر أمـين باشا ثم خربها الدراويش عنـد استيلائهم على « دوفيليه » .

أما الباخرة « نيانزا » فأمر غوردون باشا بنقلها فوق شلالات فـــولا المذكورة وتركيبها هناك لتأدية نفس العمل الذى كانت تقـــوم به الباخرة « الخديو » فكان حظها فى النهاية كحظ هذه .

ولقـد طاف جيسى باشا Gessi Pasha الطليانى أولا فى سنة ١٨٧٦ م بمركبي الحـديد وميسون بك Mason Bey الامريكي ثانياً فى سنة ١٨٧٧ م بالباخرة « نيانزا » حول شواطىء بحيرة نيانزا باسم الحكومة المصرية فكانا هما السابقين لكل انسان فى التطواف حول تلك الشواطىء .

وكانت جماعة الانكليز الذين صحبـوا سير صمويل بيكر تتألف من الليدى بيكر زوجـه ومن الملازم جـوليان ألـين بيكر Julien Alleyne Baker ابن أخيـــه من رجـــال البحرية الملكية ومستر ادوين هجنبوثام Edwin Higginbotham المهنـدس الملكي ومستر وود Wood السكرتير والطبيب جوزيف جيدج Joseph Gedge ومستر ماركوبولو Marcopolo رئيس مخازن الحملة ومترجمها ومستر ماك وليام Macwilliam رئيس مهندسى البواخـــر ومستر جارفس Jarvis رئيس بنائي البواخـــر ومستر هـــوايتفيلد Whitfield ومستر سامسون Samson وهيتشمان Hitchman ومستر رمسول Ramsall من بنائي السفن والمراجل (القزانات) وغيرهم . وكان مع هذا الجمع اثنان من الخدم .

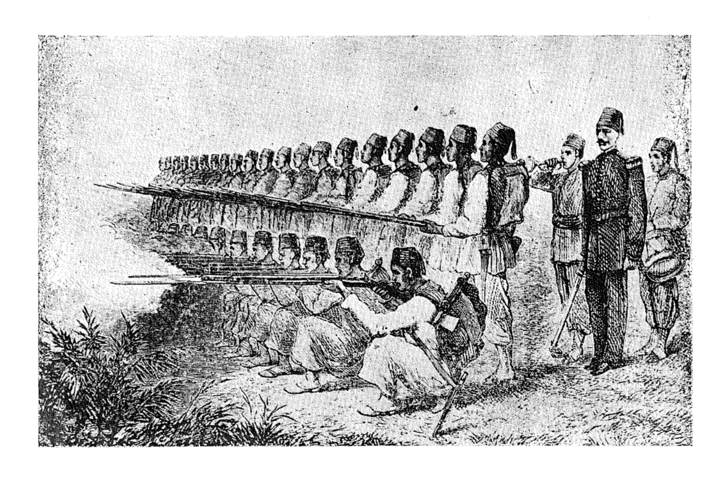
وكان من المقرر أن تتألف القوة العسكرية التى سترافق هذه الحملة من ١٤٠٠ جندى من البيادة و ٢٥٠ من السوارى الباشبوزق وبطاريتين من المدافع وأن تتجزأ البيادة الى أورطتين احداهما مصرية والأخرى سودانية وأن يكون رجالها من خيرة الرجال . وكان فى الأورطة السودانية ضباط وجنود خدموا

بعض سنوات فى بلاد المكسيك فى الجيش الفرنسى تحت قيادة المارشال بازين Bazaine ـ راجـــع كتابنا « بطولة الأورطة السودانية المصرية فى حرب المكسيك » .

ولما كانت الحالة تستدعى القيام بأعمــــال فى مناطق لا تصلح إلا قليلا للسوارى رئى أخيراً ترك ال ٢٥٠ من السوارى فى الخرطوم .

وكانت المدافع من النوع الجبلى ذى الماسورة الحلزونية (ششخانة) وهى مصنوعة من الشبه (البرنز) ووزن ماسورة المدفع ٢٣٠ رطلا ووزن القذيفة ٨ ١/٤ من الارطال . وكانت دار صناعة وولويتش L'arsenal de Woolwich تبرعت لهذه الحملة بمائتى صاروخ من هال Hale وزن الواحد رطلان ، وبخمسين بندقية من طراز سنيدر مع خمسين ألف ظرف للبنادق المذكورة .

وكان يجب أن يتجمع الجنود ومعهم الذخيرة فى الخرطوم وينتظرون فيها مقدم سير صمويل بيكر . وكانت جنود هـذه الحملة تحت إمرة أمير الألاى رءوف بك الذى ترقى فيما بعد الى رتبة باشا وتعين حكمداراً عاماً للسودان ومعه فيها البكباشية احمد رفيق افندى وعبـد القادر افندى والطيب عبد الله افندى . والأول من عنصر تركى حضر حرب القرم مع النجدة المصرية ـ راجع كتابنا « الجيش المصرى فى حرب القرم » . وكان فى هـذه الحملة يقود الأورطـة المصرية وقتل فى أثنائها . والثانى مصرى الجنس وألقيت اليه مقاليد قيادة حرس سير صمويل بيكر الخصوصى وقــــد فاض روحه فى غضون حرب الانكليز مع العرابيين فى سنة ١٨٨٢ م . أما الثالث فكان سودانيـــا وألقى على عاتقه قيادة الأورطة السودانية .



حرس سير صمويل بيكر باشا ويرى خلفهم قائدهم البكباشي عبد القادر افندي

قيام الحملة

قرر سير صمويل بيكر أن تسافر الحملة منقسمة ثلاثة أقسام . وكان قد تقرر فيما سلف أن تبارح ست بواخر من القاهرة فى شهر يونيه . وقوات هذه البواخر تتراوح بين ٤٠ و ٨٠ حصانا بخاريا . كما كان مقرراً أن يسافر أيضاً فى الوقت نفسه خمس عشرة سفينة شراعية وخمس عشرة ذهبية . فتكون جملة ذلك ٣٦ مركباً تصعد النيل الى الخرطوم أعنى تجتاز مسيرة ٢٨٣٠ كيلو متراً مقلة المهمات والذخائر .

وكانت الأوامر قد أعطيت الى جعفر مظهر باشا حكمدار السودان العام بأن يعد فى الخرطوم فى ميعاد معين ٢٥ مركباً شراعياً و ٣ بواخر وأن يهىء فى الوقت نفسه الجمال والخيول اللازمة للنقل براً بحيث يكون ذلك مجهزاً عند قيام الحملة للسفر . وبهذه الكيفية عندما يصل الأسطول الذى سافر من مصر الى الخرطوم تكون قوة الحملة البحرية مؤلفة من ٩ بواخر و ٥٥ مركباً شراعياً متوسط حمولة كل منها ٥٠ طناً .

وتولى مستر هجنبوثام أمر تسيير النقليات فى صحراء النوبة من كروسكو الى الخرطوم وفعلا سلم سير صمويل بيكر لهذا الضابط البارع قطع البواخر وآلاتها مفكوكة ووضع تحت تصرفه المهندسين والسواقين الانكليز .

وكان يجب أن تبارح البواخر الست والأسطول الصغير مياه القاهرة فى ١٠ يونيه حتى يتيسر لها أن تصعد شلالات وادى حلفا وقت ارتفاع مياه النيل عند الفيضان ، لكن نظراً لغياب الخديو فى أوربا لم تقلع المراكب من مراسيها إلا فى ٢٩ أغسطس . ولما وصلت الى الشلال الثانى كانت المياه قد

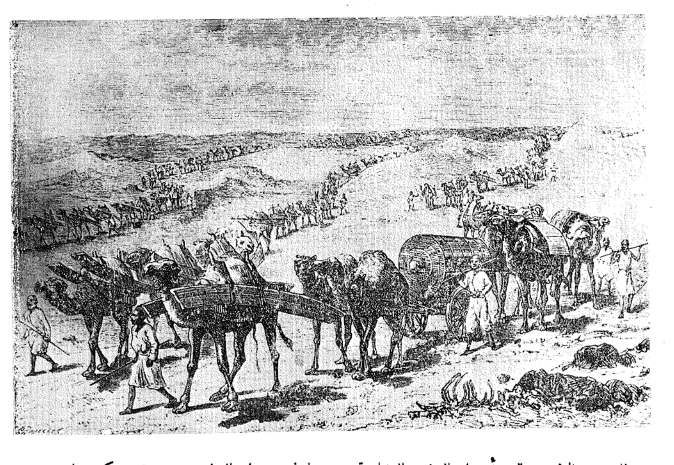
انخفضت فلم تتمكن من اجتياز الممر وأمسى مرورها غير متيسر إلا فى الفيضان القادم . وهكذا ذهب اثنا عشر شهراً هباء منثورا ووجد سير صمويل نفسه وهو لم يزل فى بادىء الأمر محروماً من هذه المعونة التى لا يمكن تقدير فائدتها .

ثم نشأ عن احتفالات فتح قناة السويس صعوبة أخرى جرت أيضاً الى تأخير لا مفر منه . ذلك أن الخديو بما هو معهود فيه من السخاء وكرم الضيافة قام باستعدادات هائلة من أجل هذه الاحتفالات وأمر بحجز كل مركب صالح للملاحة .

ووصل الى القاهرة قطار يجر ٤١ عربة بها أجزاء بواخر ومراجل وآلات وغير ذلك وأنزل مشحونه فى ١١ سفينة كبيرة بالأجرة فكان ذلك سببا فى أن سير صمويل بيكر لم يجد بعد مشقة عظيمة إلا باخرة قوتها ١٤٠ حصانا بخاريا لتجر هذا الأسطول الصغير الى « كروسكو » حيث يجب أن يشرع فى اختراق الصحراء . ولم يظفر سير صمويل بيكر بهذه الباخرة إلا بعد مخابرة الخديو نفسه .

وقد أتيح له فى نهاية الأمر أن يرى كلا من مستر هجنبوثام والطبيب جيدج مسافرين ومعهما المهندسون والسواقون الانكليز . وقطرت الباخرة « المنيا » سلسلة المراكب الطويلة هذه المكونة من ١١ سفينة وقاومت بقوتها عزم تيار النيل الشديد .

وكان لابد من حمل مجموعة الآلات الثقيلة هذه بما فيها باخرتان ومركبان من الحديد حمولة كل منهما ١٠ أطنان مسافة ٤٨٠٠ كيلو متر تقريبا منها نحو ٦٥٠ كيلو مترا فى صحراء النوبة المحرقة .



قطار من الابل ينقل أجزاء السفن البخارية وغيرها فى صحراء العطمور بين فروسكو وابى حمد
نقلا عن كتاب الاسماعيلية لسير صمويل بيكر

وقد سافر القسم الأول بأحماله الثقيلة فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٦٩ م مع المراكب الشراعية ليصل مباشرة الى الخرطوم بعد صعود الشلالات . ولم يتجاسر سير صمويل أن يرسل فى هذه الطريق المحفوفة بالمخاطر أية قطعة من قطع البواخر إذ أن ضياع أى مركب يكون محملا بقطع من أجزاء البواخر كان ممكناً أن تكون عاقبته فقد كل أمل فى نجاح الحملة .

وصول سير صمويل بيكر الى سواكن
واستقباله فيها

وتجمع ساق الجيش فى ٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩ فى السويس . ومن هذه المدينة أبحر سير صمويل بيكر مع ذلك الساق على ظهر المركب الحربى المصرى « سنار » وفى ظرف أربعة أيام ونصف يوم وصل الجميع إلى سواكن حيث ألقت المراكب مراسيها في أمان وسلام وأنزلت بدون حدوث أى عارض محمولها من الخيول البالغ عددها ٢١ رأساً .

وكان فى استقبال سير صمويل بيكر ممتاز بك محافظ سواكن وهو ضابط جركسى الأصل ذو ذكاء شديد انعقدت بينهما أواصر الصداقة بما أظهره له من العطف أثناء رحلته الأولى .

والتزم ساق الجيش أن يلبث في سواكن أسبوعاً تحت انتظار الجمال وبعد مسيرة ١٤ يوماً اجتاز الـ ٤٥٠ كيلو متراً فى أرض صحراوية ووصل إلى بربر التى على النيل حيث وجد باخرة وذهبية نقلتاه إلى الخرطوم فى بحر ٣ أيام ومقدار هذه المسافة ٣٢٠ كيلو متراً . ولم تستغرق هذه الرحلة ابتداء من السويس سوى ٣٢ يوماً بما فى ذلك مدة الوقوف عن السفر .

سنة ١٨٧٠ م

وصول الحملة إلى الخرطوم

وكان قد مضى ستة أشهر مذ أعطى سير صمويل بيكر الأوامر الخاصة بسفر السفن والمؤونة . ولشد ما كانت دهشته عندما علم أن تعليماته تركت نسياً منسياً وأنه وان كانت عساكره قد صارت على قدم الاستعداد للسفر غير انه لا توجد سفينة واحدة مجهزة لنقلها . وقال له جعفر مظهر باشا الحكمدار العام انه استحال عليه جمع السفن المطلوبة ولذلك اشترى له بيتاً لاعتقاده أنه سيظل في الخرطوم هذا العام فلا يسافر إلا في الفصل الثانى .

ولم يجتز أى مركب بخارى من تلك المراكب التى أبحرت من مصر ، الشلالات . وعدلت الخمسة عشر مركباً الكبيرة التى كان قد عول على ان يشحن فيها الجمال عن محاولة صعود الشلالات ورجعت إلى القاهرة . أما المراكب الصغيرة فهى التى اجتازتها ولا ينتظر أن تصل إلى الخرطوم قبل عدة شهور .

ووصل إلى الخرطوم القسم الأول الذى كان معه كل المهمات التى سبق أن أرسلها من القاهرة والذى كان سير صمويل فوض قيادته إلى شخص سورى .

وعلم سير صمويل بيكر أن مستر هجنبوثام وبصحبته الطبيب جيدج وجماعة الانجليز وكل العمال المصريين سلكوا طريق الصحراء ومعهم البواخر والآلات محملة على ظهور نحو ألف جمل ، وأن القسم الثالث بقيادة مستر

ماركوبولو وصل إلى سواكن بعد قيام ساق الجيش ببضعة أيام ، أى ان كافة الأوامر التي اصدرها سير صموئيل بيكر إلى ضباطه تم تنفيذها في الوقت المناسب .

وأخيراً بعد إلحاح كثير وضياع زمن طويل شرع الحكمدار جعفر مظهر باشا فى العمل غير أنه اشترى سفناً عتيقة ودفع فيها ثمن مراكب جديدة ولم يفحصها مندوب الحكومة إلا فحصا سطحيا عند التسليم .

تأهبها للسفر

وتم تجهيز الحملة بعد صعوبات كبرى لأن قلوع المراكب نادرة الوجود وحبالها المصنوعة من الكتان تكاد تكون معدومة فى الخرطوم إذ جرت العادة ألا يصنع فى هذه المدينة إلا حبال رديئة يفتلونها من ألياف النخل وكان يطلب فى كل شيء ثمن فادح .

وكان سير صمويل بيكر يحرض ويحض العمال من مطلع الشمس إلى غروبها على العمل . وقد عاونه فى ذلك معاونة جدية الملازم ج . ا . بيكر J. A. Baker من البحرية الملكية بفضل خبرته التي كان قد اكتسبها من ممارسة مهنته . ودب روح جديد من النشاط فى الخرطوم وأخذت مئات من العمال تشتغل واصطف أمام دار الحكومة عدة صفوف من الصوارى والأشرعة .

وفى بضعة أسابيع أعدت ٣٣ سفينة حمولة كل منها تتراوح بين ٥٠ و ٦٠ طناً وتم جلفطتها وترميمها واستعدت لقطع المسافة التى بين الخرطوم وغندوكورو البالغة ٢٣٠٠ كيلو متر .

وتأهبت هذه العمارة للسفر بعد بذل مشاق هائلة فى سبيل استئجار النواتية إذ أن جميع الملاحين تقريباً كانوا قد هاجروا من الخرطوم حتى لا يشتركوا فى الحملة وكان ذلك بايعاز من النخاسين الذين عملوا على أن يضعوا العقبات فى سبيل الحملة فدفعوا الأهالى لأن يقطعوا كل صلة معها إذ قام فى رؤوسهم أنها لا تستطيع السفر بدون الملاحين . وتم الحصول على النواتية اللازمين بواسطة القوة وباستعمال طرق عنيفة غير أن هؤلاء كانوا من أردأ العناصر .

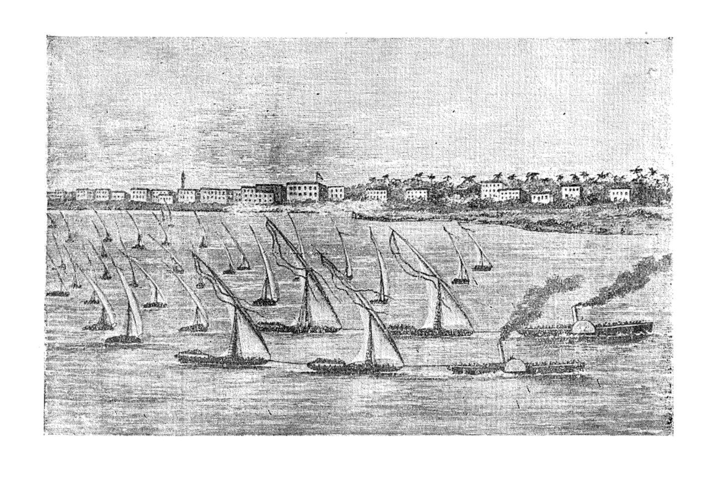
قيامها من الخرطوم

ونفخ فى البوق فى ٨ فبراير من سنة ١٨٧٠ م إيذاناً بالرحيل . واصطف على ضفة النهر أورطتان من الجنود ودوت أصوات المدافع فى الفضاء كالمعتاد تحية للمسافرين .

واتخذ الأسطول المؤلف من باخرتين إحداهما قوة ٣٤ حصانا بخاريا والأخرى قوة ٣٢ حصانا بخاريا سبيله فى اليم ومعه ٣١ مركبا شراعيا تحمل نحو ٨٠٠ جندى . وسار الجميع بنظام لا بأس به وما لبث تيار النيل الأزرق الشديد أن دفع بذلك الأسطول بعيداً عن الخرطوم وبعد أن دار حول ملتقى النيلين الأزرق والأبيض سار فى هذا الأخير صعداً .

وصولها إلى فاشوده

وبعد مسيرة ١٠٣ ساعات وصل الأسطول إلى فاشوده وهي محطة الحكومة فى بلاد « الشلك » Shillouks وتقع على بعد ألف كيلو متر تقريباً من الخرطوم فى الدرجة ٩ والدقيقة ٥٢ من العرض الشمالى .



الحملة وهي تغادر الخرطوم فى ٨ فبراير سنة ١٨٧٠

وكان سير صمويل بيكر قد أخـــذ مؤونة شهر على متن الفلك وأتت الرياح حسبا تشتهى السفن فوصل الأسطول إلى ملتقى النيل بنهر سوباط فى ١٦ فبراير فى منتصف الساعة الواحدة ليلا . وبعد أن بارح هذا الملتقى وصل الى ملتقاه ببحر الزراف بعد أن قطع مسافة ١٤٢ كيلو متراً فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١٧ فـــبراير المذكور وظل هناك فى انتظار وصول باقى المراكب .

ســـفرها الى الدبـــة
وما لاقتــــه فى ذلك من الصعاب

وفى ١٨ منه انضم مؤخر الأسطول اليه فى الساعة العاشرة صباحاً وأقلعت البواخر فى الساعة ١١ والدقيقة ٤٠ وأخذت تقاوم التيــــار بشدة وكان سحب المراكب متعسراً في النهر لظهور المنحنيات فيه فجأة أمام عين المسافر .

وكان بحر الزراف يسير بعرض من ٦٠ الى ٧٠ مـــتراً بين ضفاف عالية يابسة يبلغ متوسط عمق المـــاء عندها من ٣ الى ٤ أمتار مجتازاً أرضاً تامة الاستواء ينتشر فى أنحائها مجموعة من الغابات الجافة فى تلك الآونة يدل منظرها على أن مياه النيل كانت تغمرها فى فصل الأمطار . وينساب تيار هـذا البحر بين أعشاب هذه الغابات المشتبكة الملتفـة فيتفرع الى عدة ترع تكون الملاحـة فيها غاية فى الصعوبة .

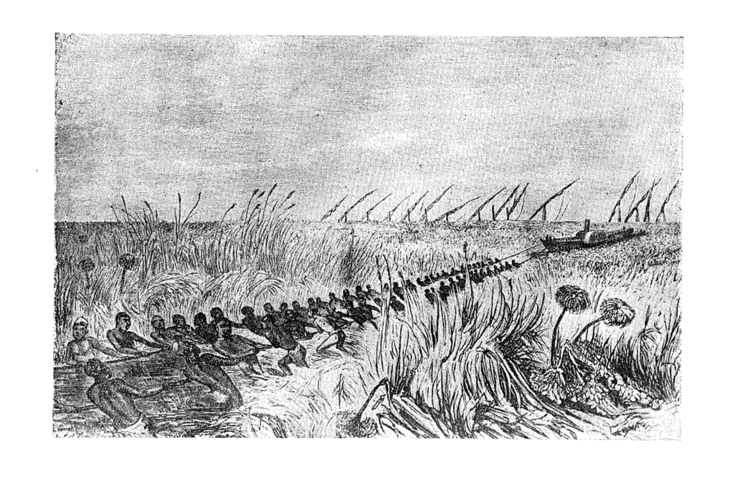
وفى هـذا الوقت من السنة (٢٣ فبراير) تفيض الميـــاه على حـــافتى النهر فكانت القرى المبعـــثرة فى النواحى القصية مغمورة بالمياه وتكبدت الحملة

العنـــاء الجم فى سيرها إذ كان عليها أن تشق لها طريقا فى وسط الأعشاب السابحة التى هى أشبه شيء بقصب السكر والتى يبلغ ارتفاعها من ٦ الى ١٠ أمتار وتمتد منها فروع يشتبك بعضها ببعض اشتباكا لا انفكاك له .

وهـــذه السدود كانت تعترض الأسطول تقريباً فى كل خطوة واذا سكنت الرياح وحرمتـــه قوة الاندفاع التى كانت تهبها له عند هبوبهـــا لا يستطيع أن يخترق له طريقاً إلا بجهود تكاد تفوق قدرة البشر .

وأخيراً هبت من الشمال فى ٥ مارس ريح طيبة نفخت أوداج الأشرعة فأخذت السفن تسير سيراً حسناً ثم بعد أن سكنت هـذه الريح برهة قصيرة عادت فنشطت وجعلت مواصلة السير ممكنة وصعدت الحملة النهر بعد أن قاست صعوبات هائلة . وعندما وصلت الى الارض الجافة التي يقال لها « الدبة » وجـــدت هناك البـــاخرة رقم ٨ وجميع الأسطول وبذا صار لدى سير صمويل ٣٤ سفينة بما فى ذلك الباخرتان .

وهنا قامت الصعوبات الحقة لأن هذه المنطقـــة هي منطقة السدود وسائر نواحيها عبارة عن مستنقعات تغطيها نباتات مائيـة مرتفعة جداً والماء تحتها بعيد العمق . وبعد أن حاول سير صمويل بيكر على غير جـــدوى أن يفتح له طريقا ، وبعد جهود شتى بذلت للوصول الى هذه الغاية انقضى فيها شهر ، اقتنع أن دون مروره خرط القتاد ، فقرر العودة حالا الى بلاد الشلوك ، وأن يقيم بها محطة مع أن ذلك سيرغمه على ضياع عدة شهور فى انتظار الفيضان القادم . وكان يعلل نفسه بأن يشغل رجاله فى مدة فصل الأمطار بزراعة الغلال بينما يقوم هو بعمل استكشافات على ظهر باخرة فى النيل الأبيض لعله يهتدى الى ترعة صالحة للملاحة .



سحب وابورات الحملة فى منطقة السدود

وخنع على كره منه وفى قلبه حسرة ورضى أن يعمل على تنفيذ هذه الفكرة . وفى الساعة الثالثة مساء وصل مع رفاقه الى الأسطول واستدعى جميع الضباط وبحضور رؤوف بك بين لهم الموقف وفى الحال غيرت السفن اتجاهها . وفرح الكل من ضباط وجنود وابتهجوا لهذا الرجوع الذى كان حسبما قام بأفكارهم لا بد أن يكون مآله الرجوع الى الخرطوم وانفضاض الحملة .

وانسحبت مراكب الأسطول جميعها فى ٣ أبريل وساعدتها الرياح والتيار معاً فى ذلك الانسحاب ووصلت الحملة الى بحر الزراف فى ٩ أبريل حيث حصل الشروع فى حفر الخنادق وهو عمل شاق استغرق يوما كاملا .

وفى ١٠ أبريل نزلت النهر الذى سارت فيه أولا الى ان وصلت إلى « الدبة » أو الأرض الجافة حيث كشفت عن آثار النخاسين وأخيراً وصلت فى ١٣ أبريل الى محطة « لجك على » .

وفى ١٦ من الشهر المذكور وصل من الخرطوم اربعة مراكب وانضمت الى الحملة وكان على ظهرها بلوك امداد وجوابات من جعفر مظهر باشا ومن مستر هجنبوثام . وفى ١٩ منه وصلت الحملة الى النيل الأبيض .

وفى ٢٠ منه سافرت فى الساعة الخامسة صباحاً وكانت الذهبية حسب العادة يجرها مركب بخارى . وفى الساعة ٦ والدقيقة ٣٥ ألقت مراسيها على طول الضفة المقابلة للضفة المقام عليها مضرب محافظ فاشوده .

وفى ٢١ منه فى الساعة ٩ والدقيقة ٣٠ صباحاً شوهد ١٢ مركباً آتية من الخرطوم منشورة الأشرعة تدفعها رياح شديدة تهب من الشمال الشرقى

وشمل سير صمويل الفرح عندما رأى أن هذه المراكب تحمل مستر هجنبوثام والطبيب جيدج والمهندسين الستة الانكليز وغيرهم وجميعهم في غاية من الصحة .

انشاء محطة التوفيقية

وفى ٢٣ أبريل سار سير صمويل بيكر ومعه باخرتان وذهبيتان بقصد البحث عن موضع صالح لاقامة مستديمة فوصل الى ملتقى نهر سوباط بعد مسيرة ٤٠ كيلومتراً قطعها فى ظرف ٣ ساعات وربع . ثم استمر في طريقه مسافة ٤٥ دقيقة أيضاً فانتهى هو ومن معه الى غابة واقعة فى الشرق على مرتفع من الشاطىء . وفى هذا المكان صمم على أن يقيم تلك المحطة اذ أن أرضه ثابتة ومرتفعة فلا تعلوها مياه الفيضان فضلا عن أن هذه الغابة ستكون ينبوعاً لا ينضب يستورد منه ما يلزم من الأخشاب للبناء وللوقود .

وفى ٢٦ من الشهر المذكور دخل الأسطول برمته تجره سفينة بخارية وألقى مراسيه تجاه المحطة المزمع بناؤها . ومن أول مايو تكون المعسكر وذلك بعد أن نزعت الشجيرات النابتة فى أسفل جذوع الأشجار أما الأشجار الممتدة على حافة النهر فكان لكل منها مالك ولذا لم يشأ سير صمويل نزعها .

وسمى سير صمويل بيكر المحطة الجديدة « التوفيقية » وهو اسم مأخوذ من اسم ولى العهد توفيق باشا . وفى زمن يسير نالت هذه المحطة أهمية كبرى وتم تجفيفها بحفر عدة مصارف عميقة في اتجاهات شتى . وأنجز تشييد المحطة في زمن قصير جداً . وأقيمت ثلاثة مخازن من الصاج الأبيض بسرعة مدهشة حتى كأنها بنيت بقوة السحر . وكان طول كل منها ٢٥ متراً . ونقل

اليها مسيو ماركوبولو في برهة وجيزة المقادير الهائلة من المؤن والذخيرة التى كانت في السفن .

وقد أضحت بذلك محطة « التوفيقية » بهجة للناظرين غير أن الجراثيم المستنشقة من جو المستنقعات الفاسد ما لبثت أن نشرت بين ربوعها مرض الدوسنطاريا وسرعان ما أنشأت مقبرة للتوفيقية .

وكان سير صمويل بيكر قد نوى من مدة مديدة أن يقوم باستكشافات ابتغاء الحصول على ممر بين الأعشاب النابتة في النيل فاختار رجلا اسمه عبد الله من قبيلة الشلك ليرافقه في هذه الرحلة ويستحضر له ما يلزمه من الأدلاء .

وسافر لهذه الغاية في ١١ أغسطس سنة ١٨٧٠ م وكانت مياه النهر تفيض على جوانبه ثم عاد مع رفاقه الى التوفيقية في ٢١ أغسطس بعد أن غاب ١٠ أيام قضاها في كد وعناء في استكشاف غدران بحر الغزال الوخمة المؤذية للصحة بدون جدوى .

عودة سير صمويل الى الخرطوم

وعاد سير صمويل في هذه الأثناء الى الخرطوم ليتأكد بنفسه مما اذا كانت أوامره تنفذ في أوقاتها أو يعتورها التسويف وكان قد قرر سفر الحملة من التوفيقية الى الجنوب في أول ديسمبر لأن هذا الوقت يكون النيل فيه في أعلى الفيضان وفيه تهب ريح الشمال فتساعد سير المراكب .

ولما كانت التوفيقية واقعة في منتصف الطريق بين الخرطوم وغندوكورو طمح أن يجد الوقت الكافي لاجتياز المستنقعات والمنخفضات قبل انخفاض مياه

النهر . وكان قد أرسل مستر هجنبوثام الى الخرطوم ليكترى سفناً . ثم سافر عقبه في ١٥ سبتمبر وكان معه باخرة تقطر ذهبية وعشرة مراكب فارغة أعدت لجلب مؤونة من الغلال فوصل الى الخرطوم فى ٢١ سبتمبر ولشد ما كانت دهشة الحكمدار والأهالى معاً عند رؤيته فأخذ الجميع يتراشقون بالظنون بشأن أوبة الحملة .

وقوبل سير صمويل بيكر احسن مقابلة من صديقه القديم جعفر مظهر باشا غير انه وجد ان جميع الأعمال متأخرة حسب العادة فلم يستعد من الثلاثين سفينة التي كان موعوداً بها للحملة سوى سبعة مراكب . ولم تصل حتى ذلك الوقت البواخر من مصر وكذلك الخمسة عشر مركباً الكبيرة ظلت عند الشلالات ولم تستطع اجتيازها . فوجد نفسه مضطراً أن يقنع بمراكب الخرطوم التى ليس لها سطح وهى من أردأ أنواع المراكب فضلا عن أنه لا يوجد منها العدد الكافى . إلا أنه لحسن الحظ كان لديه السفن العشر التى استحضرها معه من التوفيقية فارغة فبدونها كان يستحيل عليه أن يشحن أى شيء حتى ولا مؤونة الغلال . ومع كل فان حضوره الى الخرطوم نتج عنه بعض السرعة فى تجهيز المعدات .

عودته الى التوفيقية

وبعد أن أخذ سير صمويل أهبته ورتب اعماله على احسن الاحوال التى تقتضيها مصلحته ابحر من الخرطوم فى ١٠ اكتوبر سنة ١٨٧٠ الى التوفيقية وحضر جعفر مظهر باشا وكبار موظفيه الى المرفأ لتوديعه وعزفت الموسيقا

واطلقت المدافع ثم تحرك الأسطول للرحيـــل . وفى ٢٢ اكتوبر وصل الى التوفيقية والفيضان بالغ اقصاه فكان يزيد ارتفاع النهر على زمن التحاريق ٤ امتار .

وكان الوقت لا يسمح له بضياع لحظة منه اذ انه قرر ان يسافر فى اول قسم من الأسطول فى اول ديسمبر الى غندوكورو .

وفى ٢٣ نوفمبر دارت الريح وعصفت من الشمال بشدة وكانت الاستعدادات اوشكت ان تتم وكانت كل سفينة قد رممت من اساسها الى رأسها إلا ان الكثير منها كان قد اصابها العطب ووجدت اخشابها متعفنة حتى انه ليلوح انها لا تقدر على الأسفار الطويلة رغماً عن جلفطتها . والذهبية الحديدية استبدلت ألواحها التي اكلها الصدأ بألواح اخرى جديدة بعد أن سحبت الى البر .

سفر الأسطول من التوفيقية

وسافر القسم الاول من الأسطول وكان مؤلفاً من ثمانى سفن فى اول ديسمبر وكل ثلاثة أو اربعة ايام كان يقوم على الأثر قسم آخر منه وذلك حسب الترتيبات التي كان سير صمويل بيكر قد قررها من قبل .

واخيراً فى ١١ ديسمبر سافر هو على ذهبيته مع ساق الأسطول المكونة من ٢٦ سفينة .

وبلغ الفيضان فى هذا الوقت ارتفاعاً خارقاً للعادة وهذه مصادفة حسنة إذ ان نجاح الحملة يتوقف على عبور هذه المنطقة قبل انخفاض المياه . هذا اذا اريد ان تكون الحملة فى هذه الآونة اسعد حظاً مما كانت فى شهر ابريل من السنة الماضية .

وبعد سفر سير صمويل بيكر بزمن يسير علم بحدوث حادث مكدر ذلك أن سفينة من سفن ساق الأسطول كانت تحمل أجزاء الباخرة التى طولها ٥٠ قدماً قد غرقت قرب مصب نهر سوباط فكان لا بد من الرجوع على عقبيه نحو ٢٠٠ كيلو متر .

وقد عاد فعلا ووصل الى محل الحادثة فى ١٨ ديسمبر ثم أرسل فى طلب ٢٥٠ رجلا من الشلك وبمجهودات هؤلاء ومجهودات الجند أمكن تعويم السفينة فاتخذت طريقها ثانية فى البحر فى ٣١ ديسمبر .

سنة ١٨٧١ م
وصول الأسطول الى غوندوكورو

وبعد سفر دام ٢٦ يوماً وصل الأسطول فى ٧ يناير سنة ١٨٧١ م الى الغابة الواقعة جنوب محطة « كجك على ». وصادفت الحملة عند ملتقى بحر الزراف عقبة كأداء يكاد يكون تذليلها فوق طاقة البشر . ذلك أن الطريق الذى قطعته فى السنة الماضية عاد فانسد واحتاج الأمر الى حفر خنادق وجر المراكب وتفريغها وإعادة شحنها مراراً وتكراراً .

واستمر هذا العمل من ١١ فبراير الى ٢٠ مارس وهو تاريخ دخول الأسطول الى المياه الطلقة فى النيل الأبيض بعد أن مات خلق كثير . أما الأمراض فلم يسلم منها إنسان . وفى النهاية دخل الأسطول جميعه إلى المياه الطلقة فى هذا التاريخ الأخير . وبعد استراحة بضعة أيام عاد الأسطول واتخذ سبيله الى غوندوكورو فوصل اليها فى ١٥ ابريل .

إخضاع الحملة لقبائل هذه الجهة
وما جرى فى ذلك من الحوادث

وقد أرسل سير صمويل بيكر فى طلب رئيس قبيلة البارين Baris المدعو اللورون Alloron فحضر فى الحال ومعه بعض أهالى تلك الجهات . وقال هذا الرئيس لسير صمويل ان قبيلة لوكوياس Loquias أغارت على هذه المنطقة ونهبتها وحرضها على ذلك التجار . فوعده بأن يمد له يد المعونة إذا هو تعهد بأن يرجع مع شعبه الى منطقته ويعترف بتبعيته

للحكومة الخديوية ويزرع حبوبا ويشيد مساكن للجيش . ووعد اللورون باجابة كل هذه المطالب . وبناء على اقتراح سير صمويل استدعى بعض رجال قبيلته وكبار رؤسائها لعقد مجتمع عام بعد وقت قصير .

وفى ١٦ أبريل حضر اللورون ومعه عدد من رجاله وافتتح كلامه بطلب عرقى وكنياك ثم صرح أنه فى حالة عداء مع القبائل المجاورة له ولذلك لم يستطع أن يجازف ويبحث عن خيزران أو غيره من الادوات اللازمة لبناء المعسكر للآن . فأجابه سير صمويل بأنه اذا لم ينفذ أوامره فسيكون مضطرا لأن ينزل عساكره فى قراه وبذا يكون هو وقبيلته عرضة للأمطار .

وكانت ملامح اللورون ورجاله تنم عن أخلاق غاية فى الشراسة . وكان سير صمويل بيكر يعرف الباريين حق المعرفة ويعرف أنهم يفوقون من عداهم من سكان حوض النيل توحشا وهمجية ولكنه ما كان ينتظر أن يلاقى منهم مقابلة سيئة الى هذه الدرجة .

ولم يعتقد الملك اللورون صحة التفصيلات التى أبداها سير صمويل بيكر بشأن الغرض من الحملة وأبدى لرجاله الذين معه بعض ملاحظات وهو يبتسم ابتسامات استهتار . فمع إدراكه أن النخاسة ألغيت إلغاء تاما فى نفس قبيلته لم يسلم بتطبيق هذا المبدأ تطبيقاً عاما فسأل : وماذا يكون مصير تجار العبيد ؟

أما الايضاحات الشافية التى أبداها البكباشى عبد القادر افندى رداً على سؤاله السابق فقد قوبلت من ذلك الملك بضحكة عالية وحشية .

وكان رجال أبى السعود العقاد ابن عم السيد حسن موسى العقاد ووكيل

شركة العقاد التي كانت استأجرت المركز من الحكومة تحت ستار المتاجرة في العاج ظاهراً والنخاسة باطناً عندما اخبروا اللورون بوصول الحملة حذروه منها وأفهموه أنها إذا لاقت صعوبات كبيرة ترتد على أعقابها الى الخرطوم . وكان مازال قائماً بفكر اللورون أن كثيراً من الاوربيين زاروا غندوكورو كما نزورها الآن سير صمويل ورجع الكل ولم يبق منهم واحد . فكان إذن من الطبيعي أن رجلا همجيا كهذا اتحدت رجاله بآخرين يشتغلون بالنخاسة لغزو البلاد البعيدة ونهبها ينفر من حكومة جديدة وطدت العزم على بث روح النظام واحترام الشرائع والقوانين . وكانت قبيلة اللورون قد اشتركت مع النخاسين من عدة سنين ، ومن وقت ما استأجر الناحية برمتها شخص واحد ، أي أبو السعود ، صار هذا الملك وكيلا له . ولم يلبث سير صمويل أن أدرك الحقيقة وعرف أن عدداً كبيراً من رعايا اللورون في داخلية البلاد وأنهم مأجورون لأبي السعود .

والباريون قوم جبلوا على الحرب والكفاح وهم من خيرة الجند وبذلك كانوا يؤدون لصيادي العبيد بمعونتهم خدمة جلى لاسيما أن غندوكورو نظراً لحسن موقعها هي النقطة الوحيدة الصالحة لاقامة محطة هامة . والتجار الذين احتكروا تجارة العاج أصبحوا بحكم الطبيعة حلفاء اللورون .

وكان المحتكرون قد سلحوا مئات من الرجال بالبنادق تسليحاً تاما بكيفية صيرت قبيلة اللورون وشركة أبي السعود جيشاً من قطاع الطرق منتشراً بين مختلفي المحطات التي في حوزتهم في أنحاء الاقليم . وبلغ مجموع ذلك الجيش ١٨٠٠ رجل وأقامت الشركة مخزنا لها في غندوكورو .

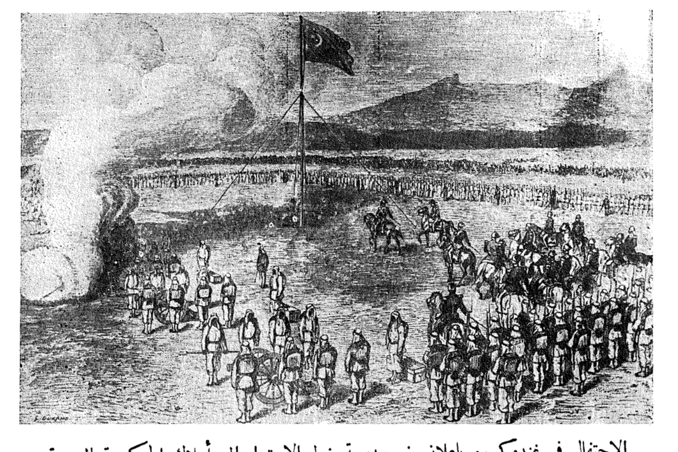
وحدثت مفاوضة جدية بين اللورون وسير صمويل فطلب هذا

من الأول بطريقة حاسمة مواشى لجيشه ووعده بأن يدفع له فيها ثمنا عاليا . ورأى سير صموئيل بجلاء أن السياسة السيئة التى ينحوها الوطنيون تنحصر فى تجويع الجيش حتى تضطر الحملة الى الرجوع الى الخرطوم ، وعلى ذلك أفهم اللورون الخطر الذى ينجم عن اللعب مع أسد جائع فكشر اللورون عن نابه بابتسامة وقال : أتريد ماشية ؟ هذا شىء حسن . سأعطيك أدلاء وعليك أن تذهب فتغير على واحد من جيرانى وتستولى على قطعانه فتغنيك زمنا طويلا .

فأجاب سير صموئيل بأنه لا يريد أن يلحق بأى انسان أذى إذا كان هذا الانسان لم يلحق به ضررا . وبما أنه هو أى اللورون يأبى مساعدته فلا يقبل أن تدخل قطعانه فى مراعيه ، بل عليه بناء على ما تقدم أن يرعها من الآن فصاعداً فى جزر النهر المنخفضة .

ودعا سير صموئيل بعد ذلك اللورون وجميع مشايخ البلد وشيخ قرية بلنيان Bëlinian الى وليمة كبرى كان يريد من اقامتها أن يعلن ضم هذه الناحية رسمياً الى مصر . وفى ٢٦ مايو سنة ١٨٧١ كانت قد أعدت جميع لوازم الحفلة ونصب اللازم بيكر فوق مرتفع مشرف على النهر سارية يبلغ ارتفاعها ٢٥ مترا . وفى الساعة السادسة صباحا سارت الجنود الى غندوكورو وكانوا قبيل ذلك قد منحوا يومين للراحة وليغسلوا فى غضونها ثيابهم ويصقلوا اسلحتهم .

وكان لدى سير صموئيل بيكر ١٢٠٠ جندى و ١٠ مدافع جبلية محلزنة زنة مقذوفة الواحد منها ثمانية أرطال وربع . وكانت هيئة الجنود وهم متشحون ببذلهم البيضاء وفوق رؤوسهم كوفياتهم المنسدلة على أكتافهم



الاحتفال فى غندوكورو باعلان ضم مديرية خط الاستواء الى أملاك الحكومة المصرية
بصفة رسمية يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٧١ م .

حسنة جداً . وعند ما ساروا والموسيقا تصدح أمامهم من المحطة الى أن وصلوا الى السارية المذكورة . ثم لما لاحوا من خلال الأشجار الخضراء وانتظموا على شكل بلوكات بميدان المناورات ، أخذت مشايخ القرى العديدة ترمقهم بأبصارهم دهشة منذهلة من هذا المنظر العجيب الذى لم يسبق أن تقع أعينهم على مثيله .

اصطف الجيش صفين عندما وصل أمام هذه السارية فى النجد المطل على المحطة واسترعى صف الحراب اللامعة المتلألئة وكساوى الضباط الحسنة اللطيفة نظر الاهالى ، ولبس البحارة والخدم والمنوطون بصيانة ونظافة المعسكر أنخر ثيابهم . وبرز اللونان الأبيض والأحمر فى المؤخر بين الأشجار وعلى النجد الأخضر بشكل يبهر الأنظار ويأخذ بالألباب .

وكان أركان حرب سير صمويل مؤلفا من الملازم بيكر والبكباشى عبد القادر افندى وثلاثة ضباط آخرين غير مستر هجنبوثام . وبعد أن دار سير صمويل بيكر حول الصف وقف تحت السارية وشكلت الجيوش مربعاً احتلت البيادة ثلاثة أضلاع منه وكونت الطوبجية مع مدافعها الستة الضلع الرابع وهي متجهة نحو النهر .

وتمت قراءة اعلان ضم الناحية الى مصر رسميا باسم الخديو تحت تلك السارية وعند تلاوة الكلمة الأخيرة من آخر جملة رفع العلم المصرى بسرعة وأخذ يخفق على رأس السارية تتلاعب به نسمات عالية فخفض الضباط سيوفهم ورفعت الجنود أسلحتها للسلام وأطلقت البطاريات مدافع التحية الملكية .

وبعد أن انتهت الحفلة سار الجند بنظام ثم اصطفوا متهيئين للقتال كأنهم

يبغون قتال عدو وهمي واطلقوا ما يقرب من عشرة آلاف طلقة وهم نازلون الى السفح القليل الانحدار الموصل الى المعسكر الموقت والمضارب التى نصبت للوليمة . وعندما وصلوا اليها نفخ فى البوق فقضت الجنود صفوفها وتفرقت وأخذت فى الحال تهيء الطعام لأكلها . وفى الغد أعلن الأمر الآتى :

أولا — ممنوع قطع أو إتلاف أشجار الأثل أو الاشجار التى يستخرج منها الزيوت مهما كان الداعى . وممنوع أيضاً إبادة أو اتلاف أية شجرة من أى نوع كانت وذلك فى دائرة قدرها ٢٠٠٠ خطوة حول المعسكر .

ثانياً — ممنوع الابتعاد عن المعسكر أكثر من ٢٠٠٠ خطوة إلا إذا كان ذلك بأمر من الباشا أو من رءوف بك .

ثالثاً — تجارة العاج ممنوعة وممنوع أيضاً قبول هذا الصنف بصفة هدية أو مبادلة بشيء آخر . وممنوع كذلك قتل الأفيال أو السماح بقتلها إذ أن جميع العاج هو ملك للخديو وتجارته محتكرة لسموه .

رابعاً — ممنوع شراء الرقيق أو قبوله بصفة هدية .

وكل من يخالف هذا القانون يعاقب بالعقوبة التى يقررها بيكر باشا .

(س . و . بيكر)

* * *

ولولا صدور هذا القانون لكان الرجال الذين يشتغلون فى المخازن وفى بناء المحطة قد قطعوا جميع الأشجار المجاورة للمعسكر .

ولما رأى سير صموئيل بيكر أن الباريين لم يخضعوا ولم يوردوا الادوات اللازمة لتشييد المحطة ولا الأنعام المطلوبة لغذاء الجيش أمر بحجز جانب من سائمتهم وأودعها المعسكر . وعلى أثر ذلك حضر وفد مؤلف من مشايخهم لزيارة سير صموئيل ليرجوه أن يفك عقالها .

فأجابهم أنه يجب عليهم تقديم الطاعة للحكومة . وبما أنهم لم ينفذوا أى أمر من أوامره فسيحتفظ بماشيتهم وهى تقرب من ٢٠٠ رأس الى أن يخضعوا لسلطة الحكومة الخديوية وأنه مستعد أن يردها لهم إذا هم احضروا قشا وأمدوا الجيش بمعونتهم في بناء المحطة العمل الذى كانوا يقومون بتأديته سنويا لرجال أبى السعود .

وقامت على أثر ذلك مجادلة بين المشايخ فصرح سير صموئيل بيكر بأن عدداً كبيراً من الشيوخ الباريين لايدين بالطاعة الى اللورون فصار من اللازم انتخاب شيخ مسئول وان الشيخ الذى ينتخب فى هذا المجلس يعتمده هو نائباً عن الامة جميعها وتعطى له السيطرة . فقبل الجميع ذلك وانتخب باجماع الآراء شخص يقال له مربيه Morbé ليكون شيخا مسئولا . وقد قبلته كل المشايخ بدون استثناء وصرحت بأنها ستطيع أوامره .

ووجه بعد ذلك الشيخ الجديد الكلام الى سير صموئيل بيكر فقال : بالنيابة عن جميع المشايخ أرجوكم توطيدا لدعائم الثقة وحسن الارادة أن تطلقوا سبيل الماشية التى حجزتموها .

وكان سير صموئيل بيكر منتظراً أن يباغت بهذا الطلب فأجابه أنه سيجرب إخلاصهم برد ماشيتهم . وفعلا أمر بذلك فى الحال . وأحضر

الباريون بعض حـــزم من الخيزران وبعض القش ولكنهم لم يقدمـــوا حتى ولا بقرة واحـدة الى الجيش بل اكتفوا بأن حصلوا على انعامهم وصرفوا النظر عن وعودهم وصرفوا أذهانهم حسب عادتهم فيما سلف لتجويع الحملة مؤملين زيادة استيائها ووقوعها فى الفشل وذلك أمر لايطاق الصبر عليه طويلا .

وفى ذات ليلة أحاط الجنـــود بقطيع بناء على أمر سير صمويل بيكر وساقوه الى مكان المعسكر بدون أن يحس بهم أحـــد . فتجدد الحادث الأول وذلك بأن حضر الشيخ الجديد مربيه وبمعيته اللورون وعدد كبير من المشايخ وطال الأخـذ والرد فى الكلام بواسطة الترجمان تومبى Tomby . وتكررت الوعـود بالطاعة والخضوع فقال لهم سير صمويل : أنا لا أحجز أنعامكم إلا لأحتفظ بها ضمانا لسلوككم فى المستقبل وسأختار منهـــا لجيشى عدداً من الابقار وادفع لكم ثمنها . فانفض الجمع وهم يؤكدون إخلاصهم ومحبتهم ومضت بضعة ايام لم يعد الباريون فى خلالها .

وفى ٢٩ يونيه ليـــلا قامت ضجة فى المعسكر . ذلك ان الأهالى حاولوا أن يسلبوا بعض المواشى فأطلق الحارس بعض طلقات إلا انها لم تصب احـداً من اللصوص . ولما كان من المنتظر حدوث مناوشات اعلن سير صمويل الأمر الآتى :

بمـــا ان الباريين شقوا عصا الطاعة وعصوا أمر الحكومة ولم يخضعـوا للقوانين المعمول بها فصار من اللازم استعمال القســوة . ففى حالة حدوث قتال احظر عليكم حظرا باتا أن تأسروا النساء والأولاد سواء كانوا ذكورا أم إناثا. وكل من يخالف ذلك من الضباط والجنود يحكم عليه بالاعدام .

س. و. بيكر

ولما كان معتقدا أن الحرب لابد أن يشب أوارها عاجلا اتخذ عدته لذلك . ففى ليلة ٤ يونيه ألقت الحراس القبض على اثنين من الوطنيين انسلا الى حظيرة الماشية تحت جنح الظلام واعترف واحد منهما أن ثلة من الأهالى كانت مجتمعة في الاعشاب العالية قرب مجرى النهر وقصدها مهاجمة الحظيرة في الليل وأطلقت بعض طلقات نارية .

وعلى ذلك قرر سير صمويل نهائياً القيام بمقابلة الشر بالشر . ففى ٥ يونيه ذهب ستون جنديا على خمس سفن ونزلوا فى طرف الجزيرة من الجهة الشرقية ونزل بلوكان على الضفة المواجهة للمحطة ويمم هو الجهة الغربية ومعه بلوكان آخران على ظهر باخرتين .

وأعلنت هذه التعبئة فى الأوامر ودوى صوت الطبل الكبير فى كل الأنحاء ولم تقابل هذه الجيوش بادىء بدء احداً من الاعداء ، ولاحت الجزيرة أشبه شيء بالصحراء لكن لم يركن سير صمويل الى الظواهر فأمر مقدمته بأن يسيروا عدوا الى الامام . وفى هذا الحين سمعت طلقات البنادق تدوى فى طرف الجزيرة فاندفع الجيش عدوا ووصل تماما فى الوقت اللازم ، ورأى الوطنيين قد بلغوا بماشيتهم شاطىء النهر الشرقي فاجتازت الجنود النيل بسفنهم بسرعة واقتفوا أثر الهاربين .

ولم يكن الباريون ينتظرون أن تطاردهم العساكر فى منطقتهم فاستمروا يسيرون الهوينا آمنين مطمئنين بعد أن دخلوا الغابة ولما كانت عساكر الحملة السود بارعين فى العدو خفوا خلفهم حتى لحقوهم وأثخنوهم وعادوا ومعهم جانب كبير من الماشية . وقد رجع الجيش الى معسكره في الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر بعد أن ظل على قدمه أربع عشرة ساعة تحت وهج

الشمس المحرق .

وفى ٧ يونيه اقترب لجأة باريو « غنـدوكورو » المتحالفون مع أهل بلنيان Bélinian ضد الحملة زاحفين خلف الأشجار والأدغال كما هي عادتهم وانقضوا على حراس المواشي وقتلوا جنديا بسهم وجرحوا آخر بضربة حربة فأمر سير صمويل بيكر فى الحال بمهاجمة قبيلة بلنيان في نفس هذا اليوم . وبارح المحطة بعد منتصف الليل بنصف ساعة ممتطيا جوادا ومعه الملازم بيكر ومستر هجنبوثام والبكباشي عبد القادر افندى وعشرون جنديا من رجال حرسه . وكانوا يسيرون فى سكوت عميق حتى لا ينتبه لهم رقباء الأعداء الذين من عادتهم أن يجوسوا كل ناحية فى جوف الليل . وعندما وصلوا الى المعسكر العام الواقع على بعد كيلو مترين ونصف كيلو متر وجدوا أربعة بلوكات بأسلحتها ومعها مدفع وانطلقوا فى السير عند الساعة الواحدة وبمعيتهم دليل من الباريين اسمه شروم Sherroum وهو الذى انضم مع صديقه مرجان Morgan فى خدمة سير صمويل من وقت بداية الحرب . ويتكلم هذان الشخصان اللغة العربية وصارا من بعد هرب الترجمان تومبي Tomby وانضمامه للأعداء حليفين للحملة لا تقدر لخدمتهما قيمة .

وتمتد الطريق الموصلة الى قرية بلنيان ثلاثة كيلومترات فى منطقة جرداء . وبعد هذه المسافة دخل الجيش فى غابة مظلمة جداً لاقى فيها مصاعب شتى فى جر المدفع الذى كانت دواليبه تشتبك فى كل لحظة في جرائيم الشجر وجذوره . ومما زاد الطين بلة كثرة الغدران في تلك الجهة فكانت الخيول تسوخ أرجلها في الطين ، وكان الانسان لا يستطيع أن يرى المواضع الموحلة لشدة الظلام . ففى هذه الامكنة كان يلزم لجر المدفع ثلاثون

جنديا وخيف من عواقب التأخير أن تكون وخيمة . وبعد انصرام الليل أخذ المطر يهطل من فروج السماء وبعد مضى ساعة وصلت الفرقة الى أرض جافة غير مستوية ليست بها أشجار وتبددت الغيوم وانقطع المطر .

وفى الساعة الخامسة صباحا أوقف الدليل الحملة وقال ان القرية التى أتينا للاغارة عليها أضحت قريبة . وبعد استراحة نصف ساعة عاود الجند المسير وكان ذلك عند بزوغ الفجر فوصلوا بعد قليل من الزمن أمام القرية فوجدوها محاطة بحاجز مستدير كبير .

ولما رأى الأهالى الحملة أرسلوا عليها وابلا من السهام التى لم تصب لحسن الحظ إلا واحدا فصوب الجنود عليهم فى الحال طلقات عديدة دفعة واحدة جعلتهم يفرون الى الغابة مشتتين تاركين القرية فدخلتها الجنود آمنين وغنموا منها ٦٠٠ رأس من البقر .

وبعد أن استراح الجنود وتناولوا فطورهم أضرموا النار فى القرية وأخذت الحملة طريق العودة فوصلت الى محطة « غندوكورو » من بعد غروب الشمس بساعة تقريباً وعلى هذا يكون غيابها قد استغرق نحو ١٩ ساعة من الزمن .

وفى ٩ يونيه رأت الحملة ثمانى سفن من مراكب أبى السعود . وقد سافرت هذه السفن وصادفتها ريح طيبة فوصلت وألقت مراسيها أمام الجزيرة عند منتصف الساعة الثالثة مساء ، وكان نفس أبى السعود مسافرا على ظهر إحداها . وقد ساعد تلك السفن فى رحلتها هذه الخنادق التى حفرتها الحملة في قدومها .

فأمر سير صمويل بيكر أولئك الرجال أن يحطوا رحالهم على ضفة النهر الغربية لكي يبعدهم عن جيشه إذ لا يبعد ان يؤثر أولئك على هؤلاء أو يفسدوا أخلاقهم . وأخبر أبو السعود سير صمويل بوفاة العقـــاد وبأنه تولى لكونه صهره إدارة شركته . وقد كان هناك شيء آخر اخفـــاه عنه ذلك أنه بينما كان قادما فى سفره هذا سلب مواشى من منطقة احد مشايخ قبيلة الشيريين Shirs اسمه نيانـــبوريه Nianboré وكان هـذا الشيخ قد اضحى مواليا للحكومة فترك لديه سير صمويل نائباً عنه يمثل الحكومة وهو البكباشى احمد رفيق افندى ومعه اونباشى وستة جنود .

وقد ذهب جمع غفير من البارين الى أبى السعود وعاونوا رجاله فى إقامة معسكرهم العمل الذى أبوا بتاتا ان يقدموه للحملة فدل هذا على أن أبا السعود خائن إذ أنه كان يعلم حق العلم ان هذه الحملة فى حالة حرب علنية مع البارين .

ولما ذهب سير صمويل وبمعيته بعض الحرس الى معسكر أبي السعود ووقع انظار البارين عليه لاذوا بأذيال الفرار واختفوا بين الأعشاب . وعندما نزل من الباخرة توجه توا الى حظيرة المواشى وأقام أربعة حراس عليها واعلن مصادرتها . وكان لا بد من إبداء هذه السيطرة والقوة لوضع حـد للسلب والنهب الذى كان يقع من أولئك الذين يقال لهم تجار الخرطوم .

وعندما رجع حرر المرقوم الرسمى الآتى الى أبى السعود :ــ

الاسماعلية « غندوكورو » فى ١٨ يونيه سنة ١٨٧١

الى أبى السعود وكيل شركة العقاد .

لقد وصلت فى ١٠ الجارى ومعك عدد كبير من المواشى التى سلبتها

أنت ورجالك . ومع أنك كنت تعلم أن الباريين يناصبوننا العداء فاننا نراك ترتبط معهم كل يـــوم بروابط الصداقة والمودة . فاذا كان باريو هذا البـــلد يناصبون كل حكومة نظامية العداوة والبغضاء فما ذلك إلا بمعونة رجالك الذين يسرقهم العبيد والمواشى فى داخلية البـــلاد واحضارها الى هنا أضاعوا كل أمل فى تحسين حالة شعب همجى بسليقته ، وصيرتموه أنتم شعب لصوص وقطاع طرق . وبما أنى لا أستطيع احتمال تماديكم على ذلك فأعلنكم كما يقتضى بذلك واجبى أن تخـــلوا أنتم وأتباعكم عند نهاية العقد الذى بيدكم المنطقـــة النازلين بها والموكول إلى التصرف فيهـــا . وفى الوقت نفسه أصرح بأنى قد صادرت لمصلحـــة الحكومة المواشى التى سلبتموها من هذه المنطقة .

صموئيل . و . بيكر

* * *

وعندما وصل أبو السعود الى غندوكورو واصل دسائسه وطفق يخابر باريى اللورونـ وباريى بلنيان سراً وكانت جواسيس هؤلاء تنقل له حركات وسكنات الحملة وتذيع فى كافة انحاء البلد اشاعة مقتضاها أن أبا السعود سيمد يد المساعدة للأهالى فى سبيل مقاومة سلطة سير صموئيل . وفى الوقت نفسه كان ذلك الشقى يذكى باستمرار نار الخلاف التى أوقدها بين ضباط الحملة وجنودها .

ولما كان الباريون لايجرءون على مهاجمة الحملة وجها لوجه كانوا كثيرا ما يأتونها ليلا فيقلقونها ويتعبون الجند كثيراً إذ يضطرونه بصيحاتهم أن يستمر واقفا على قدميه .

ومما زاد فى تحرج الموقف ان وقع كثير من الجنود بين براثن الحمى

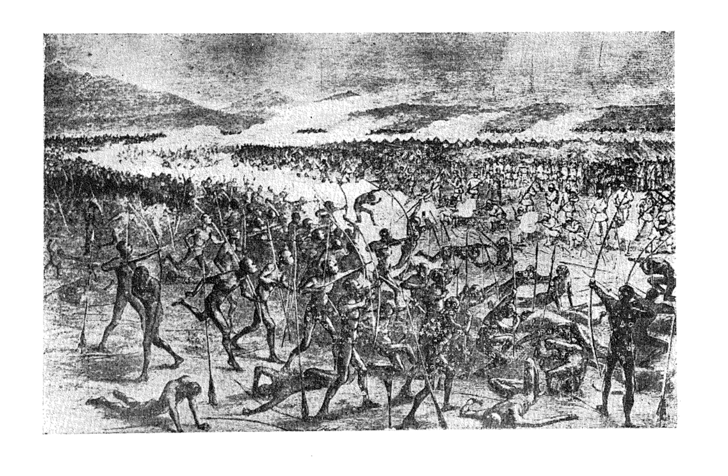
والدوسنطاريا وخصوصا مرض تقرح السيقان وهو على ما يلوح مرض معد وفى بعض الأحوال يقضى على الساق قضاء مبرما فيتلفها إتلافا تاما . وكان لا محيص ان يتولد من جميع ذلك حالة يأس وقنوط فكان رجال سير صمويل يشعرون بمرارة من حرج موقفهم فقد انهكهم واضناهم التعب إذ كان عليهم أن ينبوا المعسكر ويقاتلوا فى الوقت نفسه البارين . وكان الجوع يهددهم من جهة أخرى لأن حالة النيل المخيفة ما كانت تترك مجالا للأمل فى وصول مؤونة الغلال المرسلة من الخرطوم .

وكان موضع المحطة التى يبعد بعض المسافة من المعسكر العام كثير الملاءمة إذ كان يحدها شمالا بحيرة عميقة وشرقا مجرى النيل الأبيض فما كان يستطيع أحد أن يصل اليها إلا من ناحيتين .

وقد واصل أهالى قبيلة بلنيان بالاتحاد مع بارى غندوكورو محاولاتهم الليلية بقصد سرقة مواشي الحملة رغما عن الانذارات التى وجهها سير بيكر فاضطر رجاله أن يكونوا دواما واقفين على قدم الاستعداد .

وفى ٢٨ يونيه قتل رجل من البارين بطلق نارى وألقى الحراس القبض على آخر وشنق على شجرة فى نفس الطريق الذى يسلكه رجال بلنيان أثناء قدومهم للاغارة على المعسكر . وكان الغرض من ذلك إنذارهم ولكن هذا العمل لم يأت بجدوى . واستمر شن الغارات وزاد عما كان فى المدة السابقة .

وفى ١٠ يوليه هوجمت سائمة الحملة فى وسط النهار بينما كانت ترعى فى مراعيها وكان المهاجمون مئات من البارين فردهم جنود الحملة الى الغابة بعد أن قتل جندى وجرح آخر .



هجمة ليلية من البارين على معسكر الحملة بغندوكورو فى ٢١ يوليه سنة ١٨٧١

وكان لابد من انتظار حدوث غارة كل ليلة . وهذا تمرين جليل للجنود يضطرهم لأن يكونوا دواما على قدم الاستعداد إلا أنه أيضاً تمرين شاق متعب لأن العساكر لا تستطيع الراحة ليلا مع أنها تشتغل يومياً نهاراً .

وكان أبو السعود ورجاله فى الوقت نفسه فى اتصال مستمر مع أعداء الحكومة ويقدمون لأهالي بلنيان المؤونة متبعين فى ذلك خطة خيانة الحكومة التى رسموها لأنفسهم .

وفى ٢١ يوليه عند منتصف الساعة الثانية صباحاً استيقظ سير صمويل على أصوات طلق البنادق آتية من ناحية المعسكر العام . وبعد نصف ساعة أخذت أصوات الأهالي فى الخفوت شيئاً فشيئاً . وفى الوقت نفسه أخذ يضعف وينخفض صوت الطبول والأبواق وسكتت طلقات جماعات العساكر وحل محلها طلقات فردية متقطعة .

وفى صباح الغد ذهب سير صمويل بيكر قبل بزوغ الشمس الى المعسكر ليستقى الأخبار فعلم أن الحراس بوغتوا وأن خسائر الحملة أسفرت عن قتل أونباشى واحد وجرح ملازم أول وجندى .

وكان البارون واللوكياس يقصدون بهذه المباغتة احراق المعسكر . وقد حملت هذه الحادثة الأخيرة سير صمويل بيكر على أن ينفذ عاجلا فكرة كانت قد خامرته منذ زمن طويل وهى حفر خندق وعمل منحدر ابتغاء وقاية المحطة وحمايتها .

ولما كانت إقامة المخازن الحديدية قد تمت ووضعت فيها جميع المؤن والذخائر وكانت العساكر قد نزلت فى ثكنات لائقة باقامتهم أخذ سير صمويل بيكر فى

تخطيط حصن وفوض الى مستر هجنبوثام رئيس مهندسيه أمر إنجازه . ودعت الحال لأن يشتغل فى اقامة ذلك الحصن كل الرجال حتى البحارة . وسار العمل بهمة كبيرة ونشاط عظيم إذ كان كل من الجنود والضباط قد شعر بارتياح وانشراح لأنه سينفصل عن العدو ومشاغبه بحفيرة عميقة .

وفى زمن يسير أقيم حصن قوى متين له خندق ومتاريس تصد كل مغير ومهاجم . ومن ذاك الوقت اصبحت المحطة فى طمأنينة ولم يجرؤ البارون على مهاجمتها لعلمهم ان حراسها فى يقظة كما اعترفوا بعد ذلك بهذه الحقيقة .

وفى ٣٠ يوليه سنة ١٨٧١ دهش سير صمويل بيكر كثيراً إذ رأى الشيخ نيانبوريه Nianbouré وهو احد رجال عشيرة الشيرين Shirs يأتى اليه ومعه رجال من خيرة مستشاريه وكان سير صمويل قد ترك عند هذا الرجل ضابطاً وستة من الجنود لمراقبة زراعة القمح وكان نيانبوريه هذا قد قضى ومن معه من الرجال ست ليال مسافراً لا يجرؤ على السير نهاراً خوفاً من البارين ، وقد ضل الطريق مراراً بسبب حلوكة الليل وكان يقضى النهار نائما فى الأجمات الكثيفة التى فى طريقه وقد كابد كل هذه الأخطار ليحمل قبل اى انسان آخر الى سير صمويل بيكر خبراً مشئوماً حتى لا يتهم بارتكاب الخيانة ألا وهو قتل جميع عساكر هذا الشيخ ماعدا البكباشى احمد رفيق افندى وواحداً اونباشياً .

وقبل وقوع هذا الحادث ببضعة اسابيع كانت رجال ابى السعود قد نهبت عند مرورها من ذلك البلد متاع احد المشايخ المجاورين له وقدموا جانباً من أسلابه الى احمد رفيق افندى فقبله بعكس ما تقضى عليه واجباته . فاعتبر الاهالى بالطبع هذا القبول اشتراكا فى الجريمة وطلبوا طرد عساكر

سير صمويل بيكر . واقتضت شهامة نيامبوريه وهى صفة قلما توجد فى العبيد أن يعارض فى أمر هذا الطرد فهوجم وفى أثناء الواقعة قتلت العساكر .

وفى اليوم التالى رد سير صمويل بيكر الشيخ نيامبوريه الى بلده ومعه حرس مؤلف من عشرين جنديا على ظهر باخرة وكتب فى الوقت نفسه الى أبى السعود يخبره بأنه يعتبره مسئولا عما حدث .

ومنذ تم تشييد الحصون فى « غندوكورو » أو « الاسماعيلية » كما سماها سير صمويل تيمنا باسم الخديو صارت هذه الناحية محمية بخندق حول نشز من الأرض مقام عليه المخازن ومنصوب فوقه ستة مدافع . فكان فى استطاعة سير صمويل أن يلقى على الأهالى درساً أقسى من الدروس السابقة .

وفى ٣٠ اغسطس سنة ١٨٧١ ذهب مع ٤٥٠ جنديا وأخذ معه مدفعين احدهما من مدافع رمى الصواريخ التي يزن الواحد منها ثلاثة أرطال .

ولم يكن غرض الحملة الوحيد معاقبة الباريين بل كان عليها أيضاً ان تجدد مؤونة الذرة التى كانت على وشك الانتهاء وكان ذلك الاوان اوان الحصاد وكانت الحقول مغطاة بمزروعاتها الناضجة .

وقد وصل سير صمويل بيكر عندما بان ضوء النهار الى وادى بلنيان أمام التلال الواقعة فى سفح الجبل حيث كان يوجد مئات من القرى مبعثرة يحيط بأغلبها حواجز خشبية مدببة الأطراف .

ولما كان الاهالي على بينة من الامر ومتسلحين بالبنادق وطدوا العزم على الدفاع عن حبوبهم وماشيتهم ودافعوا فعلا دفاعاً حماسياً وعندئذ أمر سير صمويل

بيكر الجند ابتغاء حسم القتال بالقيام بحملة على المواقع بالحراب امتاز فيها اليوزباشي مرجان شريف افندي ، وهو سوداني الأصل خدم في الجيش الفرنسي في بلاد المكسيك أربع سنوات ، بوثبة جاراه فيها جنود البلوك الذي تحت امرته فكان هو أول من دخل متاريس العدو .

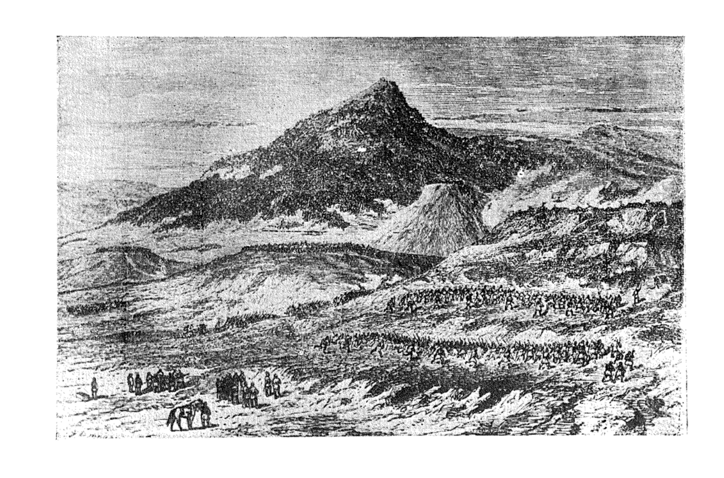
وكان الباريون معتادين قتال بلوكات النخاسين غير النظامية ولم يروا قط للآن حملة شعواء كهذه بالحراب . فكان هذا عملا من شأنه بالطبع أن يذهلهم ويفت في ساعدهم فطفقوا يتسلقون الصخور ويرتقون الجبل فكانوا في فعلهم هذا أشبه شيء بالقردة وكانت الجنود في اثناء ذلك تتعقبهم وتصليهم ناراً حامية من أفواه قرابيناتهم التي كانت من طراز سنيدر .

وانفجرت في تلك اللحظة قذيفة على رؤوس ثلة من الاعداء كانت متجمعة على بعد سبعمائة متر تقريباً من مؤخرة الجيش فكان هذا نذيراً لهم بمبارحة المكان ادركوا معناه حق الادراك .

وبعد أن أمر سير صموئيل بيكر باحراق الحواجز المحدقة بالقرى وبعد أن اختفى الباريون اختار موضعاً في الخلاء لتعسكر فيه الجنود . وانقضى الليل بهدوء وسكينة .

وفي اليوم التالي تقدم نحو الشمال في السهل واستولى بالحراب على منطقة هائلة مساحتها هكتار ونصف (١٥٠٠٠ متر) .

وعند ما وصل الي الوادي أمر باحتلاله وأقام فيه ثلاثة أماكن محصنة يبعد الواحد عن الآخر كيلومترين تقريباً وبذلك أضحت تحت تصرفه مساحة واسعة من الأرض .



هجوم جنود الحملة على قرية بلنيان يوم ٣١ اغسطس سنة ١٨٧١

وبعد ذلك أمر فى الحال بالشروع فى الحصاد غير أن العدو استمر يناصب الحملة العداء واشتبك معها فى عدة مواقع قتل فى احداها البكباشى احمد رفيق افندى ثم بعد إقامة خمسة وثلاثين يوما عاد فى النهاية الى غندوكورو ومعه زاد يكفيه ويكفى جيشه شهرين .

ولم يكن لدى ضباط وعساكر سير صموبل بيكر أقل ميل للمبدأ الذى كان يسعى فى سبيل تنفيذه ففى أوائل الحرب مع الباريين سلكت الجنود المصرية والسودانية مسلكا شائنا كريها . فلقد رآهم السير صموبل بيكر ينقضون على قرية للعدو ويطلقون لأنفسهم الاعنة فى السلب والنهب .

وقد أكد له أميرالألاى رءوف بك انه من المستحيل منع نهب القرى إذ يعتبر الجند ان هذا النهب هو بمثابة جائزة لنصرهم ولكن سير صموبل بيكر لم يشأ أن يقر هذا المبدأ فكان عند ما يضبط العسكرى متلبساً بالجريمة يعاقب عقاباً صارماً .

وانتهى العمل فى المحطة انتهاء تاماً وحصنت تحصيناً منيعاً بحفر خندق وعمل منحدر . ولكن تلفت زراعة الأهالى والجيش معاً فى أرض غندوكورو الصفراء الرملية . نعم سقطت الامطار ولكن لم يكن ذلك إلا فى المناطق الجبلية حيث تتجمع السحب . أما فى الجزر فالمحصول هناك فى حرز حريز إذ أن جذور النبات تغوص فى الأرض على عمق يكفيها أن تستقى من رطوبة النهر ما يرويها . وكانت الجنود تركت العصافير تبيد نصف محصول الجزيرة وكان فى متناول أيديهم محصول جيد فأهملوا جنيه وأخذوا الآن يشتكون ويقولون ان أرض غندوكورو لا تصلح لشىء .

ولم يرجع ابو السعود للآن الى الخرطوم . أما الرحلة التى قام بها الى البلنيان ليستأذن من السير صمويل بيكر فى السفر فهذه لم يكن القصد منها إلا إخفاء أغراض مجهولة .

وفى ٣١ اكتوبر سنة ١٨٧١ أرسل رءوف بك (فيما بعد باشا) خطابا الى سير صمويل بيكر ومعه خطابان آخران موقع عليهما من جميع ضباط الجيش ما عدا ضباط حرسه الخصوصى يلتمسون فيهما مبارحة الحملة لهذه النواحى والعودة الى الخرطوم وكان الخطابان قد خطتهما يد واحدة ومما لا يحتمل الشك أن الذى املاهما شخص عالى المقام وقد عزاهما سير صمويل بيكر فى الحال الى رءوف بك صديق وشريك أبى السعود فى جرائمه غير أنه لم يبال بهذه المسألة .

وكان سير صمويل بيكر يرمى الى أن يشن غارة على جزر الباريين فى جنوب جبل الرجاف ويرى ان كمية الحبوب التى يجدها هناك تمكنه من اجتثاث هذه المؤامرة من أصلها .

فسافر مع تجريدته فى الوقت المعين وسار صعدا مسافة اثنى عشر كيلومتراً فى النيل وكانت الملاحة فيه سهلة فى هذا الفصل . ووصل الى الشاطىء الغربي ولما كان الهواء معاكساً لسيرهم نزل الجند الى الارض وجروا الوابورات ضد التيار وكان اتساع النهر يناهز ٤٥٠ متراً .

وكان البلد الذى يخترقونه بلدا جميلا فتانا به تلال صخرية عالية واقعة على مسافة بعض كيلومترات وتنحدر تلك التلال انحداراً خفيفاً فيتكون من مجموع هذه الانحدارات سهول نضرة تنتهى عند ضفة النيل وينتشر فى جنباتها باقات من الاشجار الخضراء الزاهية غير أن عدم وجود غابات بتلك النواحى كان يجعلها غير صالحة لاقامة محطة كبيرة عليها .

وصادفت الحملة فى طريقها قرى عديدة إلا أنهـــا لم تقابل فى أى ناحية مقابلة حسنة . فكان الوطنيون يخرجون من أوكارهم يشيرون ويومئون ويهزون رماحهم بأيديهم ويفعلون ما شاكل ذلك من المظاهرات العدائيـة التى لا يمكن أن يخفى معناها على أحد .

ومن الواضح الجلى انهم كانوا يتحرشون للقتال غير أن السير صمويل بيكر كان قد اعتاد ألا يهاجم البارين ويتربص الى أن يصدر أى عداء من جانبهم .

فنزل الى البر وتقدم على الضفة عدة مئات من الخطوات وكان ينتشر فى جنبات تلك النواحى صخور غريبة جـــداً وقطع ضخمة من حجر الصوان المصقول متراصة فـــوق بعضها حتى ليحسبها الرائى انهـــا نظمتها ورصفتها يد الانسان . وكلما مشت الحملة انسحبت الاهالى وتوارت خلف تلك الاحجار والصخور . وعند ما صارت على بعد مائة مـتر منهم صاح الترجمان الذى كان مرافقا لها : ان هذه الحملة ما أتت لتقاتلـكم بل لمشترى غلال فقط وان سير صمويل بيكر سيبادل « الجوجو » من السورجو بكبزانه ببقرة والجوجو مكيال سعته ١٤٠٠ لتر والسورجو نوع من الذرة . وكان هذا هو السعر الجارى .

فقوبل هـذا العرض اللطيف بافظع الاجوبة واشنع الشتائم وكان ضمن ما قالوه ان الحملة فى غير حاجة أن تعرض عليهم مواشيها التى عقدوا العزم على أخذها منها بالقوة وانه لا شىء خير لهـــا من أن تنكص على عقبها وترتد الى الخرطوم . .

وقد حاول سير صمويل بيـكر أن يبين للاهالى ان رجاله عضهم الجوع بنابه وانه سيضطر أن يأخذ منهم قـوة واقتداراً الغلال التى أبوا ان يبيعوها له

فقوبلت مطالبه هذه السلمية بوابل من اللعنات والشتم .

فلم يبق لديه بعد ذلك إلا استعمال الشدة فنشر جنوده بكيفية تمكنها من تغطية ثمانمائة متر من الأرض ثم اتجه الى جبل الرجاف وكان محظوراً قطعياً على العساكر أن تدخل الاكواخ وكل ما كانوا مكلفين به التحقق من امتلاء الجوجات (١) أو فراغها وبهذه الكيفية تم اجتيازه ٢٥ أو ٣٠ قرية كل واحدة منها بها خمسة عشر جوجو كلها طافحة بالغلال .

وعند ما وصل الى نجد الرجاف لحص بمنظاره البلد فرأى على امتداد بصره خطاً من القرى الصغيرة ممتداً بلا انقطاع وعدداً كبيراً من الاهراء . وذهلت الجنود لوجود هذه الخيرات الجزيلة ودهش الضباط الذين كانوا كتبوا للسير صموئيل بيكر يقولون : ان البلدة ينقصها الحبوب ومن اللازم الرجوع الى الخرطوم .

وقد احتل جملة قرى كان قد تركها اصحابها ورحلوا عنها وأتت المراكب فألقت مراسيها بجانب ضفة النهر واستحضر رءوف بك وزوده بالاحتياطات اللازم اتخاذها فى غضون الليل .

وما نفخ فى بوق الايقاظ حتى استقدم رءوف بك وأمره أن يأخذ بلوكا والمراكب ويحتل الجزر . أما هو أى سير صموئيل بيكر فيمم جهة الجنوب وبعد بحث دام ثلاث ساعات أقام فى نقطة صالحة جداً محطتين وسلمهما إلى الصاغقول اغاسى عبد الله الدنساوى افندى . والى ضابط آخر وأعطى كلا منهما عدداً من العساكر مساويا للعدد الذى أعطاه للآخر . والأول ضابط سودانى اشترك فى حرب المكسيك وانعم عليه بنيشان الليجيون دينور وهاتان المحطتان اللتان

(١) جمع جوجو وهو مكيال يصنع من عيدان الصفصاف أو الخيزران وقد سبق ذكره .

تبعد احداهما عن الأخرى مسافة ١٥٠٠ متر تقريباً كانتا قائمتين على نجد يشرف على مراكب رءوف بك التي كانت قد وصلت ورمت مراسيها على شواطيء الجزيرة على بعد كيلومترين ونصف فتكون من هذه المراكز الثلاثة مثلث فى جوف أرض خصبة .

وبعد أن اخذت هذه الاحتياطات رجع سير صمويل بيكر الى النهر وأمر رءوف بك أن يعجل بشحن الغلال ويرسلها بلا توان الى غندوكورو وكانت اهراء الجزيرة ملأى وموضوعة على مقربة من الشاطيء حيث كانت المراكب مربوطة فى مراسيها فكان فى الاستطاعة تعجيل الشحن .

وبعد أن فرغ من اصدار هذه الأوامر سافر الى غندوكورو ومعه الجندى منصور القائم بخدمته ومراسلاته وجنديان آخران وبحاران . ولما كان قد عقد النية على أن يراقب عملية حصد الغلال بادر حالا بالرجوع الى الجزر على ظهر ذهبيته .

وكان رءوف بك لم يحتل إلا واحدة من هذه الجزر وكان الوطنيون يسرعون فى نقل الغلال التى فى الجزر الغربية وعندئذ أعاد أميرالألاى الى غندوكورو مع المرضى . وشرع الملازم بيكر فى احتلال الجزر . وفى زمن يسير جداً وضعت الحملة يدها على ثلاث جزر كبار خصبة لدرجة خارقة للعادة ولم تنقطع مراكبها من الاياب والذهاب وهى محملة احمالا ثقيلة من هذه الجزر الى غندوكورو .

وانتهت الاعمال التى ألقيت على عاتق كل من الصاغقول اغاسى عبد الله الدنساوي افندى والضابط الآخر وكان هذا الأخير فى انتظار مراكب ليشحن عليها ما بقى من الغلال المتجمعة . أما الأول فكان قد انجز شحن كل ما كان

عنده منها فأرسله سير صمويل بيكر الى الجنوب ومعه أمر باحتلال كل قرية تقابله .

وأما الصاغقول اغاسى عبد الله الدنساوى افندى فنظراً لقلة جنوده وهم ٩٠ جنديا قاتله الباريون فارتد وتمكن من بلوغ النهر فأقلته ومن معه المراكب التى كانت راسية فيه وعانوا جميعاً الأمرين فى هذا القتال وقتلوا خلقاً كثيراً من الباريين وقد لاحظ ذلك سير صمويل بيكر عند ما زار ميدان القتال الذى كانت تنقض عليه جموع من العقبان .

وسافر فى ٣ نوفمبر ثلاثون مركباً من غندوكورو الى الخرطوم وعلى ظهرها من المسافرين ١١٠٠ نفس من نساء واولاد وبحارة وعساكر ومرضى .

وبالرغم من الأوامر الصارمة التى أصدرها سير صمويل بيكر بعدم تسفير أحد الى الخرطوم إلا من كان مصابا بمرض حقيقى فان رءوف بك انتهز فرصة غيابه ورد عدداً كبيراً من الرجال الذين لا يشكون من أى ألم نخفض بهذه الكيفية قوة الحملة الى ٥٠٢ من الجنود بما فى ذلك الضباط والبروجية وضاربو الطبول والكتبة وغيرهم ، والى ٥٢ بحاراً . وهكذا صارت الحملة التى كان من اللازم أن يكون عدد رجالها ١٦٤٥ جنديا ليس بها غير ٥٥٤ جنديا وهو عدد ضئيل لدرجة انه يفقد كل أمل فى تقدم الحملة فى داخلية البلاد .

وكانت الظواهر جميعها تنم على أن أبا السعود بلغ مرامه وأن حركات الحملة أصابها الشلل إذ كان من المفروض أن سير صمويل مع جيش انحط عدده لهذه الدرجة لا يتجاسر أن يتزحزح من معسكره العام . وبما أن عقد خدمته ينتهى أجله فى أول أبريل من سنة ١٨٧٣ فليس أمامه متسع من

الوقت غير ستة عشر شهراً وهو زمن قصير جداً لا يسمح له بانجاز مشروعاته .

ومن ناحية اخرى فان حالة النيل فى ذلك الوقت كانت سيئة بحيث لا تترك بارقة أمل فى وصول امداد للحملة من الخرطوم أما الحفائر والخلجان التى كان قد شقها فى بحر الزراف فهذه ما كان يدرى أردمت أم بقيت كما تركها .

وكتب سير صمويل بيكر الى الخديو ملحاً فى بيان الضرورة القصوى القاضية بشق خليج مجرى النيل الابيض بدون ابطاء وكتب ايضاً الى جعفر مظهر باشا بأن يبعث له فى الحال بعدد من الخرطوم وبمئونة من الذرة وظل هذا المدد ثلاثة عشر شهراً فى النهر بين غندوكورو والخرطوم ولم يصل إلا قبيل نهاية الحملة .

وبما أنه كان يخشى ألا يصله شىء من السودان فقد رأى أنه لا بد من أن يأخذ احتياطات مستقلة عن كل معونة خارجية ملافاة للطوارىء التى ربما تحدث فى المستقبل وان يباشر اتمام مأموريته بواسطة الـ ٥٠٢ من الجنود والضباط و الـ ٥٢ بحاراً الذين بقوا معه إذا كان ذلك فى حيز الامكان .

وكان عدد الجنود الذين يحيطون به فى ذلك الوقت ٢٥١ ضابطاً وجنديا فكان الذين تحت تصرفه نصف قواته تقريباً . ولما كانت غندوكورو محصنة تحصيناً متيناً والبلنيان كسرت شوكتهم فلم يبق لديه ما يخافه من هاتين الناحيتين . وأما من ناحية المئونة فكان مخزن من مخازنه الكبرى تطفح جوانبه بالغلال فاذا أضفنا الى ذلك الذرة المشحونة فى

جمـــلة من مراكبه نجد انه كان فى حيازته من المئونة ما يكفيه زيادة على العام وهـــذه نقطة هامة ايضا . ومن جهة أخرى كانت الجنود الباقية لديه جنـــوداً من خيرة الرجال الابطال البـــواسل ألاصحاء الاجسام المتعودين النظام فكان اليأس بعيداً عن أن يتسرب الى نفسه بل بالعكس كان قد قرر أن يواصل بمعـــونة الله القيام باتمام المشروعين اللذين قدم من أجلهما ألا وهما منع النخاسة وضم منطقة خط الاستواء .

استكشاف سير صمويل لشلالات النيل الأبيض

وفى ١٠ نوفمبر استصحب ١٥٠ جنـــديا للقيام بعمل استكشاف لغاية شلالات النيـــل الابيض الاخيرة الواقـــعة جنوبا على بعد خمسة وعشرين كيلومترا من المعسكر الذى شيده فسافرت الحمـــلة فى البكور وسارت بجانب النجد المرتفع الممتد حذاء مجرى النيل مجتازة الموضع الذى كانت الاهالى هاجمت فيه الحملة من بضعة أيام مضت . وقد قال سير صمويل بيكر أن لا شىء يفوق جمال هذه المنطقة من الوجهة الزراعية .

وكان الباريون قد عدلوا عدولا تاما عن خطتهم فأثمرت الدروس التى ألقيت عليهم ثماراً يانعـــة وأنقلب سخطهم وبغضهم مودة وصداقة واستقبـــل سير صمويل بيكر رؤساءهم واتحفهم بعدة هدايا .

أما رحلة الاستكشاف هذه من أولهـــا الى آخرها فلم تكن إلا نزهة عسكرية .

وفى ١٩ نوفمبر آب سير صمويل بيكر الى غندوكورو قرير العين من نتائج رحلتـــه فـــكانت مخازنه طافحة بغلال تميره أكثر من عام وكان

السلم انتشر بين ربوع اقليم هام وكان قد حصل على وعود بالمعـــاونة واقرار بالاذعان لسيطرة الحكومة الخديوية .

اما أبو السعود الذى كان سير صمويل بيكر قد صرح له بالرجوع الى الخرطوم فاكتفى بأن يهبط مع النيل لغاية محطة بور Bohr وهناك أخذ استعداداته لكى يعرج بالعاج الصادر عن محطة لاتوكا Latouka الواقعة على بعد مائة وستين كيلومترا شرق غندوكورو عن طريق معسكر سير صمويل بيكر العام ويصل به الى بور من سكة غير مطروقة .

وكان الغرض من هذه الخدعة أن يضيع على الحكومة الرسم المقرر لها وهو خمس كمية العاج حسب الاتفاق المعقود مع شركة العقاد .

وبما أن أبا السعود حضر بنفسه رجوع الجند الى الخرطوم فقد كان يعتبر أنه فاز وحصل على مايشتهيه إذ حسب أن الحملة أصبحت غـــير قادرة على التحرك من غندوكورو بعد أن لم يبق منها إلا ٥٠٢ من الضباط والجنود . وعلى ذلك سافر الى محطاته البعيدة الواقعة فى الجنـــوب بقصد اثارة الاهالى ضد الحكومة .

وكانت هـــذه هى المرة الأولى التى يرود فيها أبو السعود الداخليـــة . وكانت عادته من زمن طويل أن يسافر دفعة واحدة فى السنة من الخرطوم الى غندوكورو على مراكب شركة العقاد ويحضر معه عصابة جديدة من اللصوص وكميات من الاسلحة والزاد ويظل فى غندوكورو عدة أسابيع يتسلم فى غضونها العاج والعبيد الذين تكون قد جمعتهم مختلف المحطات التى فى داخلية البلاد ثم يقفل بعد ذلك راجعاً الى الخرطوم .

وأوحت اليه ضرورة الوقت أن يشمر عن ساعد الجد ويضاعف مجهوداته . ولما كان يعرف حق المعرفة التاريخ الذى فيه تنتهى مدة خدمة السير صمويل بيكر فقد وضع نصب عينه هدفا واحداً اصابه تقريباً وهو الحيلولة دون تقدمه فى المدة الباقية له .

فكان يريد بناء على ذلك زيارة محطاته والتنبيه على وكلائه أن يحتفظوا بعاجهم وعبيدهم لغاية انتهاء مدة عقد سير صمويل بيكر فيضطر الى مغادرة غندوكورو وبعد هذا تعود الامور الى مجراها السابق كما كان يعتقد .

ورأى سير صمويل بيكر أنه من المفيد أن يفهم قبيلة الشير قبل أن يسافر الى الداخلية أنه لم ينس ذبح عساكره المساكين الذين تركهم لديها للمحافظة على المزروعات فجهز حملة وحاربهم حربا لن تزول ذكراها من ذاكرتهم

وعند رجوعه الى غندوكورو كانت الاهالى قد جمعت كمية من الاحجار وأرسلوا يطلبون منه أن يعين لهم مكان العمارة لينقلوا اليها تلك الاحجار . فقدم بقرة هدية للرسل وأقام لهم حفلة رقص . والظاهر أنهم سروا كثيراً من مقابلته لهم وعاد أولئك الرسل الى قراهم وبصحبتهم مركب على ظهره ضابط و ٢٠ جنديا . وهكذا فاز سير صمويل بيكر فى كل أعماله وفى جميع الامور نخضعت له الأهالى خضوعاً تاماً وذاع فى البلد بسرعة البرق خبر عدو الخيل وفعل قربينات «سنيدر» فارتعدت من ذلك فرائص الاهالى . وشاع أن ليس هناك مفر للمواشى من الخيول وان راكبها فى استطاعته أن يطلق النيران وهى فى أسرع جريها وأن لا شىء يمكنه مقاومة هذه الحيوانات الغريبة النادرة . وكانوا يعتبرون قربينات « سنيدر » كطلسم

من الطلاسم . وهكذا كان يعتبر الاهالى ايضاً غطاء الرأس شكل «كاسك» الذى كان يلبسه سير صموئيل بيكر واللازم أول بيكر .

ولم يدهش سير صموئيل بيكر إلا قليـــلا عندما علم من مترجميه أن الشيخ اللورون يبتهل طالباً السلم ويرغب فى الطاعة للحكومة .

وفى ١٤ ديسمبر كان قد حل عيد الفطر . وفى ذلك اليوم كل أنسان ذكر أو أنثى يلبس حلة جديدة مهما كان فقيراً وكان قد مضى لغاية هذا التاريخ اثنا عشر شهراً والمواصلات مقطوعة مع الخرطوم .

ولم يعد لدى العساكر بعد أن قاموا بأشغال جمة وقتال كثير وعانوا كثيراً من السير فى الادغال الشائكة إلا أسمال بالية يرتدونها على أجسامهم ومع ذلك كان العيد قد اقترب .

وفى ١٣ ديسمبر أعنى يوم الوقفة استدعى سير صموئيل بيكر الضباط فى المخزن وسلمهم ملابس جديدة ليوزعوها على الجنود . وأعطى الى كل من الـ ٣١٢ ضابطا وجنديا الذين كان قد تعين أن يرافقوه فى داخلية البلاد قميصاً أحمر من الفانلا وسروالا « بنطلونا » أبيض .

وفى ١٤ ديسمبر أذن دوى المدافع فى الناس بالعيد عند شروق الشمس وذهب سير صموئيل بيكر الى المعسكر العام ممتطيا ظهر جـــواده وهناك استعرض الجند فى ملابسهم الجديدة فكانت كل الوجوه طافحة بالبشر ثم القى خطبة وجيزة فقوبلت ثلاث مرات بالتصفيق الشديد .

وقد أدهشت كثرة الموجودات فى مخازنه العسكر والبحارة دهشا عظيما

ورسخ فى أذهانهم أنه حتى إذا قطعت المواصلات مع الخرطوم فلا يكون ذلك موجباً لوقوع الحملة فى العوز والحاجة .

وكان النظام سائداً فى غندوكورو والامن مستتباً والمؤن متوافرة والمحطة محصنة تحصينا تاما . وكان البحث يدور فى صدد التقدم نحو الجنوب . فأول الخطط التى اختطها سير صموبل بيكر كانت واضحة جلية وتنحصر فى ايجاد خط مراكز محصنة يبعد الواحد منها عن الآخر مسيرة ثلاثة أيام لصيانة مواصلاته مع غندوكورو .

غير أنه لسوء الحظ استصحب معه عددا من الجنود يقل عن العدد اللازم ٣٥٠ جنديا و الـ ١٢٠٠ جندى الذين كان قد استعرضهم مبدئياً فى غندوكورو لم يبق لديه منهم إلا ٥٠٠ فقط وذلك بسبب الوفاة والمرض ورجوع من رجع الى الخرطوم لعدم صلاحيته .

ولما كان لا يمكنه أن يترك فى المعسكر العام أقل من ٣٤٠ جنديا من ضمنهم ٥٢ بحاراً لم يبق لديه إلا ٢١٢ ضابطا وجنديا للقيام بصراع طويل غير مأمون العاقبة بعيد عن قاعدته . هذا فضلا عن قطع الامل من الحصول على مدد ما إذا قامت أمامه صعوبات غير منتظرة وقد قرر السفر رغما عن كل ما ذكر .

سنة ١٨٧٢ م

وصول الحملة الى شلالات فولا

وفى ٢٢ يناير سنة ١٨٧٢ فى الساعة الثامنة صباحاً سافرت الحملة . وصادفت ذهبية سير صمويل بيكر ريحا طيبة فأدركت عاجلا السفن التى كانت قد سبقته موسوقة بالاحمال الكاملة . غير أنه فى الغد وما تلاه من الايام عاكس الهواء والتيار جميع مراكب الحملة فلم تصل الى شلالات فولا إلا فى ٢٧ يناير .

ووفد شيخ الناحية المسمى بيدن Bedden وزار سير صمويل بيكر فأهدى اليه هذا كسوة أرجوانية اللون وطلب منه أن يحضر حمالين لنقل متاعه الى « لابوريه » Laboré التى تبعد مسافة ١٠٠ كيلومترا تقريباً فوعده الشيخ باجابة طلبه وانصرف غير أنه لم يبر قط بوعده . ولم يقتصر الحال على ذلك بل بدت البغضاء من جانب الاهالى فاضطر سير صمويل بيكر أن يرسل عليهم بعض صواريخ انتقاما منهم فأحرقت بعض الاكواخ فى أقرب القرى . ولما لم يأت الحمالون وكان فى غير امكانه أن ينتظر الى ما شاء الله عول على أن يسافر مع مقدمة من الجند الى لابوريه ويترك معظم قوته ومتاعه ثم عند ما يصل الى تلك الناحية يرسل الحمالين اللازمين ليأتوا بباقى الحملة لأن سكان هذه الناحيه كانوا قد أبدوا له شعور المودة حين سفرته الأولى .

وأودع سير صمويل بيكر عند الصاغقول اغاسى عبد الله افندى الدنساوى ١٤٥ جنديا ومدفعاً واحداً وفوض اليه حراسة السفن وقطيع الماشية .

وألقت تلك السفن مراسيها متراصة الواحدة تلو الاخرى عند ملتقى نهر قد نضبت مياهه فى ذلك الحين . وكان يرجى من صفاته المتقاطعة تقاطعاً عموديا حماية مواشى الحملة ثم أمر من باب زيادة الاحتياط بسد الخور بعوسج شائك على بعد ١٠٠ متر من النهر فيكون الخور بهذا العمل بمثابة حظيرة فى منخفض من الارض تصان فيها الماشية . وخصص ٦٠ جنديا للقيام بالحراسة ليلا يوضع نصفهم على كل ضفة وأن ينصب المدفع محشواً بالرصاص على رابية واقعة على بعد ٢٠ مترا من الضفة فى مواجهة وسط الخط الذى كونته السفن ليمنع كل اقتراب سواء كان من الوجه أم من الجانب اليمين .

وصولها الى لابوريه

وفى ٨ فبراير الساعة ٣ مساء ولى سير صمويل بيكر ومن معه وجوههم شطر « لابوريه » فوصلوا اليها فى ١٢ فبراير بسلام وبدون أن يطلقوا عيارا واحدا . وقدم شيخ لابوريه وأدى الزيارة لسير صمويل بيكر فأحاطه بمقصده من هذه الرحلة وطلب منه حمالين فأجابه الشيخ أنه يقبل بطيبة خاطر أن تذهب رجاله الى السفن اذا كانت مخفورة بعسكر . فقبل سير صمويل بيكر هذا الشرط . وفى ١٦ من الشهر المذكور سافرت الرجال الذين نيط بهم جلب الآلات تحرسهم شرذمة مؤلفة من ٥٠ جنديا وكان عدد اولئك الرجال ٤٠٠ نفس تقريباً .

وفى ٢٤ من هذا الشهر وصل الصاغقول اغاسى عبد الله افندى الدنساوى الى لابوريه بالصحة والسلامة يصحبه كل ما كان قد ترك فى عهدته . وقدم لسير صمويل بيكر تقريراً مطولا عن الحوادث التى جرت فى غيبته يتلخص في السطور

القليلة الآتية وهي :—

« فى ليـــل ١٧ فبراير بينما كان الضباط والعساكر غارقين فى نومهم انقض على المعسكر عـــدة الوف من الأهالى ولولا يقظة جندى أو جنديين وعـــدم استسلامهما للنوم كرفقائهما لذبح الجيش برمته . وقد أدرك الجند الذعر لأول وهلة فولوا الادبار تاركين المـــدفع بين أيدى الباريين غير أن عبد الله افندى الدنساوى والضباط جمعوا شتاتهم فعادوا للقتال وحصروا العدو بين نارين واستردوا المدفع ورموا ذلك العـــدو ببعض مقذوفات منه فلم يسعه إلا أن يرتد على أعقابه ».

وصولهـــا الى فاتيكو

وقبـــل أن يولى سير صمويل بيكر وجهه شطر الجنوب اكترى ٧٠٠ رجل من الأهالى بصفة حمالين ورعاة للماشية حتى لا ينهك قوى جنوده فى هذا العمل وهم مسافرون الى « فاتيكو » Fatiko .

وابتهج الاهالى فى يوم ٢٨ فبراير باقامة حفـــلة راقصة وفى اليوم التالى سافرت الحمـــلة فأوغلت فى أرض كثيرة المرتفعات والمنخفضات والغابات تسكنها قبيلة تسمى المادي Madis إلا أن قراها خربها تقريباً صيادو العبيد التابعون لأبى السعود .

وفى ٢ مارس وصلت الحملة الى سهل جميل عظيم سماه سير صمويل بيكر « الابراهيمـــية » نسبة لاسم ابراهيم باشا والد الجناب الخديو وتسميه الأهالى « افودو » Affouddo والمسافة من « لابوريه » الى هـــذا السهل هى ستون كيلومترا .

وفى ٥ مارس عسكرت الحملة فى سفح جبل « شوا » Choua الواقع على مسافة قريبة من « فاتيكو » . وفى ٦ مارس سنة ١٨٧٢ تركت الحملة فى البكور معسكرها التى اقامته فى سفح جبل شوا ولبست الجنود أحسن كساويها طبقاً لأوامر سير صمويل بيكر وبدا عليها نشاط ربما كان السبب فيه يرجع الى الهواء الطلق المنعش الذى يسود تلك النجود التى يبلغ ارتفاعها ١٢٠٠ متر والتى يمكن اعتبارها بمثابة جنة افريقية . وكان لا يوجد فى هذه الاصقاع عدو يجب الاحتراس منه لأن سير صمويل بيكر كان قد أقام فى نواحيها مدة خمسة أشهر وارتبط بأهلها وكان واثقا أنه سيقابل فى « فاتيكو » باخلاص وترحاب .

وتقرر المسير بالنظام والترتيب الآتى وهو أن يسير سير صمويل بيكر وعقيلته والملازم بيكر ثلاثتهم فى المقدمة ممتطين ظهور الجياد يتقدمهم خمسة جنود من حرس سير صمويل الخصوصى ويليهم البكباشى عبد القادر افندى مع بقية الفئة المنتخبة ثم الجيش صفا صفا وبعده الأمتعة فالاربعمائة حمال التابعون للحملة وفى الآخر الماشية .

ولم يبق عليهم للوصول الى فاتيكو سوى مسيرة عشرة كيلومترات فى طريق يفوق وصف كل واصف جمالا وجلالا . فتسلقت الجنود مرتفعاً الى أن وصلت الى نجد من حجر الصوان تقع عين الواقف فوقه على منظر يأخذ بالالباب لفخامته ويترامى البصر منه غربا فى النواحى البديعة التى تركها خلفه الى ما وراء النيل فيصل الى الجبال المرتفعة الى أعلى الافق .

وبعد ما بارحت الحملة النجد سلكت طريقاً زلقا حفرته الأمطار التى نزلت أخيراً فكانت تسير فيه محترسة الى أن وصلت الى سهل فاتيكو حيث

وقفت تحت كومة هائلة من حجر الصوان وهى بقايا جبل قد انهار فاتخذت منها ملجأ يقيها أشعة الشمس فى النهار .

وكانت الحملة قد وصلت الى نجد متوج بالاعشاب بدون أن يتنبه الأهالى اليها وأمامها على بعد ١٥٠٠ متر كانت تظهر محطة أبى السعود الشاسعة الواسعة . وبينما كانت واقفة فى انتظار وصول المواشى لخص سير صمويل بيكر وهو جالس على صخرة ببصره كل ما يحيط به فرأى أن ظهورها على حين فجأة أحدث هرجا ومرجا بين الأهالى .

وتحركت الحملة على أثر وصول مؤخرتها ونفخ فى الأبواق إيذانا بالمسير فتقدم الجند بنظام تام وأمامه الموسيقا واقترب بعض الأهالى منها فعرفوا سير صمويل بيكر وعقيلته وقفلوا راجعين الى القرية وأخبروها بجلية الأمر . وقد كان منظر العساكر بهيجا وأثار دخولهم فى فاتيكو عجب الأهالى إذ لم يسبق لأواسط افريقية أن تشهد مثله .

وكان سير صمويل بيكر قد رتب الحملة ترتيبا أنيقا فكان لديه ٢١٢ جنديا منظمين أتم تنظيم وماشية منظرها يسر الناظرين وكمية كبيرة من المؤونة . فقضى وصولها بهذا التنسيق العجيب على آمال أبى السعود قضاء مبرما .

وبعد مصاعب ومشاق وصل سير صمويل بيكر فى آخر الأمر الى مأوى صيادى الرقيق . فأتى أبو السعود لمقابلته وطلب منه مع التذلل الذى دأب عليه ولم يفارقه أن يدخل مع رفاقه فى بعض أكواخ كان قد أعدها لنزولهم فرفض سير صمويل بيكر هذه الدعوة إذ كان يرغب أن ينصب معسكره أبعد من ذلك بأربعمائة متر تحت أشجار ضخمة من أشجار الأثل حيث كان

قد عسكر من بضع سنوات مضت . وفى الحال يم ذلك المكان المحفوف بقطع من حجر الصوان الضخمة والذى تظلله أوراق الاشجار الكثيفة بظلال وارفة .

هناك وقفت الحملة وبعد يسير من الزمن كان المضرب قد نصب وصارت بذلك الحملة على مسافة ٧٧ كيلومترا من ملتقى نهر « اونيامه « Oun-y-Amé و ١٣٦ كيلومترا من « لابوريه » و ٢٦١ كيلومترا من غندوكورو . وقد أحضر أبو السعود من محطته كثيرا من السقوف القش لضباطها واتخذ الجنـــود لهم اكواخا موقتة وأدخلت الماشية بين مدرج منتظم من الصخور لتقضى فيه الليل .

وفى ٨ مارس استعرض سير صمويل بيكر الجيش وبعـــد أن نبه الأهالى أمر بعمل شبه قتال وهجوم على جبـــل « شوا » Choua . وبعد أن أطلقت بعض الصواريخ على عـــدو وهمى انقسم الجند قسمين فتسلقا الجبل كل قسم من ناحيـــة منه ثم انضما الى بعضهما فى النجد الذى بقمته المكون من حجر الصوان . وهذه المناورة التى نجحت نجاحا باهراً سر لها الأهالى الذين كانوا قد أتوا فى جموع عديدة لرؤية هذه الحرب الصغيرة سرورا عظيما . وبعد اطلاق عـــدة طلقات نارية نزل الجند من الجبل وعادوا الى معسكرهم تتقدمهم الموسيقا وهى تصدح بألحانها .

وكان لصوص أبى السعود قد خربوا تلك النواحي . ولما كانت الأهالى لا تستطيع مقاومتهم فكثير من القرى نهبت واقتيد سكانها من نساء وأولاد فى قيود الرق والعبودية .

كان أبو السعود يعتقد أن سير صمويل بيكر لا يمكنه مبارحة

غندوكورو غير أنه لما كان كثير الحيطة نصح رجال قبائل « الشولى » Shouli على كل حال أن يهاجموه اذا قدم ديارهم . وعلى هذا اعتبر الأهالى سير صمويل بيكر الذى كانوا يجهلون قدومه انه عدوهم الى أن رأوه رأى العين وعرفوا فيه وفى اللادى قرينته صديقيها القديمين واذا كان قد رآهم يركضون ويلوحون بالمزاريق والتروس فما ذاك إلا لأن أبا السعود كان قد أغراهم على مهاجمته من غير أن يترشوا ولا دقيقة واحدة ووعدهم بمساعدة رجاله فى هذا الامر ولكنهم عند ما شاهدوا قواته وعرفوا عدم فائدة الهجوم بادروا بارسال البعض منهم له ليستعلموا منه عن مقاصده . ورداً على بيانه لرغبات الخديو أكد له أصدقاؤه القدماء أن البلاد كلها بقضها وقضيضها تنضم اليه وتجتمع حول حكومة صالحة وان كل ما يريدونه اقامة العدل وحمايتهم وأن رجوعه بث فى قلوبهم جميعاً الطمأنينة .

وكتب سير صمويل بيكر فى الحال الى سائر وكلاء أبى السعود فى مختلف المحطات أن الاتفاق الذى أبرم مع العقاد ينتهى أجله فى آخر شهر محرم فكل عمل يعمل باسمه بعد هذا التاريخ يعتبر غير قانونى .

وأعلن رسميا جميع مستخدمى أبى السعود بأن يبارحوا هذه البلاد أو يسلكوا مسلكا شريفا ووعدهم بأن يأويهم فى غندوكورو ويزرعوا جزر النيل الخصبة بدون أن يدفعوا ضريبة ما . واذا ارادوا الدخول فى خدمة الحكومة بصفة جنود غير نظامية يقدم لهم راتبا مساويا لراتب الجنود النظامية ويكون لديهم امتياز خدمة سنة فقط .

ووطد سير صمويل بيكر العزم على اقامة محطة فى فاتيكو لتمثل فيها الحكومة فى غضون رحلته الى الجنوب .

وقد أقسم له أبو السعود يمين الاخلاص واتفق معه على أنه عند ما تنتهى مدة عقده تبطل كل الاعمال المسماة تجارية وانه يبقى فى البلد من باب التساهل فقط وذلك لغاية ما يجد وسيلة لنقل العاج الذى جمعه الى غندوكورو ويتعهد أن يجرد السبعين رجلا الذين فى خدمته من البارين من الاسلحة حتى لا يوجد بعد ذلك سلاح نارى بين أيدى اهالى معادين للحكومة . ولكنه كعادته غش سير صمويل بيكر فجرد البارين من الأسلحة النارية ثم عاد فردها اليهم بعد سفر سير صمويل .

ولم تكن فاتيكو إلا قرية بسيطة من قرى بلاد « شولى » الواسعة التى كان يحكمها الشيخ « روت جرما » Rot-Djarma وهذا كان قد بلغ سير صمويل بيكر نيته أن يقدم خضوعه للحكومة أمامه .

وقد جمع سير صمويل بيكر مائتى حمال وأعطى تعليماته للصاغ قول اغاسى عبد الله افندي الدنساوي واختار موضع المحطة على بعد ثمانين مترا تقريباً من محطة أبى السعود وأقسم له هذا الاخير من جديد أغلظ الايمان أن يسلك مسلكا شريفا .

سفر الحملة الى أونيورو

أخذ سير صمويل بيكر بعد ذلك يستعد للرحيل الى اقليم « اونيورو » Ounyoro الذى كانت تفصله منه مسيرة مائة وخمسة وعشرين كيلومترا فى مروج غير مأهولة وكان يقوده فى هذه السفرة أمينه وصديقه شولى Shouli .

فسافر فى ١٨ مارس سنة ١٨٧٢ بعد أن ودع الصاغقول اغاسى عبد الله افندى الدنساوى وترك له جانبا عظيما من الابقار والاغنام .

وكانت حدود الأرض الآهولة على بعد أربعة كيلومترات من معسكر فاتيكو ومن بعد ذلك لغاية « أونيورو » يمشى الانسان فى جوف أرض مقفرة.

وأظهر اهالى فاتيكو شمما يفوق شمم اهالى لابوريه من جهة الاخلاق والآداب حتى أن أحدهم أصيب بمرض فى ساقه منعه عن السفر فرد البقرة التى كان أخذها فى نظير كراه وبين فى الوقت ذاته الداعى لتخلفه . وهذا هو الوحيد الذي تخلف عن السفر .

وفى ٢٢ مارس وصل سير صمويل بيكر ورفاقه الى نيل فكتوريا الكبير فى « فويرا » Foweira الذى يجرى بين ضفاف يبلغ ارتفاعها من عشرين الى خمسة وعشرين مترا فى جوف غابة نضرة . ففرحوا فرحا عظيما إذ وجدوا ماء رائقا صافيا بعد أن قدر عليهم أن يسيغوا مدة أربعة أيام ماء كريها من مستنقعات تمرغت فيها الافيال والجاموس .

واجتاز سليمان وادريس النهر بقصد زيارة سير صمويل بيكر . وهذان الشخصان هما وكيلان لأبى السعود وكان يعرف سير صمويل بيكر من رحلته الأولى انهما اشتركا فى حملة ابراهيم فبادر وأحاطهما بانتهاء عقد العقاد الأمر الذى كان قد أخفاه أبو السعود عنهما اخفاء تاما .

وأتى ايضا أكبر شيخ فى الناحية لزيارته وهو المدعو « كوؤنجا » Qouonga ومعه حاشية كبيرة وهو أحد معارفه القدماء والمستشار المحبوب لدى ملك أونيورو المدعو « كمرازى » Kamrasi الذي توفى منذ عامين .

وحمل له هذا الشيخ اخباراً هامة للغاية . ذلك أن موت « كمرازى » سبب حربا مدنية شبت نيرانها بين ولدى الملك المعزوزين « كباريجا » Kabba-Réga

و « كباميرو » Kabb-Miro والعدو اللدود للأسرة « ريونجا » Rionga ابن عم الملك المتوفى . وان الثانى قتل واعتلى الأول عرش والده .

وأحاط سير صمويل بيكر « كوؤنجا » بمشروعات الاصلاحات التى كان ينوى اتخاذها وسلمه بعض الهدايا « لكباريجا » الذى كان يقيم على مسافة مسيرة ستة أيام تقريبا .

وكانت المئونة تصل رغما عن وعود الشيخ ببطء عظيم لدرجة كان يخشى معها أن تقع الحملة فى العوز والاحتياج فاضطر سير صمويل بيكر ان يقوم بمظاهرة عسكرية ليحمله على انجاز الطلبات فى الحال .

وفى ٥ أبريل زار السير بيكر جمع من كبار المشايخ ومن بينهم «راهونكا» Rahonka خال كرازى وفى الغد وصل رسل « كباريجا » ومعهم بقرتان جميلتا المنظر وشىء من الملح وجانب من الموز هدية لسير صمويل .

وفى ٧ أبريل سر سروراً كبيرا إذ قيد فى هذا التاريخ عقودا يتعهد فيها كافة رجال سليمان وادريس بخدمة الحكومة لمدة سنة وعلى ذلك صار فى استطاعته بعد الآن ان يؤسس خلفه محطة فى فويرا لتحرس مراكبه فى مدة سفره الى مازندى عاصمة بلد أونيورو .

وفي ١١ أبريل بينما كانت الحملة متأهبة للسفر حضر سليمان واخبر سير صمويل بيكر بأن لديه اشغالا هامة تعوقه عن السفر فى هذا اليوم برفقته . فأذن له سير صمويل بالتخلف وأمره فى الوقت نفسه بأن يلحقه فى أقرب وقت ممكن إذ أنه يريد ان يقدمه الى « كباريجا » بصفة وكيل عن الحكومة .

وسافرت الحمـــلة من فويرا فى الساعة الثامنة والنصف ووصلت بعد مسيرة ٣٤ كيلومترا الى « كيزونا » Kisouna وهى أول محطة وكان المطر ينهمر عليها اثناء مسيرها ، والضياع العديدة التى تتألف منها هذه البلدة كانت منبثة بين باقات الموز كأوكار الطيور .

ولم يحضر أحد من الأهالى فى الغد لتوريد ما يلزم من الزاد ومما زاد فى الطين بلة أن سير صمويل لم يجد حتى ولا شخصا واحدا من المائتى حمال الذين كانوا رفقته إذ كانوا قد تسربوا ليلا . فاضطر أن يوقف مسير الحملة وان يرجع البكباشى عبد القادر افندى الى فويرا ومعه ثلاثون جنديا ويكلفه أن يأمر سليمان بجمع ثلثمائة رجل .

وقد أنجز هذا الضابط اليقظ البارع مأموريته وعاد فى ظرف ٢٧ ساعة قطع فيها ثمانية وستين كيلومترا .

وفى ١٤ أبريل قدم « كوؤنجا » شيخ هذه الناحية وأخبر سير صمويل بيكر بأن الملك « كباريجا » مشتاق لرؤيته كثيرا .

وفى الساعة الحادية عشرة من يوم ١٥ أبريل قامت الحملة ووصلت فى الغد الى « كوكى » Koki لحضر رئيسها المدعو « كيتاكارا » Kitlakara وزارها . اختفى جميع حمالى الحمـــلة وأحضر لها غيرهم فى ١٩ ابريل فأمكنها ان

تعاود مسيرها فى جوف بلاد مخصبة خصبا مدهشا ولكن خربتها الحروب الاهليـــة التي حدثت بعد وفاة الملك « كمـــرازى » وانتهت بقتل الملك الشرعى « كباميرو » واستواء « كباريجا » على العرش . وفى ٢٠ أبريل رأى سير صمويل بيكر من فوق مرتفع على بعد ٣٢ كيلومترا غربا مياه

البرت نيانزا وكان إذ ذاك على مسافة ٤٣ كيلومترا من « مازندى » المعسكر العام للملك « كباريجا » ومع ان الحمالين الذين أحضروا كانوا يتوارون عن الاعين تدريجا بعد احضارهم فقد تمكنت الحملة من الوصول الى المحل الذى عمته فى ٢٥ أبريل .

وتشغل مازندى عاصمة « اونيورو » نجدا غير مستوى السطح يمتد منه البصر الى مسافات شاسعة وتحجب الأفق الغربى منه على بعد ٨٠ كيلومترا سلسلة جبال ممتدة على شاطىء البرت نيانزا وتغطى الاعشاب الطويلة كل مكان فى ذلك النجد .

وكانت الحملة على مسافة ١٢٥ كيلومترا من « فويرا » و ٥٣٥ من الاسماعيلية تقريباً . وأرسل « كباريجا » هدية الى سير صمويل بيكر مؤلفة من ٢٩ حملا من حبة يسميها الاهالى هناك « طلابون » وكمية وافرة من الموز والبطاطس وست عنزات .

وفى ٢٦ أبريل زار سير صمويل بيكر الملك الزيارة الرسمية فكانت الضباط والعساكر مرتدية ثياب التشريفة الكبري تتقدمهم الموسيقا .

وكان الملك « كباريجا » متسربلا حلة جميلة من قشور الشجر مخططة بخطوط سوداء وكان يلوح أنه فى العشرين من العمر تقريباً . وحادث سير صمويل بيكر عن أعمال شركات أبى السعود العظيمة وكان حديثه فى ذلك مطابقا لما قرره رجاله وأعرب له عن الفرح الذى أدركه بمناسبة قدومه والسرور الذى شمله عند ما علم ايقاف بعض رجال أبى السعود . فجاوبه سير صمويل على هذا الكلام وأبان له حسن مقاصد الخديو ثم قال للملك انه

متأسف كثيراً للانقلابات التى حدثت فى البلاد من وقت زيارته لها واستشف من خلال المستقبل خيرات كثيرة واياما سعيدة وأكد له أن ليس له أن يخشى أمرا مادام حاصلا على حماية مصر .

وكان كباريجا قد وطد العزم أن يرد الزيارة لسير صموبل بيكر في ٢٧ أبريل فاصطفت الجنود وهى متحلية بكساوى التشريفة على جانبى الطريق المتسعة التى كان قد اختطها مبتدئة من ديوان الملك ومتصلة بسرادقه الخصوصى ووقف رجال الموسيقا بالقرب من ذلك السرادق الذى شمرت جوانبه وفرش بالسجاد .

وبعد مضى بضع دقائق دوت اصوات الأبواق وقرعت الطبول ورنت الصفافير مؤذنة بوصول الملك الذى كان يتقدم بكيفية غاية فى الغرابة إذ كان يمشى بخطوات واسعة كأنه كان يريد أن يقلد خطوات الزرافة .

وهكذا كان يمشى كباريجا ومن خلفه كبار رؤساء بلده « كيتا كارا » Kittakara و « ماتونسيه » Matonsé و « كوؤنجا » وكثيرون غيرهم . ولما اقترب من الموسيقا وصدحت هذه بألحانها ذهل عند ذلك ودخل فى السرادق بشكل لا يليق بملك . وكانت هيئته تدل على شيء من الجبن والجرأة فى وقت واحد . وبعد تردد قليل كانت فى أثنائه أعصابه ترتجف قلقا جلس على المقعد الذى كان قد أعد له وجلس كبار رؤسائه على الجلود والسجاجيد وقدمت له القهوة والمشروبات فأبى أن يشرب شيئاً غير أنه أمر اثنين من الرؤساء أن يحتسيا شيئا منها أمامه . وبينما كانا يتجرعان كان هو يحدد فيها نظره منتظراً ولا شك فعل السم فى أمعائهما .

ولكي يغير سير صمويل بيكر مجرى الحديث استحضر علبة كبيرة من المعدن ممتلئة بصنوف من الهدايا ومن ضمنها ساعة وقال للملك ان هذه الساعة كانت برسم والده « كرازى » . فقال له عندئذ « كباريجا » انه يعلم أنه كان الصديق الأمين لوالده وأنه يقبل بطيبة خاطر كل هدية كانت باسم أبيه . واستأذن حينئذ « كباريجا » وانصرف عائداً من الطريق الذى أتى منه .

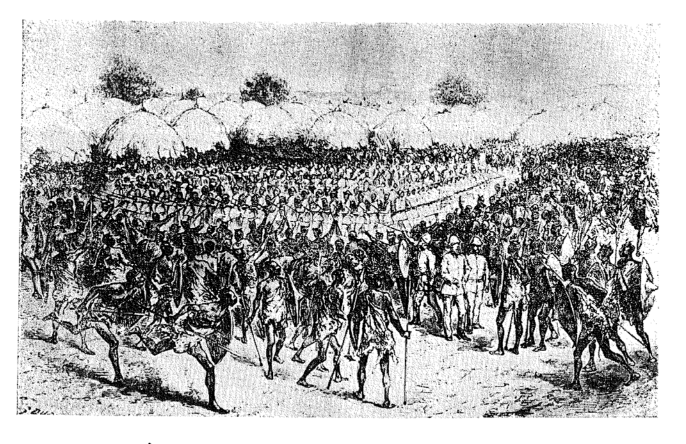
وفى ٢٩ أبريل شرع سير صمويل بيكر فى تشييد دار للحكومة وديوان عام وكان لملك اوغنده Ouganda المسمى « متيسا » Mtésé سفراء فى كل البلاد المحيطة بأراضيه . فزار مفوض هذا الملك سير صمويل بيكر وأمده بارشادات قيمة ومفيدة .

وفى ٣٠ أبريل أرسل كباريجا الى سير صمويل بيكر هدية مؤلفة من ١٢ ناب فيل و ٤١ حملا من حبوب « طلابون » و ١٢ وعاء من شراب الموز و ٣٤ بقرة .

استيلاء الحملة على أونيورو

وفى ١٤ مايو سنة ١٨٧٢ وضع سير صمويل بيكر يده على مقاطعة « أونيورو » باسم خديو مصر بالطرق والاحتفالات المعتادة وبحضور كباريجا ونحو الف من الأهالى . وحالما انتهت الحفلة أرسل الملك ١٢ عنزة هدية للدلالة على رضاه وشكره .

وفى ٢٣ مايو سافرت شرذمة أرسلها سير صمويل بيكر الى فاتيكو وتتألف هذه الشرذمة من ١٢ جنديا من العساكر النظامية وجاويش



مربع من الجنود المصرية والسودانية أمام مظاهرة عدائية من الأونيوريين

و ٢٥ جنديا من العساكر غير النظامية يقودهم الترجمان محمد و ٣٠٠ من الأهالى لحمل متاع الصاغقول اغاسى عبد الله افندى الدنساوى وقد خفض سفر تلك الشرذمة قوات سير صمويل بيكر تخفيضا هائلا فلم يبق لديه إلا مائة عسكرى نظامى و ٤ بحارة و ٤ من الباريين مسلحين .

ومع ذلك لم يكن ما أظهره الملك عند ضم بلده الى الحكومة المصرية من الرضا والارتياح إلا تمويها . فقد قامت عدة مظاهرات عدائية من الأهالى إلا ان يقظة سير صمويل بيكر ومهارته أحبطت تلك المظاهرات .

وقد وطد سير صمويل بيكر العزم على اقامة حصن دائر تحميه ستارة من التراب وخندق عمقه متران حتى لا يؤخذ الجند على غرة ، الأمر الذى لا يبعد حدوثه نظراً لما هو معلوم من ميل الاهالى للخيانة . وأخذ رجاله فى العمل بنشاطهم المعهود فهلعت قلوب الأهالى خوفا من ذلك ولكنه جعلهم يركنون الى الوثوق بأنه لا يريد بهذا العمل إلا تغطية مخازن بارود الحملة وبذلك تكون مدينة مازندى Masindi فى مأمن من الحريق . وقد ابتدأ العمل فى الحصن فى ٢ يونيه وانتهى فى ٥ منه وفى ظرف أربعة ايام صار موضع المحطة أمنع من عقاب الجو .

وفى ٤ يونيه جاء رسل من قبل « متيسا » ملك أوغنده ومعهم رسالة مكتوبة باللغة العربية فأتحفهم سير صمويل بيكر بشىء كثير من الهدايا لهم ولملكهم . وأعطاهم مكتوبا للملك أوضح له فيه الغرض من مجىء الحملة . وفى ٥ يونيه رجعوا الى بلادهم مشروحى الصدر مغتبطين بزيارتهم .

وفى ٧ يونيه لم يكن لدى الجند شىء من الزاد وانقطع ورود المئونة رغما عن تكرار الطلب وكثرة الوعود . وفى آخر النهار ورد لهم ست جرات من شراب الموز وورد ايضا جانب من الغلال . واتضح ان الشراب كان ممزوجا بالسم وكل من شرب منه وقع مريضا ولكن لحسن الطالع أدركوا بالعلاج فى الحال وأبل الجميع من المرض .

وفى تلك العشية ساد سكون عميق فى مازندى خلافا للعادة فكان أشبه شىء بالهدوء الذى يسبق العاصفة . واستشف سير صمويل بيكر سوء القصد من خلال الحوادث فأخذ الحذر وضاعف الحرس وأمر باليقظة واتخاذ الحيطة . ولقد أصاب فيما رآه عين الحقيقة إذ ما كاد الفجر يلوح حتى هاجم الأهالى الحصن هجوما عاما فردوا على أعقابهم بخسائر فادحة . ومن باب مقابلة الشر بالشر ارسل سير صمويل بيكر الملازم فرج افندى السواحلى ومعه ١٥ جنديا وكلفه بحرق المدينة وفعلا أحرقها وفى ظرف ساعة من الزمان أضحت عاصمة أونيورو أثرا بعد عين .

اما كباريجا فانه من بادىء الأمر تعلق بأذيال الفرار واختفى وفى غد اليوم التالى بعث برسل ليقرروا أن ماوقع لم يحدث إلا لسبب سوء التفاهم فزعموا أن مسئولية ذلك الحادث تقع على أحد الرؤساء المدعو « ماتونسيه » وقالوا ان هذا سيعاقب وان الملك يأسف أشد الأسف على ما حصل . ومع ان سير صمويل لم يخدعه هذا القول إلا انه تظاهر بالتصديق حسما لاستفحال الشر .

وفى ١٠ يونيه أتاه رئيس ومعه عدد من الأهالى من قبل « كباريجا » وقدموا له على سبيل الهدية بقرتين لونهما أبيض ومنظرهما جميل وأكدوا



موقعة مازندى عاصمة أونيورو وقد اشتبكت فيها جنود الحملة مع الأونيوريين
فى ٨ يونيه سنة ١٨٧١

له صدق المودة فكان ما قالوه ينطبق على ما قالته الرسل الذين سبقوهم ثم قالوا له مؤكدين انه سيرد له قريباً كمية من المئونة و ٢٥ ناب فيل من الأنياب الفاخرة .

ولما كان سير صمويل بيكر يجنح كثيرا للسلم امتثل للقضاء وقبلت نفسه بأن يرسل للملك صندوق الموسيقا الكبير الذى كان يطمح دواما للحصول عليه .

وفى الغد أى ١١ يونيه أرسل ذلك الصندوق مع مندوبين وأصحبهما بشيخ يكون معهما بصفة دليل الى الملك الذى كان قد انسحب الى مدينة تبعد مسيرة نصف يوم .

ودخل الليل ولم يرجع المندوبان ولم يأت عنهما خبر فانشغل بال سير صمويل بيكر وساورته الأكدار .

وكان قد أقام معسكراً خارج الحصن فأمر باخلائه ووضع كل من كان به فى الداخل . وهذا احتياط يدل على الحكمة وبعد النظر ، ففى تلك الليلة أحرق الأهالى المعسكر لأنهم كانوا يأملون من وراء ذلك ان تخرج العساكر لتطفىء الحريق وتقع فى كمين غير أنه لم يخرج أحد وحبط مسعاهم .

وفى ١٣ يونيه فى نحو الساعة العاشرة صباحا انقض الوطنيون بغتة على ماشية الحملة التي كانت ترعى على مسافة ستين مترا من الحصن وزموا من بداخل الحصن بنبال مسمومة ودوت القذائف فوق رؤوسهم فكان القتال عاما وردوا بعد خسائر جسيمة .

لم يكن هنالك أى شك فى خداع « كباريجا » ثم ان سير صمويل بيكر أيقن أنه مع القوة القليلة التى فى حوزته ومع نقص المئونة لايمكنه الاقامة فى البلد ليوطد فى ربوعها دعائم الأمن ولا أن ينشىء محطة دائمة فيترك فيها قسما من جنوده . وعلى هذا عقد النية على الرجوع وكان إذ ذاك يبعد عن المركز الذى كان قد أسسه فى « فويرا » مسافة سبعة أيام وكان لديه من المئونة ما يكفيه لقطع هذه المسافة . فجمع جنوده وبين لهم الحالة بجلاء ووزع عليهم المتاع الذى يتحتم نقله وقرر حرق ما يتبقى بعد ذلك .

ولم يخف سير صمويل بيكر عن رجاله أنه سوف يهاجمهم أعداء كامنون لهم فى الطريق وأن الفوز يتعلق بطاعتهم ورباطة جأشهم فقط . وأعطاهم تعليمات عن المسافة التى تلزم ان تكون بين الجندى والآخر وماهية المناورات التى يجب أن تعمل عند حدوث هجوم على الجناحين فى آن واحد .

وبعد أن أصغى الجنود والضباط اصغاء تاما للتعليمات التى وجهها اليهم قال الجميع بصوت واحد انهم مستعدون أن يتبعوه أيان يذهب وأيان يقودهم وأن يطيعوه طاعة عمياء .

وبقى على سير صمويل بيكر أن يقوم بتضحية شديدة مؤلمة . فقد كوم الأمتعة الأخرى فى ديوانه ووضع فوقها سرادقه الكبير وصب فوق كل هذا أثير حامض الكبريت والكحول وخلاصة الترابنتينة وكل محتويات صندوق العقاقير ولم يحتفظ منه إلا بعلف مشمع وبعض أربطة وربطة كبيرة من النسالة ووضع فى آخر الأمر فوق ذلك كله نحو الستين صاروخا .

تراجع الحملة عن أونيورو
تحت ضغط الأهالى

وفى ١٤ يونيه فى الساعة التاسعة والنصف سارت المقدمة صفوفا متتالية فى الدرب الرملى ثم وقفت عند نهاية محطة مازندي وكان يسود صفوفها سكون عميق اتباعا للأمر .

والتفت سير صمويل بيكر الى المحطة التى أنشأها بشغف عظيم ليشهد زوالها وهى تحترق إذ وضعت مؤخرة الحملة النار على الكومة فتصاعد اللهيب فى الهواء ثم اعطى أمراً بالسير . وارتفع الدخان فكان كالسحب المتراكمة البيضاء فوق الديوان ومسكن سير صمويل بيكر الخصوصى . واشتعلت النيران فى منزل الملازم بيكر واتصلت على التوالى بباقى المساكن . ولما تمت عملية التخريب والابادة سارت المؤخرة والتحقت بالجيش . ثم ما لبث الجيش أن دخل فى الحشائش العالية التى كانت تهبط تحت هطل الامطار . وهكذا ظلت الحملة سائرة نحو الكيلومترين بدون أن تسمع همسا يشتم منه رائحة العداء . وبعد ذلك قامت خلفها ضجات وصيحات الأهالى الذين هرعوا الى المحطة عند ما رأوها تحترق . وكان يكثر وقوف الحملة بسبب تشتت المواشى وتراجعها فى سيرها حتى انها بعد مسيرة سبع ساعات ما كانت قطعت إلا مسافة ١٦ كيلومترا .

ولم يكن عرض الدرب الذى تسير فيه الحملة بين الحشائش يزيد على قدم واحدة وكان يشبه خطا رسمته أرجل الغنم . وبينما كان الجيش سائراً فى طريقه اذا بالمقدمة تصوب على حين فجأة نيرانا حامية والبوق ينفخ فيه

فى الوقت نفسه إيذانا بالوقوف عن المسير وأخذت الرماح تتطاير خلال الدرب غير أنه بعد بضع طلقات من افواه بنادق السنيدر أخلى الطريق وشق الجيش له ممراً بين الاعشاب ثم تسلق سفح التل . وهنالك لم تكن حشائش . ووقف الجند فى ذلك المكان بين أشجار الموز وبعد أن رتب الحرس قطعت الرجال اشجاراً ونصبوها حاجزاً حول المعسكر .

ولم ينقطع المطر طول النهار وكانت فرائص جميع الرجال ترتعد من البرد ولم يكن لدى الجيش مما يصلح للتدثر به إلا بعض المضارب التى لا تخترقها المياه وكانت فى حالة سيئة .

وكان لا يزال يوجد لدى الحملة حشيات (مراتب) فقضوا تلك الليلة براحة لا بأس بها . غير ان سير صمويل بيكر كان يرى أن هذه هى آخر ليلة تتمتع فيها الحملة بهذه الحشايا إذ ان الاحمال الباهظة التى كانت تنوء ظهور الجنود تحت عبئها كانت تستدعى اتلاف البعض من المتاع وكان يسود المعسكر سكوت أشبه بسكوت أهل القبور . ونام جميع رجال الحملة ولم يبق منها أحد متيقظا اللهم إلا الحراس .

وقد أحرق سير صمويل بيكر قبل ان يسافر عدداً كبيراً من الاشياء التى تعوق السفر ومن ضمنها عضادة منظار الرصد « تلسكوب » المصنوعة من خشب البلوط . وبعد مسير ساعة ونصف وصل الجيش الى منحدر فى نهايته ارض فسيحة بها مستنقعات يقطعها من الوسط مجرى ماء . وما كادت تصل المقدمة الى مائة متر والجند من خلفها صفوفا متراصة إلا وقامت ضجة هائلة حتى كأن الجحيم لفظ كل من به من مردة

وشياطين . وارتفع الصياح دفعة واحدة وضجت الطبول وقصفت أصوات الأبواق والصفافير مع جلبة وضوضاء شديدة بهت من هولها الجند ووقفوا لحظة وكأن على رؤوسهم الطير . وكان يستشف من خلال تماوج الحشائش وحفيفها الشديد وجود كمين واسع النطاق .

وفى الحال ألقت الجند الاحمال وخروا ركعا فكان وجه الواحد منهم متجها يميناً ووجه الآخر يساراً وذلك عند ما بدأت المزاريق تخترق الدرب . وإن هو إلا أن نفخ فى البوق حتى اشتعلت نار الحرب .

ولا يمكن القول كم من الزمن استمرت نار الحرب مستعرة غير أنه من المحقق ان الجنود استنفدت مقدارا كبيرا من الذخيرة قبل أن تضع الحرب اوزارها .

وفى نهاية الأمر أخذت اصوات الطبول تبتعد . وعندئذ نفخ فى الابواق إيذانا بالمسير . وقد وقع ضغط شديد على المؤخرة لأن الأهالى انقضوا عليها فى الدرب نفسه غير ان بنادق السنيدر اقتصت منهم قصاصا عاجلا ومجيداً .

وكان سير صمويل يبكر مقتنعا بضرورة تخفيف احمال الرجال إذ كان من الصعب حمل النقالات لأن أرجلها كانت تشتبك بالحشائش . ففاتح رجاله بهذا الصدد فكان جوابهم بالاجماع أنهم لا يهابون الوطنيين إذا كانت احمالهم اقل ثقلا .

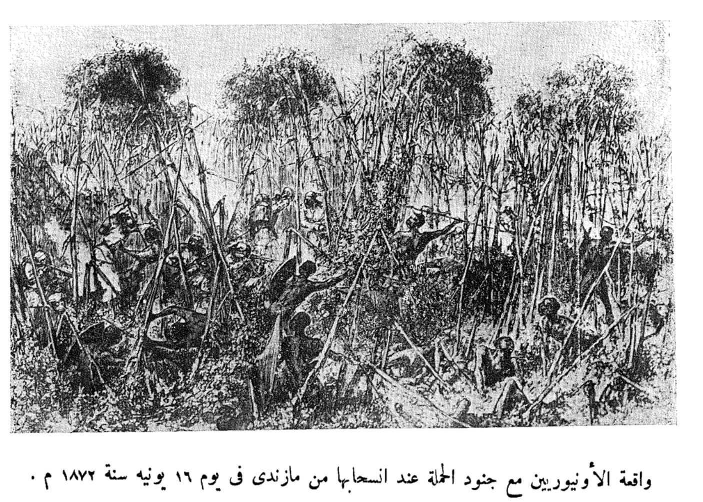
وبناء على ذلك أمر بجمع الاحطاب وأضرمها وأحرق فيها جميع الأمتعة

التى يتعسر نقلها . وبعد أن نفذ هـذا الأمر أمر فنفـخ فى البوق ايذانا بالمسير وأخذت الحملة سبيلها وكانت السماء رائقـــة والشمس ترسل اشعتها فتجفف ثياب جنودها المبتلة .

ودوى فجـــأة صوت اطلاق البنادق فى المقـدمة وهوجمت المؤخـرة فى الوقت نفسه فصوب الجنـد الى الاعداء طلقات متواترة ومحكمة فلم يسع هؤلاء إلا اخـــلاء الطريـق . ولـكن لما رأى سير صمويل بيكر ان عساكره متهيجة كثيرا يدب فيها روح الحماس أمر أن ينفـخ فى البوق ايذانا بابطال اطلاق النيران وبالمسير الى الأمام .

وصلت الحمـــلة في نهاية الامر الى موضـــع جعـــل السير صمويل بيكر يفـترض أنه محتـــل بقوة كبيرة من الاعـــداء إذ كانت الحمـــلة تسير بموازاة صف من التـــلال الصخرية واقعة على يمينهـــا وتتجـــه الى مخاضة لا يمكنها الوصول اليهـــا إلا اذا تخطت قطعـــا هائـــلة من الصوان مشرفة على تلك المخاضة من جميـــع نواحيها . وارتفـاع كل قطعـــة من هـذه القطع كان على أقـل تقـــدير من ٦ الى ٨ اقـــدام وارتفـاع البعض منها يزيد على ذلك وكانت تمتـــد تحت اقدامهـــا وفى كل صوب حشائش عاليـة وباقات من الأشجار . وقد أوصى سير صمويل بيكر الجنود بألا يطلقوا النيران إلا اذا رأوا العدو وان يحكموا اطلاقها ويسددوا مراميها اليه .

وابتـــدأ الهجوم عند ما وصلت الحملة الى المنحنى الذى في تلك الجهـة فأصيب البكباشى عبد القـادر افندى بحربتين احداهما أصابته فى ساعده والاخرى انزلقت على جرموقه « توزلـكه » المصنوع من جـلد سميك . واخذت بنادق



واقعة الأونيوريين مع جنود الحملة عند انسحابها من مازندى فى يوم ١٦ يونيه سنة ١٨٧٢ م .

السنيدر تفعــــل فعلها إلا أن الحملة بعد أن أطلقت الطلقات الأولى أسرعت الخطى لكى تخرج من هـذه الوهـدة . وكانت المراحل التى قطعتها قصيرة إلا أن سير صمويل بيكر رأى ضرورة الوصول الى محل صالح للنزول فيه فى وقت يترك مجالا لاقامـة حاجز من فروع الاشجار والعوسج تتحصن فيه الجنـود ليلا .

وانقضى الليــــل فى هـدوء وسكينة وفى ١٦ يونيه رحلت الجنــــود فى الساعــــة السادسة والنصف بدون ضجـة ولا ضوضاء . وحين وصولها عنـد جدول يجرى فى منخفض أرضه موحلة وقعت فى كمين هـائل . ذلك أن بعض الأعداء خرج من مخبئه وانقض على الصف الأول من المقدمة وفى الحال وقـع كثير منهـم يتخبطون فى دمائهـــم إذ أصيبوا بطلقات من أفـواه بنادق السنيدر غير أن أحـدهم أنفذ رمحــــه فى صدر جندى لم ينطلق مقذوف بندقيته . وكان الجنــــود قد أسرفوا فى اطلاق النيران اثناء السير كما أسرفوا فى اطلاقها فى السير السابق فصار من اللازم الضرورى وضع حد لذلك .

فجمع سير صمويل بيكر جنوده وفتش اكياس الخرطوش ثم نبه عليهم ألا يطلقوا طلقا واحـدا بدون أمر اللهم إلا اذا حصل رمي بزراق فجائى وفى هـذه الحالة تصوب بعض طلقات نحـو المكان الذى أتى منـه المزراق تصويبا محكما . وانه من غير المصرح به اطلاق النار عفـوا بأى حجة كانت . وبعـد ان وجه الى عساكره هذا التأنيب صرفهم فأخذوا يشتغلون باقامة حاجز لحماية المعسكر .

وفى ١٧ يونيـه عنـد الساعة السادسة والربـع صباحـا عاودت الحملة المسير

بقصد الوصول الى « كوكى Koki » وعرف سير صمويل بيكر عدة قرى تجاوزتها بدون أن تقف فيها ووصلت الى طريق معبد يسع سير عربة ذات عجلتين . وكانت الظواهر كلها تدل دلالة واضحة على أن هذا الطريق أعد نخا لجذب الحملة ووقوعها فى كمين هائل . وما كادت التجريدة تسلك خطوات فى هذا الطريق حتى هوجمت . وإن هو إلا أن صوب الجند على الاعداء ناراً حامية حتى ولوا وتشتتوا وهم يعوون عواء الذئاب ويصفرون .

ورأى سير صمويل بيكر فى ذلك اليوم ان حسابه لا يتفق والمسافات ودهش لذلك دهشا عظيما . إذ كان يجب أن يكون قد بلغ « كوكى » ومع ذلك فانه كان ما زال أمامه احراش كبيرة وحشائش ليس لها آخر . وقد كان واثقا أنه تجاوز « كوكى » وهى قرية تكتنفها المزارع وانه لم يخطئها إلا بسبب الطريق التى مهدت بقصد تضليله .

وفى الحال تطايرت الحراب فوق رؤوس الجنود فجاوبتها بنادق السنيدر بسرعة البرق وارتفع صوت بوق مقدمة الحملة مناديا بالوقوف . وفى هذه الدفعة جرح الملازم محمد مصطفى افندى .

وفى ظرف ربع ساعة انتشر الضوء ودخلت الحملة في واد واسع تكتنفه الغابات يبلغ سطحه ½ ٩ من الافدنة وكان فى قلب ذلك الوادى بئر فيها ماء عذب وعمقها يتراوح بين أربعة وخمسة أمتار واستدارتها واسعة ويمكن الانسان أن ينزل فيها بواسطة مدرجات محفورة فى جدارها الرملى . ووقفت الجنود فى هذا المكان . وكانت قد سلكت سلوكا محمودا واثمرت توصيات سير صمويل بيكر الثمرة التى كان ينتظرها فمع مواصلة اطلاق النار لم يستنفدوا إلا

قليلا جداً من الذخيرة .

وفى ١٨ يونيه عند بزوغ الشمس سارت الحملة . ومن العبث ذكر جميع دقائق سلسلة المكامن والمخابىء التى صادفتها . ففى كل يوم كان يحصل هجوم وكانت كل الهجمات ترد بهمة لاتعرف الكلال . فطول يوم ١٨ هذا قاتل الجند قتالا شديداً . وأصيب فى ذلك اليوم أربعة جنود بجراح من الحراب وكانت مسألة الجرحى مسألة محيرة . وكان الجندى اذا خر قتيلا فمها كان يبلغ كدر اخوانه من أجله فانهم كانوا لا يعودون للاهتمام به . ولكن ما العمل فى الجرحى ومن الصعب أن يتبعوا الحملة بدون حمالين ؟

وكان يستحيل الوقوف فى تلك الاقطار الشاسعة المغطاة بالأعشاب العالية والأشجار غير ان سير صمويل بيكر شاهد امامه تماما تلا تكلله أجمة من أشجار الموز فعاون عقيلته فى الصعود اليه . وبعد قليل سارت الحملة فى أجمة كثيفة حيث الارض مجردة من الحشائش كما هو الحال دواما فى الاراضى المزروعة موزا .

ثم أمرت الحملة بالوقوف فقوبل هذا الامر بالارتياح التام وبالاخص من النساء اللواتى كان قد انهكهن احمالهن الثقيلة . ووضع سير صمويل بيكر كثيرا من الحراس مختفين عن الاعين اختفاء تاما ليراقبوا العدو الذى كان ولا بد يتتبع خطواتهم ابتغاء الاستيلاء على متاع جريح كان قد تخلف .

وساد المعسكر سكوت عميق يشبه سكوت أهل القبور حتى ما كان يسمع

لمن به همس ولا ركز .

وكان يوم ١٩ يونيـــه من اشق الايام على الحمـــلة فاجتازت عدة اخـوار ووديان واحراش اشجارها مشتبكة يتعسر السير فيها . وفى تلك الارض هوجمت اكثر من مرة .

وبعـــد عشر دقائق وصلت الحملة الى مزرعة بطاطة وخرجت بغتة من الظلام الذى يسود الادغال والآجام الى الضوء الزاهر الذى يتلألأ فى الاراضى المكشوفة وهذا من شأنه أن يبعث دواما فى النفوس شيئا من الغبطة والهناء .

ووقف سير صمويل بيكر فى وسط هـذه المزرعة لينتظر مؤخرة الجيش . وصار الجيش الآن فـوق ارض خاليـة من الحشائش والاحراش وبهـــا اكواخ تأويه وحـــقول واسعة يمكنه ان يأخذ منها القـــدار الذى يريده من البطاطة .

ولما وصلت المؤخرة جمع سير صمويل بيـكر كل رجاله وأثنى على الضباط والعساكر لاطاعتهم أوامره وقدم لهم التهانى على وصولهم الى هـذا المكان بعد سفر طويل رغمـــا عن كـثرة الاعـداء ومع خسارة طفيفـة جـــدا . وأحاطهم بأن المسافة الباقية بينهم وبين « فويرا » هى فقط ٣٣ كيـــلومترا وانه يعرف الطريق الموصل اليها . ثم قال ان « ريونجا » سيصل اليه عما قريب خبر وصولهم . وانه سيحصن المكان الذى هم نازلون به الآن وانهم سيظلون به بضعة ايام ليتسنى فى غضونها للجرحى استرداد قوتهم . وانه يلزم ان يشتغل كل انسان بصنع محفوظات من البطاطة . فقبل ان ينفرط عقد صفوف الجيش صفق الجند تصفيقا طويلا وجاوب سير صمويل بيكر على ذلك التكريم بأن أوصاهم

بالاعتماد على الله وعمل الواجب دواما . ثم اقام الجند حولهم حاجزا متينا وأقاموا به عدة ايام متحصنين . ورجعت للجرحى قواهم وشفيت قدما اللادى بيكر تقريبا وتقرر سفر الحملة فى ٢٣ يونيه .

وصولها الى فويرا
وإقامة محطة جديدة

رحلت الحملة سحرا وبعد مسيرة ٢١ كيلومترا وصلت الى بئر فأناخت محملها بجانبها لتقضى الليل ولم يجرح من رجالها فى هذه المرحلة إلا شخص واحد . وفى يوم ٢٤ وصلت الحملة بعد مسيرة ١١ كيلومترا الى « فويرا » بدون أن تصادف فى طريقها عدوا . وفويرا هذه هى معسكر سليمان القديم . وكان سير صمويل بيكر معتمدا على أن يجد فيه له ولرجاله ما يأويهم إلا أنه رأى أن كل الاكواخ قد احترقت ولم يبق من المعسكر إلا رماده .

وبلغت خسائر سير صمويل من ٨ الى ٢٤ يونيه ٦ من القتلى و ١١ جريحا . وكانت جميع ضباطه وعساكره قد أدت واجباتها وأبدت كثيرا من الشجاعة ورباطة الجأش فى وسط حوادث مدلهمة تشيب لهولها الولدان . وليس لكائن أيا كان سوى العساكر السودانيين ان يقوم برحلة مداها ١٣٠ كيلومترا محملا أحمالا باهظة ويقاتل فوق ذلك كل يوم .

وقد شرع سير صمويل بيكر فى اقامة محطة جديدة واستخدم خشب حظيرة سليمان القديمة فى عمل حواجز . وبما ان الواح البلوط السميكة كان لا أثر لها فقد أمر بأن يغرس فى الأرض الى مسافة بعيدة أوتاد من

الخشب قوية بحيث ما يبقى منها ظاهرا فوق سطح الارض يكون ارتفاعه نحو ٧ أقدام وأن تسد فرجة ال ٢٥ سنتيمترا الفارقة بينها بالواح طويلة توضع بالعرض الواحد فوق الآخر وأن تشاد طابيتان فوق كل زاوية من زوايا المربع لحماية واجهة الحصن على وضع منحرف .

وتم اقامة هذه المنشئات فى ايام قلائل . وهى تكفى لحماية الاكواخ المؤقتة فى المحطة الجديدة . وبعد أن وضع سير صمويل بيكر عساكره فيها شرع يفكر فيما يأتى به الغد فقال فى نفسه : من المحتم أن يكون الصاغقول اغاسى عبد الله افندى وقع فى الشرك الذى نصبه له « كباريجا » وعلى ذلك صار لا يمكنه هو ان يعول إلا على العدد القليل من الرجال الذى بقى الآن تحت يده . واذا كان عبد الله افندى قد ادركته المنية هو وجيشه فانه لا يخسر مددا ثمينا فحسب بل يصبح فى الفاقة والعوز من جهة المئونة إذ لا بد ان اسلحة الحملة تقع حتما فى يد العدو . وكان هذا الاحتمال الاخير يجول فى خاطره فيبعث فى نفسه هما وغما .

سفر سير صمويل بيكر الى فاتيكو
لاعداد حملة على أونيورو

وعلى ذلك عقد النية على ان يظل البكباشى عبد القادر افندي فى الحاجز الحصين الذى أقامه على ضفة النهر فى نفس هذا المكان لمعاضدة « ريونجا » وتنظيم القوات الاهلية . أما هو فيذهب مع اربعين رجلا مسلحين ببنادق السنيدر الى « فاتيكو » ليستقى أخبار الحوادث التى وقعت فى مدة غيبته ويؤلف فيها جيشا من العساكر غير النظاميين ويرسله بلا توان

بقيادة « واد الملك » ليحتل « أونيورو » .

أما ريونجا فكان ينوى أن يغير على « مرولى » Mrouli فى الحال بمعاونة « اللنجيين » Langguiens و « الأومريين » Oumiriens الذين يدخلون هذا البلد بدون أى مقاومة الآن وقد خلا « كباريجا » من معاونة صيادى العبيد .

واعطى ريونجا سير صمويل بيكر ٥٠ رجلا من الأهالى ليحملوا متاع الحملة لغاية فاتيكو وأخذ هذا فى المسير فى ٢٧ يوليه . بعد ان ترك كل خرزه الى البكباشى عبد القادر افندى ليشترى به ما يمونه هو ورجاله .

وفى الغد بعد ان اجتازت الحملة النهر قابلت ٨ من اهالى « شولى » و « فاتيكو » كان الصاغقول اغاسى عبد الله افندى قد ارسلهم الى سير صمويل بيكر . وقد تبدل فرحه الذى شعر به عند مقابلة أولئك الرجال با كتئاب وهم حالما علم بالاخبار التى كانوا يحملونها . ذلك ان الخيانة التى أوشكت الحملة ان تكون وقودا لها قد نسج خيوطها أبو السعود . وبما انه كان يخالجه الأمل أن سيقضى قضاء مبرما على جميع افراد تلك الحملة فى قلب أونيورو فقد وطد هذا الشقى استبدادا منه سيطرته فى فاتيكو وضواحيها بعد سفر سير صمويل بيكر .

وكان الشيخ الكبير المدعو « روت جرما » الذى ظل مخلصا للحكومة أعطى جانبا من الغلال الى الصاغقول اغاسى عبد الله افندى رغما عن نهى أبى السعود له عن ذلك نهيا باتا فكان جزاؤه أن أغار عليه هذا الاخير بواسطة طائفة كبيرة من العبيد الارقاء ونهب مواشيه وكلف « واد الملك »

بأن يعمل فى البلد حرقا وتقتيلا .

وكان الصاغقول اغاسى عبد الله افندى قد أراد منع ذلك ولكن على غير طائل وقوبل بالامتهان والازدراء من أبى السعود بل زاد على ذلك ان أمر بأخذ الأهالى الذين التجئوا الى المعسكر عنوة .

وكتب الصاغقول اغاسى عبد الله افندى الى سير صمويل بيكر ينبئه بجلية الأمر غير أن الشخص الذى كلفه بحمل رسالته وكان من اهالى « فويرا » وصل فى نفس اليوم الذى كانت فيه الحرب سجالا إلى « مازندى » فتسلق شجرة وأخذ يرقب من فوقها ادوار القتال . وأدركه الجزع والخوف إذ سمع الرصاص يدوى فوق رأسه فنزل من مرصده وتعلق بأذيال الهرب عائداً الى « فاتيكو » ومعه الرسالة التى كان يحملها وعلى ذلك لم تصل ليد سير صمويل بيكر مطلقا . وإذ رأى ان جنود سير صمويل محاطة من كل جانب ظنها قد ضاعت فراح يخبر عن هلاكها . وقد يدرك المرء مقدار الفرح والسرور الذى شمل أبا السعود عند ما بلغته هذه الاخبار .

وبعد بضعة ايام وصلت العساكر الذين كان قد ارسلهم سير صمويل بيكر الى « مازندى » وقد هاجم هذه الحملة أثناء سيرها فى الطريق فريق الحمالين الذين كانوا من الأهالى غير ان تعطش هؤلاء لسفك الدماء حملهم على ان يقدموا الموعد المضروب سلفا للهجوم فكان تعجلهم هذا سببا فى عدم هلاك تلك التجريدة برمتها ووصولها الى الجهة التى كانت متوجهة اليها بدون ان تخسر سوى احد عشر رجلا .

وكان سليمان بعد ان اخلى أبو السعود سبيله يتـــولى الامور فى محطة « فابـــو » من قبله أما « واد الملك » فكان يريد ان يظل مخلصا للحكومة ولذلك طلب من أبى السعود ١٠٠ رجل ومن الصاغقول اغاسى عبد الله افندى ٥٠ ليتمكن من المسير الى أونيورو وينضم الى ريونجا ويأخذ الجميع فى البحث عن سير صمويل بيكر وعن الذين بمعيته فرفض أبو السعود هذا الطلب رفضا باتا وعلى هذا ترك هؤلاء تحت رحمة القضاء والقدر .

وإذن كان يتعين على سير صمويل بيكر أن يعجـــل السفر اذا كان يرغب فى انقـــاذ الصاغقول اغاسى عبد الله افندى وانقاذ مؤن وذخائر الحملة وفى الحال اصدر أمره بالرحيل .

وفى ٢ أغسطس وصلت التجريدة الى سفح النجـــد القائمة عليه محطة فاتيكو . وكان عند اجتيازها القرى العـــديدة ينضم اليها الأهالى إذ كان قد وقر فى أنفسهم ان الصاغقول اغاسى عبد الله افندى سيهاجم من هؤلاء وكانوا فى شوق الى مشاهدة القتال . وإن هو إلا قليل حتى تجمع منهم نحو الالف وسار هذا الجمع خلف التجريدة .

وعند ما تسلقت الجنـــود المنحدر أمر سير صمويل بيكر بالنفخ فى الابواق إيذانا بالانضمام وفى الحال حدثت ضجة كبيرة فى المحطة وطفقت العساكر يعانق بعضها بعضا بينما كان سير صمويل بيكر يصافح الصاغقول اغاسى عبد الله افندى .

ولم يأت احد من قبل أبى السعود لتحية سير صمويل بيكر . وكان يجب عليه لاعتباره وكيـــلا عن الحكومة أن يقابله رافعا الاعـــلام .

وكانت هذه إهانة مقصودة .

وعقب ما وصل سير صمويل بيكر لبس كسوته واستعرض جنود الصاغقول اغاسى عبد الله افندى فوجدهم على غاية ما يرام من الصحة وقوى الجندية المعنوية .

وفى نفس اليوم الذى وصل فيه سير صمويل بيكر هاجم فريق من صيادى العبيد بقيادة اثنين من رؤسائهما وهما « واد الملك » وعلى حسين مركز فاتيكو وذلك بتحريض أبى السعود فرد الجنود المغيرين وكبدوهم خسائر فادحة وجرح واد الملك وأخذ أسيرا . أما على حسين فقتل .

وعرض واد الملك على سير صمويل بيكر أن يصفح عنه وأنه يحلف له على المصحف بالطاعة والاخلاص ويقدم له فى الحال برهانا على اخلاصه بجمع جيش من العساكر غير النظاميين من رجاله . وكان هذا الرجل شجاعا فى طبيعته وملما بحالة البلاد اكثر من أى انسان . وكان سير صمويل بيكر يرغب دواما أن يضمه اليه فأراد أن ينتهز هذه الفرصة لتنفيذ ارادته والتمست الضباط شموله بالعفو .

واقتيد واد الملك الى جدول ماء رائق فاغتسل فيه من اخمصه الى قمة رأسه بالصابون واتشح بثياب نظيفة أعيرت له بهذه المناسبة ثم وضع يده المجروحة فى المصحف وهو مفتوح على آية مخصوصة وتلا وهو خاشع اليمين . ومن ذلك الحين لم يحدث منه ما يوجب أن يؤاخذه سير صمويل بيكر عليه . وبعد ذلك أمده ببعض وصايا وحاول أن يوطد فى نفسه فكرة أن الله عاقبه عقابا خاصا .

وفى ٥ أغسطس كتب سير صمويل بيكر كتابا الى أبى السعود أمره فيه بالمثول لديه عاجلا وهذا الكتاب حمله اليه حداد الحملة وهو من الأهالى وثمانية من مواطنيه . وقد عاد هؤلاء فى اليوم التالى وقالوا ان أبا السعود قابلهم بطلقات البنادق .

وفى ٧ أغسطس قدم أبو السعود ومعه أربعون رجلا ولم يشأ أن يدخل المعسكر إلا بعد أن حصل على إفادة خطية من سير صمويل بيكر يؤكد له فيها ألا يأخذه أسيرا . فأنكر كعادته شروره . وأقسم بأنه لم يعط أمراً بتصويب النار وانه اذا كانت رجاله قد اطلقت النار فما ذاك إلا لأنهم كانوا يخافون أن تهاجمهم الأهالى الذين كانوا بصحبته وأن النار فوق ذلك صوبت على الأهالى لا على جيش الحكومة .

ولكنه لم يكن قد أصيب أحد من الأهالى الذين كانوا متجمعين فوق الصخور والذين كان يبلغ عددهم نحو ١٠٠٠ بينما قد أصيب ٧ من رجال الحملة كما وقع على اكواخ المعسكر وابل من المقذوفات .

وعند ما أتم خطابته مؤكدا انه ضحية بريئة لويلات نزلت به بدون ذنب جناه وان كل العالم انقلب ضده دهش سير صمويل بيكر دهشا حقيقيا .

وأتى أبو السعود فى غد صباح اليوم التالى يستأذن سير صمويل بيكر فى السفر وأكد له مرة أخرى أنه مخلص له وأنه مذ الآن سيعمل بعزم باعتباره وكيلا له وأنه عند ما يرجع الى « فابو » Fabbo يضع أحسن رجاله فى خدمة الحكومة .

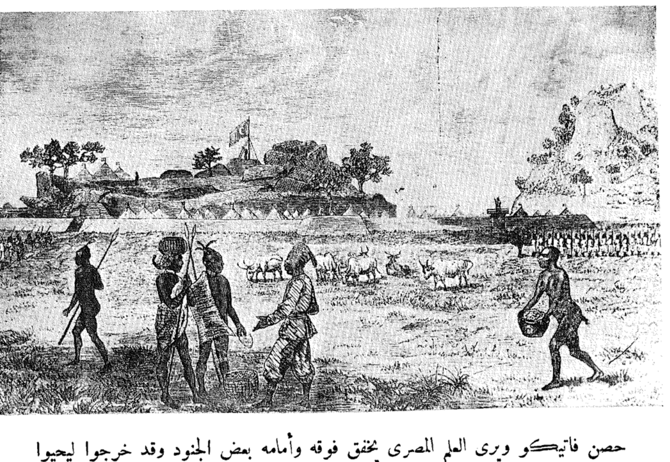
وكانت هذه آخر مرة وقع فيها نظر سير صمويل بيكر على أبى السعود . فمن هنالك سافر أبو السعود الى الخرطوم . ومنها الى القاهرة ليشيع خبر قتل سير صمويل بيكر وعقيلته وهو ذلك الخبر الذى نقلته الصحف الانكليزية فى ابريل سنة ١٨٧٣ ويتظلم للخديو بوجه خاص من الطرق التى عامله بها سير صمويل بيكر .

وقدم عدد كبير من صيادى العبيد بعد سفر أبى السعود وقيدوا اسماءهم ليشتغلوا فى الجندية واستظلوا براية الحكومة .

وكان اختلاف الجنسين من عرب وسودانيين يذكى نار الخلاف فيما بينهما فاتخذ سير صمويل بيكر هذا الشقاق ذريعة لبسط سلطته على كليهما . فاختار من بينهما ٦٦ رجلا ووضعهم تحت إمرة على جن نار Ali-Genninar وهو شاب المعى كان قد ألحقه من « مازندى » فى خدمته وأرسلهم الى أونيورو ليحلوا فيها لدى « ريونجا » محل البكباشى عبد القادر افندى وجيشه واستدعى هؤلاء الى فاتيكو .

وكان لا بد أن يكون الاسطول الذى سافر من الخرطوم فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧١ قد وصل الى غندوكورو فأرسل سير صمويل بيكر الى هذه القرية « واد الملك » ومعه ٧٥ جنديا من الجنود غير النظامية و ٢٥ جنديا نظاميا بقيادة ضابط برتبة اليوزباشى وكان هذا يحمل أمراً برسم رؤوف بك بان يرسل هذا الى سير صمويل بيكر ٢٠٠ جندى وماشية .

ولم يتم تشييد حصن فاتيكو الذى شرع فى بنائه فى ٢٨ أغسطس إلا فى ٢٥ ديسمبر بسبب يبوسة وصلابة الطبقة التى تحت سطح الارض يبوسة وصلابة



حصن فاتيكو ويرى العلم المصرى يخفق فوقه وأمامه بعض الجنود وقد خرجوا ليحيوا
سير صمويل بيكر عند وصوله يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٧٢ م

متناهية إذ كانت تبلغ فى صلابتها صلابة البـــتن Béton . ويرتكز هـذا الحصن الذي يحميـه خندق عرضه ثمانى أقدام وعمقه ثمانى أقدام كذلك على صخرة تشرف على البلد . وأمر سير صموبل بيكر بأن يشاد فوق هذا الاساس المتين مخزن للبارود ومخزن آخر لا تعمل فيهما النـيران . أما السقف فصنع من مادة الاسمنت الصلبة المركبة من خزف بيوت النمل بعد أن نقعت بالماء عـدة أسابيع وخلطت بقش مغرى .

وانتهت اعمال سير صموبل بيكر ولم يبق لديه غـير انتظار وصول المدد الذى كان قد طلبه من غندوكورو . وكانت الاهالى تقدم بدون تذمر ضريبة الغلال الخفيفة التى فرضت عليهم . وكثيراً ما كانوا يأتون بالمئات يرقصون ويغنون حاملين فوق رؤوسهم فى سلات كبيرة مقادير من ذرتهم المسمى طلابون فيفرغونها فى مخازن الحملة .

وقد جاء فى آخر نشرة من سير صموبل بيكر بتاريخ ٣١ ديسمبر سنة ١٨٧٢ هذه الكلمات وهى :

أتى آخر العـــام ونحن بحمـد الله متمتعون بسلم تام فى هـذا البلد . والحالة تبشر بمستقبل زاه زاهر .

سنة ١٨٧٣ م

تبادل المـــــودة بين ملك أوغندة
وسير صمويل بيكر

وفى ٢٣ يناير سنة ١٨٧٣ بلغ حرس القلعة اقتراب جيش كبير آت عن طريق أونيورو . وبعد ذلك بقليل دوت طلقات نارية وأسفرت الحال عن قدوم سفراء من قبل « متيسا » ملك أوغندة مصحوبين بحرس من الأهالى ومجنـدين من جنود ريونجا وكان رجال متيسا مسلحين بالبنـــادق . وأدخل السفراء فى الحال الى الديوان الجديد وهو بناء دائرى قطره ٦ أمتار شيد تشييدا حسنا وطلى بدهان رمادى فاتح مخلوط برماد الخشب .

وكان السفير الاول ويدعى على يوسف من اهالى « السواحلية » وهو بلد واقـــع على شواطىء البحر الاحمر عند مخرجه الى المحيط الهنـــدى . وكان من بين ضباط سير صمويل بيكر عدة من رجال هذه القبيلة فمنهم ذلك الجرىء فرج افندى وكذلك سعيد افندى فكان لديه إذن تراجمة باريون .

وكان أولئك السفراء لابسين ثيابا فاخرة جدا من القطن صنع بمباى مهذبين كثيراً ويضارعون فى ذكائهم الاوربيين وكان يلوح انهم يعرفون معرفة تامة طريق الهنـــد ومختلف القبائل التى تقطن سفح خط الاستواء الافريقى الشرقى . فكانت إذن الطريق مفتوحة بين فاتيكو وزنزبار بفضل عواطف متيسا الودية .

وفى ١٣ فبراير اتخــذ سفراء « متيسا » سبيلهم ميممين وجوههم شطر أوغندة يصحبهم سليمان نيابة عن سير صمويل بيكر وذلك بعد ان قضوا فى فاتيكو بضعة ايام فى أتم صفاء وهناء .

وقدم فى نهـاية الأمر بعد انقضاء ٩٠ يوما المدد مع البكباشى الطبيب عبد الله افندى وكان قد سلك فى اثناء الطريق مسلكا شائنا إذ انه بدون سبب معقول قد أحرق قرية فى بلد « الموجيين » Moogis فحنق عليه الأهالى وهاجموه فخسر فى القتال ضابطا و ٢٨ جنديا وكساوى واسلحة وابقارا . ومع أنه كان لديه وتحت تصرفه ٢٨٠ جنديا فقد قاتل مرتدا بدون ان يحاول ان يأخذ أجسام موتاه أو يسترد ماشيته .

وقد صار الآن فى حوزة سير صمويل بيكر ٦٢٠ جنديا وبذلك تسنى له تقوية مختلف محطاته . وفى ٢٠ مارس كان قد تأهب للعودة الى غندوكورو وترك الى الصاغقول اغاسى عبد الله افندى قبل أن يسافر تعليمات خطية بشأن صيانة محطة فاتيكو وحرم أخذ ومشترى الرقيق تحريما باتا .

وصول سير صمويل بيكر الى غندوكورو

ووصل سير صمويل بيكر ومن معه الى غندوكورو سالمين فى أول أبريل سنة ١٨٧٣ بدون أن يصادفهم فى الطريق أى أمر يزعجهم . وكان هذا اليوم هو اليوم الذى تنتهى فيه بالضبط مدة خدمة سير صمويل بيكر حسب الاتفاق المعقود بينه وبين الخديو . وقد قوبلوا عند قدومهم باطلاق المدافع . وشاهد سير صمويل بيكر أن رءوف بك وجيشه فى غـاية من الصحة والسلامة وأنه يوجد على صفحات ماء النهر باخرة جديدة فخمـة بمحركين مصنوعة

من الحديد حمولتها ١٠٨ اطنان صنعها ابناء بلدته الذين كانوا قد اجتهدوا أن يظهروا ما يستطيع أن يعمله البناؤون الانكليز . وقد سميت هذه الباخرة فيما بعد « الخديو » .

وقد فحص سير صموئيل الباخرة المذكورة فوجدها مبنية بناء عجيبا إذ يتسنى لها نظراً لعدم وجود دواليب بجانبيها أن تنزلق مثل السمكة فى مجارى بحر الزراف الضيقة . نعم . ان المحطة كانت قذرة ومهملة للغاية إلا انه يجب إظهارا للحقيقة الاعتراف بأن رءوف بك كان قد وجه كل عنايته الى جنائن الجزر فكان يأخذ يوميا ما يلزم الجيش من الخضروات الجنية .

وكان قد أظهر هذا الضابط ايضا حزما وعزما إذ أخذ على عاتقه مسئولية عظمى ذلك أنه أمر باعدام جندى كان قد فر من الجيش رميا بالرصاص اثناء غيبة سير صموئيل بيكر .

وكان المدد الذى ورد حديثا مؤلفا من العبيد المبيعة للحكومة دون سواها الذين ألحقوا بالجيش توا عقب مشتراهم . وكان اغلب هؤلاء العبيد من اهالى النيل الابيض وبالضرورة كانوا على الاستعداد للهرب عند ما تلوح لهم أول فرصة . وكان الكثير منهم قد تعلق باذيال الفرار فيما سلف ومعهم سلاحهم وأمتعتهم وبنادق وقراابينات سرقوهـــا من منزل رءوف بك ولاذوا بجهة بلنيان .

وطلب رءوف بك الهاربين فكان الجواب الذى تلقاه القيام بمظاهرة عدائية وجهها الوطنيون أثناء الليل الى محطة غندوكورو . ومن باب مقابلة الشر بمثله أغار على بلنيان بحرب منظمة صوب فى غضونها الهاربون النار

على الجيش فقتل منه اثنان .

وأرسل سير صمويل بيكر فى الحال يستحضر اللورون الذى صار من أخلص المخلصين بين المشايخ للحكومة وأقر هذا بخطئه وألقى بالطبع الذنب على أبى السعود وقال انه هو الذى حرضه على القيام فى وجه الحكومة . ولكن لم يصغ سير صمويل بيكر الى هذه الايضاحات إذ كان يشك فى أنها صادرة عن اخلاص وأمر اللورون أن يرجع بلا إبطاء الى البلنيان ويخبر الأهالى بأنهم اذا لم يسلموا الهاربين فأنه سيرد لهم الزيارة بالقمصان الحمراء التى عاد بها من فاتيكو . أى أنه يحاربهم ووعده فى الوقت نفسه بثلاث أبقار اذا نجح فى مأموريته .

وقد عاد اللورون بعد بضعة أيام ومعه الهاربون فحوكموا فى مجلس عسكرى واتضح ادانتهم وأعدموا بالرصاص امام الجنود . وفعل استعمال هذه الشدة مفعوله فتوطد النظام فى الحال بين صفوف الجيش . اما البلنيانيون فقد تراءى لهم ألا يعودوا الى الاقتراب من المعسكر ليلا بعد هذا التاريخ .

أما « واد الملك » الذى كان يرافق سير صمويل بيكر الى غندوكورو فقد رجع الى مركزه ومعه مدد وقطيع من الماشية . وفارق سير صمويل بيكر « شولى » و « چيمورو » Djimoro آسفا بعد ان زودهما ببعض هدايا ذات فائدة .

وفى ١٠ أبريل شرع فى اقامة حصن جديد وحفر خندق حوله وعمل جسر حول المخازن غير ان طبيعة الارض الرملية فى هذه الجهة ستجعل صيانة هذا الحصن من الامور الصعبة فى فصل الامطار الشديدة .

وأوعز الى المستر « ماركوپولو » أن يحرر بمعاونة فؤاد افندى وهو

من الضباط المصريين قوائم بكل ما تبقى بالمخازن وأن يأخذ ايصالا بالموجودات . واستغرق هذا العمل شهراً .

وبعد ان تم الانكليز حزم جميع قطع الباخرة رقم ٣ وآلاتها بعناية وضعوها فى مخزن خصوصى وعهدوا بحراسته الى ضابط وأخذوا ايصالا بذلك .

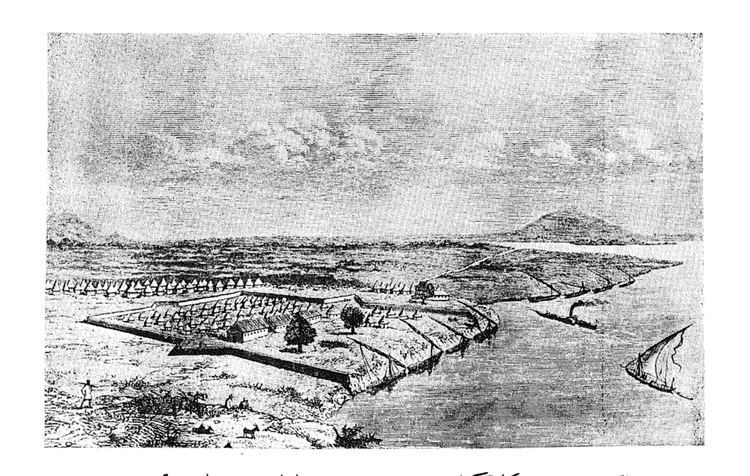
سفر سير صمويل بيكر الى فاشودة

وسافر سير صمويل بيكر فى ٢٦ مايو بعد أن ودع عساكر حرسه الخاص الذين أبدى أكثرهم ألمه الشديد لهذا الفراق . وعند ما دار على واجهة الجيش أثناء الوداع الرسمى صاحت جنوده القدماء غير مبالين بواجب النظام : أطال الله عمرك وردك الى أسرتك وهى بأجمعها فى غاية من الصحة والسلامة .

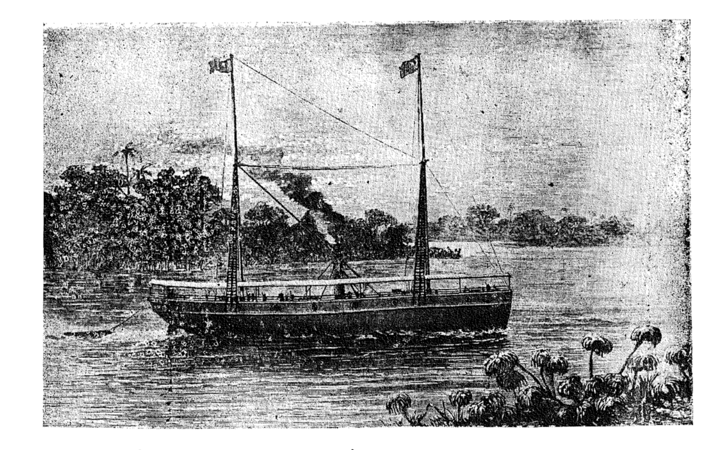
وقطرت الباخرة الجديدة « الخديو » سير صمويل بيكر ورفاقه وسارت فى النهر بسرعة مع التيار . وفى ٣٠ يونيه وصلوا الى فاشوده فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر . وقدم يوسف حسن بك المحافظ ليقابلهم على ظهر سفينتهم وكان هذا الضابط قد عين حديثاً فى هذا المركز برتبة قائمقام وهو ضابط ذكى من أصل جركسى وقد أبدى انه مستعد استعداداً كبيراً لمعاونة سير صمويل بيكر وأكد له انه لا يمكن أن يترك مركباً محملا رقيقاً يمر أمام فاشوده بدون أن يناله عقاب الآن وهو قد أصبح نائباً عن الحكومة فيها .

سفره الى الخرطوم

وفى ٢١ يونيه ودع سير صمويل بيكر يوسف بك . وفى ٢٨ منه فى الساعة الحادية عشرة صباحاً وصل الى الشجرة الكبيرة القائمة على الفوهة الموصلة



محطة غندوكورو كما تركها سير صمويل بيكر باشا يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٧٣ م
ويرى بها معسكرها .



الباخرة « الخديوى » وحمولتها ١٠٨ أطنان كما وجدها سير صمويل بيكر
فى غندوكورو فى أول أبريل سنة ١٨٧٣ م .

للنيل الأبيض فوقف فى هـذا المكان وأرسل الى اسماعيل أيوب باشا حكمدار الخرطوم الجديد أن يبعث تلغرافاً الى القاهرة بالقبض حالا على أبى السعود . وسلم هذا الخطاب الى الضابط فرج افندى وهو من أكثر ضباطه اخلاصاً وأمره أن يسلمه يداً بيد الى الحكمدار . واحتاط بأن ارسل هذا الخطاب قبل أن يشتم أحد من الخرطوم رائحة قدومه وبدون هذا الاحتياط كان ممكناً أن يرسل لهذا الطاغية أحد أصدقائه تلغرافاً ينبئه فيه بتقدمه من وقت ما اجتازت باخرته الرأس الواقع عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق فيسرع هذا ويضع نفسه فى مأمن .

وفى ٢٩ يونيه اجتاز سير صمويل بيكر ورفاقه الرأس البادى الذكر تقطرهم الباخرة « الخديو » . وهرعت أهالى الخرطوم إلى الشاطىء أو إلى الرصيف الجديد ليشاهدوا هذه الباخرة الجديدة التى تسير بدون دواليب وكانت الجنود صفوفاً وعند ما رست الباخرة بجانب الرصيف قابلهم اسماعيل باشا حسب التقاليد المتبعة فى مثل هذه الحالة .

وكان اسماعيل باشا قد قام باصلاحات واسعة النطاق فى الخرطوم . فبهمته تم تشييد دار الحكومة التى كان قد شرع فى بنائها ممتاز باشا . وكلاهما من أصل جركسى ويستويان فى اتقاد الذكاء وبعنايته تحولت اراض مقفرة الى حدائق غناء تطرب فى ربوعها الجماهير كل مساء الموسيقا العسكرية . وصار البدء فى انجاز مشروعات للرى بواسطة تركيب آلات بخارية على شاطىء النيل الشمالى لزراعة الأقطان .

سفره الى القاهرة

وودع سير صمويل بيكر اسماعيل أيوب باشا صديقه الحميم بعد أن

أقام بضعة أيام فى الخرطوم ورحـــل الى القـاهرة على ظهر باخرة . وعنـد ما وصل الى بربر وجـــد حالتها قد تحسنت عما كانت عليه فى المــدة السابقة إذ طفق العـــرب يعمرون سواقيهم على طـول ضفتى النهر الخصبتين وكان ذلك نتيجة اصلاحات حكيمة أدخلها الخديو تقضى بتقسيم السودان الى مديريات يحكم كل مديرية مدير مسئول غير تابع كما كان الحال سابقا الى حكمدار عام محل اقامته بعيد بمراحل كالخرطوم .

وكان مدير بربر وقتئذ هو حسن خليفـة الشيخ العربى الكبير الذى ساعد بذكائه المفرط مستر هجنبوثام فى نقـــل اجزاء آلات البواخر من كروسكو الى بربر فى فيافى صحراء النـوبة المترامية الاطراف مسافة تبلغ على أقل تقدير ٦٥٠ كيلومترا . وقد كان فرح العرب عظيما بتعيين شخص من أبناء جلدتهم بوظيفة مدير .

مقابلته الخديو والانعام عليه وعلى ضباطه

ووصل سير صمويل بيكر الى القاهرة فى ٢٤ أغسطس وتشرف فى اليوم التالى بمقابلة الخديو وقدم له بيانات بخصوص الاراضى التى ضمهـــا الى مصر موضحا بها الظروف والاحوال التى صادفها . ومنحه الخديو مكافأة له على خدماته النيشان العثمانى من الدرجة الثانية . وقبل أن يسافر الى مأموريته كان قد منحه ايضا النيشان المجيدى من الدرجة الثـانية . ومنح الملازم بيكر النيشان المجيدى من الدرجة الثالثة .

وكان قد قرر سموه أن يحاكم أبا السعود فى مجلس خصوصى مؤلف من شريف باشا ونوبار باشا واسماعيـل باشا وزير المالية . وطلب سير صمـويل



البكباشى عبد القادر افندى قائد حرس سير صمويل بيكر الخصوصى

وهو غير عبد القادر حلمى باشا بعكس ما ذكره بعض المؤلفين لأن الأخير نال رتبة أميرالألاى فى سنة ١٨٦٦م أى قبل حملة مديرية خط الاستواء بثلاث سنوات.

بيكر أن يحضر بشخصه المحاكمة بصفة مدع ضد أبي السعود غير أنه طلب اليه أن يعود الى بريطانيا ويترك المتهم بين يدى الحكومة لأن الخديو كان قد أبى أن يحاكمه فى المحاكم العادية .

وتفضل الجناب العالى فأذن بترقيـــة ضابطين من اكثر ضباط سير صموئيل بيكر اخلاصا وهما البكباشى عبد القادر افندى[١] واليوزباشى محمد ضياء افندى فترقى الأول الى رتبة قائمقام والثانى الى رتبة صاغقول اغاسى ومنح ايضا مكافآت للعساكر الذين قاتلوا فى مازندى وامتازوا فى ذلك الانسحاب الشهير .

ومنح كل مهندس وعامل من المهندسين والعمال الانكليز مكافأة بقيمة راتب شهر ثم سافروا الى بلاد الانكليز .

وبعد ان أقام سير صموئيل بيكر بالقاهرة مدة ٦ أسابيع سمح له سمو الخديو بالمقابلة وفى أثنائها استأذنه كما استأذن من الأمراء بالسفر وقد قال سير صموئيل بيكر انه مدين لهم جميعا لما عاملوه به من البشاشة واللطف وحسن الالتفات وان هذا الدين يقوم بوفائه مسرورا .

وقد بلغت نفقة هذه الحملة التى كانت بقيادة سير صموئيل بيكر ثمانمائة ألف جنيه .

---

(١) ـ قتل بعد ذلك فى احدى الوقائع التى دارت بين العرابيين والانكليز فى سنة ١٨٨٢م وهو بلا ريب غير عبد القادر حلمى باشا المشهور الذى كان حكمدارا عاما للسودان ثم ناظراً للحربية والبحرية فى عهد الخديو توفيق وتوفى فى ٨ يوليه سنة ١٩٠٨ م.

ادارة أميرالآلاي محمد رءوف بك[1]

لهـــذه المديرية

من سنة ١٨٧٣ الى سنة ١٨٧٤ م

بعـــد سفر سير صمـويل بيـكر عـــين أمـيرالالاى رءوف بك مديرا لمديرية خط الاستواء لكونه أرقى الضباط الذين كانوا مع سير صمويل . ولم يكن حكمدارا لهذه المديرية لأن مديرية خط الاستواء التى كانت مستقلة عن حكومة السودان فى عهـد سلفه قد ألحقت بهذه الحكومة فى عهده وصارت تابعة لحكمدارية السودان العامة لغاية قدوم غوردون .

والظاهر أن رءوف بك قام بأعباء المهمة التى ألقيت على عاتقه خير قيام كما سيتبين ذلك من مكاتبات غوردون الرسمية المنشورة بعد فى غير هذا المكان .

ويبدو أنه لم يحدث أى شىء له خطورة فى عهد هذا المدير .

---

(١) ـ هو فيما بعد محمد رءوف باشا محافظ زيلع ثم فاتح هرر وحاكمها العـام ثم حكمدار عمـوم السودان من ٢١ يناير سنة ١٨٨٠ الى ٢١ فبراير سنة ١٨٨٢ م وفى عهـده ظهر المهـدى واستفحل أمره . ولو استعمل الحزم والحكمة فى بدء ظهوره لمـا كان ماكان . وقد عاد رءوف باشا من السودان الى مصر ورأس وهو فيها المجلس العسكرى الذى حكم على عرابى باشا بالاعدام .



رءوف باشا

حكمدارية غوردون باشا

من سنة ١٨٧٤ الى سنة ١٨٧٦ م

سنة ١٨٧٤ م

مفاوضته فى توليه هذه الحكمدارية

فى عام ١٨٧٣م كان ينتهى أمد عقد خدمة سير صموبل بيكر . وكانت الحكومة المصرية قد أخذت بواسطة نوبار باشا تبحث عن خلف له قبل ذلك التاريخ . وكان غوردون يشغل فى تلك الفترة منصب عضو بريطانى فى قومسيون[1] نهر الدانوب . وقد قابل فى سبتمبر سنة ١٨٧٢م الوزير المصرى نوبار باشا فى السفارة البريطانية فى الآستانة وتعرف به . ثم سأله نوبار عما اذا كانت له معرفة بضابط من فرقة مهندسى الجيش البريطانى يقبل أن يخلف سير صموبل بيكر فوعده غوردون بالتفكير فى هذا الأمر وان يأتيه بالجواب فيما بعد .

وفى يوليه عام ١٨٧٣م كتب غوردون لنوبار أنه يقبل هو نفسه أن يشغل هذه الوظيفة اذا رضيت بذلك الحكومة البريطانية . وفى الحال عملت المساعى اللازمة للوصول الى ذلك الغرض وقبلت بريطانيا هذا التعيين . ووصل غوردون الى القاهرة فى شهر فبراير سنة ١٨٧٤ . فقابله الخديو

(١) ـ هذا القومسيون ألف من جراء تعدى روسيا على الملاحة فى فم نهر الدانوب (الطونة) فى البحر الأسود ، وكان قومسيونا دوليا مؤلفا من مندوبى فرنسا وانجلترا وروسيا وتركيا وبروسيا وسردينيا . والغرض منه الاشراف على الملاحة فى هذا النهر .

اسماعيل وطلب منه أن يعين بنفسه اشتراطاته فالتمس أن يعطى راتبا قدره ٢٠٠٠ جنيه فى السنة فأجاب طلبه بالطبع إذ ان هذه القيمة كانت زهيدة جداً بالقياس الى قيمة راتب سلفه الذي كان ١٠٠٠٠ جنيه .

تقسيم السودان وفصل مديرية خط الاستواء عن ادارته

كان السودان برمته ابتداء من رحيل سير صمويل بيكر لغاية تاريخ تعيين غوردون تحت سيطرة حكمدار عام واحد غير أن الخديو غير هذه الطريقة وقسمه الى قسمين وهما :—

(١) ـ السودان مع فاشودة كحد جنوبى وقد ولى عليه اسماعيل أيوب باشا .

(٢) ـ مديرية خط الاستواء وهى تشمل جميع المناطق الخاضعة لسلطة الحكومة المصرية ابتداء من جنوب فاشودة وتشمل أيضا المناطق التى يجب ان تتكون منها وقد ولى عليها غوردون باشا .

وهاك صورة الأمر العالى الذى وجه اليه بتاريخ ٢ محرم سنة ١٢٩١هـ—١٩ فبراير سنة ١٨٧٤م رقم ٩١ ونحن ننشرها هنا بالنص الذى وجدت به فى الأوراق التى بسراى عابدين :—

عزتلو قولونيل غوردن مأمور جهة خط الاستوى .

أمر كريم منطوقه أنه بحسب المشهور فيكم من اللياقة والاهلية قد عيناكم مأمورا على جهة الاستوى التابعة للحكومة وصار فرز هذه الجهة من تبعية حكمدارية السودان وصارت قائمة بنفسها غير تابعة الحكمدارية انما كان لوازماتها التى تقتضى الحال تداركها من طرف الحكمدارية هذه يجرى تداركها بمعرفة الحكمدار وصرف ثمنها من طرفه مقابلة محاسبة



غوردون باشا

المالية بذلك كما أمرنا الحكمدار المومى اليه بأمرنا الصادر له فى تاريخه ومرسول لكم طى هذا لتوصيله اليه عن يدكم . وبما أن أمور التجارة فى ذاك الطرف هى يد واحدة يقتضى ان الذى تتحصلوا عليه من تلك الجهات من انواع التجارة وبعد صرف كفاية مرتبات العساكر والتعيينات ترسلوه الى حكمدار السودان لقبوله من أصل ما يصرفه فى أثمان اللوازمات التى تطلبوها منه . وعند وصولكم الآن لتلك الجهات واختباركم احوالها تجروا ترتيبها بحسبما يتراءى لكم وتستحسنوه سواء كان باجمال مديريتين أو اجمال أقسام أو نحو ذلك مما يتوصل به انتظام الجهات المذكورة واستعدادها مع معاملة أهاليها بالرفق ولين الجانب والتأليف والمراعاة لما فيه عماريتهم وترغيبهم وتشويقهم على العمارية ودخولهم فى سلك الانسانية شيئا فشىء . وهكذا مما يلزم اجراه على حسب التعليمات التى اعطيت لكم بالفرنساوى وها هو موجود هناك رءوف بك قومندان العساكر الموجودة بذاك الطرف . وتحرر له أمر من طرفنا ومرسول طيه لتوصيله له بمعرفتكم وأمرناه به أن يكون هو والعساكر تحت أمركم فيما يجب اجراه فى صالح المصلحة ولو ان المومى اليه وما معه من العساكر صار لهم مدة زايدة فى تلك الجهات ولذلك منظور من ارسال خلافهم من هذا الطرف لتغييرهم لكنه فى مسافة ارسال البدل يكون المومى اليه والعساكر منقادين لاوامركم حسب أصول وقوانين الجهادية . وعلى هذا وما هو منظور لنا فيكم من حسن الغيرة والاهلية مؤملين الاستحصال عليا فيه عمارية جهات خط الاستوى المحكى عنها وراحة اهاليها وحسن توطينهم وتأليفهم على الدخول فى سلك الانسانية شيئا فشىء كما هو مطلوبنا .

حاشية — انه بعد توجهكم ووصولكم ذلك الطرف تعملوا الترتيب اللازم

عن مصاريف تلك الجهة بحسبما يلزم لها من الخدمة والعساكر . وكلما يلزم تداركه وارساله من جهة الحكمدارية على حسب الترتيب المذكور تطلبوه من الحكمدار وتعينوا له الاوقات والمواعيد اللازمة تدارك وارسال اللوازمات المذكورة فيها بحيث اذا كانت الايرادات على فرض لا تكفى المصروفات فالحكمدار يرسل لكم كلما تطلبوه . وبمحاسب ديوان المالية بذلك يكون معلوم »

* * *

وفيما يلى ترجمة خلاصة التعليمات التى أعطيت لغوردون باللغة الفرنسية بتاريخ ١٦ فبراير سنة ١٨٧٤ وهى التعليمات التى أشير اليها بالأمر العالى السابق :—

« ان المديرية التى شرع أميرالألاى غوردون فى مباشرة تنظيمها وحكمها لا يعرف من أمرها سوى الشىء القليل . ولغاية هذه السنوات الاخيرة كانت واقعة بين مخالب قوم من الأفاقين همهم فقط الحصول على الارباح غير المشروعة فكانوا يتجرون بالعاج والرقيق معا وذلك بأن ينشئوا متاجر يديرونها بواسطة رجال مسلحين . وكان يضطر رجال القبائل المجاورة سواء أكان ذلك بطيبة خاطر أم باكراه أن يشتركوا معهم فى تلك التجارة . وكانت الحكومة المصرية قد استولت على مكاتب أولئك التجار بعد أن دفعت تعويضات لأربابها مؤملة أن تتوصل من وراء ذلك الى وضع حد لهذه التجارة الممقوتة المنافية لشروط الانسانية .

وكان قد أبيح للبعض من هؤلاء أن يستمر فى تعاطى متاجره فى المراكز بعد ان قطع هذا البعض على نفسه عهودا بأن لا يتجر فى الرقيق ووضع بعد ذلك تحت مراقبة حكمدار السودان . غير ان سلطة الحكمدار لم

تكن قد تمكنت إلا قليلا من جعل الناس تشعر بها فى تلك الاقطار النائية القصية . لذلك قرر الخديو أن يؤلف من هذه الارجاء حكومة منفصلة وان يجعل التجارة مع الخارج كاحتكار من حق الحكومة . وما كانت توجد وسيلة أخرى لوضع حد لتجارة الرقيق التى ما زالت ترتكز الى الآن على قوة السلاح دون سواها متحدية الشرائع والقوانين .

فمتى انقطعت اللصوصية وأضحت فى سير الغابرين وانفتحت ثغرة فى عوائد هؤلاء الاقوام تلك العوائد المجحفة التى تأصلت فى نفوسهم مع كر السنين فعندئذ يؤذن بحرية التجارة للجميع .

وكان على أميرالألاى غوردون اذا رأى الفرق التى كانت مأجورة لأولئك الأفاقين مستعدة لخدمة الحكومة أن يجنى كل فائدة يمكن جنيها منهم . واذا رآهم يتوخون سلوك سيرتهم الأولى كان عليه أن يشعرهم بكل ما فى الاحكام العسكرية من بطش وشدة . فأمثال أولئك المخلوقات كان لا ينبغى ان يلاقوا من الحكمدار الجديد رحمة ولا شفقة . وكان يلزم ان يعرف الناس قاطبة حتى من كان منهم في الاصقاع البعيدة النائية ان فرقا بسيطا فى لون البشرة لا يحول بنى البشر الى سلعة تباع وتشرى وان الحياة والحرية هما من الأشياء المقدسة .

وقد وقع آخرون فى خطأ وخيم العاقبة كان يجب أن يتجنب . ذلك أن من الواجب اطعام الجيش اطعاما جيداً فلا يكون هنالك حاجة للاستيلاء كما كان حاصلا فى الزمن الماضى على مستودعات حبوب القبائل . إذ ان مثل هذا العمل يدعو تلك القبائل الى سوء الظن بالحكومة فضلا عن أنه مناف لارادة الخديو الذى يود كسب ثقة الاهالى وحسن ظنهم . فيجب ان

تزرع الجنود الارض وان تزداد المحصولات .

واذا كانت غندوكورو كما هو الظاهر موضعا أخطىء فى اختياره لكون تربته جدباء فكان يجب نقل عاصمة المديرية الى مكان اكثر ملاءمة .

واذا وجد بين الأهالى الذين يعتقون من ايدى النخاسين اناس لايمكن الاهتداء الى عشيرتهم نظراً للأماكن القصية التى نقلوا منها وتعذر ردهم الى أوطانهم فهؤلاء يستحسن تشغيلهم فى استغلال الارض بجوار البلاد التى بها محطات .

ويجب على الحكمدار الجديد أن يجعل نصب عينيه اقامة خط للنقط العسكرية خلال المديريات التابعة له يربطها مع بعضها من طرف الى آخر بحيث تستطيع جميعها ان تراسل الخرطوم مباشرة . ويجب أن يتبع هذا الخط ضفة النيل ويتمشى معها الى اقصى حد ممكن . وبما انه فى غير حيز الامكان الملاحة فى النيل فى مسافة طولها ٧٠ ميلا بسبب الشلالات فعلى الحكمدار أن يتلمس وسيلة يستطاع معها التغلب على هذه العقبة ويرفع تقريرا بذلك للخديو .

وعلى الحكمدار قبل كل شىء فيما يختص بعلاقاته مع القبائل الضاربة على سواحل البحيرات أن يحاول اكتساب مودتهم وان يجعل نفسه موضعا لثقتهم . وان يحافظ على ممتلكاتهم وان يستجلب رضاهم بواسطة الهدايا . وعليه ايضا مهما كان نفوذه عندهم ان يجتهد فى حملهم على الاقتناع بالكف عن الحروب التى يضرمون نارها بغية الحصول على العبيد . ولبلوغ ذلك الأرب لا بد من كثير من المهارة والذوق . وفى الواقع حتى لو وفق الحكمدار الى ابطال

النخاسة أن الحروب ستستمر بين رؤساء القبائل وأن من الجائز كثيرا لعدم وجود سوق للرقيق ان تذبح الأسرى .

و اذا رأى الحكمدار ضرورة لفرض رقابة حقيقية على قبيلة ما من تلك القبائل فيكون الافضل ان يترك للرؤساء الحكم المباشر . وعليه ان يتحقق من خضوعهم وطاعتهم مع جعلهم يخشون سيطرته » .

واليك نص الخطاب الموجه الى اسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان بتاريخ ٦ الحجة سنة ١٢٩٠هـ ـ ٢٥ يناير سنة ١٨٧٤م رقم ٩ واننا ننشره هنا كما وجدناه بنصه فى محفوظات سراى عابدين :—

أمر كريم منطوقه ـ حيث أنه من مقتضى ارادتنا اجرى الوسايط والاسباب الموصلة للحصول على ما فيه ادخال جهات خط الاستوى التابعة للحكومة فى سلك العمارية وانتظام احوالها وتقدم وتأليف اهاليها وسكانها شيئا فشيء ولذلك سبق تشكيل مديرية مخصوصة اليها كما حررتم لمعيتنا عن ذلك . غير أنه بالنظر لكون تلك الجهات فى نقط مبتعدة وتلاحظ انه شق عليكم نوعا ملاحظتها وقتيا فلهذا قد صار انتخاب وتعيين القولونيل غوردن بوظيفة مأمور خط الاستوى لما هو معلوم فيه من حسن الادارة الموصلة للنتائج المرغوبة فى عمارية تلك الجهات وحسن توطن اهاليها بحيث ان هذه المأمورية تكون قائمة بنفسها خارجة عن ادارة الحكمدارية وحساباتها واوراقها تتعلق بالمالية بدون واسطة الحكمدارية وفقط يلزم عليكم مراعاة تنجيز وتدارك لوازماتها وطلباتها أول بأول وكلما يقتضى الحال لمشترى وتدارك مأكولات أو مهمات وغيره من المعتاد ارساله الى ذاك الطرف فبمعرفة الحكمدارية يجرى تداركه وصرف ثمنه مقابلة قيده

فى العهـــد وما يرد من تلك الجهات من الاصناف المعتاد توريدها على ذمة الميرى مثل سن فيــل أو ريش نعام أو غيره يجرى قبوله بالحكمدارية بالخصم من المقيد بالعهــد وفى آخر السنة ينظر لمقـــدار ما صرف على تلك المأمورية وبعد استبعاد وخصم ما يكون ورد منها من تلك الاصناف فاذا ظــهر باقى للحكمدارية يحسب من الايرادات المقررة على السودان . واذا ظهر فايض تجـــرى ضمه وعلاوته على ايراد السودان ويتقدم بذلك حساب واضح البيان الماليـــة لمراجعته بها حسب الاصول . هذا مع بقاء العساكر وقومندانهم الموجـــودين هناك والحالة هذه تحت إدارة القولونيل غوردن المأمور المومى اليـــه حتى ينظر فيما بعد فى تغييرهم بخلافهم . وأمرنا رءوف بك قومندان العساكر المذكورة فى تاريخه بما ذكر وأصدرنا أمرنا هذا اليكم لاجراء مقتضاه »

وهاك ايضا نص الخطاب المحرر الى رءوف بك قومندان عساكر مديرية خط الاستواء بتاريخ ٢ محرم سنة ١٢٩١هـ ـ ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤م رقم ٩٠ :ـ

أمر كريم منطوقه ـ حيث أن مديرية خط الاستوى صار نزعها من إدارة حكمدارية السودان وصارت مأمورية قائمة بنفسها بالتبعية الى الماليـة بدون توسط الحكمدارية وقد تعين القولونيل غوردن مأمورا عليها بحسب اهليته لذلك وصارت مأموريتكم هى قوماندة ورياسة العساكر الموجودة بذلك الطرف تحت أمر المأمور المومى اليــه وانه وان كان منظور فى تغييركم وارسال من يلزم بدلا عنكم لرياسة هؤلاء العساكر لمناسبة طول اقامتكم بتلك الجهـــات غير انه فى مسافة تعيين وارسال خلافكم يقتضى أنكم تكونوا أنتم وما معكم من العساكر تحت أمر المأمور المومى اليه كما ذكر وتنقادوا

لما يأمركم باجـــراه حسب شؤون المصلحة بالتطبيق لقـــوانين الجهادية حتى يتعـــين خلافكم كما تقـدم الايضاح وأصدرنا أمرنا هـــذا لـكم بالاشعار لتجروا بمقتضاه .

حاشية ـ الضباط المـــوجودين معكم يقتضى انكم تفهموهم أمرنا هـذا واننا ممنونين منكم ومنهم جميعا من منذ توجهكم فى هـــذه المأمورية للآن وتخـــبروهم بأنه سيجرى تغييرهم ايضا عند تغييركم حتى عند حضوركم يحضروا معكم سوية الى هذا الطرف وبذلك لزم التحية م؟

وها هو أيضا نص الخطاب المرسل الى محافظ سواكن بتاريخ ٢ محرم سنة ١٢٩١هـ ـ ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤م رقم ٩٢ :—

أمر كريم منطوقه ـ بما ان القولونيـل غوردن مأمور جهة خط الاستوى متـوجه الآن الى مأمـــوريته من على طريق سواكن فيقتضى بوصول المومى اليه لطرفكم حالا تجروا ترحيله من سواكن الى الخرطـوم بدون تأخير . وكلما يصرف من طرفـكم على ترحيل المومى اليه تحاسبوا ديوان المالية وأصدرنا أمرنا هذا لـكم للاجراء كما ذكر م؟

* * *

واختـار غوردون القائمقام شاليه لونج Chaillé Long ليكون ضابط أركان حرب له وهو ضابط امريكى الجنس ومن ضباط اركان الحرب العام بالجيش المصرى . وقد قال غوردون له ان الجنرال ستانتون Stanton قنصل بريطانيا العام عارض فى تعيينه وقال انه ينبغى ان يعين شخص انـكليزى فى هذه الوظيفـة فأجابه أنه لا يريد أن يستصحب معه ضباطا من الانـكليز وانه يميـل

الى الامريكان لأنه خدم معهم فى الصين .

وقال شاليه لونج ان غوردون أرسل خلفه واستحضره فى ليل ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤ وأخبره بأنه تعين وأمره بالاستعداد للسفر وعرفه بأن الخديو يطلب مقابلته فى صباح الغد فى الساعة الثامنة فى سراى عابدين . وبعد ذلك استأذن لونج من رئيسه فى الانصراف وتوجه فى اليوم التالى الى السراى فى الساعة المعينة وأذن له فى الحال بمقابلة الخديو .

واليك ما كتبه شاليه لونج بصدد هذه المقابلة فى كتابه « حياتى فى أربع قارات » ج ١ ص ٦٧ :—

« كان الخديو اسماعيل يذرع قاعة الاستقبال بخطوات واسعة ومتهيجا تهيجا عصبياً عندما دخلت يصحبنى طونينو بك Tonino Bey التشريفاتى الثانى . فسألنى الخديو هل رأيت الاميرالاى غوردون فأجبت : نعم رأيته يامولاى وقضيت معه الهزيع الاكبر من الليل . فقال الخديو احسنت والآن أصغ الى ما سأقول .

لقد وقع الاختيار عليك بصفة رئيس أركان حرب لعدة أسباب أهمها حماية مصالح الحكومة واعلم ان القوم فى لندن على وشك ان يجهزوا حملة تحت قيادة رجل متستر بالجنسية الامريكية يسمى استانلى Stanley وهو فى الظاهر ذاهب ليمد يد المعونة الى الدكتور لفنجستون Livingstone أما فى الباطن والحقيقة فلرفع العلم البريطانى على أوغندة . فعليك الآن أن تذهب الى غندوكورو إلا انه يلزمك ان لا تضيع شيئا من الوقت بل يمم فى الحال أوغنده واسبق هناك حملة انجلترا واعقد محالفة مع ملك تلك

البلاد . ومصر لا تنسى لك أبد الدهر هـــذه العارفة وهذا الجميل . اذهب وليسر عقبك النجاح إن شاء الله » .

ولكن هل كان غوردون ملما بهـــذه التعليمات أم لا ؟ هـذا السؤال من الأسئلة التى يتعذر الاجابة عليها ، غير أن شاليه لونج روى فى ص ٦٧ من كتابه الآنف الذكر أنه كان يجهلها وقد تحدد ميعاد السفر فى اليوم التالى . وكان غوردون يريد أن يسافر من السويس على سفينة البريد المعتـــادة حتى بذلك يمكنه أن يقتصد نفقات السفينة الخصوصية فعارض نوبار باشا قائلا إنه لايجوز لحكمدار عام فى رتبتـــه أن يذهب الى مركز عمله بهذه الطريقة .

قيام الحمـــلة من القاهرة الى السويس

وفى صباح ٢١ فـــبراير سنة ١٨٧٤ كان قطار خاص يتأهب لينقـــل من القاهرة الى السويس أميرالالاى غوردون الحكمدار العـــام لمديرية خط الاستواء المصرية لكى يذهب الى غندوكورو عاصمة حكمدارية حكومته فى المستقبل .

وكان يرافقه فى هذه الرحلة القائمقام شاليه لونج بصفة رئيس أركان حرب الحملة والملازم الأول حسن واصف افندى الذى كان أيضا من ضباط اركان الحرب العام بالجيش المصرى بصفة ياور لغوردون . وحسن واصف افندى هذا هو الذى تعين فيما بعد مـــديرا لأسيوط وأنعم عليه بلقب الباشوية .

وحضر بالمحطة خلق كثيرون من موظفـــين وغير موظفين لوداعهم . وحضر أيضا ابراهيم بك توفيق وكان عنـدئذ من ضباط أركان الحرب ثم صار

فيما بعد محافظ عموم القنال وأنعم عليه برتبة الباشوية . وكان هـذا الضابط قد كلف من طرف سمو الخـــديو بمصاحبة غوردون ومن معه من رجال مقدمة الحملة لغـاية السويس حيث كانت الباخرة « لطيف » فى انتظاره .

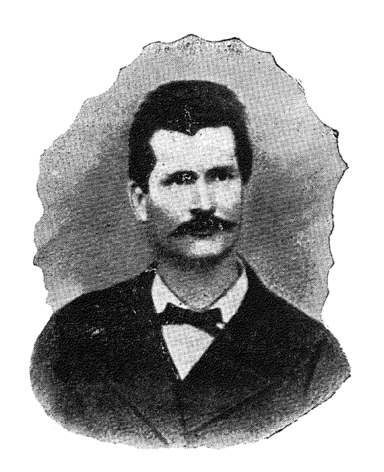
وكانت مؤخرة الحمـــلة المعدة لاقتفاء أثرهم ومعها الأمتعة وباقى الأدوات واللوازم تحت إمرة البكباشى كامبل Campbell . وكان من بين صفوفها مسيو م. أوجست لينـان دى بلفون[١] M. Auguste Linant de Bellefonds والمهندس كمب Kemp ، و رسل Russell وهـو ابن اللورد رسل ، و أنسون Anson ابن عم غوردون وابن الأميرال أنسون ، و رومـــولو جيسى Romulo Gessi وهـــذا كان يتولى جميع أعمال غوردون وكان محل ثقته وقد صحبه بهذه الصفة منذ حرب القـــرم ثم ترقى فيما بعد الى مدير بحـــر الغزال ونال رتبة البـاشوية . و دويت Dewitt ، و بهرندورف Bohrendorf وهما معـاونا جيسى فى أعماله . ثم أبو السعود الذى أضحى أشهر من نار على علم والذى بعد أن خرج من السجن ألحق بالحملة بصفة عضو وذلك بناء على الحاح خلف سير صمويل أعنى غوردون .

وقبيـــــل منتصف الليل بلغ القطار السويس وقضى غوردون ورفاقه بقيـة ليلتهم فى الفنـــــدق البريطانى وفى صبيحة ٢٣ فبراير استقلوا الباخرة لطيف التى كانت قد أعدت سلفا لنقل مقدمة الحملة الى سوا كن .

وصولهـــا الى سوا كن

وقد قطعت البـاخرة الطريـق بسرعة وبدون أن يعترضها فيـــه أى

(١) ـ هو أحد أنجال لينان باشا المهندس الفرنسى المشهور الذى أحضره محمد على باشا الى مصر وكلفه بأعمال هندسية كثيرة منها القناطر الخيرية .



أوجست لينان دى بلفون

عارض . وفى ٢٥ فبراير عنـــد منتصف النهار شوهد ساحل سواكن وهو ساحل مستو لا جبال فيه وفى الساعة الثالثة بعد الظهر كانت الباخرة أمام سواكن . وحالت اجـــراءات مصلحة المحاجر التى كانت متخذة فى ذلك الوقت دون نزول اعضاء الحمـــلة الى البر قبل صباح اليوم التالي . وقابل علاء الدين بك المحافظ غوردون ومن معـــه مقابلة غاية فى البشاشة والايناس وأكرم وفادتهم أيما اكرام . وعلاء الدين بك هـذا عين فيما بعـد حكمدارا عاما للسودان ونال رتبة الباشوية . وهو الذى رافق حملة هكس باشا وكان من قتلاها .

قيامها الى بربر ووصولها الى الخرطـــوم

وفى ٢٨ منه ولت القافلة التى كان المحافظ قد أعدها لهم وجهها شطر بربر يحرسها ١٥ جنديا وبعد سير مضن ومستمر ليـــلا ونهاراً على متن الجمال بلغت بربر في ٨ مارس وبذلك تكون قد قطعت المسافة بين هـذه المدينة وسواكن فى ظرف عشرة أيام .

وقد استقبلهم الشيخ حسين خليفة مدير النـــاحية استقبالا فخما ورحب بقدومهم . والشيخ حسين هذا نال فيما بعد لقب باشا .

ثم أعدوا لوازمهم بسرعة واستعدوا فى الحال لمبارحة بربر . وفى صبيحة يوم ٩ مارس استقلوا سفينتين نيليتـين ويمموا الخرطـوم . وفى ١٢ منه قابلتهم باخرة كان حكمدار السودان العام اسماعيل ايوب باشا قد أعدها لهم فتركوا مراكبهم البطيئة وركبوها فرحين مسرورين . وفى صباح يوم ١٣ منـه بلغوا الخرطوم أى بعد ٢٠ يوما من مغادرتهم القاهرة .

واستقبلهم سعادة الحكمدار العام بمزيد الحفاوة واستعرضت أمامهم الجنود وحيتهم مدافعها ونزلوا بسراى واقعة شرقى المدينة تسمى سراى راسخ بك أحد حكمدارى السودان السابقين .

وفى ١٨ مارس دعاهم الحكمدار العام الى وليمة أعدها لهم وكان يوجد بين المدعوين العديدين عدا الموظفين ضباط الحامية وقناصل الدول . وبعد ذلك بيومين اثنين دعا غوردون نفس تلك الهيئات الى مأدبة أقامها لهم فى السراى المذكورة .

إزالة الحكمدار العام السدود من طريقها

وقدمت الحملة الشكر الى اسماعيل باشا أيوب الحكمدار العام لانتزاعه اكداس الحشائش الملتفة والمشتبكة بعضها من المنطقة المعروفة بالسدود تلك الحشائش التى كانت تحول دون الاتجاه صوب الجنوب بين بحر الغزال وبحر الزراف والتى أعجزت همة سير صموئيل بيكر واضطرته للنكوص على عقبه راجعا الى التوفيقية فى شهر أبريل سنة ١٨٧٠ .

ففى تلك الناحية عسكرت جنود صموئيل على بعد بضعة أميال من مصب نهر سوباط بجوار مستنقع وبىء فهلك من رجاله خلق كثير وذهبت بأرواحهم الحميات . وبعد ذلك ذهب الحكمدار العام الى تلك الجهة على رأس أورطة من عساكر السودان قبل قدوم حملة غوردون ببضعة اسابيع وباشر انجاز تلك المهمة بقصد فتح طريق للمواصلات مع غندوكورو التى كانت وقتئذ تابعة له وواقعة تحت إشرافه .

وبعد بذل مجهود عظيم متواصل استغرق ثلاثة أسابيع أزيلت اكداس

تلك المواد النباتية الهائلة بهمة هؤلاء الجنود البواسل المخلصين الذين زهقت ارواح كثيرين منهم متأثرة بحمى الملاريا والحميات الأخرى الخبيثة والدوسنطاريا ثم ان كثيراً من أولئك الذين بقوا على قيد الحياة أمست حياتهم مهددة بدودة غانة الرهيبة التى تسمم المياه ومستنقعات هذه الأنهر . وفى اللحظة التى سقط فيها كوم الاعشاب الكثيف تدفق الماء يجرف التيار بشدة قوية عددا وافرا من أفراس البحر التى تملأ النيل من هذه المنطقة الى منبعه وغلبها على أمرها فأخذت تصيح صياحا مزعجا شنيعا عم الفضاء لما أصابها من الخوف والجزع . وفى الوقت نفسه ارتطم مركب واختفى بين تلك الاجرام المضطربة التى انتثرت على مسافة بعيدة فيما بعد وحمله التيار معه تدريجيا .

وارتاح الحكمدار العام لهذا الفوز المبين جد الارتياح وقال لأعضاء الحملة بصيغة التوكيد انهم سينقلون على باخرة الى غندوكورو مباشرة دون أن تصادفهم أية عقبة فى الطريق . وكان لابد من مقابلة هذه البشرى بالفرح والابتهاج إذ ان وسائل التغلب على هذه العقبة كانت شغلهم الشاغل وموضع تفكيرهم واهتمامهم اثناء مجيئهم . وقد تفاءلت الحملة خيرا بازالة هذا العائق لأن ذلك يمكنها من ان تنقل فى الحال الى غندوكورو مركز عملها .

وصولها الى فاشودة

وكانت جميع ادوات الرحيل قد تم اعدادها فى صباح ٢٢ مارس ، وكانت سبع بواخر راسية وقتئذ فى الخرطوم مهيأة للقيام بالخدمة فى مديريات خط الاستواء بين الخرطوم وغندوكورو .

هذا ومن الانصاف ان ننوه بأن سير صمويل بيكر كان قد استحضر من انكلترا سفنا مفككة وركبها هنا تحت مباشرته وهى لا تحتاج الى مياه غزيرة للعوم وفى استطاعتها أن تذهب صعدا فى النيل الى غندوكورو وهى من النقط الصالحة للملاحة واكثرها ارتفاعا فى الجنوب وذلك فيما عدا حقبة قصيرة فى فصل الامطار حيث يستطيع المسافر فى أثنائها ان يبلغ جبل الرجاف الواقع على بعد ١٥ ميلا من هذه الناحية جنوبا ولكن مع بعض المشاق .

وبعد تناول الطعام على النمط التركى مع الحكمدار العام توجه اعضاء الحملة الى الباخرة « تلحوين » التى كانت على تمام الاستعداد لنقلهم وأطلقت المدافع تحية لهم وودعتهم الجموع الكثيرة التى كانت قد اجتمعت لتزود حكمدار خط الاستواء الجديد بالتمنيات العظيمة للنجاح التام .

ومن الضرورى أن نشير هنا الى التأثير السيء الذى أحدثه فى نفس الحكمدار العام والموظفين وكل من كان يهمه أمر نجاح هذه الحملة ، خبر رجوع أبى السعود الى وظيفته وعلمهم أنه قادم فى الطريق لينضم الى رفاق غوردون ثم يواصل السير الى غندوكورو بصفة ملحق بمصلحة مديريات خط الاستواء . وفى الواقع كان أبو السعود مشهورا فى الخرطوم بأنه يسلك مسلكا مضادا لمصالح الحكومة فى تلك الأقطار .

وفى ٣١ مارس وصلت الحملة الى فاشودة . فنقلت متاعها وكل ما معها الى جوف الباخرة « بردين » وهى باخرة تفوق فى النظام والترتيب الباخرة التى كانت الحملة تستقلها . وكانت هذه الباخرة عائدة من غندوكورو .

وفاشودة واقعة على ضفة النيـــل اليسرى . وهى أبعد نقطة فى ولاية الخـــرطوم . وعلى يسارها توجد قرية مأهولة بقـــوم من قبيلة الشلك وهى مؤلفة من اكواخ من القش . أما نفس المدينـــة فليست إلا مجمـــوعة من الاكواخ المبنية بالطين يضاف اليها بعض أبنية من الحجر منها سجن وبناء للحكومة .

ولما كانت تلك القبيـــلة وضعت تحت مراقبة ضابط من شيمه الحلم والعدل والرفق ألا وهو أميرالألاى يوسف حسن بك فقد شجعت تلك الصفات الشلك وبثت فيهم روح العزيـــة فزرعـــوا الارض ذرة فتحسنت حالة معيشتهم تحسنا محسوسا لأن تربة هـــذه المنطقة صالحة لمثل هذا الزرع . ومع ذلك فمن فاشودة الى غندوكورو لا تقـــع عين الانسان إلا على بحر من المستنقعات وفى وسط هـــذه المستنقعات المملوءة بأكداس من الأوحال يسير النيل فى مجرى كثير المنعرجات والمنحنيات فى مسافة تبلغ ١٠٠٠ ميل .

بلوغهـــا مديرية خط الاستواء

وفى ٢ أبريل بلغت الحمـــلة مصب نهر سوباط حيث توجد نقطة عسكرية إشارة الى نهاية حدود ولاية الخرطوم وبداية مديرية خط الاستواء . فوقفت الحملة فى هذا المكان لتحتطب .

وفى ٥ أبريل وصلت الحمـــلة الى الموضع الذى كانت عاقت فيه الحشائش مسير بيكر باشا وقد ذكرنا ذلك آنفا . ووجدت الحملة طريقها به مسلوكا . وكان يوجد على متن الباخرة التى أقلتها بعض الجنـــود الذين استخدموا

فى نزع أعشاب السدود وفى سيقانهم الجـــراح التى أحدثتها دودة غانة وهى تنم عما قاسوه من الصعاب والمشاق .

وفى ١١ منه انتهت الى « بور » Bor وهى محل لتجارة العاج وبها يوجد شرذمة من الدناقلة وهى جزء من فرقة مستقلة مأجورة لجماعة تجار العبيد وتجار العاج بالخرطوم فاستقبلتها وحيتها .

وفى ١٧ أبريل سنة ١٨٧٤ حطت الحمـــلة رحالها فى غندوكورو حيث استقبلها بالحفاوة قائد الحامية أميرالألاى رءوف بك الذى كان مدير هذه المديرية بالنيـابة من وقت سفر سير صمويل بيكر .

وصف غوردون لهـــذه النواحى

ولقد وصف غوردون فى خطاب أرسله الى صاحب السعادة نوبار باشا ناظر الخارجية التأثيرات التى وقعت فى نفسه فى أول الأمر فقال :—

لقد استقبلنى رءوف بك احسن استقبال وهو انسان يستحق الحمـــد والثناء الجم لعنـــايته بجنده واهتمامه بشؤونهم . فمعسكره غاية فى النظافة ويلوح أنه محبـــوب من عسكره . فألتمس من صاحب السمو أن ينيط به مراقبة مديريتين .

وإنى لا أريد أن اتوسع فى ذكر ما يقوم بخاطرى من الاعمال غير أنه فى استطاعتى أن اقول إنه لا يوجد أمامى أية صعوبة يجب على تذليلها . وأظن أنه لا يلزم ان نصوب حتى ولا طلقـــة واحدة من فوهة بندقيـة سواء أكان ذلك على الزنـــوج أم على المشتغلين باختطافهم وأعنى بذلك

صيادى العبيد .

والمديريات الخاضعة الآن لصاحب السمو ليست على جانب عظيم من الأهمية ومحطاتها هى حامية غندوكورو وتتألف من ٣٠٠ عسكرى سودانى و ١٦٠ جنديا مصريا . وفاتيكو وتتكون من ٢٠٠ جندى سودانى . وقد عملت الآن كل ما فى الاستطاعة عمله فتركت حامية فى بور لاحتلالها . وبور هذه موقع هام فى شمال غندوكورو .

وجميع الحروب التى شب أوارها ههنا فى الزمن الماضى ليس لها إلا سبب واحد هو نقص المئونة . ولقد قيل لى أن الزنوج لم يكونوا فى مرة من المرات المعتدين الأولين وانهم ما قاتلوا قط إلا فى سبيل الدفاع عن قطعانهم وانه حتى فى هذه الحالة ما كانوا يقاتلون بحماسة .

وقد كان من رأى رءوف بك محاربة القبائل غير أنى لم اشاركه فى هذا الرأى كما أنى لم أقره على طلباته الخاصة بزيادة الجيش زيادة كبيرة . ومع ذلك ينبغى أن اصرح لسعادتكم أنه كان يجب أن يكون لدينا هنا اكثر من هذه الجنود الخمسمائة . هذا اذا كان صاحب السمو الخديو يرغب فى مراقبة كل الاراضى التى يحتلها الآن صيادو العبيد من جهة حدود هذه المديريات . ولا أرى من المستحسن والصواب أن يكون عندنا قدر ضئيل من المصريين كالعدد الذى لدينا يقابله عدد كبير من السودانيين . وغندوكورو كما شاهدنا على مسافة غير بعيدة من القاهرة . ويوجد هنا جملة مواقع تستحق بلا ريب ما يبذل من المشاق فى سبيل احتلالها .

وانى لست مرتاحا كثيراً لاستخدام غير النظاميين من الجند إلا ان

استخدامهم فى الوقت الحاضر من الضروريات .

أما اسماعيل باشا أيوب فيستحق منى كل اعجاب وثناء لقيامه بفتح السدود فبعمله هذا المجيد رد فى الواقع هذه المديريات الى صاحب السمو الخديو » .

* * *

وكان يوجد أيضا خلاف حاميتى غندوكورو وفاتيكو اللتين ذكرهما غوردون فى خطابه الآنف الذكر حامية فويرا وكانت مكونة من ٢٠٠ جندى سودانى من الجيش النظامى كما يرى فيما بعد عند ذكر رحلة القائمقام شاليه لونج الى أوغندة وقد فات غوردون ذكر هذه الحامية .

وتم تفتيش المحطة وحاميتها فى زمن يسير وعلى جناح السرعة . وهذا التفتيش كان نتيجة طبيعية لقدوم غوردون . وبعد ذلك عقد النية على أن يعود الى الخرطوم ليعجل مجيء أبى السعود الذى بارح القاهرة مع مؤخرة الحملة ثم يرجع معه الى غندوكورو .

واستقبل أميرالالاى غوردون فى غندوكورو رسلا قدموا من قبل « متيسا » ملك أوغندا ومعهم هدايا من العاج واشياء اخرى متنوعة صنع بلده برسم سمو الخديو . وأعرب هذا الملك فى الوقت نفسه على لسان رسله عن رغبته فى أن يرتبط مع حكومة مصر بعلاقات ودية وطلب ارسال أحد العلماء كى يعلمه وشعبه العقيدة الاسلامية حسب نص القرآن .

وأرسل الأمير الزنجى « ريونجا » رسلا الى غوردون ليعلن هو الآخر على لسانهم أنه راغب الرغبة الأكيدة فى صداقة الخديو .

ولما كان لا يعزب عن بال أميرالألاى غوردون أهميـــة الحصول على مـودة واحـترام هـــؤلاء الرؤساء الزنوج ارسل فى ٢٤ ابريل سنة ١٨٧٤ القائمقام شاليه لونج محملا بالهدايا لكل من « متيسا » و « ريونجا » ورد فى الوقت ذاته الى متيسا جانباً مما بعث به من الهـــدايا وهو عبارة عن أطفال من العبيد وأصحبهم رسالة قال له فيها انه سوف يوضح له الداعى الذى حدا به الى رد هؤلاء الاولاد .

عودة غوردون الى الخرطـــوم

وبعد أن زود غوردون القائمقام لونج بالأوامر اللازمة بشأن رحلته وأقرضه حصانه الخصوصى ليستخدمه فى سفره هـــذا وتحقق أن كل شيء أضحى على ما يرام ، بارح غندوكورو فى ٢١ ابريل موليا وجهه شطر الخرطوم لكى يستعجل أثناء وجـــوده فى هذه المدينة بما يبذله من المجهودات نقل المؤن المعدة لما سيقوم به من الاعمـــال . وبعد سفر دام أحد عشر يوما وصل الى الخرطوم .

وفى أثناء رحلته الى الخرطوم هـذه أنجز رسم مسودة خريطة مجرى النيل بين الخرطوم وغندوكورو وكان ابتدأ فى عملها فيما سلف عند صعوده النهر .

وقال فى خطاب كتبه وهو فى الخـــرطوم بتاريخ ٥ مايو سنة ١٨٧٤ إنه وطد العزم على أن يقيم نقطة عسكرية على مقربة من مصب نهر سوباط ليشرف بطريقـــة مثلى على خطوط المواصلات بين مديرياته والعالم المتمدين وليحول بهذه الواسطة بطريقة أضمن دون مرور عصابات صيادى العبيد عند اقتيادهم لفرائسهم البشرية وأيضا ليمنع تهريب الأسلحة النارية والذخائر

فى نفس هـذه المديريات تلك الأدوات التى لا بد منها ولا غنى عنها فى أعمال صائدى العبيد .

وكانت تساوره الآمال أيضا أنه يستطيع من هـذه النقطة مباشرة رقابة فعالة على تجارة العاج التى كثيرا ما كان يتستر تحتها النخاسون ويتخذونها ذريعة لممارسة تجارتهم الممقوتة .

وفى الخطاب المذكور إشارة الى تأسيس ثلاث مديريات والاعراب عن أمله أن يحصل على جمال وحمير فى المستقبل لاستعمالها فى نقل الذخيرة والمؤونة الى تلك المديريات الثلاث فى الذهاب والعودة وابتغاء نقل العاج الى مركز الحكمدارية ليرسله بطريق النهر الى الخرطوم . وبذا يستغنى عن استخدام عدد كبير من الحمالين كالعدد الذى كان يستخدم دواما حتى ذلك التاريخ . ويظهر أنه مال لهذا الترتيب كل الميل للسببين الآتيين :

١ ـ ان مثل هـذا التغيير كان يفضى الى اقتصاد محسوس فى وسائل النقل .

٢ ـ بالاستغناء عن جيش عرمرم من الحمالين لاتكون هناك حاجة لطلب زاد فى الطريق من الاهالى لتموين أولئك الحمالين وبذلك يزول السبب الرئيسى الذى يدعو الاهالى للتذمر .

وقد أوصى غوردون فى ذلك الخطاب أن يلفت نظر سمو الخديو الى الهدايا المرسلة من قبل متيسا عن يده تلك الهدايا التى بعضها كما يقول غوردون ويكرر القول — يدل على وجـود درجة من المدنيـة بين الاهالى الاوغنديين . ويشير بارسال شيخ صالح من القـاهرة له المام تام بنصوص

القرآن ومعانيه الى أوغنـــدة ليكون فى معيته وتحت رعاية متيسا ليباشر تعليمه وتعلـــيم شعبه وان يلفت كذلك نظره الى توجيه هـــدايا لائقة الى هـذا الأمـــير . ويسترعى الانظار الى ان متيسا مـلك أقـــوى من « كباريجا » أو « رومانيكا » ويوصى أيضاً بارسال هـدية مليحة الى الشيخ « لورو » الذى أظهر استعداداً حسناً نحو الحكومة وهو من الرؤساء الوطنيين وكان قد أعرب عما تكنه جوانحه بارسال ناب فيل بصفة هدية وهو ناب من أحسن الأنياب وألطفها .

وذكر فى خطابه أيضا أنه أمر بزراعة الذرة بدون تأخير وأنه من حسن الحظ ان كان ذلك فى الموسم الملائم لهذه الزراعة وانه بذلك يمكنه اجتناب المجاعة .

وقد أرسل غوردون مع هـــذا المكتوب ثلاثة مكاتيب أخرى جاءته من متيسا .

وفى ١٨ مايو سنة ١٨٧٤ كان أمـيرالألاى غوردون فى بربر حيث أنجـــز بنفسه الاحتياطات التى رآها لازمة للتـــأكد من شحن المئونة والذخائر بانتظام .

ومن تلك الساعة أضحى هادىء البـــال آمنا مطمئنا لانه لم يكن ثم ما يشغله عن التفرغ تماما مدة سنين لاعماله الهامة فى اواسط افريقية بدون أن يرى نفسه فى حاجة الى ان يبارح مرة أخرى منطقة المديريات التى ألقى عليه مقاليـد حكمها قبل أن يكون قد وطد أسس نظامها توطيدا محكما .

وفى تلك الحقبـــة كانت الاوامر قد أعطيت الى أورطة من الجيش

كانت تخدم تحت إمرة صاحب السعادة مونزنجر بك Munzinger Bey الحاكم العام للسودان الشرقى وساحل البحر الأحمر بأن تنتقل الى مديريات خط الاستواء لكى يستطيع غوردون أن يعتمد عليها فى اجراآته القادمة عند الاحتياج الى امداد .

وفى ٣١ مايو كان غوردون بالخرطوم. وفيها لحق به البكباشى كامبل وهو من الضباط البحريين وكان قد طلب غوردون تعيينه للاستفادة من خبرته وانضم اليه أيضا بهذه المدينة عدد كبير آخر من الملحقين بالقيادة تحت أمره . ووقع اختياره كذلك على ٤ بلوكات مسلحين بسلاح من طراز رمنجتون أقلتهم البواخر الآتى اسماؤها وهى : بردين و تلحوين و الصافية و المنصورة .

عودته الى فاشودة واقامة محطة عند مصب نهر سوباط

وقد أقلعت تلك البواخر قبل سفر الحكمدار العام بعد ان زودها بتعليمات مقتضاها ان تنتظره عند مدخل نهر سوباط . اما هو فقد بارح الخرطوم فى ٨ يونيه سنة ١٨٧٤ على ظهر الباخرة الخديو وكان ابراهيم افندى فوزى الذى أنعم عليه فيما بعد برتبة الباشوية يقود حرسه الخاص . وبعد مسيرة ٧ أيام ألقت سفينته مراسيها فى فاشودة واستقبله يوسف بك حسن المدير بجميع انواع الحفاوة والاكرام اللائقين بشخص فى مرتبته . وبعد اقامة يومين فى فاشوده عاود السير ميمما مصب نهر سوباط فوصل بعد يومين ووجد البواخر والجند فى انتظار مقدمه .

وكانت مديرية خط الاستواء التى تولى غوردون حكمداريتها تبتدىء

عنـد هذه المنطقة . فمقد النية على أن يؤسس فيها محطة وفعلا خططها وأمر الجند بأن يشتغلوا بعملها . وفى ظرف ١٥ يوما تم عملها وعين لقيادتها اليوزباشى محمد افندى احمد وترك له بصفة حامية البلوك الذى تحت إمرته وذلك بعـد أن وصاه بأن يعامل الأهالى المعاملة الحسنة ويرعاهم بعين رعايتـه ويراقب من جهـة أخرى النخاسين مراقبـة دقيقة ليستأصل تجارة الرق إذ ان مركز مصب نهر سوباط هذا كان له أهمية كبرى من هـذه الوجهـة أعنى وجهة منع تجارة الرقيق .

وقد أقام غوردون فى هـــذه الناحية شهرين تقريباً القى القبض فى غضونها على كثير من المراكب المشحونة بالعاج والرقيق إذ كان تجار هذين النوعين يجهلون وجوده فى هذه المنطقة وقد صادر الحكمدار العــاج باعتباره محتكرا للحكومة . أما العبيد فأطلق سراحهم . وقام عدا ذلك بعدة استكشافات فى تلك البقعة .

وفى أثناء اقامتـــه عنـد نهر سوباط أرسل جيسى Gessi الذى نال فيما بعد لقب باشا و أنسون Anson ليقوموا بجـــولة تفتيش على طول بحر الغزال وفى اثناء هذه الجـــولة أصيب الاخير اعنى أنسون بحمى خبيثة لقى من جرائها حتفه .

وبعـد أن رحل من نهـــر سوباط حط رحاله فى شمبى Shambé حيث أقام كبار التجار مثل أبى عمـــورى وكشك على وغطاس وآخرين غيرهم محطات هامـة لمتاجـــرهم فاستقبله فيها بغاية الاحترام شيخ المركز وهو رجـــل دنكاوى اسمه الشيخ الحـداد . وبعد أن أخذ راحته خطط رسوم محطـــة وأقامها ثم قـلد قيـــادها اليـوزباشى مصطفى فتـحى افنـدى

وترك له بصفة حامية البلوك الذى تحت قيادته ووصاه نفس الوصاية التى أوصى بها قائد المحطة التى قبلها .

عودته الى بور وغندوكورو

وانطلق من هناك الى محطة « بور » فوجد بها ٤٠٠ جندى من الجنود غير النظاميين التابعين للتجار فأمر بتجنيدهم فى خدمة الحكومة ونبه عليهم بأن يقدموا له بيانا بعدد الاسلحة وأنواع المؤن والذخائر التى فى حوزتهم فصدعوا بالأمر وعين لهم بالمركز بصفة قائد ومدير ضابطا سودانيا كان من جملة الضباط الذين خدموا فى حملة سير صمويل بيكر . ويسمى هذا الضابط آدم افندى عامر وقد ارتقى الضابط المذكور فيما بعد الى رتبة البكباشى وعند قيام ثورة المهدى كان مديرا فى « كبكبيه » وهى من ملحقات دارفور . ولما سقطت هذه المديرية سلم مديريته لجيوش المهدى بأمر من سلاطين باشا الذى كان سلم قبله سلاحه .

وبعد ان سوى غوردون سائر الاعمال الخاصة بالمحطة تفصيليا وأعطى أوامر مطابقة تماما للأوامر التى أعطاها للمحطات السابقة ولى وجهه شطر غندوكورو فوصل اليها فى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨٧٤ .

وقد وجد أميرالآلاى غوردون عند قدومه هذه الناحية أن جميع الأوامر سائرة حسبما يشتهى وذلك بهمة القائمقام رءوف بك الذى قام بواجباته خير قيام ونفذ التعليمات التى أصدرها له بشأن الخطة الواجب اتباعها تجاه الأهالى ومشايخهم فكانت جميع العشائر الضاربة بجوار المحطة على أحسن ما يرام من العلاقات مع الحامية .

ولكن كان القائمقام رءوف بك قد قضى سنين عديدة فى الخدمة فى تلك الاصقاع ولذلك كان يحن الى زيارة القاهرة فحمله هذا الحنين الى طلب اجازة مداها تسعة أشهر .

وكان اميرالألاى غوردون لا يستطيع أن يستغنى عن خدمة رجل محنك مثله ولكنه كان يرى من جهة أخرى أن العدل لا يرضى بأقل من إجابة هذا الطلب فكتب الى نوبار باشا فى ٥ سبتمبرسنة ١٨٧٤ ما يأتى :—

« اقدم لسعادتكم هذا الخطاب بواسطة رءوف بك الذى طلب منى التصريح باجازة قدرها تسعة أشهر ليزور فيها القاهرة .

وأخبر سعادتكم أنى أعربت لصاحب السمو فيما سلف عن ارتياحى لرءوف بك نظرا لما أبداه لى هنا من المعونة وتقديرى لما قام به من المجهودات فى وسط ظروف بلغت غاية الحرج وذلك فى سبيل حفظ وصون جنوده . وان هؤلاء يعتبرونه كأب نظرا للصعاب التى تحملها فى سبيل راحتهم .

ويخامرنى الأمل بأن صاحب السمو الذى هو على بينة من كفايته وجدارته قبل الآن يتقبل شهادتى فيه قبولا حسنا .

واكرر القول ياصاحب السعادة بأنه فيما اذا لو سمح سموه وتنازل برجوع رءوف بك الى هنا فان ذلك يكون من حسن حظى وانا على يقين من ان اجد له دواما محلا يليق بمرتبته ويرتاح لوجوده فيه » .

عودة رءوف بك الى القاهـــــرة

عاد هـــــذا الضابط الباسل الى القاهرة وفيها كافأه سمو الخديو على شهامته فى تأدية وظيفتـــــه بترقيته الى رتبة لواء معتمداً فى هذه المنحة على شهادة أميرالالاى غـوردون . ورءوف باشا الذى صار فعـــلا من ذلك الوقت يلقب بهـــذا اللقب لم يعـد الى مديريات خط الاستواء بل عهـد اليه فيما بعد قيادة منفصلة وقائمة بذاتها فى منطقـة أخرى وهى منطقة هرر حيث أدى اعمالا لسمو الخـــديو تذكر فتشكر وبذلك حقق مرة أخرى الرأى الذى أبداه غوردون فيه .

وبعـــد سفر رءوف بك نصب غوردون البكباشى الطبيب عبد الله افنــــدى قائدا لغندوكورو ومنحه رتبة قائمقام وهـــو الذى كان يقـود الاورطة السودانيـة فى حملة سير صمويل بيكر ثم نقله الى « لادو » عند ما تقـــرر جعلها عاصمة لمديرية خط الاستواء وعين كذلك الصاغقول أغاسى عبـــد الله افنـدى قائد فاتيكو بنفس هذه الوظيفـــة فى الرجاف وقتما أنشئت فيها محطة .

وفى هذا الحـين ـ ٥ سبتمبر سنة ١٨٧٤ ـ أى عنـــد مـا بارح رءوف بك مـــديريات خط الاستواء كان جميع أولئك الذين يجب بحكم الطبيعة أن يعول أميرالالاى غوردون عليهم لتأدية مأموريته الهامة غائبين وليس فى استطاعته الانتفـــاع بأحدهم . فالقائمقام لونج كان غائبـــا فى مأمورية فى أوغنـــدة والبكباشى كامبل الضابط البحرى والمستر أوجست لينان والمستر رسل كانوا الثلاثة يقاسون آلام الحمى التى أصيبوا بها وحالتهم

خطرة فكان يقضى أكثر أوقاته فى بذل العناية بهم . وكان مع هـــذا لا يفتر عن أن يهيء المشاريع والرسوم اللازمة لترتيب وتنسيق الأقطار الواقعـــة تحت سيطرته ويستعد لعمل استكشافات منظمة فى الأرجاء التى كانت ما زالت مجهـــولة من النيل والبحيرات الكبرى كما أنه كان يعمل فى سبيل ايجاد مراكز فى نقط تستطيع منها حكومته مراقبة المراكز التى كشفت بطريقة ثابتة ومستديمة .

وكان يعمل أيضا على ايجاد مواصلات بطريق النيل تحل محل وسائل النقل بطريق البر المنهكة والتى كانت تكلفه نفقات باهظة . وهذه الوسائل كان لا بد منها بين معسكره العام ونقط نواحى الجنوب .

وكان مشروع استخدام النيل للنقل فى جنوب غندوكورو فيه شىء من المجازفة إذ كان يسود الناس لغاية هذا الزمن وذلك بدون سبب معقول ، الاعتقاد بأن النيل ابتداء من جنوب الرجاف لغاية دوفيليه غير صالح للملاحة ولا يمكن استعماله لهذا الغرض .

وكان شلال دوفيليه أمره معلوما وكان من المظنون ان المسافة بين الرجاف ودوفيليه لم تكن صالحة للسلوك إلا قليلا . فسلم بهذه الفكرة ولكن مؤقتاً فقط وترك فحص هذا الجزء من النهر الواقع بين الرجاف ودوفيليه الى ما بعد وكان لم يزل لديه بقية أمل فى العثور على قسم مطروق وذلك عند ما يدرس سائر الترع درساً وافياً . فأرسل الى دوفيليه مـــع المستر كمب المهندس الميكانيكى الانكليزى أجزاء باخـــرة صغيرة وآلاتها بقصد ضم هذه الأجزاء وتركيبها هناك لأجـــل استخدامها . وكان قد استحضر معه من القاهرة أبا السعود وهو ذلك الرجـــل الذى صيرته أفعاله فى عهد حكمدارية سير

صمويل بيكر أشهر من نار على علم .

ولما كان غوردون على بينة من أن أبا السعود له معـــــرفة تامة بجميع تلك الأقطار والقبائل الضاربة فيها وبسائر عصابات صيادى العبيـــــد التى يستخدمها التجار فقد كانت لديه أسباب وجيهة تدعوه لأن يعتقد أن ما نال أبا السعود من العقاب الصارم بسبب ما بثه من الدسائس والفتن فى الزمن الغابر يرده الى صوابه ويبرئه من تصرفاته العوجاء فيما يستقبل من الزمان ويبث فى نفسه الرغبة فى أن يبرهن للحكومة بأمانته وشرفه فى خدمتها على ان شخصه فى الحقيقة خير من سمعته .

فلكى يستفيد من معلومات هـــــذا الرجل وخبرته ونشاطه استفادة تامة تجاسر غوردون وجعله المعاون الأول له وكلفه بالمأمورية الهامة ألا وهى مأمورية العنـــــاية الدقيقة بنقل اجزاء الباخرة السابق الكلام عنها والتى كان يعلق آماله على أن يجعلها تقـــــوم بالملاحة فيما بعد بين شلال دوفيليــــــه وبحـــــيرة البيرت نيانزا .

وتراءى بادىء ذى بدء أن أبا السعود حقق ما ارتآه فيه غوردون بتفويضه إياه مركزا ذا أهمية كبرى إذ أظهر الشىء الكثير من الدقة والمهارة والنشاط فى تنفيذ التعليمات التى أمده بها رئيسه .

وقد قال أميرالالاي غوردون فى كتاب كتبه بتاريخ ٢٧ سبتمبر : « انه من حسن الحظ يمكن ان أقول انه فى ظرف ١٠ أيام ستكون اجزاء الباخرة كما أرجو فى محطة الابراهيميــــــة « دوفيليه » وما ذلك إلا بهمة ومجهودات أبى السعود » .

وبتاريخ ١١ من الشهر المذكور كتب مرة أخرى يعرب عن ثقته بأن أبا السعود والآخرين الذين كانوا فى جيوش النخاسين ثم سرحوا وانضموا بعد ذلك الى خدمة الحكومة ستستفيد الحكومة من عملهم لا سيما وقد تحققوا أن الاشغال التى كانوا يمارسونها فيما سلف أصبح لا وجود لها وستظل كذلك الى ما شاء الله . ولما كانوا زيادة على ذلك ملمين الماما تاما بالبلاد واحوالها فقد تهيأت لهم الفرصة التى تمكنهم من أن يبرهنوا للحكومة على انهم لم يبلغوا فى عدم الاستقامة والدناءة الدرجة التى ظنتهم بها .

ترتيب غوردون قيادة الجنود وتقديم مشايخ القبائل الطاعة

وقد اتخذ أميرالألاى غوردون فوق ذلك احتياطات حكيمة ذلك أنه مع وضعه أبا السعود ورجاله فى مراكز يستطيعون فيها تأدية خدمات جليلة قد وجه عنايته الى ترتيب القيادة بكيفية لا تجعل الجيوش النظامية بحال من الاحوال تابعة لأولئك الرؤساء غير النظاميين بل تضعهم تحت سلطة الضابط النظامى الاقدم رتبة الذى كان عليه ان يرجع فى كل الامور الى الحكمدار العام .

وفى ١١ سبتمبر سنة ١٨٧٤ قدم ٢٥ شيخا من مشايخ قبائل الزنوج الضاربين حول غندوكورو ليقدموا لغوردون خضوعهم وحسن ولائهم فأكرم وفادتهم وعرض عليهم كلهم الذهاب لمدينة الخرطوم لزيارتها فتقبلوا هذه الدعوة بشغف . وكتب غوردون أنه يقصد من وراء هذه الزيارة لتلك المدينة على متن وابور بخارى أن يتنسم أولئك الشيوخ من

من خلالها ريح المدنية الأمر الذى لا بد أن يأخذ بألبابهم ويؤثر على مشاعرهم ويريهم عدا ذلك السلطة والسيطرة المخولة له .

الصعاب التى صادفها وتغلبه عليهــــا

وكان كل من البكباشى كامبل ومستر رسل مصابا بالحمى وحالتهما خطرة وحــوالى منتصف شهر سبتمبر سافرا بطريق النيــل الى الخرطوم تبديلا للهــواء وليعالجا فى مستشفاها . أما مسيو أوجست لينان السكرتير الخاص للحكمدار العام فكان فى حيز عدم الاستطاعة ارساله معهما كما كان ينــوى غوردون إذ انه ما كان يتحمل مشاق السفر بسبب اشتداد وطأة المرض عليه وضعفه بعــد الانتكاس الذى أصيب به . وهذا الرجل المنكود الطالــع فاض روحه فى ١٦ سبتمبر . وعلى هذا ظل غوردون تقريبــاً وحيدا فريدا مع جيوشه الوطنية غير النظامية . وفى برهة يقل مداها عن شهر واحد نكب أيضا بمرض أربعة من الأوربيين الستة الذين كانوا معه قضى عليهم . أما الاثنان الباقيان فكان أحدهما وهو المستر كمب المهندس قد رحل مع قطع الباخرة وأرسل الآخر وهو مسيو جيسى الى الخرطـــوم لينوب عنه فيها بصفة وكيل عام له .

وغرت كثيرا هـــذه الحالة أبا السعود وكبار ضباطه غير النظاميين والحديثى الولاء وقام برؤوس أولئك الرجال ان الفرصة سنحت للاستيلاء على حكم الأقطار التي جابوها فيما سلف وأن يكونوا أربابا لهـــا . فانقلب أبو السعود فجأة وغير خطته وتظاهر أمام رؤوس الأهالى ورؤوس الجيش بمظهر الشدة والعظمة وربما فعل ذلك لاعتقاده انه أصبح الآن فى قدرته أن يجعل الحكمدار العام الجديد يخضع لأرادته .

ولقد ضل أبو السعود سواء السبيل وجهل الرجل الذى كان يريد أن يخدعه جهلا مطبقا . ولم يلبث غوردون ان أدرك حالا رياءه وسوء نياته كما أدرك كفاءته فيما سبق . فمذ ظهرت أول أمارة منه تدل على سوء مقاصده نحو الحكومة رأى نفسه معزولا من مركز المعاون الاول لغوردون ووضع تحت المراقبة فى غندوكورو ومن ثم أرسل بطريق النيل الى الخرطوم .

وبدا من صغار الضباط فى أول الأمر الاستعداد لاظهار سوء شعورهم من هذا الابعاد إلا ان غوردون عند ما لاحت منهم بارقة التظاهر بعدم الرضا عاجلهم مع الهدوء المشفوع بالثبات بأعلانهم بأن فى استطاعته الاستغناء عن خدماتهم بسهولة فى المديريات اذا لم يظهروا تمام الطاعة والخضوع . وفى الحال رجعت المياه الى مجاريها وانحسم الاشكال .

تعليمه الأهالى التبادل بالنقود وتعميم ذلك بينهم

وكتب أميرالألاى غوردون من الرجاف بتاريخ أول اكتوبر بشأن الرؤساء الدنقلاويين ما يأتى :—

« ان الاطروش وكيل محل العقاد وبعض الدناقلة كانوا حانقين منى فقلت لهم ان كنتم غير مرتاحين فقى استطاعتكم العودة الى الخرطوم وعلى ذلك لم يلبثوا ان طلبوا العفو فى الحال . وقد كان من اللازم تفهيم أولئك الدناقلة أن سمو الخديو هو السيد الحقيقى لهذه البلاد وان الحكومة لديها قوة كافية فلا تخشى اناسا مثلهم غير لازمين لنا بالمرة الأمر الذى كانوا قبلا غير مقتنعين به .

وفى ٢٦ سبتمبر سافر من هذه الجهــة المستر كب الى دوفيليه ومعه عساكر نظامية وغير نظاميــة والقسم الاكبر من قطع المركب البخارى . ومقتضى الخبر الوحيــد الذى نقل الى بشأنه بواسطة بعض الزنوج ان الاهالى قتلت البعض من رجالنا فى أثناء الطريق وجندلت العساكر خمسة منهم وان جنــودنا ما فعلت ذلك إلا فى سبيل الدفاع والذود عن أرواحهم ويتضح من ذلك اننا غير قادمين على حرب .

وكان المستر كامبل قد تلقى تعليمات تقضى عليه بأن يجتهد فى معاملة الرؤوس الأهليين معاملة حسنة .

وفى ٢٦ سبتمبر أيضا ذهبت في النيل نحو الجنوب مسافة ٤ أميال فوصلت قرب جبــل الرجاف . والارض هناك مرتفعة وهى مركز أصلح بكثير من مركز غوندوكورو التى عولت على تركها لرداءة مناخها وسوء اختيارها كمعسكر عام .

وقد حاولت فى عهد وصولى الى هنا تدريب الأهــالى على المعاملة بالنقود ونجحت . وللوصول الى هذا الغرض دفعت أول يوم ثمنا للقش الذى استحضر لعمل المساكن عملة من الخرز .

وكانت العادة الجارية هي أن لا يعطى شيء للرجال بل تقــدم هدية للشيخ . وهذه طريقــة فاسدة لأن الرجال الذين كانوا اشتغلوا لم ينالوا شيئا مقابل كدهم وجدهم . وفى اليوم التالى أعطيت كل رجل من الرجال الذين اشتغلوا قطعا من النقــود ثم استرجعت منهم النقود وقدمت لهم بدلها خرزا . وهكذا صرت افعل حتى آل الامر الى أن فهموا ان النقود تضارع

الخرز فى القيمة .

ولقد يخالجنى الأمل ان آتى بهذه الوسيلة على طريقة الاقطاعيات التى فرضها الشيوخ . ومتى عرف الزنجى ان فى استطاعته ان يكتسب نقودا لنفسه بواسطة عمله الخاص ضعفت درجة خنوعه لرئيسه وزادت بالعكس درجة تعلقه بالحكومة . ولم يلاحظ الشيوخ مع ذلك شيئا من كل هذا إذ انهم هم انفسهم مرتاحون لطريقة قبضهم النقود . وأتى اليوم شيخ ومعه ناب فيل وأراد ان يبادل عليه بجلجلين لدوابه فأبيت ان أعطيها اياه بل قدمت له رياليين فى مقابل هذا الناب فقبل ثم عرضت عليه الجلجلين فى مقابل رياليه فاشتراهما . وأحضر فيما بعد فى اليوم نفسه نابين وعرضهما للبيع .

والآن لايخامرنى الشك ان فى استطاعتنا من اليوم ان نشترى بالنقود دون ان نصادف صعوبة ، العاج والابنوس والذرة وغير ذلك . ولا بد من الاعتراف بأن الطريقة القديمة التى كانت متبعة هنا مناقضة على خط مستقيم لهذه الطريقة .

وقد دهش الزنوج حينما رأونا نطلق المدفع ونحن على بعد ١٥٠ ياردة منه وذلك بواسطة آلة كهربائية . ويسلك هؤلاء مسلكا حميداً . وحقا يستغرب الانسان كثيرا عند ما يجد ان سير صموبل بيكر كان يضطر لشن الغارات للحصول على مواشى فى نفس قرية الرجاف هذه التى نعيش فيها هادئين آمنين والزنوج على أتم الاستعداد لاجابة مطالبنا » .

وفى ٦ أكتوبر سنة ١٨٧٤ كتب ايضا ما يأتى :—

« توجهت اليوم الى غندوكورو فوجدت جميع الاحوال على غاية

ما يرام . والمأمـــول أننا نتمكن من تقرير طريقة المعاملة بالنقد فى سائر انحاء المديريات » .

مكاتبــات من أميرالألاى غوردون
فى شؤون أخــرى

وفى ٧ من شهر أكتوبر المذكور عاد إلى الرجــاف ومنها كتب ما يأتى :—

« رأيت اليوم لاركو Larco وهو الذى بدت منه امارات العدوان . وانى لا اثق بهذا الرجل رغما عما يظهره من المـــودة . فاذا رأيت من وارث هـــذا العرش الصغير حسن الاستعداد وانه من الممكن أن نستفيد منه فانى أبعث « لاركو » واسرته الى الخرطوم للاقامة فيهـــا ونمنحه مبلغا صغيرا ليعيش به . ومتى رأى وارثو أولئك المشايخ ان الحكومة مصافية لهم على شرط أن يكونوا هم ايضا لها مخلصين فأنى أظن أنه لا يكون أمامنا الا قليل من المصاعب .

وأظن اننا لا نلاقى ايضا مصاعب بخصوص توريد الذرة لنا ولقد اشتريت منها بالأمس ٣ أرادب ونصف أردب أرسل لكم منها عينة . ومتى أعطيت الاهالي من ذرة الخرطوم ليزرعوها فسيكون فى المستقبل هذا النوع هنا » .

وفى ٩ من الشهر عينه كتب ما يأتى :—

« لقد استدعيت اليوم مرة أخرى الى غوندوكورو بمناسبة وصول الباخرة بردين . وورد لى خطاب مع هذه الباخرة من القائمقام يوسف حسن بك مدير فاشودة يخبرنى فيه بأنه قبض على ارسالية تحتوى على ١٦٠٠ من العبيد و ١٩٠

بقرة قادمة من محطات « غطاس » و « كشك على » الواقعة على بحر الزراف . ولقد أوضحت فيما مضى . أنى على يقين من أن هذه الارسالية سائرة فى الطريق وتأسفت لعجزى عن القبض عليها . ويحزننى عدم الاحتفاظ بأولئك العبيد برسم مديرية الفيوم (١) .

ولقد تصرف يوسف حسن بك أحسن تصرف . ويكون من حسن حظى أن تتكرموا سعادتكم وتلتمسوا له من الجناب العالى رتبة أميرالألاى .

ومن الهام جدا بذل همة عظمى لمنع جلب الأسلحة النارية والبارود الى هذه المديريات لأنى اعتقد أن الخراب قد حل بتجارة الرقيق من جراء القبض الذى حدث حديثا على هذه الارسالية . وسوف تكون عاقبة هذا الحادث زيادة عدد العاطلين من الدناقلة . ويصبح من المحتمل ان أولئك سيذهبون أفواجا الى دارفور حيث يعرضون خدماتهم على سلطانها وفى ذلك بعض المكاره لحكومة الجناب الخديو » .

والسبب الذى جعل غوردون يقول هذا هو أنه كان عالما بالحملة التى كانت تجهز تحت قيادة اسماعيل أيوب باشا حكمدار عموم السودان والزبير رحمة الله باشا لفتح دارفور ولو توجه هؤلاء الاشخاص لسلطان ذلك الاقليم لزادوا قوته ضد قوات الحكومة المصرية .

وفى ١٥ اكتوبر سنة ١٨٧٤ كتب أميرالألاى غوردون من الرجاف ما يأتى :—

(١) ـ ذكرت مديرية الفيوم هنا لمناسبة عرض غوردون على الخديو اسماعيل مشروعا مقتضاه ان العبيد الذين يقبض عليهم ويؤخذون من النخاسين بواسطة الحكومة يرسلون الى مديرية الفيوم ويقطعون اطيانا لاستغلالها .

« لقد آب بالأمس المستر كمب المهندس الميكانيكى ومعه الحمالون الذين أمده بهم احمد الاطروش فلم يحتاجوا لاكثر من ١٠ ايام لقطع المسافة بين الرجاف ودوفيليه وعلى ذلك يكون طول تلك المسافة ١٣٤ ميلا انكليزيا قطعوها وهم حاملون القسم الأكبر من اجزاء الباخرة .

ولم يبد الزنوج فى اثناء الطريق أية مظاهرة عدوانية . ولكن التراجمة الدناقلة نهبوا مساكن أولئك الزنوج فقاوموهم بحكم الطبيعة وقتلوا منهم أثنين أو ثلاثة .

واستقبل شيخ المادبين Madis القافلة أحسن استقبال فى « دوفيليه » وسر سرورا كثيرا إذ رأى جنودا منظمة معسكرة على مقربة منه بدلا من الدناقلة . ويوجد فى دوفيليه كميات كبيرة من الذرة وسأقيم بها أو على الضفة المقابلة لها محطة حسنة ومتينة . هذا وقد كان المستر كمب عند قدومه مريضا مرضا شديدا إلا أن حالته قد تحسنت الآن .

وربما كان من الضرورى أن نفسر لكم معنى كلمة « تراجمة » فهذه الكلمة تطلق على طائفة العبيد الذين أسرهم الدناقلة وهم حديثو السن ثم لما شبوا وكبروا تزودوا ببنادق عتيقة . ويحتسب هذا الفريق من عداد خاطفيهم القدام أعنى الدناقلة .

والتراجمة بلا استثناء هم من اكبر اللصوص الذين وقعت عليهم عينى . وقد جربتهم واختبرت سلوكهم والمستر كمب حدثنى عما ارتكبوه من حوادث السرقات فى الطريق . ومن الضرورى تجريدهم من السلاح أينما وجدوا لأنهم لا يدينون لأحد لا باحترام ولا بطاعة حتى ولا

لأسيادهم القدماء .

ولقـد لاحظت انه لا يوجد دواما عمق كاف من الماء بين الرجاف وغندوكورو ولذلك قررت ان يقيم نصف حامية هـذه الجهة الأخيرة فى جبل « لادو Lado » الواقع على بعد ٨ أميال منها شمـالا والنصف الآخر هنا . وانى ارغب كثيرا فى سحب الجند من غندوكورو للأسباب الآتية وهى : أن مناخ هذه الجهة غير صحى بسبب الغدران التى تكتنفها . وهـذا عدا خلوها من الاخشاب التى تستعمل وقودا للبواخر الأمر الذى يضطرنا للسير ساعتين أو ثلاثا للحصول عليه . وبالعكس لادو فان مناخها صحى وتربتها جيدة فضلا عن أنها واقعة بالقرب من غابة . وعلى الرغم من هذا يلوح أن الكل هنا أى فى غندوكورو كأنهم موثقون فيها حتى أنه ليتعذر اخراج الجنود منها للخدمة فى جهة اخرى » .

وفى ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٤ كتب أميرالألاى غوردون ما يأتى بعد ما جاءته تقارير القائمقام لونج عن رحلته في أوغندة ذهابا وايابا وكان لونج وقتئذ بالقرب من غندوكورو وفى طريق عودته منها وقد وصل تقريبا فى نفس الوقت الذى وصلت فيه تقاريره :—

« لى الشرف بأن أرسل الى الجناب العالى ملخص بعض تقارير وردت من القائمقام لونج الذى رجع من أوغندة وكان قد ذهب إليها مع الرسل الذين حضروا هنا بالهـدايا المرسلة لسمو الخديو من قبل متيسا فى شهر أبريل . ومرسل اليكم ثلاثة من هذه التقارير بصورتها الأصلية .

وانى اتجاسر فألتمس من سموه أن يتفضل بالموافقـة على ترقية هذا

الضابط الى رتبة أميرألاى إذ أنه لبث وقتا طويلا برتبة القائمقام . وأرى أنه قام بالمأمورية التى ألقيت على عاتقه خير قيام . وقد كتبت لكم هذا المكتوب قبل أن يصل الضابط المشار اليه الى هنا حتى لا يفوتنى البريد .

ولا يوجد لدى الآن شىء هام اذكره منذ خطابى الأخير اللهم إلا أن أقول لكم انى ازداد مع الوقت يقينا بضرورة تطهير الناحية التى نحن فيها من الدناقلة وهذا ما سأفعله تدريجا مع توالى الايام كلما أتتنا جنود ليحلوا محلهم .

ولم يزل المستر كمب للآن طريح الفراش يعانى آلاما شديدة » .

وفى ١٩ من الشهر السالف الذكر كتب أميرالألاى غوردون يخبر بوصول القائمقام لونج وبيين بابجاز ولكن مع الايضاح ما وقع أثناء رحلة هذا الضابط وما تلاها من العواقب . أما بيان هذه الرحلة فنحيل القارىء عليه فى ملحق سنة ١٨٧٤ م الآتى بعد .

واليك القرارات التى اتخذها غوردون بعد ان تلقى التقارير الكتابية وسمع البيانات الشفوية من القائمقام لونج .

لقد أمرت بطرد سائر الدناقلة الذين فى هذه الانحاء والقاء القبض على أبى بكر حال قدومه من قبل متيسا وايجاد نقط عسكرية فى الجهات الآتية وهى : لابوريه ، و دوفيليه ، « الابراهيمية » ، و فاتيكو ، وفويرا .

وأمرت علاوة على ما ذكر بارسال مفوض حاذق للملك متيسا واستبقاء كباريجا فى مركزه مؤقتا .

ويقـــول القائمقام لونج الذى ساح فى بحيرة فكتوريا إن عرض هذه البحيرة لا يجاوز عشرة أميـــال . وقد عانى هذا الضابط مشاق كثيرة وصادف مصاعب شتى بسبب الدسائس التى دسها له الدناقلة . ومن المدهش حقا نجاته من شر ما ألقي فى سبيله من المكائد والأشراك . وانى لعلى يقين بأنه سيكافأ من الجناب العالى لأن العمل الذى أداه عمل جليل » .

وعند وصول هذا الخطاب نشر الأمر العالى الآتى :—

مكتب رئيس أركان حرب

القاهرة فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٤

« هجم نحـــو ٤٠٠ رجل من اعادى سمو الخديو على القائمقام لونج وهو مسافر بقرب بحيرة البرت ولم يكن لديه سوى جنديين فصد هجماتهم المتـــواترة وشتتهم بعد أن قتل منهم ٨٢ رجلا . فنظرا لهذا الفوز الباهر ونظرا لقيامه بالمهمة التى عهـــد اليه أمر القيام بها فى أوغندة خير قيام رغما عما لقيـــه من المشاق الكبيرة تفضل سمو الخديو فرقاه من درجة قائمقام الى درجة أميرألاى فى هيئة أركان الحرب » .

بأمر سمو الامير ناظر الجهادية

رئيس أركان الحرب العام

الامضاء « استون »

وأرسل أيضا الخطاب الآتى الى أميرالألاى غوردون الحكمدار العام لمديريات خط الاستواء من حضرة صاحب السمو الأمـــير حسين كامل ناظر الجهادية « الحربية » فى ذلك الحين :—

القاهرة فى ٧ ديسمبر سنة ١٨٧٤

نظارة الجهادية   مكتب الناظر

ياحضرة الميرالاى

أراد سمو الخديو ان يقدم برهانا لحضرة القائمقام لونج عن رضاه نظرا لحسن سلوكه واقدامه وثباته فى المعمعتين اللتين لقيهما فى « مرولى » بالقرب من خط الاستواء فأنعم عليه برتبة أميرألاى وقلده النيشان المجيدى .

وتجدون مع هذا براءة الرتبة فأرجوكم تسليمها لأميرالألاى لونج بك وتقدموا له من قبلى التهانى .

وتقبل ياحضرة الميرالاى أحسن عواطف الود ؟

الامضاء   « حسين »

* * *

ولا يفوتنا هنا أن نذكر ان أورطة كانت تعمل مع صاحب العزة موتزنجر بك قد صدرت لها الأوامر بالقيام بالخدمة فى مديرية خط الاستواء تحت إمرة أميرالألاى غوردون . وهذه الأورطة مضى على وجودها فى الخرطوم مدة فأرسل غوردون أميرالألاى لونج ليعد المعدات لاستحضارها الى لادو لتشتغل بأعمال أخرى تخص مديريات خط الاستواء .

وفى ٢٩ أكتوبر بارح لونج غندوكورو لتأدية هذه المهمة فوصل الى الخرطوم فى ٩ نوفبر . وبعد أن أقام شهرا فى هذه المدينة رجع الى

لادو قبيل آخر العام ليتولى قيادة القوة التى تقرر تخصيصها لضم بلد المكركة مكراكا « نيام نيام » .

وفى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٧٤ وصل الى معسكر أميرالألاي غوردون العام اللازمان « وطسون » Watson (١) و « شيبندال » Chippendall من رجال الهندسة فى الجيش البريطانى وعرضا خدمتها عليه . وهذان الضابطان استقالا مؤقتا من هيئة الهندسة الملكية وتعينا فى الخدمة تحت إمرة غوردون فى الجيش المصرى .

وفى ٢١ من الشهر السالف الذكر كتب الحكمدار العام من غندوكورو ما يأتى :—

« أتشرف بأن احيطكم علما ولتعلموا بذلك الجناب العالى ان الملازمين وطسون و شيبندال وصلا الى هنا فى ١٧ نوفمبر . وانى أرى نفسى عاجزا عن الاعراب عما يخالج فؤادى من الارتياح والشكر لصاحب السمو نظرا لما أسداه لى من المعونة بارسال هذين الضابطين .

فان على عاتقى اشغالا كثيرة تدعو إلى وجودى هنا وفى جهة الشمال حتى انه ليتعذر على بدون ان يكون لى معين ان اتقدم نحو الجنوب فى اتجاه البحيرة لأقوم ببعض الاستكشافات على مسافات بعيدة .

فوجـــود هذين الضابطين اللذين نالا من العلوم قسطا وافرا يفسح أمامى المجال ويترك لى مندوحة اتفرغ فيها للعناية بالأمور الخاصة بوظيفتى أعنى ترتيب

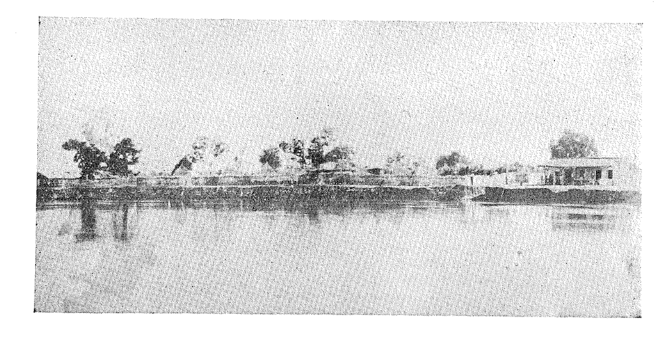
(١) — كان أحد الضباط الذين عينتهم الحكومة المصرية فى الجيش الجديد الذى ألف بعد الثورة العرابيـة وكان فيه برتبة اللواء .

وادارة أعمال المديريات .

ولقـــد استقررنا الآن تقريبا فى الرجاف وفى لادو ولم يبق هنا فى غندوكورو سوى حامية صغيرة . وان لادو احسن كثيرا من الوجهـة الصحية ومتـوافر فيها اشياء لا وجود لها فى غندوكورو ففيها اخشاب كثيرة لوقود البواخر . ومازال رؤساء الأهالى يحضرون الينا عاجهم وهذا شىء لم يكن معهودا فى الزمن السالف .

وانى أرى نفسى سعيدا بأحاطتكم بأنى وطدت العلائق الحسنة مع قبائل « لوقير » Locquier فاذا حالفنى النجاح فى هـــذا السبيل اختصر الطريق بين غندوكورو و لاتوكا Latouka وأصبح الراحل يقطعه فى ٤ أيام بدلا من عشرة كما هو الحال الآن إذ من الضرورى أن يرسم المسافر برا فى طريقه منحنيا كبيرا ابتغاء اجتناب جر عداوة تلك القبائل وانى كثير الرغبة فى عقد وفاق مع أولئك القوم والغرض من ذلك شق طريق يذهب من بلدة لاتوكا وينتهى عند نهر سوباط . ولا ينبغى أن يجاوز طـــول هـذا الطريق سفر أكثر من ٦ أيام . ويجب أن يمـــر الخط التلغرافى المزمع أنشاؤه من هذه السكة .

وانى الآن أجهز حمـــلات للجنوب وتخامرنى الآمال بأن تلك الحملات تكون على قـــدم الاستعداد للرحيل فى القريب العاجل . وسأرسل احد المراكب الحـــديدية الى فويرا للقيام بالخدمة بين هذه القرية و « أورونـدوجانى » Urondogani وهـذا الطريق اختبرها أميرالألاى لونج فوجدها صالحة للملاحة . وأورونـدوجانى على مسافة لا تجاوز مسيرة ٣ أيام من سراى متيسا الذى سأوجه اليه الجواب والهـــدايا التى أرسلها برسمه



محطة « لادو Lado » العسكرية عاصمة مديرية خط الاستواء

جناب الخديو . وسأعجل بارسال العالم الدينى مع المركب فيصل قبل الجواب والهدايا .

واني لم أشأ ان أرسله قبل الآن إذ ينبغى ان يصل عند متيسا بحالة أفضل من حالة من سبقه من زوار متيسا ـ أعنى الحالة المزرية التى وصل بها سبيك وغرانت وأميرالألاى لونج .

ولقد كلفت المستر أرنست لينان [١] Ernest Linant بهذه المهمة . وارنست هذا انضم الى وموكول له القيام بخدمتى الخاصة وهو شاب مثقف ثقافة حسنة بديع الاسلوب . وبما أنه يتكلم اللغة العربية فلذلك يفضل على من سواه فى هذه المهمة .

وسأرسل المركب الحديد الثانى « والمركب الذى تكرم صاحب السمو الخديو بتعيينه إذا أتى فى الوقت اللازم » الى الابراهيمية « دوفيليه » ويقوم بخاطرى أنى قبل زمن طويل سأكون فى حالة تمكننى من ان ارسل تلغرافا للجناب العالى أخبره به أن المراكب أقلعت قاصدة البحيرات . وانى فى غير حاجة لكثير من الجنود كما بعثت لكم بذلك تلغرافيا — واذا أحسنت العساكر مسلكهم فأننا لانخشى أمرا من جانب الزنوج » .

وانى أنعى لكم مع الاسف البكباشى كامبل بالخرطوم . وعلى ذلك لم يبق لدى من كبار الضباط غير أميرالألاى لونج . لذلك التمس من سمو الجناب العالى ان يتكرم بالسماح لى بابقائه لدى حتى ولو بضعة شهور . وان

(١) — هو شقيق أوجست لينان ونجل لينان باشا المهندس الفرنسى المشهور الذى ذكرناه آنفا .

هذا الضابط خدمنى خدمات جليلة » .

وفى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٧٤ أرسل الى القاهـرة تقارير خاصة بملاحظات علمية لاحظها الملازمان وطسون و شيبندال لغاية هـــذا التاريخ بشأن مرور كوكب الزهرة . وفى الخطاب الذى أرسله مع هذه التقارير كتب يقول :—

« ان المستر كمب ما زال مريضا . ومن جراء ذلك حدث بعض التأخير فى تركيب الباخرة إذ أن كمب هذا هو المهندس إلا انه سيكون لدى قريبا المراكب الحديدية متأهبة للقيام بالخدمة .

وعندى الآن كمية وافرة من العـــاج وأملى وطيد أن اتمكن من دفع كل نفقات الادارة فى المديريات وأن يبقى فوق ذلك لدينا شيء من المال زائدا » .

وكتب فى حاشية هـذا المكتوب يقول : ان « لاركو » وهو من الرؤساء المحليين ما برح يشن الغارات على القبائل الخاضعة للحكومة فلذلك ألقيت القبض عليه وأرسلته الى الخرطوم . وان هـذا العمـل كما يلوح أحدث تأثيرا حسنا فى القبائل المجاورة ونال ارتياحا عاما .

وفى هذا الحين كان فى استطاعة أميرالالاي غوردون ان يحرر بيانا بترتيبات مراكز الحكومة الواقعة على طول الخط الجنوبى النازل من الحدود الشمالية لغاية نيل فكتوريا .

واليك بيان المحطات الهامة .

١ — محطة نهر سوباط واقعة عنـــد ملتقى نهر سوباط بالنيل . وعدد

حاميتها ٥٠ جنديا سودانيا نظاميا .

٢ — محطة نصر موقعها على نهر سوباط وعدد حاميتها ١٠٠ جندى من الدناقلة غير النظاميين .

٣ — محطة شمى و عدد حاميتها ٣٠ جنديا سودانيا نظاميا و ١٥٠ من الدناقلة غير النظاميين .

٤ — محطة مكراكا واقعة فى بلاد المكراكا « نيام نيام » وعددها ٢٠ جنديا سودانيا نظاميا و ٢٠٠ من الدناقلة .

٥ — محطة بور وعدد حاميتها ١٠ جنود سودانية نظامية و ١٥٠ من الدناقلة .

٦ — محطة لاتوكا وعدد حاميتها ١٠ جنود سودانية نظامية و ١٥٠ من الدناقلة .

٧ — محطة لادو « وهى المعسكر العام » وبها ١٨٠ جنديا سودانيا نظاميا و ٥٠ جنديا مصريا نظاميا .

٨ — محطة الرجاف وبها ٨٠ جنديا سودانيا نظاميا .

٩ — محطة الابراهيمية « دوفيليه » وبها ١٠٠ جندى من السودانيين النظاميين .

١٠ — محطة فاتيكو وبها ٢٥٠ جنديا سودانيا نظاميا و ١٠٠ من الدناقلة .

١١ — محطة فوبرا وبهــــا ١٠٠ من السودانيين النظاميين و ١٠٠ من الدناقلة .

ووضعت الجيوش النظاميـــة كلها تحت قيادة ضباطها انفسهم وبهذه الكيفية تمكن هؤلاء بواسطة ما اكتسبوه من خبرة بأحوال البلاد وعادات قاطنيها ان يكبحوا جماح الدناقلة وان يحولوا دون تصرفاتهم القديمة مع الأهالى . والفضل فى ذلك عائد الى وجـــود الضباط فى النقط النظامية التى أسستها الحكومة فشعر الناس للمرة الأولى ان النظام قد استتب وشرع فى تنفيذ منطوق القوانين فى افريقية الوسطى .

ويعتبر خطاب غوردون الآنف الذكر خاتمة سلسلة التقارير الخاصة بعام ١٨٧٤ م .

النتائج التى أفضى اليها تولى غوردون حكم هذه الجهات

اننا اذا القينا نظرة على ما سبق وفكرنا فيما كانت عليه الحـــالة عند قدوم أميرالألاى غوردون الى هـذه النواحى أعنى قبـــل ٩ أشهر ارتحنا للنتائج التى حصلنا عليها فى هذه المدة الوجيزة بل حق لنا ان نعجب وندهش . واليك هذه النتائج :—

١ — رسم خريطة النيـــل الأبيض من الخرطوم الى الرجاف رسما مضبوطا ضبطا تاما .

٢ — إصابة النخاسة فى النيـل الأبيض بضربة قاتلة وهى ضربة لم يسبق لها نظير حتى أضحت هـــذه التجارة شديدة الخطر على من يزاولها للدرجة القصوى ولا فائدة ترجى من ورائها اللهم إلا فائدة تافهـــة إذا صادفها

حسن الحظ حتى ان أى تاجر عاقل مهما نزعت به شهواته الى ممارسة هذه التجارة لا يخاطر بنفسه فى هذا السبيل طالما كان غوردون أو رجل آخر من عجينته مكلفا هناك بتنفيذ أوامر الجناب العالى بدقة تلك الأوامر التى تقضى بمنع النخاسة والغائها .

٣ — سيادة السلام وتوطد الأمن وحلول الثقة بين الأهالى حوالى غندوكورو حتى أن القبائل التي كانت تناصب الحكومة أشد العداوة والبغضاء ولا تأمن الحكومة جانبها كلية منذ ٩ أشهر لا أكثر فكانت تضطر ان تلجأ الى الخرطوم لتحصل على المؤن للجيش أو تشن الغارات على القبائل ، أصبحت الآن ترتع فى بحبوحة من السلم والأمن جميعها فلا تناوىء احداها الأخرى ولا تناصب الحكومة أية عداوة وصارت تأتى طائعة مختارة لتبيع فى النقط ثيرانها وذرتها وعاجها .

٤ — الشروع بجد ونشاط فى شق طريق بين غندوكورو والبحيرات الكبرى للملاحة والمضى فى ذلك بخطوات واسعة .

٥ — فتح باب المواصلات مع متيسا وهو ذلك الرئيس القوى المسيطر على بلاد أوغندة الواقعة على ضفاف بحيرة فكتوريا ولم يعد بعد هذا شك فى الاتصال المباشر بين المجرى الآخذ من هذه البحيرة عند مساقط ريبون والمجرى الذى يصب فى بحيرة البرت قرب ماجونجو إذ تحقق اتصالهما ببعضهما .

٦ — تشييد مراكز للحكومة فى هذه الجهات وتنظيم أعمال هذه المراكز من أقصى حدود المديريات الشمالية الى فويرا جنوبا وترتيب المواصلات بين النقط البعيدة والمحطة الرئيسية بطريقة مأمونة .

٧ — تجهيز الحملات الجديدة المعدة للترتيب والاستكشاف للشروع فى اعمالها عند ما تهل السنة الجديدة .

هذه هى أعمال تسعة أشهر وقد حازت ارتياح صاحب السمو الخديو الذى تعطف وأنعم على أميرالألاى غوردون برتبة فريق وأرسل له الوسام العثمانى .



شاليـــه لونج بك

١ — ملحق سنة ١٨٧٤ م

مأمورية القائمقام شاليه لونج فى اقليم أوغندة

من ٢٤ فبراير الى ١٦ أكتوبر

كلف الخديو اسماعيل القائمقام شاليه لونج كما نوهنا بذلك سابقا أن يقوم بمأمورية فى أوغندة . وكانت هذه المأمورية سياسية أكثر منها عسكرية والغرض الحقيقى منها تمهيد السبيل إما لضم هذا الاقليم الى الديار المصرية أو وضعه تحت حماية هذه الديار . فى ٢٠ أبريل سافر أميرالالاى غوردون الى الخرطوم وألقى على عاتق شاليه لونج عهدة توصيل الهدايا الى متيسا وارتياد ذلك الاقليم فى آن واحد .

وكان قد وصل الى فويرا رسول من قبل متيسا يسمى أبا بكر يحمل هدايا برسم الخديو وخطابا من الملك المذكور الى سير صمويل بيكر . وكان الفصل مع ذلك غير موافق نظرا لاقتراب زمن الامطار إلا أنه لاح لشاليه لونج أن الفرصة مناسبة إذ تمكنه من الاستفادة من مرافقة أبى بكر هذا عند أوبته الى أوغندة .

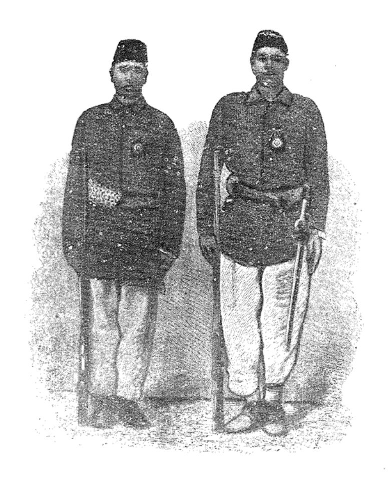
وبعد أن تزود لونج بتعليمات الحكمدار العام غوردون طلب من رءوف بك قائد حامية غندوكورو أن يعطيه حرسا . وبما ان الحالة تتطلب العمل باحتراس حتى لا تتطرق الريب والظنون الى نفس متيسا تقرر أن لا يزود إلا بحرس قليل عداده وان يكون هذا الحرس مؤلفا من جنديين فقط حتى لا يشم منه رائحة حملة عسكرية ووقع الاختيار على اثنين احدهما يسمى سعيد

بشاره والثانى عبد الرحمن الفوراوى وهما سودانيان قاتلا فى حرب المكسيك تحت قيادة المارشال « بازين Bazaine » فى الاورطـة السودانيـة التى أرسلتها مصر لمساعدة فرنسا فى الحرب المذكورة . أما أعضاء حاشيته فهم : ابراهيم افنـدى وأصله من المصريين المنفيـين بصفـة مترجـم . وكلرمان Kellermann وهـو من بلاد الألزاس اصطفاه غوردون من الخرطـوم ليكون فراشا . وآدم وهذا اتخـذه شاليه لونج من القاهرة ليكون طاهيا له . ثم سليم وهو رجل من بلاد الزنزبار اختاره لونج من بين عساكر فاتيكو لالمامه بكلام أهالى أوغندة إذ أنه أقام بها زمنا .

وانتهز شاليـه لونج فرصة إياب كتيبة عسكرية من غندوكورو الى فاتيكو مؤلفة من اثنين ملازمين ومن ٦٠ جنـديا ومن سليمان ، وهو رجل من الدناقلة وقائد فرقة من العساكر غـير النظامية ، و ٣٠٠ حمال فسافر معها الى هذه المحطة .

وقد سافر هـذا الجمع فى ٢٤ أبريل وشيعهم رءوف بك مسافة ساعتين ثم ودعهم وعاد أدراجـه بعد أن تمنى لهم سفرا سعيدا . وبعد ان اجتازوا مجـرى السيل الذى ودعهم رءوف بك عنـده استمروا فى السير الى الساعة الثالثـة والنصف مساء حيث شعروا بقـرب هبـوب اعصار فحطوا رحالهم . وقد ابتدأت العاصفة فى الساعة الرابعـة واستمرت باقى اليوم وهزيعا من الليـل فجرت عليهم بعض المكاره . وكانت الناحيـة التى اجتازوها فى ذلك اليـوم تموج بالمنخفضات والمرتفعات والتلال وتقطعها مجارى سيول عسيرة العبور .

ثم عاودوا السير فى اليـوم التالى « ٢٥ منه » عنـد الساعة السادسة



الى اليمين سعيد بقاره وبجانبه عبد الرحمن الفوراوى

والنصف وأخذ منظر الجهة يتحسن وسطحها يأخذ فى الارتفاع شيئا فشيئا نحو الجنوب بكيفية ظاهرة . وعند الظهر عبرت القافلة خور الرملة وهو خور عمقه متر واحد ثم نزلت فى الساعة الثالثة فى قرية مهجورة .

وفى ٢٦ أبريل انطلقوا فى السير فى الساعة السادسة والنصف وزاد فى نظرهم منظر البلاد حسنا وأضحى جديرا بريشة المصور وهذه الجهة تسمى بلاد ناشو Belad Nashou وأبدى شيخ الناحية روح المحبة غير ان الأهالى تعلقوا بأذيال الفرار وذلك بسبب ما عانوه من غارات الدناقلة فيما مضى .

وفى ٢٧ منه ارتحل المعسكر فى الساعة السادسة . وأصيب الملازم الذى يقود الكتيبة بمرض فأعطاه شانيه لونج شيئا من العقاقير وعسكرت القافلة تحت هطل الامطار .

وفى ٢٨ منه شرعت فى المسير فى الساعة السادسة . وبعد مسير أربع ساعات تركت بلد البارين لتمعن فى بلد الموجى . وفى الساعة الرابعة بعد الظهر بلغ مقدمة الكتيبة وجود جموع محتشدة من الأهالى وأن هذه الجموع تتظاهر بالعداوة . وكان قد قتل فى هذا المكان منذ عام ملازم وثلاثون جنديا بيد هؤلاء الأهالى .

وما كاد المعسكر يأخذ أهبته والحراس يستعدون حتى أتى الى شانيه لونج خبر ذبح ثلاثة من الجمالين كانوا قد جاوزوا حدود المعسكر مخالفين بذلك أوامره . فخرج فى ٢٠ جنديا إلا أن الأهالى تشتتوا أيدى سبا بعد بضع طلقات من البنادق . وبعد البحث عن جثث القتلى لم يعثر عليها ومع ذلك فقد قام الأهالى بضجة مزعجة رهيبة حول

المعسكر فاضطر الجنـــــود أن يظلوا طول الليل متأهبين بسلاحهم مستعدين للقتال .

وفى ٢٩ أبريل سافروا فى الساعة السادسة . وقد أتعب رجال الموجى الكتيبة بالهجوم على جناحها اليسار وساقتها غير ان شاليه لونج أمر الجند بعدم اطـــلاق النيران معتبرا الغاية المقصودة نشر السلم لا المحاربة .

وفى ٣٠ منه رفع المعسكر وكانت الأهالى مازالت تتبع الجنود ومشت الكتيبة فى أرض تكسوها الأشجار والحشائش العاليـــة مدة ثلاث ساعات وعنـــد الظهر وصلت الى « لابوريه » وهى مسقط رأس بعض الحمالين فقدم ذووهم للتسليم عليهم وسلم والد أحـــد أولئك الحمالين على ولده بأن أمسك برأسه بين يديه وبصق على جبينه .

وفى أول مايو بدأت تسير فى الساعة السابعة . وكان في عهـــدة سليمان سجين من أهالى تونس تسلمه من غندوكورو ولما رآه وقـــع فى مرض تركه فى عهدة الشيخ « وانى » Wani وكان هذا وكيلا للعاج فى هذا المركز .

وفى ٢ مايو همت للرحيـــل عند الساعة السادسة وكان الطريق كثير المنحنيات والمنعرجات يمر بين ادغال وغدران . وفى الساعة الواحـــدة بلغت القافلة نهر أسوا Asua وقد عبرته وعمقه متر واحد . وقال سليمان انه بعد بضعة اسابيع يتعذر اجتياز هذا النهر خوضا على الاقدام بسبب هطل الامطار وقد عسكرت الكتيبة فى الساعة الثالثة .

وفى ٣ مايو هبت تسير فى الساعة الخامسة وبعـــد مسير ثلاث ساعات

وصلوا الى « أبودو » Appudo وهنا انفصل سليمان بجيشه غير النظامى عن الكتيبة وولى وجهه شطر فابو Fabbo و فالورو Faloro .

وفى ٤ مايو شرعت الكتيبة تسير فى الساعة السادسة . وكان منظر الناحية أشبه الاشياء بمنظرها فى العشية . وكان السير بين الادغال والحشائش العالية صعبا عسيرا . وعند الساعة الواحدة والنصف عسكرت .

وفى ٥ مايو مات أثناء المسير اثنان من الحمالين المرافقين للكتيبة وبعض الذين كانوا عائدين الى أوغندة . وكانت أهالى فاتيكو أكثر الزنوج أمانة واخلاصا . وعسكرت الكتيبة فى الساعة الثانية فى ظل جبل « شوا » . وفى ٦ منه عند الساعة السادسة والنصف همت بالرحيل وبلغت فاتيكو فى الساعة الحادية عشرة والنصف .

وقابل أهالى هذه القرية مواطنيهم وهم واقفون على الصخور بالترحاب والحماسة . واستقبلت الحامية المؤلفة من ٢٠٠ جندى سودانى شاليه لونج على باب الحصن وأدت له رسميا واجبات التعظيم وحيته الضباط والجنود أحسن تحية . وكان كثير من أولئك الجنود يحمل الأوسمة والشارات العسكرية التى أنعم عليهم بها جزاء خدمتهم فى حرب المكسيك .

وكان القائد لهذه الحامية الصاغقول اغاسى عبد الله افندى الدنساوى وهو من الجنود الذين حاربوا فى المكسيك وكان يحمل شارة « اللاجيون دونور » التى نالها عند مروره من باريس هو وآخرون غيره من الضباط حال عودتهم من الحرب المذكورة . وكانت هيئة ونظام أولئك الجنود على ما ينبغى وبالغين حد الكمال . وفى فاتيكو هذه انضم

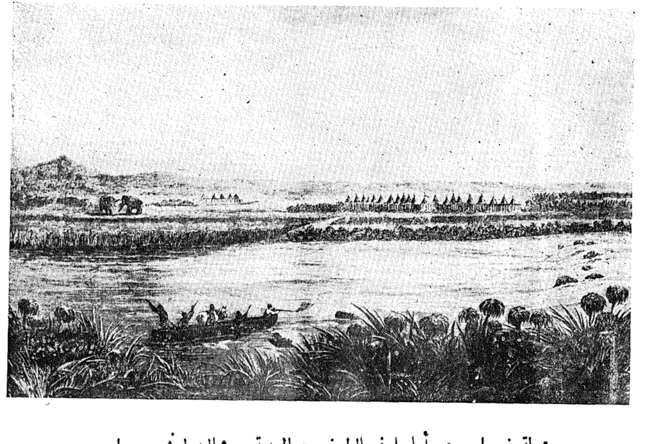
سليم الى حاشية شاليه لونج .

وفى ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ مايو لبث شاليه لونج ومن معه ممن يتألف منهم وفده الى متيسا مقيمين فى فاتيكو للاستراحة من وعثاء السفر وليستردوا قواهم ويستتموا معداتهم فى رحلتهم الخصوصية الى أوغندة . وفي ١٢ منه سافر هذا الوفد عند الساعة الثامنة ورافقه واد الملك لغاية فويرا مع بعض جنود فاتيكو .

وفى ١٣ و ١٤ و ١٥ منه سار فى جوف بلد غير مأهول به كثير من المستنقعات . وفي ١٦ منه واصل سيره عند الساعة السابعة وفى الساعة الثانية مساء بلغ نيل فكتوريا تجاه فويرا . وكان اتساع هذا النهر فى الموضع الذى ينبغى عبوره للوصول الى هذه المحطة زهاء ١٠٠ متر .

وقد قامت مصاعب فى سبيل نقل حصان شاليه لونج إذ لا يوجد هناك لعبور النهر سوى شبه زوارق وهى عبارة عن جذوع أشجار يحفر الجزع منها حتى يكون له جوف مثل الزورق ثم يرققون مقدمه ومؤخره ويستعملونه للنقل والملاحة وأخيرا أدتهم الحالة الى تغطية عينيه ونزوله فى احد هذه الزوارق ووصوله الى الشاطىء المقابل سليما .

واستقبل شاليه لونج عند بلوغه محطة فويرا بنفس الحفاوة والتعظيم اللذين قوبل بهما فى فاتيكو من الحامية المؤلفة من ١٥٠ جنديا سودانيا نظاميا و ٦٠ من الدناقلة غير النظاميين . وجميع هذه الجنود تحت إمرة الصاغقول اغاسى بابا توكا افندى الذى كان يحمل شارة « اللجيون دونور »



محطة فويرا ويرى أمامها فى الطوف « المعدية » شاليه لونج وجواده

هو وآخرون غيره من الضباط تلك الشارة التى حازوها لاشتراكهم فى حرب المكسيك . وكان يحمل كذلك كثير من العساكر نياشين عسكرية أخرى . وكان المعسكر مثالا فى النظام والنظافة .

وقدم ريونجا الذى كان فيما سلف ملكا ليزور شاليه لونج . وهذا الملك خلعه من مرولى مقامه قديما ملك أونيورو المدعو كرازى . وبعد وفاة كرازى استمر ولده وخليفته كباريجا يقاتل ريونجا حتى اضطره أن يأتى ويضع نفسه تحت حماية حامية فويرا وان يتخذ له مسكنا فى جزيرة تبعد زهاء ١٥ كيلومترا من هذه المحطة .

وقضى الوفد أيام ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ مايو بمحطة فويرا وفى ٢٥ منه تحرك فى الساعة التاسعة واتخذ طريقه فى السفر ورافقه الصاغقول أغاسى لغاية كسمبواس Kissembois وهو محل اقامة ريونجا الذى أكرم وفادتهم واستقبلهم أحسن استقبال . وقد قضى عنده شاليه لونج ومن معه يومى ٢٦ و ٢٧ من الشهر المذكور .

وفى ٢٨ منه امتنع حمالو أبى بكر عن السفر وبعد مناضلة ساعة من الزمان أجبرهم شاليه لونج على متابعة السير ومشى معه الصاغقول أغاسى وريونجا بعض مسافات ثم استأذنا منه ورجعا من حيث أتيا . فأصبح شاليه وحيدا منفردا مع جنوده الثلاثة ورفاقه الآخرين وكان الطريق مارة بين غابات وأشجار موز والبلد سطحه مستو مبسوط .

وفى ٢٩ منه قدم الحمالون مرة أخرى أعذارا بقصد اعفائهم من متابعة السير واضطر شاليه الى الخضوع لأجابة هذا الطلب . ولاحظ أن

حمالى أوغندة يعدون فى مقدمة كسالى العالم بأسره وينبغى أن يكون هو ومن معه بمعزل عنهم وان استخدام الجنود والبغال لنقل الأمتعة خير من استخدامهم .

وفى ٣٠ مايو أمطرت السماء فكان الطريق أشبه بالمستنقعات . وبعد مسير سبع ساعات ونصف ساعة حط الوفد رحاله وأخذ يبحث عن ماء للشرب فلم يجد إلا ماء آسنا . وفى ٣١ من الشهر المذكور أخذ فى السير وعند الظهر مر بجهة مرولى .

وفى ١ و ٢ و ٣ و ٤ يونيه أكرهوا على الوقوف والاقامة لأنهم أصيبوا بالحمى ومن بينهم شاليه لونج . وعند ما علم متيسا بقدمهم أرسل يستحث أبا بكر على المجىء بسرعة .

وفى ٥ منه تابع الوفد سيره غير أنه بعد مسيرة ساعتين طلب من شاليه لونج جميع رفاقه أن يحطوا رحالهم فأجابهم الى مطلبهم إذ أن ابراهيم افندى لم يزل مريضا هو وكارمان وآدم واضطر شاليه لونج ان يجهز طعامه بنفسه .

وفى ٦ منه ساروا خمس ساعات تحت أمطار منهمرة مدرارة . وفى ٧ منه أخذوا طريقهم عند الساعة السابعة وعند الساعة العاشرة صباحا وقفوا بسبب هطل الامطار التى حولت سطح الأرض الى مستنقعات حتى كانت حوافر الحصان تنزلق فى كل خطوة .

وفى ٨ منه سافروا فى الساعة الثامنة وواصلوا السير لغاية الساعة الثانية مساء . وكانت أهالى البلاد كلما دنوا منهم فروا من وجوهم تاركين

أكواخهم . وكانت هـــذه البلاد أكثر عمارية بالسكان ويستدل من ذلك أن الوفد أضحى على مقربة من أوغندة والأرض التى كان يسلكها أرض محايدة بين هذه البلاد وبلاد أونيورو .

وفى ٩ يونيه حمـــل متاعه عند الساعة السابعة وواصل السير لغاية الساعة الحادية عشرة صباحا . وكان عندئذ فى أرض أوغنـــدة . وأغار الشيخ موراكو Morako على قرية مأهولة بتـــوابعه ورجع رجوع الظافر ومعه ٣ عـــنزات و ٣ خراف و ٣ كلاب و ٣ نساء . وقد علم شاليه لونج من هذا الشيخ ومن سليم أن متيسا صرح للمتونجوليين Mtongolis أى المشايخ بهذا تمييزا لهم .

وكلما أمعن المرء فى جـــوف أوغندة ازدادت مناظر بلادها بهاء وحسنا وبعد أن كان يرى فى الاقطـــار الأخرى المستنقعات الموبوءة التى كانت تعترض سيره يرى الآن طرقا رحيبة ممتدة بشكل حلزونى تصل به الى قمم تلال عالية خلعت عليها الطبيعة حلاها السندسية .

وفى ١٠ منـــه لم يتحرك الوفد من مكانه . وفى ١١ منه أتى اليه « كاهوتاه » Kahotah أعنى شيخا كبيرا من قبل متيسا مزودا بأمر منه أن يحمل الى شاليه لونج أبقارا وبطاطس وموزا . فقدم كاهوتاه هذا ومعه حاشية كبيرة رافعة الاعلام وتتقدمها الموسيقا وعسكر قرب شاليه لونج وأرسل يقول له إنه مستعد لمقابلته . ورأى شاليه لونج أنه إذا لبى طلبه لكان ذلك بمثابة اعتراف منه بأن ذلك القادم أرفع منه مرتبة فقـــرر ألا يجيب هذا الطلب وقال للمرسلين إنه أتى ليزور متيسا فقط وكلفهم أن يقولوا ذلك لمن أرسلهم . وقد حسم هذا الجواب هذه المسألة فأرسل الكاهوتاه يقول إنه على

قدم الاستعداد لزيارته .

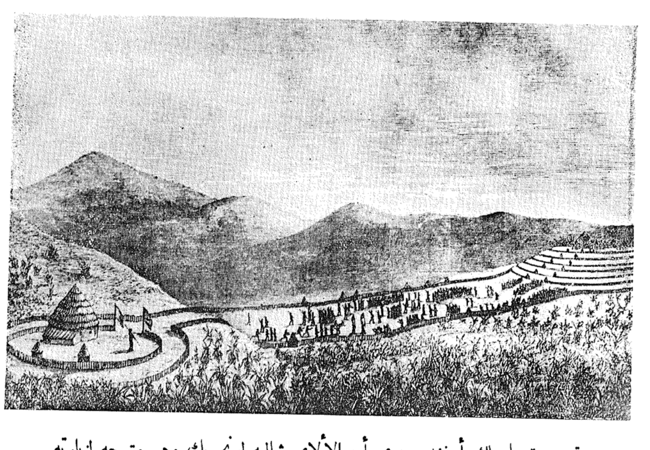
وفى ١٢ يونيه لبث شاليه لونج فى مكانه منتظرا قدوم الكاهوتاه وفعلا أتى هذا وزاره وقال ان متيسا أعد له دارا وأقام له أفراحا كثيرة .

وفى ١٣ منه قامت أدلة على رياء ابراهيم افندى الترجمان وخيانته فألقى القبض عليه وقرر أن يظل فى زريبة مورا كو Morako الى ان يتمكن من ارساله الى فويرا . وفى ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ منه لم يتحرك الوفد من مكانه إذ ان جميع افراده كانوا مصابين بالحمى .

وفى ١٨ منه انطلق فى المسير عند الساعة السابعة . وقدمت رسل من قبل متيسا لحث الوفد على سرعة القدوم لأن متيسا كان شديد الرغبة لأن يرى الرجل الأبيض أى شاليه لونج . وفى الساعة العاشرة والنصف وصل الوفد الى طريق واسع عرضه ٢٥ مترا وهذا الطريق غاية فى النظافة يوصل الى قمة تل مشرف على منظر شيق فاخر ممتد اتجاه بحيرة فكتوريا نيانزا . ولما كان المطر قد أخذ يتهاطل حط الوفد رحاله فى الساعة الحادية عشرة .

وفى ١٩ منه سافر فى الساعة السابعة . وكانت الارض التى يجتازها كثيرة المرتفعات والمنخفضات والطرق لا بأس بها . وفى الساعة التاسعة بلغ ذروة تل تطل على النواحى التى حوله وهى نواح يأخذ منظرها بالألباب لعظم جماله وبهائه . وقد أقام الوفد فى هذه الجهة عند منتصف النهار .

وفى ٢٠ منه سار فى الساعة السابعة وكان منزرعا على حافتى الطريق



قصر متيسا ملك أوغنده ويرى أميرالألاى شاليه لونج بك وهو متوجه لزيارته
فى يوم ٢٠ يونيه سنة ١٨٧٤

مـــــوز فيخرج منه جموع كبيرة من الخلق رجالا ونساء وأولادا ليمتعوا أنظارهم بالرجل الأبيض والحصان ذلك الحيوان الذى لم يسبق لهم رؤية نظيره . واستقبلتهم فى أسفل الجبـل شرذمة مؤلفة من ٢٠٠٠ رجل متشحين بأغرب الملابس وكونوا حرسا خلف شاليـه لونج وأعضاء الوفد . أما الكاهوتاه فكان يمشى الى الامام يتقدمه علم أوغندة منشورا .

وبهذه الكيفية كان الوفد فى المقـدمة . وأخذ أعضاء الحرس يقفزون ويثبون ويطلقون الأعـــيرة النارية الى أن بلغـوا ذروة تل حيث يوجـد قصر أم الملك وهناك وقف الجمع وتلقى شاليه منها التحيات وقابلها بمثلها .

واستمروا فى السير وبعــــد ساعـة تقريبا وصلوا الى قمـة تل آخر يرى منها على بعــــد مسافة ٥٠٠ متر تل آخر وعلى هذا التل أقام متيسا قصره . وقدم رسل من قبل هــــذا الملك وارتموا على أقدام شاليه لونج ورحبوا به نيابة عن ملكهم ورجـوا ان يأتى ويطلع الملك على الحصان الذى يركبه فأخـذ يجرى بحصانه فى اتجاه القصر إلا أنه لما رأى أن ذلك يرهب الملك ويرهب الجمع المحتشد حوله عدل عن ذلك وآب الى رفاقه .

ورافقه بعــــد ذلك المتونجوليون Mtongolis الى الدار التى أعدت له وأرسل له الملك هدايا . وقد قطع المسافة من غندوكورو الى هــــذا الموضع فى ٥٩ يوما .

وفى الغـد « ٢١ يونيه » أتى رسول من قبـل متيسا ليصحب شاليه لونج الى القصر . وكان العلم المصرى يرفرف فوق داره فلبس شاليه كسوة التشريفة الكبرى وانطلق هو وأبو بكر والجنـديان سعيد وعبـد الرحمان وسليم الى

القصر وهو على مرتفع . وإن هو إلا قليل حتى بلغه واجتاز سبعة أبواب ثم وقف وترجل فأدخل فى التو والساعة عند الملك فسلم عليه واقفا وأجلسه بجانبه بعد أن جلس هو . والظاهر أنه لم يحظ أحد قبل الآن بمثل هذا الشرف .

ومتيسا هذا رجل ناهز الخامسة والثلاثين من العمر طويل النجاد يلبس الملابس العربية التى يرتديها علية العرب ويتقلد حساما تركيا محلى بالذهب أهداه اليه سلطان زنزبار .

وقد وجه شاليه لونج كلامه الى الملك قائلا إنه قدم باذن باشا غندوكورو من قبل سلطان مصر الاعظم ليسلم على ملك افريقية العظيم وليعرب عما يكن له فى قلبه من خالص الود فقوبل هذا الخطاب بصيحات الفرح من جميع الحاضرين قائلين : كورنجى !! كورنجى !! ومعنى ذلك : حسنا !! حسنا !! والمتونجوليون خروا ركعا وجثيا مشتبكى الأيدى صارخين : ياتزج !! ياتزج !! أعنى يشكرون متيسا لأنه أحضر لهم أميرا بلغ نهاية العظم ويعنون بهذا الأمير شاليه لونج .

الى هنا كان المنظر يكاد يكون هزليا ولكن سرعان ما تبدل بمنظر آخر مروع ورهيب لدرجة لا نظير لها . ذلك انهم أحضروا ٣٠ رجلا مكبلين بالأحبال وفصلوا رؤوسهم من أجسامهم احتفاء بقدوم الرجل الأبيض . ومع أن هذا المنظر بلغ فى شناعته مبلغا يستفز القلوب الصخرية فان شاليه رأى نفسه مكرها على كبح جماح مشاعره وان ليس أمامه إلا ان يتظاهر بأنه غير مبال بما رأى إذ أنه لو صدرت اى إشارة يلوح من خلالها الاشمئزاز لعرض ذاته للسخرية وأضاع نفوذه .

وانتهى الاستقبال عنـــد هذا الحد فنهض شاليه لونج وهم بالانصراف إلا ان متيسا ألح عليه طالبــا منه ان يريه نساءه اللواتى بلغ عددهن مائة فصحبه الى داخل القصر وأحاط به أولئك النسوة وأخذن فى فحص كسوته وزخارفها المذهبة . وبعد هذا أطلعه على جميع غرف وقاعات القصر وكانت نساؤه يتبعنه اثناء ذلك . وعنـــد ما تم هذا استأذن من متيسا وانصرف الى داره .

وقد وقع الاختيـــار على يوم ٢٢ يونيه لتقديم الهدايا . وأتى رسول من قبل متيسا عند الساعة الثامنـــة صباحا ليخبر شاليه لونج بأن الملك منتظر قدومـــه بفارغ الصبر فامتطى الجواد بعد أن لبس كسوة التشريفة الكبرى ومشى وخلفه حاشيته الى القصر .

وأخذ أبو بكر على عاتقه حمل الهدايا بصفته رئيس تشريفات الملك . وعند ما وصل شاليه الى القصر قابله الملك فى الحال وهو واقف وأجلسه على الكرسى الذى قعد عليه بالأمس . واستحضرت الصناديق التى بداخلها الهدايا . وأمر أبا بكر بأن يضعها بجانب بعضها عند اقدام الملك وان يفتحها . وكانت تحتوى على أنسجة قطنية وأنسجة أخرى ذات ألوان قرمزية وبصمة وعقود وفتخات « دبل » وأساور ومرآة كبيرة مذهبة وصندوق بداخله موسيقا واصناف أخرى كثيرة . فقوبلت كل هذه الأشياء بفرح شديد ولكن الشىء الذى وقع فى نفس متيسا موقع الاستحسان العظيم بندقية تعبأ برصاص ينفجر فقال لشاليه : حقا إنك لرجـــل عظيم حتى أنك أتحفتنى ببندقية من طراز بندقيتك . ألا يمكنك أن تقتل كباريجا إكراما لخاطـــرى ؟ وهذا الموضوع كان يحلو له أن يردده والسبب فى ذلك عـــداوة قديمة توارثها

بحكم التقليد ملوك أونيورو وأوغندة ـ فأجابه شاليه لونج بأنه يلزمه قبل أن يقدم على ذلك أن يستأذن باشا غندوكورو .

ثم ضحوا بعد ذلك بعشرة أنفس بالطريقة عينها التى فعلوها بالأمس وعندئذ استأذن شاليه لونج من الملك وانصرف فى الحال ونفسه تتقزز من هذا المنظر الشنيع .

وقد أقام شاليه لونج فى ضيافة متيسا لغاية ١٤ يوليه . وكان يقابله يوميا ولا يتخلف عن زيارته إلا فى الأيام التى يكون فيها مريضا وكان يعرب له أثناء تلك المقابلات عن رغبته فى زيارة بحيرة فكتوريا نيانزا ومنها يعود الى غندوكورو بطريق النهر .

فقوبل هذا الطلب بعدم الرضا من جانب الوزراء وما ذلك إلا لأنه يرين على قلوب هذا الشعب اعتقاد فاسد فهم يتخيلون أن ضفة البحيرة المقابلة لضفة بلدهم مأهولة بالشياطين وأن أولئك المخلوقات مكلفة بحراسة مائها ، وانهم كثيرا ما أمسكوا بأناس من أهالى أوغندة وأهلكوهم . وبعد الحاح كثير آل الامر بالسماح له بزيارة البحيرة وأبى الملك أن يصرح له بالعودة بطريق النهر بحجة أن النهر لا يتصل بجرولى كما يظن شاليه وانه اذا قتل فسلطانه يأتى الى متيسا ويقتله أيضا .

وفى عشية يوم السفر ذهب شاليه لونج وودع متيسا وشكره على ما أولاه من العناية وحسن الرعاية . وأمر لونج كلرمان Kellermann وآدم أن يتوجها رأسا الى أوروندوجانى ومعهما الأمتعة والحمالون الذين زودهم الملك بهم وينتظروه هناك حتى يفرغ من عبور البحيرة ويصل الى الشاطىء

الشرقى ثم يولى وجهه بعد ذلك نحو الشمال ليذهب الى أوروندوجانى بطريق النهر غير أن هذه الترتيبات تعذر تنفيذها .

وفى ١٤ يوليه اتخذ شاليه لونج سبيله موليا وجهه شطر البحيرة فبلغها بعد مسيرة ٣ ساعات . وهنالك يرى الانسان من قمة رابية مشرفة على خليج مرشيزون بحيرة فكتوريا نيانزا وماءها الرائق الصافى الهادىء الشبيه بسماط من اللجين ينعكس على صفحاته أمواج من الضوء فيتلألأ ذلك الماء تحت وهج شمس الجنوب .

أتى المتونجولى « وهذا هو أميرال البحيرة » ومعه ٤٠ زورقا وبكل زورق ٢٠ مجدفا هذا عدا الموسيقيين والطبالين . وأمر شاليه لونج سليماً أن يقيم فى هذا الموضع ٤ أيام ومعه الجواد وقال انه إذا لم يعد اليه عند نهاية هذه المدة فعليه أن يرجع الى متيسا ومن هناك يتوجه الى اوروندوجانى وفيها ينتظره مع الآخرين . وفى الساعة الخامسة أبحر مع الجنديين سعيد وعبد الرحمن وبعد أن ساروا مدة ولوا وجوههم شطر رأس واقع على الضفة الشرقية حيث قضوا ليلتهم .

وفى ١٥ منه صباحا بكروا بالسفر وكانت صفحات الماء تلمع كالمرآة وظهر من سبر غور الماء أن عمقه يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ قدما . وحاول شاليه لونج عبثا ان يحمل المتونجولى على عبور البحيرة لأن متيسا أسر اليه أن لا يفعل ذلك فاضطر ان يعفيه راضيا من الغنيمة بالاياب قبيل الغروب فوصلوا الى مدخل خليج مرشيزون حيث قضوا ليلتهم .

وفى ١٦ منه أبحروا فى البكور ووصلوا الى المحل الذى رحلوا منه يوم

١٤ وهو الموضع الذى أمر سليماً أن ينتظره فيه ومعه الجواد . وعاد منه موليا وجهه شطر متيسا فوصل عنده فى العشى .

وفى ١٧ يوليه بعث له متيسا بتحياته ووعده بأن يمده بحمالين غدا غير ان هؤلاء لم يأتوا فى اليوم الموعود . وقضوا هذين اليومين فى اعداد معدات العودة .

وفى ١٩ منه قدم الحمالون . وقام الوفد بعد أن ودع متيسا الذى أطل عليهم من باب قصره تكتنفه نساؤه وكان اليوم ممطراً . ومن ٢٠ منه الى أول أغسطس أعنى التاريخ الذى وصل فيه الوفد الى أوروندوجانى عانى شاليه لونج صعوبات جمة من الحمالين حتى انه أجبر مرارا أن يقف عن السير ويخابر متيسا فجاء الرد بأنه يقطع رأس كل الذين يعصون أوامره .

وكانت خطة شاليه لونج ان ينحدر مع النيل فى زورق من أوروندوجانى الى مرولى وربما الى فويرا .

وفى ٢ أغسطس طلب من المتونجولى الذى كان مرافقا له ان يحضر المراكب اللازمة فأجاب هذا بأن ليس لديه مراكب وان من اللازم الانتظار .

وفى ٣ منه قدم متونجولى آخر من قبل متيسا وكان لدى هذا أمر باستحضار المراكب . وفى ٤ منه قضى الوفد ذلك اليوم فى معسكره فلم يتحرك منه . وفى ٥ منه بارح الوفد اوروندوجانى مع المتونجولى وأقنع هذا شاليه لونج بأنه مع متابعة السير حذاء النهر الذى كان فى ذلك الوقت صالحا لسير السفن توجد مراكب حسنة .

وسار الوفد مع مجرى الماء وعند الظهر دخل فى فضاء رحيب مربع الشكل يخفق فوقه علم أوغندة . وهذا المكان هو المركز العام لقيادة الأسطول النهرى .

وفى ٦ أغسطس زار الأميرال شاليه لونج ووعده بأن يحضر له مراكب غدا وأعطى لونج أوامر لسليم بأن يسير بحصانه بمحاذاة النهر على قدر استطاعته ثم يذهب الى مرولى وينتظره فيها مدة ثلاثة أيام وفى حالة عدم قدومه يتوجه الى فويرا ويبلغ الضابط المتولى قيادة هذه المحطة لكى يأخذ الاحتياطات التى تتطلبها الحالة .

وفى ٧ منه كانت أربعة مراكب واقفة ومتأهبة لنقلهم فنزلوا بها ورافقهم المتونجولى وكان الماء عميقا صالحا لأن تمخر فيه البواخر الكبيرة . فأبحروا وقتا وإذ بهم يرون مركبا كبيرا مشحونا بالرجال يقترب منهم . وسأل أولئك الرجال شاليه ومن معه : من أنتم وأين وجهتكم ؟ ولما رأوا أنهم لم يحصلوا على جواب شاف انصرفوا .

وصرح المتونجولى ورجال الحرس بأنهم بلغوا المنطقة المحايدة بين أونيورو وأوغندة وعلى ذلك لا يستطيعون مجاوزة هذا الحد . وأن المركب الذى دنا منهم هو من ممتلكات كباريجا . ثم قال المتونجولى ان الاصوب هو الدنو من اليابسة لطلب الترخيص بالمرور فقبل شاليه أن يعمل بهذا الرأى واقترب الفلك من الشاطىء وحط الوفد رحاله وندب شخصا للقيام بمأمورية طلب الرخصة .

وفى ٨ منه انتظروا الجواب طول اليوم ولما لم يرد قرر شاليه لونج

متابعة السفر فى الغد . وفى ٩ أغسطس أقلع هو ورفاقه فى ثلاثة مراكب فى الساعة الثامنة وتركوا المتونجولى ورفاقه وقطر أحد المراكب المركبين الآخرين . وظلت المراكب الثلاثة تسبح بهم الى الساعة الخامسة وفى هذا الوقت لاحت بوادر عاصفة فرسوا على الضفة ليقضوا عليها الليل . وهنا استغنوا عن أحد المراكب وتركوه .

وفى ١٠ أغسطس أبحروا فى الساعة السادسة . وأتى بعض الأهالى لزيارتهم غير أنهم ما لبثوا أن فروا واختفوا . وهطل المطر طول اليوم ولم يتمكنوا من الدنو من البر فقضوا ليلهم فى جوف المركب .

وفى ١١ منه أقلعت بهم المراكب فى الساعة الرابعة وعند الظهيرة دخلوا فى بحيرة وبعد ان ساروا فيها بعض الوقت صادفوا جزيرة عائمة مكونة من نبت مائى وفوقها كوخ مصنوع من الخيزران يسكنه بعض الصيادين . واستمروا فى سيرهم ولما لم يتيسر لهم الاقتراب من البر قضوا ليلهم فى المراكب .

وفى ١٢ منه أقلعوا عند الساعة الخامسة مستعينين بالمجاديف حتى المساء . وبعد كثير من الجهد والعناء رسوا على البر وأقاموا تحت هطل الأمطار .

وفى ١٣ منه سافروا فى الساعة الخامسة . وكان يوما عسيرا للدرجة القصوى إذ توالى فيه نزول الأمطار ولم تنقطع تقريبا وكان لا بد من نزح المياه من وقت الى آخر من المراكب التى قضوا ليلهم فيها أيضا .

وفى ١٤ منه سافروا طول اليوم بواسطة الاستعانة بالمجاديف . وفى ١٥ منه كانت الريح على ما تشتهى السفن فساعدتهم على السير إلا أنهم لم يستطيعوا الدنو



واقعة مرولى التى اشتبك فيها أميرالألاى شاليه لونج وجندياه مع الأونيوريين المرسلين من قبل كباريجا ملك أونيورو فى ١٧ أغسطس سنة ١٨٧٤ م .

من البر . وفى ١٦ أغسطس التزموا أن يعودوا الى التجديف حتى المساء ولكنهم تمكنوا من الرسو فجروا المراكب الى اليابسة ورمموها على قدر الامكان لمنع تسرب الماء الى جوفها . وقد قل الزاد فاضطروا أن يخفضوا الجراية الى النصف .

وفى ١٧ منه أقلعوا فى الساعة العاشرة . وقبيل منتصف النهار قام بفكر شاليه لونج انه على مقربة من مرولى التى أمر سليماً أن ينتظره بها فأطلق من بندقيته عيارين ناريين ودنا الى الشاطىء واذا به يدهش إذ رأى بين البردى النابت على ضفة النهر عدة مراكب مشحونة بالرجال المسلحين بالمزاريق وكان يلوح من خلال احوالهم أنهم يرقبونه ويتربصون له . وفى الحال دوى صوت البوق ودقت الطبول . هذا مما لا يدع شكا من جهة نياتهم ومقاصدهم إذ أن معنى ذلك صراحة : العدوان .

وأمر شاليه لونج الوفد فى الحال بالانسحاب فتبعهم ٤٠ مركبا بها زهاء ٤٠٠ رجل مزودين بالحراب . ولما رأى شاليه لونج أن مراكبهم تلاحقه وتوشك أن تلحقه أمر بتعبئة الاسلحة وربط المراكب ببعضها .

وكان المتونجولى الذى يقود قوة العدو فى المقدمة واقفا فى مركبه ويبدى حركات العدوان فأنذره شاليه بالانسحاب وأعلمه على غير جدوى ولا فائدة ان صلاته حسنة مع ملكه كباريجا ولما رآه آخذا دواما فى الدنو صوب نحوه رصاصة سكنت فى صدره وأردته فى جوف مركبه وأمر عساكره باطلاق النيران . ولما كان سلاح الاهالى الوحيد هو الحراب فالقرابينات ذات المرمى البعيد لم تدع لهم سبيلا للتقدم وأقصتهم بعيدا وأهلكت عددا كبيرا منهم فضلا عن أنها أغرقت كثيرا من مراكبهم .

وبعد ان حاولوا الاقتراب عبثا مدة ساعتين لاذوا فى النهاية بأذيال الفرار تاركين نحو ٨٠ قتيلا .

واستمر شاليه لونج ورفاقه فى السير طول الليل تفاديا من تكرار الهجوم خصوصا بعد أن استنفدوا ٤٥٠ ظرفا وبعد ان قل الزاد وصار من أصالة الرأى الابتعاد على قدر الامكان من أولئك القوم .

وفى ١٨ أغسطس استعمل المجداف طول اليوم مع ان الرجال كانت منهوكة القوى خاوية البطون . ولم يفتروا عن التجديف إلا عند الساعة العاشرة مساء وبعد ذلك رست المراكب فحطوا رحالهم . وكان النهر واسعا وعميقا وصالحا لأن تمخر فيه البواخر الكبيرة . ولاح جبل كيكو نجورا Kikungura الى شاليه لونج فساورته الآمال بأن يصل فى الغد الى كسمبواس محل اقامة ريونجا .

وفى ١٩ منه شرعوا فى السير فى الساعة السابعة بعد ان أتوا فى العشى على آخر ما عندهم من الزاد . وكانت الريح على غير المراد فدعت الحالة للتجديف واستمر الرجال هكذا يعملون الى منتصف الليل بدون تناول طعام . وقد ظن شاليه لونج فى هذه اللحظة انه تجاه كسمبواس فأمر ان يطلق عيار نارى وردا على ذلك سمع دوى طبل . فأرسوا المراكب وأطلقت أعيرة أخرى . وفى هذه المرة سمع فى وضوح وجلاء رنات عزف جيش نظامى تدق دقات الاجتماع . وبعد ساعة قدم فلك حاملا على متنه الصاغقول اغاسى بابا توكا افندى قائد محطة فويرا وريونجا ومعهما طعام التهمه الوفد حال وصوله اليه .

وفى ٢٠ منه ذهب أعضاء الوفد الى محل اقامة ريونجا حيث أحضر لهم فطورا فاخرا فاكلوا هنيئا وشربوا مريئا .

وكان سبب مجيء الصاغقول اغاسى بابا توكا افندى الى هذه الناحية الحصول على العلف وكان مقررا ان يعود الى فويرا فى نفس اليوم . وسافر الكل معا فدخلوا هذه القرية عند الظهر . وتبين أن سليما والجواد لم يصلا الى ذلك الوقت .

ومن ٢٠ أغسطس الى ١٣ سبتمبر أعنى المدة التى أقامها شاليه لونج فى فويرا ما زال هذا يخامره الامل بأن يصله امداد يمكنه من ان يضم الى قائمة الاستكشافات التى أتمها حل المسألة الخاصة ببحيرة البرت نيانزا فلم يصله أقل مدد لأن العبيد لا يريدون المجازفة باقتحام السير في فصل الامطار .

وأرسل شاليه لونج مكتوبا الى كباريجا فى مازندى ليستعلم منه عن السبب فى هجوم رئيس بحارته ورجاله عليه هجوما متعمدا فى مرولى . فلم يرد له الرد رأسا بل ورد له جواب من سليمان سفير مصر فى أونيورو القاطن فى قصر كباريجا وهو جواب عباراته ملتبسة مبهمة تؤيد ما خامر شاليه من الظنون بشأن مسلكه فى هذه المسألة . وفى مدة اقامته فى فويرا دخل المعسكر ثعبان هائل الجثة فقتلوه ووجدوا طوله ٩ أمتار .

وفى ١٣ سبتمبر وصل سليم وسليمان والسائس ومعهما الحصان والحمير . فتقرر السفر بعد الغد وكلف ريونجا بتقديم الحمالين . وانقضى يوم ١٤ من هذا الشهر فى تجهيز معدات السفر . والتمس ابراهيم افندى وهو ذلك الترجمان

الذى رده شاليه الى هذه النقطة مغضوبا عليه ، الصفح عنه فوعده باعادته الى غندوكورو مع واد الملك الذى سيذهب اليها بالعاج .

وفى ١٥ سبتمبر كان الحمالون وفريق من الجند على استعداد للسفر . وأخذ الجميع فى السير عند الساعة الثامنة . وفى ١٦ و ١٧ و ١٨ و ١٩ منه تابعوا السير فكانت المرحلة اليومية تبتدىء عند الساعة السادسة صباحا ولا تنتهى الا فى السادسة مساء . وكان على وجه عام لا ينقطع يوميا المطر المدرار وأضحت الادغال والحشائش الطويلة الأليـاف غير المأهولة بالسكان غير مسلوكة .

وفى ٢٠ منه بلغت القافلة فى هذا اليوم فاتيكو فقوبلت بمزيد الحفاوة والتكريم من الضباط ومن الصاغقول أغاسى عبد الله افندى الدنساوى قائد هذه المحطة . ومن ٢١ سبتمبر الى ٥ اكتوبر قضى الوفد هذه الايام فى فاتيكو للاستراحة من عناء السفر وليتعافى افراده ويسترجعوا قواهم .

وفى ٥ اكتوبر ودع شاليه لونج قائد المحطة وضباطها وقدم لهم مزيد تشكراته على ما خصوه به من الاكرام ثم انطلق فى السير ورافقه ضابط برتبة ملازم و ٦٠ جنديا من المحطة و ٢٠ جنديا من الجنود غير النظاميين و ٧٠ من الأهالى لحمل العاج . وكان هذا الحرس لازما لداعى ماتبديه قبيلة الموجى من العداوة والبغضاء . ورجال هذه القبيلة هم الذين هاجموه حين ذهابه الى الجنوب .

وفى ٧ منه واصلوا السير من الساعة السادسة وفى ٨ منه بلغوا فاجرنيا Fagrinia . وفاجرنيا هذه هى زريبة للدناقلة وكانت موضوعة إذ ذاك تحت

مراقبة الحكومة المصرية ويديرها جندى قديم يسمى بخيتا . وقد قضوا ليلتهم فى هذه الزريبة .

وفى ٩ أكتوبر وصلوا الى ضفة نهير يقال له « أسوا » Asua . وفى ١٠ منه اجتازوه بلا صعوبة . وفى ١١ منه دخلوا لابوريه . وفى ١٢ منه مروا من بلد أهالى الموجى فلم يبد هؤلاء أى اشارة عدائية . وفى ١٣ و ١٤ منه واصلوا السير وفى ١٥ منه كانوا ازاء الرجاف غير أنهم لم يستطيعوا عبور النهر لعدم وجود مراكب والتزموا أن يحطوا رحالهم .

وفى ١٦ منه استحضر القائمقام الطيب عبد الله بك قائد محطة الرجاف مركبا وقدم اليهم بها وقابلهم بفرح عظيم . ولما كان شاليه لونج شديد الحنين الى الرجوع حرك كتيبته ونزل الى المركب يرافقه الجنديان سعيد وعبد الرحمن وولوا وجوههم شطر غندوكورو فوصلوا اليها عند غروب الشمس .

وقد استقبلهم غوردون بها أحسن استقبال وكال لشاليه عبارات المدح والثناء وقال « لقد عملت فوق ما عمله أى انسان آخر فى هذا البلد » . فكان هـذا القول تعزية لشاليه لونج وتعويضا لما عاناه من الصعاب فى سبيل استكشافاته .

سنة ١٨٧٥ م

فتح غوردون طريق المواصلات مع أوغندة

وكان غوردون قد أرسل فى أواخر العام المنصرم اللازمين وطسون وشيبندال ليرتادا بحيرة البرت إلا أنه علم فى أوائل شهر يناير أنهما وقعا بين براثن المرض .

فبعث بباخرة لتأتى بهما وعهد بهذه المهمة فيما بعد الى مسيو جيسى وكان من الضرورى أن يتوجه غوردون الى جهة نهر سوباط إلا أنه لما كان جميع اركان حربه تقريبا مصابين بالامراض لم يتمكن من الذهاب الى تلك المنطقة وقد قال إنه لا ينبغي لأى شخص أن يأتى الى تلك الجهات اذا كانت سنه دون الثلاثين سنة . وكانت حركة العمل قد ازدادت وتضاعفت فى اقامة المستودعات والورش فى لادو التى اضحت عاصمة لمديرية خط الاستواء . وكان أميرالألاى لونج قد وصل ومعه ٤٠٠ جندى من الخرطوم إلا أنهم كانوا لسوء الحظ من الجنود المصرية إذ أن غوردون كان يؤثر على هؤلاء جنودا سودانية لتستطيع مقاومة المناخ لأن ال ٢٥٠ جنديا الذين كان استحضرهم معه عاجلت المنية نصفهم واضطر ان يرجع الى مصر مائة منهم . أما العسكر الذين قدموا حديثا فنصفهم وقع فى مخالب المرض فى الأيام التى وصلوا فيها .

وتلقى غوردون تقريرا قبيل آخر شهر يناير من الضابط المعين للقيادة فى فويرا يقول فيه انه أرجع الجنود القدماء الذين كانوا تابعين فيما سلف

للنخاسين وجهزهم سير صمويل بيكر باشا للقيام بخدمة الحكومة لأنهم تواطئوا عمدا مع كباريجا ملك أونيورو على الخيانة والاستيلاء على المحطة . ووصل أولئك الجند البالغ عددهم ٥٠ جنديا بصحبة واد الملك وفى الحال جردهم غوردون من أسلحتهم ووجههم الى الخرطوم وأرسل كذلك أمرا الى محطة فاتيكو بأن ترد من عندها من أولئك الجنود البالغ عددهم ٩٠ الى لادو وعند وصولهم عاملهم بالطريقة التى عامل بها جنود فويرا . ووطد العزم لوقوع هذه الحوادث على ان يعاضد ريونجا العدو اللدود لكباريجا ضد هذا وان يضع الأول محل الثانى . والتمس من الخديو أيضا أن يرسل على ظهر باخرة ١٥٠ جنديا الى خليج ممبسه الواقع على ساحل افريقية الشرقى ليقيم هناك محطة ويفتح طرق المواصلات مع أوغندة وذلك ابتغاء تسهيل الاتصال بمديريته .

وقد أجاب الخديو اسماعيل طلبه وأرسل حملة تحت قيادة ماكيلوب باشا احتلت فعلا تلك المنطقة ولكن نظرا لتشبث الحكومة الانكليزية بانسحاب هذه الحملة من هناك أمر الخديو بانسحابها وهذا العمل من الحكومة الانكليزية لم يكن إلا تمهيدا لغايتها الذاتية حيث أنها أعلنت حمايتها على زنجبار وملحقاتها فى سنة ١٨٩٠ م كما سيمر بك ذكره فيما بعد .

وسافر غوردون من لادو الى نهر سوباط فى ٢٦ يناير حيث كان فى نيته زيارة محطات مديريته الشمالية ليزودها بجميع ما تحتاج اليه من المئونة والذخيرة مدة ثمانية أشهر ثم العودة والتوجه الى فاتيكو مع نقل السفن الحديدية وجميع آلات البواخر الى دوفيليه . وقرر فى أثناء السير أن يشيد محطات تبعد احداها عن الأخرى مسيرة يوم واحد إذ بهذه

الوسيلة يكون فى حيز الاستطاعة حراسة كل ارسالية بعشرة من الرجال بينما كانت أخبار المحطات لا تصل الآن إلا فى ظـــرف ستة أشهر هـــذا عدا انه كان من اللازم أن يرافق كل ارسالية مائة جندى لتدفع كل غائلة عنها .

وعنـــد ما وصل الى سوباط فى ٩ فبراير أرجع اللازم وطسون الى انجلترا لأن حالته الصحية لم تسمح له بالبقاء فى السودان وقد أرجعـــه على كره منه لأن ذلك كان يخفض عـــدد أركان حربه الذى أمسى من قبل ضئيلا .

وعاد غوردون الى لادو فى ٥ مارس وفى ١٣ منه يمم محطة الرجاف . وكان يوجد على مقربة من هذه المحطة شيخ يقال له « بيدن » وكان هـــذا الشيخ لا ينفك عن اظهار العداوة والبغضاء للحكومة حتى فى مدة وجود حكومة سير صمويل بيكر كان غوردون قد حاول أن يستجلب مودته بواسطة تحف وهدايا كان يرسلها اليه غير أن جميع مساعيه ذهبت أدراج الرياح . وبما أنه كان قد عول على تخفيض حامية هذه المحطة وكان لا يمكنه ان يترك قريبا منها نفرا يبدون للحكومة الكراهة فقد صمم على الاغارة على زرائب هذا الشيخ ونهب ماشيته بطريق المباغتة .

فألف لهـــذا الغرض كتيبتين احداهما من ٥٠ جنـــديا وقد سار معها بنفسه والثانية من ٢٠٠ جندى وهذه الأخيرة كلفت بالاحاطة بالزرائب ومحاصرتها .

وفى الساعة العاشرة مساء أخذت الكتيبتان فى السير ووصلتا قبيل انبثاق

الفجر الى موضع الزرائب وبعد اطلاق عدة طلقات ولى الخفراء الادبار وتركوا بين يديه وتحت تصرفه ٢٦٠٠ رأس من المواشى .

وأغار فى الغد على أرض شيخ من المشايخ المعادية يقال له « لوكوكو » Lococo واستولى على ٥٠٠ رأس أخرى . واستبقى عنده هاتين الغنيمتين مؤملا أن يرجع أصحابهما عن غيهم ويبدوا شيئا من المسالمة .

وفى ٣٠ مارس سافر من الرجاف الى نقطة تبعد عنها ٤٠ كيلومترا ليبتنى عليها محطة . وكان عاقدا النية على أن يقيم أيضا محطتين بين هذه ودوفيليه وبذلك تمسى مواصلاته طلقة لا شيء يعوقها عن فاتيكو .

وفى ٧ أبريل رجع الى الرجاف ليهتم بنقل أجزاء البواخر الباهظة الثقل التى كان قد عول على أن يسيرها فى البحيرة . وكان هذا العمل عرضة لمصاعب كبرى نظرا لثقل هذه الاجزاء من جهة ولطول المسافة اللازم قطعها من جهة أخرى وهى مسافة لا تقل عن مائة وخمسين كيلومترا تقريبا . غير أنه كان يرى ان شرفه مرتبط بوعد صدر منه على أن يسير باخرة فى البحيرة . وقد انقضى الميعاد دون أن يبر بوعده والوقت أمسى لديه قصيرا فلا يسمح له بضياع برهة منه .

وبعد وصوله الى الرجاف ببضعة أيام وردت ارساليتان الواحدة من لاتوكا والاخرى من غربى مكراكا . وكان قد هل فصل الامطار . وكان عليه أن يباشر نقل جميع الآلات الثقيلة وقطع الباخرة على مرحلة ١٥٠ كيلومترا فى طرق مجهولة . ففكر أولا فى تأجيل هذا العمل الى السنة القادمة ولكن ذلك كان لا يأتى منه سوى تأخير مسألة كان ينبغى

أن تكون قد تمت فى الأيام الخاليـــة وعلى هـذا كان ليس ثمـة فائدة ترجى من وراء التأجيل .

وقد نوى أيضا أن ينشىء محطة على قيد مسيرة يوم من الرجاف ثم ينقل اليها الآلات . ومتى وصلت هذه الى تلك المحطة يكرر هـذه العملية وذلك بأن يقيم سلسلة من المحطات الى ان يبلغ فوق الشلالات . غير أنه قامت فى وجهه مسألة تموين هذه المحطات وهى مسألة لا يستهان بها . وكان أمامه حل آخر وهـو أن ينشىء محطة فى لابوريه وان يشترى الميرة من الأهالى وهـــذا اعترضه أيضا أمر عبور نهر « أسوا » إذ ان اجتيازه فى فصل الامطار ليس من المسائل الهينـــة . حتى على فرض انه اجتاز ذلك النهر يكون قد صار هـذا خلفه ولا يكون هـو متأكدا أن يحصل على اقوات من الأهالى .

وآل الامر فى النهاية الى أن يوطن العزم على أختيـــار الحل الأول مؤملا أنه متى أقام المحطـة على مقربة من لابوريه فان الأهـالى تأتى بالاقوات ليبيعوها ولكنه فى الوقت ذاته كان يرى أنه لا ينبغى الركـون كثيرا الى هذا الحل وذلك لأن هـذا الأوان كان اوان بذر الحبـوب وبعبارة أخرى كان وقت انتهاء الفصل وفى هـــذا الوقت لا يمتلك الأهالى بالطبع إلا النزر اليسير من القوت .

وبما أنه لم يكن لديه متسع من الوقت فقـد شرع في السير مع ٤٠ جنديا سودانيا و ٥٠ آخرين من اهالى نيام نيام من ناحيـــة مكرا كا وأخـذ معه زاد ١٥ يوما . واستخدم أيضا حمالى ارساليتى لاتوكا ومكرا كا

فى الغرض عينه .

وتقدمت الحملة مسافة ٤٠ كيلومترا تقريبا فوصلت الى مكان يقال له كرى Kerri واقع على شاطىء النهر . وبلغه عند وصوله الى هذه الناحية أن الماشية التى اخذها غنيمة وهو يحسب انها من ممتلكات الشيخ بيدن الذى يناصب الحكومة العداوة هى فى الواقع ونفس الأمر خاصة بشيخ من المشايخ الموالين للحكومة . فدهش لذلك كثيرا واصلح فى الحال هذا الخطأ برد الماشية الى صاحبها الحقيقى . وقرر أنه لا يقدم من هذا الحين على عمل كهذا إلا بعد أن يتأكد مما هو قادم على فعله .

وبعد أن قام المسكر هبت عاصفة واستدعت الحال الالتجاء الى الاشجار لاتقاء شرها على قدر الاستطاعة وعند ما بلغت تلك العاصفة أشدها سمعت طلقات بعض الاعيرة النارية صادرة من الأهالى ولما رأى الجند أن هذه الطلقات مصوبة اليهم جاوبوها بطلقات ردت المغيرين على اعقابهم ونهبوا القرية القريبة من المعسكر على سبيل العقوبة لهم .

وأطلقت أيضا بعض اعيرة صوب الأهالى المقيمين على الضفة المقابلة لجعلهم أعداء بطبيعة الحال .

عودة غوردون الى الرجاف

وعند ما أتم غوردون اقامة المعسكر رجع الى الرجاف بطريق النهر ليتحقق من صلاحيته للملاحة فاتضح له ذلك .

وعند ما ألقت سفينته مراسيها عند الرجاف خرج وولى وجهه شطر جزر

يبدن ليفحص مضيق النهر فاذا به يرى بعض الأهالى جلوسا تحت شجرة فاتجه نحوهم وسألهم عما إذا كانوا من أتباعه ودهش عند ما رآهم يشيرون الى واحد منهم وهو رجل بلغ من الكبر عتيا ويوشك أن يكون كفيف البصر قائلين ان هذا هو الشيخ عينا وذاتا فاشتبك معه غوردون فى الحديث وقال له انه لا يأخذ منهم شيئا لو سلكت قبيلته مسلكا حسنا ثم ناوله صفارة وتبغا وحثه على أن يأتى لزيارته فوعد الشيخ باجابة هذا الطلب . وأمر غوردون جنوده بأن لا يمسوا شيئا من ماشيته . والذى بعث الطمأنينة فى نفس يبدن هو رد ماشية الشيخ المسالم للحكومة تلك المسألة التى نقل اليه خبرها هذا الشيخ . اما لوكوكو وهو ذلك الشيخ الآخر الذى كان يناصب غوردون العدوان فبلغته أيضا هذه الحكاية فكان ذلك داعيا لمجيئه الى المعسكر وتقديمه الطاعة .

وفى ١٠ أبريل قدم يبدن الى المعسكر فحباه غوردون بمنحة قدرها ٢٠ من الابقار ومقص . وهذا المسلك كان لا بد أن يؤدى فى الواقع الى عواقب محمودة لأنه عند ما ينتشر هذا الخبر بين الأهالى كانت تتوطد الثقة فى نفوسهم فيجنحون الى الخضوع وينبث السلام بين ربوعهم .

وفى ١٧ منه أقلع غوردون من الرجاف ليذهب فى النهر صعدا فصرح رئيس السفينة أن ذلك من رابع المستحيلات وقال انه قد كان حاول فيما سلف من الايام القيام بمثل هذا العمل فكان الفشل نصيبه إلا ان غوردون الح كثيرا وفى النهاية عثروا على ممر . وكان التيار السريع يمتد الى

طــــول زهاء ٦ كيلومترات ووصلوا الى مكان يبعد ١٥٠ مترا عن النقطة التى تسهل منها الملاحة الى كرى . وفى هـــذه ال ١٥٠ مترا كان يوجد فرق فى منسوب سطح الماء قدره خمسة أمتار وذلك مما يجعل صعود هذه المسافة عسيرا جدا ويستلزم نقل المشحونات الى مراكب اخرى وهذا كان يستدعى ايجاد اسطول آخر صغير فى القسم العالى من النهر .

فعاد غوردون الى الرجاف وهناك تلاقى مع المـــلازم الأول شيندال الذى كان آتيا ومعه عدد كبير من حمالى فاتيكو . وكان هـذا الملازم صعد النهـــر حتى صار على مسافة صغيرة من البحيرة . غير أنه لم يستطع الوصول اليها بسبب عدم امداده بأية معـــاونة من المدير . واتصل بغوردون علاوة على ما ذكر أن كباريجا ملك أونيـــورو كان يقيم العقبات فى سبيل انجاح مهمته وان متيسا ملك أوغنـــدا أرسل اليـــه ساعتين لاصلاحها .

بناء محطة فى بيدن وتحسن سبل المواصلات والأمن

وفى ٢٠ مايو رجع غوردون الى لادو ليسوى بعض أعمـــال مصلحية وعاد الى كرى فى ٥ يونيه . وكانت رجاله منذ زيارته الاخيرة قد تمكنوا من امرار ٣ مراكب صعدا من المضيق الشرقى فذهب الى هـــذا المكان ومعه ١٠٠ رجـــل ليبتنى محطة سماها باسم الشيخ بيدن . وقد لاقت ال ٣ مراكب مصاعب جمة فى الصعود وكان يخشى عليها كثيرا من الغرق إلا أنه لحسن الطالع جرت الامور مجراها بدون ان يقع حادث مكدر .

وفى ١٣ يونيـــه آب غوردون الى لادو وكان الفيضان بلغ أشده وماء

النهر مرتفعا ارتفاعا شديدا وبالتالى كانت الملاحة صعبة . ووجد الامور جارية فى مجرى لم يرتح اليه لأنه فى أثناء غياب المدير الذى عاد الى الخرطوم كان قد وقف دولاب الاعمال . والبواخر التى كانت سافرت الى الخرطوم من مدة ١٣٠ يوما لم ترجع لغاية ٢٩ يونيه فظن غوردون ان يد الاقدار لعبت بها واغتم لذلك . وتحسنت حالة المواصلات مع المناطق الجنوبية تحسنا محسوسا حتى لقد قدم رجل بمفرده من محطة يدن فى يوم واحد مع ان هذه الرحلة قبل هذا الوقت كانت تستغرق زهاء ٢٠ يوما وكان لا يخلو الأمر من ان يغير على سالكيها الاهالى . وهذا يدل على أن السلم كان يجرى فى مجرى التقدم وأن الثقة أخذت تسود فى النفوس .

وكانت الحملة التى كان يقودها المهندس كمب الى كرى فى شهر سبتمبر من العام الماضى لاقت أعباء ونصبا على طول الطريق بينما كان غوردون قد ذهب بمفرده ومعه ٥ من الجنود الى هذه الناحية فى هذا العام بدون أن يصادف فى طريقه ازعاجا ولا اقلاقا . وكان لابد لكل مركب تسافر فى العام المنصرم ان يكون معها حرس مؤلف من ٥ من الجند أما الآن فكانت تسافر السفن وحدها وبدون حرس ويمكن ان تعزى هذه الحالة الى الأوامر التى صدرت بمنع نهب القرى الواقعة على الطريق .

ولغاية ٥ يوليه أيضا ما كانت البواخر وصلت وكان النهر آخذا فى الازدياد وتكونت بحيرة واسعة شاسعة جنوب المحطة ولم يبق مكان يمكن السفن ان ترسو فيه للاتصال باليابسة إلا فى سوباط ، وبور ،

وشير ، ولادو ، وغندوكورو ، والرجاف .

قيام العقبات فى طريقه وتذليلها

وفي ٩ يوليه رجع غوردون الى بيدن وسبر غور الماء فوجد ان عمقه يكفى لمرور الباخرة « الخديو » فأخلى سبيل عـــدد من الجنـد القـدماء وجند ٧٠ جنديا جديدا .

وورد بعد كل هـذا وذاك البريد وعلم منه اتمام الباخرة الـكبيرة التى كان استحضرها سير صموئيل بيكر وسماها : « الاسماعيلية » .

وولى غوردون وجهـــه فى ٣١ يوليـه شطر موضع واقـــع على مسافة ٣ كيلومـترات جنـوب كرى ليصعد السفن من ممر صعب وتم له ما أراد إلا انه فى أثناء القيام بهذه العملية هب عليهم إعصار شديد نالهم منه مكاره جمة .

وفى ٣ اغسطس فرغـوا من عمليـة صعود ٣ سفن فى تيار مـوجى السريع بعد أن نالهم من المتاعب والمصاعب مالا يحصى ولا يستقصى لان سرعة التيار كانت ١٠ كيلومترات فى الساعة . وبسبب قطع عدد كبير من الاحبال انسابت السفن وذهبت تتخبط فى النهر على غـير هدى . واستلزم الحال البحث عنها فى اماكن قصيـة . وبقى عليهم بعد كل ذلك قطع زهاء ١٠ كيلومـترات حتى يكونوا قد اجتازوا بلاد قبيلة البارين الذين وان كانوا عاونوا غوردون فى هذه الاعمال ولم تبد منهم أية اشارة عدوان الا انه كان يفضل ان يعبر بلادهم ليدخل بلد قبيلة المادين التى هى اكثر وداعـة من القبيلة الاولى . وكان يرى فوق ذلك ان مروره من منطقة قبيلة البارين بدون قتـال يعـد فوزا مبينا .

وتحسنت الحالة فى اليوم التالى واستطاعوا ان يقطعوا زهاء ١٥ كيلومترا غير ان الريب التى كانت تساور نفس غوردون وجهل ما يخبئه المستقبل فى طريقه غرسا فى مخيلته الهم والغم . نعم ان الاهالى لم تبد نحوه شيئا يومى الى سوء النية وفساد الطوية ولكن حالتهم كانت تنم عن مبلغ كبير من الخوف والفزع وما كان فى حيز الاستطاعة الحصول منهم على أية دلالة أو أى ارشاد . وساورت غوردون تلقاء جميع هذه المصاعب الشكوك بصدد صعود الباخرة النهر هذا العام .

وحاولوا فى ٨ اغسطس صعود الباخرة الخديو تيار بيدن السريع فتم لهم ذلك بسهولة وبكيفية ما كانوا يحلمون بها وصعدت تلك الباخــــرة ذلك التيار براحة تامة بقوة البخار وبمساعدة الجر بالحبال « اللبان » وبذلك تأيد انه فى امكانها أن تصل الى كرى لأنه لم يبق فى طريقها شىء يعوق سيرها .

وفى ١٠ منه وقع حادث . ذلك أنهم عبروا الاجزاء الصعبة المريبة ودخلوا فى أقسام الماء الهادى واذا بمركب قطعت أقلاسها بسبب بلاهة وغباوة رئيسها وجرها التيار الى الماء السريع الجريان وشحطت على الصخور فى منتصف المضيق وأرسلت مركب أخرى لانقاذها فكان حظهـــا نفس حظ سابقتها . ومما زاد فى الطين بلة ان جميــــع الاحبال كانت فى جوف هذين المركبين . غير أنه لحسن الطالع أمكن فى اليوم التالى تعويمها .

وفى ١٤ منه جاهر الاهالى بالعداوة وكان قد بدا منهم منذ يومين بوادر تنم عن الاستعداد لنشر راية العصيان . فأخذوا يتسللون خلال الحشائش المرتفعة باذلين الجهود ابتغاء الوصول الى المعسكر غير أن الجنود كانوا يقظين واقفين لهم بالمرصاد فأمكنهم بواسطة القرابينات ذات المرى البعيد أن يوقفوهم

على بعض المسافة منهم ويدعوهم الى تغيير ما قام برؤوسهم . وما كان لهؤلاء القوم عذر فيما أتوه وذلك لأنهم كانوا يعاملون معاملة حسنة إلا أنهم لما رأوا ان الحملة مشتغلة بجر المراكب أرادوا الاستفادة من هذه الحالة وأخذ المعسكر على غرة منه وصرفوا النظر عن دعوتهم لسلوك المسالك الحسنة وإعطائهم الوعود بان لا يمسوا بشيء .

وقدم فى اليوم التالى ثلاثة من المشايخ وقدموا المعاذير فقبلت معاذيرهم وعافاهم غوردون من الغرامات التى كان قد فرضها عليهم وتنحصر هذه الغرامات فى توريد عدد من الابقار .

وقد كان يرتقب امدادا من لادو مكونا من ٢٥٠ جنديا وعددا آخر من اهالى « مكديه » Makadè يمكنه بواسطتها تسيير الأعمال بسرعة عظيمة .

وكان الأهالى المقيمون على الضفة الغربية حيث تشتغل الحملة أعجز من أن يسوقوا لها ضررا كبيرا . لأنهم كانوا محصورين بين النهر شرقا والجبال الواقعة على بعد ١٠ كيلومترات من النهر ومحطات الحكومة التى فى الشمال والجنوب غربا .

اما لو كانت الحملة تشتغل على الشاطىء الشرقى حيث الجبال واقعة على مسافة زهاء ٦٠ كيلومترا من النهر والاهالى أكثر عددا لثارت عليها كل قبيلة البارين إذ أن الأهالى ما كانوا مرتاحين لأن يروا بلادهم تحتل احتلالا نهائيا .

وفى ١٧ اغسطس عبر غوردون النهر الى الضفة الشرقية ليرى اذا كان المضيق أكثر موافقة من الشاطىء الغربى . وعند ما سمع دوى صوت طلق

نارى يتجـــاوب صداه فى الفضاء صوبه غوردون الى فرس من أفراس البحـر أدركت الحامية رهبـة وساورتها الظنون على حياته لأن قاطنى هـذا الشاطىء كانوا أشد عداوة للحكومة من ساكنى الشاطىء الشرقى .

ورجع غوردون دون أن يقع له أى حادث ولـكنه شعر بأنه قوبل مقابلة مجردة من المودة وان هذا العبور صادف استياء من الأهالى .

وفى ٢٠ أغسطس ورد الى غوردون نبأ بأن المحطة الواقعـــة على مسيرة كيلومترين من المحطة التى كان يقيم بها هوجمت فى الليلة الماضية إلا أنها صدت المغيرين بعد أن حملتهم خسائر يظن بعدها أن لا يجـــددوا هجومهم الذى يلوح أنه كان متواطئا على القيام به ثلاث قبائل . وأراد غوردون أن يعطيهم درسا قاسيا يوقظهم من سباتهم إلا أن قوته كانت ضئيلة لا تسوغ له القيام بالعمل الذى كان يرمى اليـــه . نعم انه كان لا يضمر للقـوم أية عداوة غير أنه مما لا يحتاج الى ايضاح أنهم اذا استمروا فى مثـل هـذا المسلك كان يضطر الى قتالهم .

وفى ٢٢ منـه وصل الأهالى الذين كان يتربص قـدومهم من مكديه برفقة إرنست بن لينان دى بلفون باشا . وكان هـــذا الشاب سافر بمهمة الى متيسا ملك أوغندا وقـدم منها . وكان قد قابل فى هـذه المملكة فى شهر أبريل استانلى الذى كان قد سبقه اليها بثمانية ايام .

وفى ٢٨ منه كان غوردون فى مكان يقال له موجى واقع جنوب « كرى » التى كان قد تقرر انشاء محطة بها . ولما علم أن الباخرة وصلت الى نقطة تبعد عنها قليلا من الخلف وقريبـة للضفة الشرقية اجتـــاز النهر



محطة « كري Kerri » العسكرية بمديرية خط الاستواء

وسار مسافة بقصد مقابلتها . غير أنه لما لم يرهـا أصدر أمرا بصعودها من الجهة الشرقية . ولدى وصول الباخرة الى المضيق لم تتمكن بسبب وجود جزيرة مستطيلة أن تتصل بالبر الغربى . وفى أثناء دخول غوردون فى المضيق أرسل أمرا الى ٣٠ جنديا من الجنود المقيمة فى محطته بعبور النهر الى الشاطىء الشرقى .

وعندما رأتهم الأهالى قادمين أخذوا يقرعون طبولهم الكبيرة للتجمع والقيام بالهجوم . واندفعوا بقضهم وقضيضهم على الجند . ولما رأى ذلك غوردون عجل بعبور النهر وانضم الى جنده تماما فى اللحظة التى بدأ فيها نشوب القتال ورد الهجوم بسهولة .

وقد حاول أن يدخل معهم فى مفاوضة فذهبت مجهوداته فى ذلك أدراج الرياح فأمر قوته بالصعود الى جبيل هناك فلما رآهم الأهالى بذلوا جهودهم ليحيطوا بهم فتركتهم الجنود يقتربون ثم أمطروهم وابلا من الرصاص فارتدوا على أعقابهم الارتداد الأخير . وأظهر الأهالى فى هذا الهجوم الفاصل كثيرا من الشجاعة والمهارة فكانوا يزحفون على بطونهم وعندما يرون العساكر تحشى سلاحها ينهضون ليركضوا نحوهم ثم ينطرحون عند ما يرونهم مصوبين عليهم النيران . وانتهى بهم الأمر الى أن بلغوا الى مسافة ٨٠ مترا من خط النار . وقد حضر إرنست دى بلفون هذه الموقعة .

ولما كان غوردون يريد أن يستوثق من المكان الذى به الباخرة نزل قليلا فى الضفة الغربية ورجع الى المعسكر بدون أن يهتدى الى موضعها .

ولم يرافقه إرنست فى هـــذه الرحلة القصيرة بل ظل فى المعسكر لينشىء مكاتيب . وطلب من غوردون فى المساء السماح باجتياز النهر مرة أخرى الى البر الشرقى وان يضرم النار فى أكواخ الأهالى المعـــادين . وبما ان غوردون كان يخشى انه لو تركهم فى هدوء وطمأنينة لشنوا الغـــارة على الباخرة فقد أجاب هذا الطلب مؤملا انه بهذه المشاغلة يستطيع أن يمنعهم عن القيام بمثل هذه الغارة وأعطاه ضابطين و ٣٦ جنديا وصندوقى جبخانة . هذا عدا ٣٠ رصاصة أودعت فى جراب كل واحد من العساكر .

وقامت هذه الحمـــلة فى الساعة ٨ صباحا وكان يسمع من وقت لآخر دوى بعض أعيرة نارية يرن صداها فى الفضاء . وقبيل الظهر كانت الحمـــلة فوق الروابى على بعد ٣ كيلومترات تقريبا من المحطة ورأى غوردون إرنست يلبس قميصا أحمر كان قد أعطاه له .

وكان يلوح ان كل الامور تجرى فى مجرى حسن . وظلت الحملة فى هـــذا الموضع لغاية الساعة الثانيـة مساء ثم توارت عن الأعين . وخرج غوردون عنـد الساعة الرابعـة والنصف للرياضة واذا به يسمع صوت طلق مدفع من المحطة فارتد على عقبـه مسرعا وأمسك نظارته وتطلع واذا به يرى زهاء ٤٠ نفسا من الأهالى ينحدرون ركضا فى الضفة المقابلة فلم يعر ذلك التفاته وظن أولا أنهم أتوا ليردوا الباخرة واستمر يتطلع اليهم فشاهد أنهم أخـذوا ينسحبون وعندئذ أرسل عليهم بعض رصاصات . وبعد نحـــو ١٠ دقائق رأى وياالشؤم ما رأى !! رأى على الضفة المقابلة جنـديا مجردا من سلاحـه فأرسل قاربا ليأتى به فى الحـال وسأله : أين بنـدقيتك ؟ فأجاب : أخـذها الاهـالى ثم سأله : ولماذا انفصلت عن رفاقك ؟ فأجاب : لم يذر الأهالى منهم ديارا . ثم

سأله : وكيف حصل ذلك ؟ فأجاب : لأنهم استنفدوا ظروفهم .

ولم يكن لدى غوردون في هذه اللحظة سوى ٣٠ جنديا و ٣٠ آخرين في محطة موجى وكان يظن انه يوجد ٩٠ جنديا غيرهم مع الباخرة فى المضيق الشرقى إلا أنه ما كانت توجد لديه أية وسيلة للاتصال بهؤلاء وكانت الساعة عندئذ ٦ مساء . وبما أن معسكره لم يكن محصنا قرر ان ينزل وينضم الى المحطة الاخرى . وبعد ان تكبد عناء جما فى السير ليلا وصل ومن معه الى محطة موجى فى الفجر . وحال وصوله شوهد جندى آخر من العساكر التى صحبت إرنست الى الجزيرة المستطيلة على الجهة الاخرى فعبر غوردون بنفسه النهر ليأتى به وليرى ايضا مافعل الله بالباخرة لأنه كان فى هم وغم ناصب من جهتها .

ولما طلع الى الجزيرة داخله الفرح إذ رأى أن الباخرة رجعت الى البر الغربى بعكس الأوامر التى أصدرها . وعلى هذا رجع أدراجه ومعه الجندى الذى قدم للبحث عنه الى المحطة . ولدى وصوله اليها سر سروراً آخر إذ علم ان أربعة عساكر آخرين من جنود إرنست قدموا اليها . وذكر هؤلاء الجنود الاربعة أنه أحيط بالجنود وأنه بعد فراغ جبخاناتهم هاجمهم الأهالى وقتلوهم . وقتل بين من قتل إرنست متأثرا من الجروح التى أحدثتها حربتان إحداهما أصابته فى عنقه والثانية فى ظهره . غير انه اتضح فيما بعد أن سبب نفاد الجبخانة أنهم كانوا قد أعادوا مقدارا منها الى المركب التى كانت فى انتظارهم وقد استولى الأهالى مع الأسف على ٣٣ بندقية . والقبيلة التى اجترحت هذه الفعلة هى نفس القبيلة التى قتلت من رجال البكباشى الطيب عبد الله افندى ضابطا واحدا و ٢٨ جنديا

سنة ١٨٧٢ م .

وكتب غوردون الى لينان باشا ينعى اليـــه ولده المذكور . فكانت هـــذه مهمة بالغـة أقصى درجات الايلام إذ كان هذا الابن النجل الثانى الذى يفقده لينان فى هذه الحملة .

وكان من الواجب ان لا تفت هـذه المسألة فى عضد غوردون وتدعوه الى تأجيـــل إتمامه مشروع اقامة خط من المحطات يبتدىء من لادو وينتهى عنـــد مكديه إذ أنه لم يبق عليـه لأجل اتمام هـذا الخط سوى انشاء محطة واحدة إلا أن انشاءها كان يستوجب تأخير اصعاد الباخرة لانه كان لا يستطيع ان يكون فى مكانين فى آن واحد .

ووصل الى غوردون إمدادات بلغ بها عـدد الجنـود الذين تحت إمرته ٥٠٠ جندى . وقدم أيضا نور افندى محمد [١] مدير فاتيكو فارتاح غوردون الى ذلك جد الارتياح إذ أنه كان يعتبره ضابطا من خيـرة الضباط وأنه سيوفر عليه متاعب كثيرة .

وبما انه قد أصبح لديه الآن العدد الكافى من الجند فقد رأى أن يجمع غنائم فأرسل كتيبتين من الجند لهذا الغرض وباغت هؤلاء الاهالى واستولوا منهم على ٢٠٠ من الأبقار و ٥٠٠ رأس من الضأن .

وفى ١٣ سبتمبر بذلت مجهـودات أخرى فى سبيل اصعاد البـاخرة غير أنه

---

(١) — وصل فيما بعد الى رتبـة أميرألاى وكان قائدا لحاميـة سنار فى أثناء الثورة المهـدية وعند سقوط هذه المدينة أسره الدراويش . وقد عاش بعد ذلك الى أن توفاه الله .

بسبب خطأ وقع فى العمل أفلتت الأحبال من أيدى الجنـــــود الذين كانوا يعاونون فى جر هذه الباخـــــرة فتراجعت وارتمت على جانبها فوق الصخور . ولـكن والحمـد لله لم يحصل بها عطب وانحصر الضرر فى ضياع شيء من الزمن لتعويمها وهو زمن كان يمكن صرفه فى اشياء أكثر منفعة . وفى غـداة اليوم التالى شرع فى العمل ولم يمض سوى ٤ أيام حتى كانت الباخرة تسبح فوق سطح الماء .

وفى ١٦ سبتمبر بدت من قبيـلة من القبائل روح العداوة وفى ١٨ منـه قامت ثلة من الجنـود للاستيلاء على غنائم من هذه القبيلة غـــــير ان الأهالى استنشقت الخـبر فرجعت الثلة بخفى حنين لأنهم كانوا قد هربوا الماشية فلم يجد الجند غير الأوانى المنزلية فغنموها .

انشاء محطة لابوريه ومحطات أخرى

وطد غوردون العزم على ان ينشىء قبل كل شيء محطـــــة لابوريه لـكى يكون آمنا من جهة سيره الى الامام فسار من موجى موليـا وجهه شطر تلك الناحية فى ٢١ سبتمبر فدخلها فى ٢٤ منه . واشتم من احدى القبائل رائحة العـدوان فقر رأيه على أن يستولى منها على غنائم وفعلا انطلق فى المسير صبيحة ٢٧ سبتمبر غـــــير أنه لم يستطع ان يغنم منهـا سوى ٢٥ بقرة ثم أضرم النـار فى الأكواخ .

وفي ٣٠ منه مشى نحو ١٠ كـيلومترات جنوبا بين مناظر تأخـذ بالالبـاب ورأى من الأهالى مودة أنعشته وقوت عزيمته كثيرا .

وكان أيضا مرتاحا جد الارتياح لحيازته خطا من المحطات تربط جنوب

البلاد بشمالها . ومما زاده ارتياحا على ارتياح تأكده من صلاحية النهر للملاحه طول أيام السنة للمراكب الصغيرة وشطرا من السنة للسفن الكبيرة . وهذه الحالة أبانت له صواب الخطة التى اختطها . وكانت تساوره الآمال بأنه سوف يتمكن فى السنة القادمة من عبور الباخرة و ٦ أو ٨ مراكب الشلالات وأن يقيم محطات على طول نيل فكتوريا فى ماجونجو ، و انفينا Infina ، و فويرا التى قد تم إنشاؤها ، و مرولى ، وعلى بحيرة فكتوريا . وكان من ضمن الفوائد الجلى التى يجنيها من وراء تلك الخطة الحصول على الماء الرائق الصافى طول الطريق وكذلك لما رأى الأهالى أن تشييد خط المحطات أضحى فى حكم الشىء الواقع جنحوا الى الهدوء والسكينة . هذا عدا أن السير بمحاذاة النهر يجعل الانسان بمنجاة من أن يضل الطريق . وفوق هذا وذاك كانت الاخشاب توجد بكثرة والامدادات سهلة وذلك بدون القاء كثير من الجور على عاتق الأهالى .

وفى ٨ أكتوبر سافر غوردون من لابوريه قاصدا دوفيليه وحط رحاله فى أول يوم على قيد زهاء ٢٠ كيلومترا جنوب المحطة الأولى بين صفين من الاطواد الشامخة فى المضيق الذى نوه عنه بيكر . وكان النهر ضيقا جدا فى هذا المكان ويبلغ عرضه ٤٠ مترا على اكبر تقدير . وفى اليوم التالى عاود المسير ووصل الى دوفيليه بدون ان يعترضه أى عارض من قبل الأهالى الذين لبثوا متمسكين بالهدوء والسكينة طول الطريق .

وفى ١٧ منه بارح دوفيليه واتخذ سبيله فى الاقسام العالية التى تبعد قليلا عن النهر وذلك ابتغاء تجنبه شواطئه المغطاة بالغدران . ثم عاد وسلك طريقه على الشواطىء بعد ان قطع نحو ١٠ كيلومترات . وعندئذ تسنى له

ان يسمع ضجة مثل قصف الرعد وكان يزداد هذا الصوت كلما سار الى الامام . وفى نهاية الأمر ارتقى صخرة مرتفعة ارتفاعا عموديا من جهـــة النهر ومن فوق هذه الصخرة تمثل امام عينيه منظر فخم يفتن الألباب ويلقى فى النفوس فى الوقت نفسه فزعا وجزعا .

وكان اتساع النهر من جهته العليا حيث ينحدر الماء يتراوح بين ١٠٠ و١٥٠ مترا والماء فيها هادىء ساكن . أما أمام الصخرة فالنهر ضيق وينحصر انحدار الماء منه فى مضيقين تبلغ سعة كل منهما زهاء ٢٠ مترا وتفصل احدهما عن الآخر صخرة . ويستمر الماء فى انحدار بنسبة ١ : ٦ وهو يفور ويجيش الى مسافة ٣ كيلومترات . وما كانت تلك إلا شلالات فـــويره الشهيرة باسم « مكديه » . أما تحت هذه المسافة فالماء ساكن . وكان يجب على المرء أن يصرف النظر بتاتا عن التفكير فى الجر بالحبال طول هذه الكيلومترات الثلاثة بل كان لا بد من نقل جميع الأشياء جليلها وحقيرها وهــــذه ولا ريب عطلة ينبغى إضافتها الى ما سبقها من العطلات وضياع الوقت .

والأهالى فى هـــذه الناحية يبنون أكواخهم مجتمعة مع بعضها عكس البارين الذين يقضون معيشتهم فى اكواخ متفرقة . والأولون يجنحون الى الهدوء والسكينة أكثر من الآخرين . وهذا ما سر له غوردون .

وفى ١٨ أكتوبر ورد البريد من لابوريه وورد معه نبأ نعى الطبيب فقد توفاه الله فى ١٤ منه وبذا أمسى غوردون محروما من أية مساعدة طبية . وجالت بفكره المصاعب التى يلاقيها الخديو فى سبيل حكم البلاد بواسطة موظفين من الاجانب إذ أودت هذه الحملة بكثير من أركان حربه .

وفى ٢٢ اكتوبر جاء بريد آخر يحمل خبر قتل رجل بينما كان ذاهبا من محطة الى أخرى وتقريرا من الضابط المعين لقيادة لادو يقول فيه إن الأهالي ينوون مهاجمة هذه المحطة . وبما أنه كان بها ٤ ضباط و ٨٠ جنديا وهى قوة يراها غوردون كافية لصد هجمات المغيرين فقد رد عليه غوردون يقول :

« ماعليك أنت ومن معك إلا ان تكونوا يقظين وعلى حذر دواما وأن تكون المحطة محاطة بسياج » .

وكان يوجد أيضا كمية كبيرة من العاج كان قد صادرها سير صمويل بيكر أيام ان كان هو وأبو السعود يناصب كلاهما الآخر العداء وهذه الكمية أمر غوردون بتصديرها .

وأصيب غوردون بحمى متقطعة فذهب الى فاشيليه Fashelie الواقعة على بعد ١٢ كيلومترا شرق دوفيلية إذ ان سطح أرض الأولى مرتفع عن أرض الناحية الثانية التى تحيط بها الغدران والمستنقعات . وهناك أبل من مرضه . وكان يبحث عن مكان يصلح لتركيب الباخرة فيه .

وفى ٣١ منه أتى بريد يحمل نبأ قتل جندى من الجنود ذلك ان هؤلاء الجنود ارادوا ان يسلبوا شيئا من الأهالى وانتهت المسألة بقتل ذلك الجندى .

وفى ١٠ نوفمبر ورد بريد علم منه ان الأهالى تحاصر جانبا من محطة لاتوكا . نخطر بباله ان المدير لابد أن يكون قد اقترف عملا من الاعمال ثارت له نفوسهم وإلا فما كانوا هاجموه . فأرسل فى الحال الأوامر الى محطة بور ان ترسل اليه مددا .

وطلب مدير محطة أخرى نجـــدة وعلل طلبه هذا بأن قبيلتين تقتـلان وأنه مكره على أن يتدخل فى الأمر فرد عليه غوردون يقول : بما أنه ليس لديك العـــدد الكافى من الجند فما عليك سوى ان تلازم الأقامة فى محطتك .

وكان لديه مقادير من العاج تبلغ قيمتها ٤٥ ألف جنيه مصرى كان ينوى أن يرسلها مجزأة .

إخضاعه قبائل المـــوجى

وكان ينوى أيضا السفر نحو الجنوب غير أنه لما كانت القبائل التى تحيط بموجى لم تقـــدم الطاعة رأى أنه ليس فى شىء من أصالة الرأى أن يقوم بتلك الرحلة قبل أن تخضع تلك القبائل . وعول على أن يجمع ٦٠٠ أو ٧٠٠ جندى للقيام بهذا العمل .

وفى ١٤ نوفمبر رجع غوردون الى دوفيليه ومنها عاد الى مـــوجى فى ٢٠ منه فوجد فيها خطابا من الخديو يقول له فيـــه إنه وضع تحت إمرته الأميرال ماكيلوب باشا وانه أرسل معه ٣ مراكب حربية و ٦٠٠ جندى بقيادة أميرالألاى شاليه لونج الى « جـــوبا » Goba الواقعة على شاطىء افريقية الشرقى ليحتلوها .

وقد ألفت هذه الحملة بناء على إيعاز من غوردون للخديو منذ مدة وذلك لفتح طريق المواصلات من هذه الناحية مع مديرية خط الاستواء لأنه كان يظن أنها من هذا الطريق أسهل منها من طريق ناحية السدود .

وعلم أيضا بوقوع كارثة فى ناحية فاشودة . ويظهر ان قبائل الشلك رفعت راية العصيان وطردت الجنود من محطة « حلة كاكا » Hillet Kaka واستولت على مدفع وان المدير يوسف حسن بك خرج ليعاقبهم فلقى حتفه وأنه لولا قدوم جيسى الى فاشودة على ظهر باخرة لكانت فاشودة وقعت فى أيدى الثوار .

وفى ١٠ ديسمبر سارت التجريدة التى أعدت لقتال قبائل الموجى غير انها لم توفق فى اعمالها ولم تفز بشىء من الغنائم حتى ولا ببقرة . والكتيبة التى سارت نحو الجنوب تابعت فى مسيرها مجرى النهر بدلا من ان تتوغل فى داخلية البلاد وعلى ذلك وجد الأهالى مندوحة من الوقت للفرار بماشيتهم .

وفى ١٢ منه أعادت التجريدة الكرة وفى هذه الدفعة كانت اكثر توفيقا إذ انها غنمت ١٥٠٠ من الأبقار ، وأمل غوردون هذه المرة أن تقدم تلك القبائل الطاعة .

وفى ٢٢ منه رجع غوردون الى لابوريه ليشتغل بمسألة نقل قطع الباخرة المراد نقلها . وفى ٢٩ منه تأكد أنها سائرة فى الطريق .

١ — ملحق سنة ١٨٧٥ م

تجريدة مكراكا (نيام نيام) .

من ٣٠ يناير الى ١٤ مارس

إعداد التجريدة واحتلال بلاد نيام نيام

بعد أن آب أميرالألاى شاليه لونج من مأموريته فى أوغندة أذن له غوردون بالذهاب الى الخرطوم ليستريح من وعثاء السفر ثم يرجع ليتسلم قيادة التجريدة المزمع إرسالها لضم بلاد مكراكا « نيام نيام » . واتباعا لهذا الأمر عاد فى ١٠ يناير سنة ١٨٧٥ الى لادو التى أصبحت مقرا لكرسى مديريات خط الاستواء . واستدعى عمل هذا التبديل زيادة عدد الوفيات زيادة فاحشة فى غندوكورو صيرت هذه الجهة مقبرة حقيقية وثوى فى ترابها كثير من رجال الحملة من أجانب ووطنيين .

وطفق بمجرد قدومه يشتغل فى تحضير لوازم التجريدة التى كان الغرض من ارسالها شق طريق وسط قبائل ينبارى Yanbaris المعادية والتى حالت لغاية هذا الوقت دون المرور الى بلاد المكراكيين وسدت طريق الوصول اليها فى غرب النيل . وكان الغرض من احتلال هذه النواحى الاستفادة بمقدار من العاج الذى يوجد فيها بكثرة وتوطيد دعائم سيطرة الحكومة حتى تتمكن من تأدية مهمتها فى نشر المدنية بين تلك الربوع .

ثم انه كان يوجد هنالك داع آخر ألا وهو صحة الجنود المصرية التي أمست في حالة حرجة كثيرا . فقد اختار شاليه لونج في الخرطوم ٤٥٠ جنديا من أورطة مكونة من ٨٥٠ جنديا وصلوا بصحة جيدة ولكن ما لبث ان وقع منهم عدد كبير بين براثن المرض وهذا دليل واضح على أن أجسامهم لا يلائمها مناخ هذه النواحي .

ولما كانت بلاد نيام نيام مشهورة من الوجهة الصحية انها جنة افريقية الوسطى فقد تقرر احتلالها لاستغلال ثروتها ولاستشفاء الجنود بعليل هوائها .

والكتيبة التي تألفت لهذه التجريدة كان مجموعها ٧٠٠ جندي بين مصريين وسودانيين والكل مسلحون بأسلحة رمنجتون .

وفي مساء ٣٠ يناير تمت كافة الاستعدادات وفي ٣١ منه بارح شاليه لونج لادو باكرا على رأس ثلة من الجند رافقه ٢٠ عسكريا سودانيا بصفة حرس خصوصي . وقبل ذلك ببضعة أيام أرسل كتيبة مثل هذه تقريبا معدة لنفس هذا الغرض وأمرها بأن تتقدم في مسيرها متحرزة وان تمشي الهوينا . وكان عقد النية على ان يلحق بها وينضم اليها قبل ان يدخل في بلد الينباريين الذي كان يتعين عليه حتما ان يجتازه . وكان يرافقه الجنديان سعيد بقاره وعبد الرحمن الفوراوي و ١٥٠ حمالا من قبيلة الباريين ليحملوا أمتعة التجريدة بأجرة بقرة لكل حمال منهم .

ونصبوا المعسكر في اليوم الأول على مد البصر تقريبا من غندوكورو التي كانت فيما سلف عاصمة المديرية على ضفة النهر الغربية .

وفى أول فبراير عند الساعة السادسة صباحا اقتلعت الجنـــود المضارب واستدبرت النهر وولت وجوهها شطر داخلية اليابسة . والطريق التى ساروا فيها فى اليـــوم الأول والثانى تنساب فى بلد جميل المنظر كثير المرتفعات والمنخفضات وتنتشر بين ربوعه الأشجار الشامخة فيرى الانسان وهو يستظل بظلالها الوارفة قرى بديعة تتألف من اكواخ من القش ذات شكل مستدير واهراء ملأى بالحبوب .

وفى ٢ منه توغلت التجريدة فى بقاع تغطيها الأدغال أرضهـــا ذات أخاديد وجافة واخاديدها صيرت السير فيهـــا ليس صعبا فحسب بل خطرا أيضا . وحرها لافح يشوى الوجوه والماء فيها معـــدوم ولا يوجد إلا فى جـــذوع الأشجار فى مواضع حفرتها الفيلة وتلك المواضع تعلوها الأوحال . وكان لابد من الوقوف مرارا وتكرارا ليتيسر أخذ شيء من الراحة للجنود وللحمالين البارين . وقد وصلت التجريدة فى ذلك اليـــوم الى خور عسكرت بجانبه لتقضى فيه ليلتها .

وفى ٣ منه سارت فى الساعة السادسة صباحا ووصلت فى منتصف الساعة الثانية الى جبل مرى Gabal Meri وهناك قضى الجنود ليلتهم . وفى ٥ منه بعد مسير بين أدغال لاقت بسببه التجـــريدة عناء جما انتهت الى جبل المياه حيث حفرت فى مسيل خـــور ناضب حفرا ابتغاء العثور على الماء . وفاض روح الاونباشى على جـــلال افندى بعد ان شعر بالمرض قبل وفاته ببضع لحظات فواروه التراب عنـــد غروب الشمس باحتفال عسكرى . وفى ٦ منه مات جندى آخر متأثرا من مرضه بالحمى وورى التراب باحتفال عسكرى كذلك .

بلوغها بلد الينباريين

وفى ٧ فبراير بلغت التجريدة حدود بلد الينباريين . وهذه العشيرة تغشى تقريبا بقعة ذات اتساع شاسع برمتها كانت واضعة اليد عليها فى العصور الخالية قبائل اكثر منها ركونا الى الهدوء والسكينة فقتلها الينباريون أو طردوها . ونظرا لكونهم قوم حرب وجلاد غلاظ الاكباد فقد نجحوا فعلا فى سد المرور بين النيل والغرب .

ومع ان شاليه لونج لم تحدثه نفسه أن يعلن عليهم حربا إلا أنه ما كان يرتاب فى انهم سيهاجمونه . وعلى ذلك سير التجريدة صفين وسير خلفها ساقة ذات قوة كبيرة لوقايتها وأعطى أوامر مشددة حتى لا يبتعد أحد من الجنود عن الصفوف وارسل الى المقدمة كشافة لاستكشاف حالة الادغال التى يتخذ منها الأهالى مواقع صالحة للهجوم وكان يرى من خلال الحشائش زرائب كثيرة . وهذه الزرائب المبنية بناء ليس فيه شيء من النظام يحيط بها سياج من صغار الصبار يجدد دواما زرعها . وهذا النبات له اشواك قاطعة كالسكاكين وعلى ذلك فالسياج الذى يتخذ منه لا يمكن للمحاصر العارى الجسد ان يخترقه . والسائل اللبنى الذى يخرج منه سم قاتل يغمس الينباريون فيه سهامهم وحرابهم مرات عديدة الى ان تكتسى طبقة عجينية منه . والجروح التى تحدثها هذه السهام والحراب هى جروح قاضية ولم يكن معروفا فى ذلك الوقت دواء مضاد لهذا السم ينجي المصاب به وهذه القبيلة هى الوحيدة بين قبائل افريقية الوسطى برمتها التى تسمم بهذه الطريقة سلاحها . وفى ليلة هذا اليوم نفسه بلغت التجريدة ارضا مكشوفة ونزلت تحت دوحة هائلة . ولم تقع العين لغاية هذه

اللحظة على اليناربين الذين كانوا يفرون فرار الآبق عند ما يلوح لهم شبح التجريدة . ومع هذا لوحظ عند أفول الشمس عدد كبير منهم مجتمع على الميسرة .

وفى ٨ فبراير حملت التجريدة رحالها مبكرة . وابتعد جندى من جنود ساقتها عن صفوف الجيش مخالف بفعلته هذه تعليمات شاليه لونج وهو عسكرى سودانى يقال له اسماعيل داشا . وكان ابتعاده هذا فى اللحظة التى أوشكت ان تعطى فيها الأوامر بالوقوف . وفى هذا الوقت سمع فى الخلف طلق عيار نارى فامتطى فى الحال شاليه دابته ورجع عدوا مع العساكر السودانية فوجد الجندى سابحا فى بحر من الدم الذى سال من الجروح الهائلة التى أحدثتها بجسمه السهام والحراب . وخف هو ومن معه خلف أولئك السود الذين كانوا منهم على مرمى البصر وأصلوهم نارا حامية وهم على وشك الاختفاء فى جوف الادغال وبعد ذلك أضحت كل مطاردة عقيمة . وعند ما وصلوا الى المصاب ضمدوا جراحه وتيسر لهم ايقاف النزيف ثم نقل على سرير « عنقريب » الى المحطة حيث توفى بعد أربعة أيام متأثرا من جراحه . وعقدوا النية على الاقامة فى هذه المحطة وكان وصولهم اليها فى ١٠ منه .

وصولها الى خور إليه

وعند ظهيرة اليوم العاشر من فبراير بلغوا شواطىء « خور إليه » Khor El Yeh قرب زريبة الشيخ الاطروش وهو شيخ مصاف للحكومة وهناك وجدوا الفصيلة التى أرسلت قبلا . وقدم الاطروش والضباط ليقدموا واجب التحية الى شاليه لونج وأخبروه انهم أضاعوا كثيرا من الرجال أثناء

الطريق بسبب الحميات .

والاطروش هذا صياد من صيادى العاج القدماء قدم الى هذه البلاد منذ زمن بعيد مع عصابة من الدناقلة واشتغل في تجارة العاج فى بلد المكراكين « نيام نيام » ونجح فيها . وسار بعدة حملات سيرا مرضيا وتوغل بها فى داخلية البلاد . ثم لما احتكرت الحكومة العاج انضم اليها ودخل فى خدمتها . وكانت الصلات مع نيام نيام على أتم ما يكون من الصفاء والمودة وكان ينقصهم أمر واحد ألا وهو القوة العسكرية وكان شاليه قد عقد النية على سد هذا الفراغ باقامة نقطة عسكرية مستديمة فى ديارهم .

وكان نهير إليه La rivière El Yeh ينساب متجها الى الشمال ويستمر فى اتجاهه هذا الى أن يبلغ شمي وفيها تختلط مياهه بمياه البحر الأبيض . وهذا النهير لا يصلح لسير السفن الكبيرة إلا فى فصل الأمطار . وكانت محطة الأطروش واقعة على قيد ١٥ دقيقة من ضفته وعلى ضفة مجرى صغير يصب فى نهير إليه .

وقسم شاليه لونج كتيبته الى اربع فصائل كل فصيلة قائمة بذاتها مسترشدا فى ذلك بتجارب الأطروش . ووضع كل فصيلة تحت إمرة واحد من الضباط وزود كل ضابط بتعليمات مقتضاها أن يبذل كل منهم مجهوده فى توطيد حسن العلائق مع الأهالى وأن يسعى فى تحسين أحوالهم من جميع الوجوه . وبعد أن أتم تقسيم جنوده وواجه كل قسم منها الوجهة التى أرادها عقد النية على أن يكترى ٦٠٠ حمال لترافقه الى البحر الأبيض ولتنقل ٦٠٠ ناب من أنياب الفيلة طبقا لرغبة الأطروش .

وبسبب ما قاساه النيام نيام من ضروب القسوة وما عانوه من المشاق بسبب غارات اليناريين على بلادهم التمسوا من شاليه لونج أن يأذن لهم باعلان الحرب على هؤلاء الآخرين . وجعلوا فى هذا الاذن شرطا لمودتهم معه . وكان هذا جل مراده أيضا إذ انه كان يرغب أن يثأر من اليناريين لسفكهم دم اسماعيل داشا وكان رفاق هذا يرغبون هم الآخرون فى أخذ الثار أضعافا مضاعفة عما كان يرغب شاليه لونج وعلى ذلك تم الاتفاق على ان يذهب النيام نيام معه .

سفرها الى بلاد مكراكا

وفى ١٥ فبراير سافر الى محطة أخرى فى الشمال الغربى يصحبه حرسه السودانى والاطروش . وهذه المحطة يقال لها مكراكا اساريا **Makraka Assaria** وبعد مسيرة أربع ساعات دخلوها بسلام . وشيخ هذه النقطة كان رجلا أفغانيا اسمه احمد أغا قدم هذه النواحى منذ اعوام كثيرة وعلق آماله بنيل الثراء بواسطة الدناقلة . وزريبته التابعة للاطروش كانت مثالا فى النظافة وحديقته الشاسعة الواسعة المعدة لزرع الخضر والموز كانت برهانا ساطعا على ما تحلى به من حسن الفطن الأمر الذى لم تعهد رؤيته فى افريقية . وبما ان شاليه لونج كان ينوى أن يقيم هناك محطة وكان قبل ذلك قدم الى هذا المكان الضباط والجنود فتقدم هؤلاء وقدموا له شكرهم وأكدوا له أنهم يرتاحون جد الراحة للاقامة فى هذه الجهة . والظاهر أن فى استطاعتهم أن يجدوا فيها عدداً من النساء لا حصر له .

وفى ١٨ منه بارح هذه المحطة فى الساعة السادسة صباحا يصحبه أيضا الاطروش وولى وجهه شطر مكراكا الكبيرة حيث كان فيما سلف من

الأيام قد أقام محطة . فكانت عينه تقع دائما أبدا على مناظر لا تتغير ولا تتبدل والأهالى الذين يقابلهم فى طريقه يبدون له ولاء ومودة . وانتهوا من المرحلة الأولى الى نجد مستوى السطح تكسوه أكواخ من القش حسنة البناء حيث كان فى انتظارهم الشيخ پارافيو Parafio ليرحب بقدومهم ويكرم وفادتهم . والشيخ پارافيو هذا من اهالى النيام نيام وله ١٠٠ زوجة و ٢٥٠ ولدا . وبعد أن أكرم مثواهم وقضوا ليلتهم انطلقوا فى الغد يمشون الى ان بلغوا نقطة أمامية وضعت فيها ثلة من الجند . اما المحطة نفسها فكانت قائمة عند قاعدة جبل لينجتير Lingeterre . ومن هذا المكان يستطيع المرء ان يرى جبل باجينسى Baginsi الذى وصل اليه الدكتور شوينفورث Dr. Schweinfurth عند ما قدم من بحر الغزال بصحبة أبى حامد . وهذا من المشايخ الدناقلة رافق الأول بصفة دليل فى هذه السياحة .

وكانت طبيعة أراضى تلك الناحية حديدية وساكنوها يشتغلون باذابة المعادن وصنع مزاريقهم ذات الأسنان المهلكة . أما السبائك والأطواق النحاس التى يتخذون منها حلاهم فترد اليهم من أقليم دارفور الذى يمكن الوصول اليه بعد مسيرة ٢٥ يوما فى طريق يسلكه الدناقلة رواد الزبير رحمة الله باشا .

وكان هؤلاء دخلوا هذه الأراضى منذ سنين كثيرة بقصد استغلال العاج . وبين هذه الناحية ولادو قاعدة الحكومة على ضفة النيل مسافة ٢٥٠ كيلومترا وذلك مما يجعل طريق الداخلية اكثر استقامة وبالتالى أقصر كثيرا . وهى فائدة عظمى للحكومة . غير انه كان يبقى بعد ذلك لتوطيد الأمن فى هذه المسافة ايقاع العقاب بالينباريين وخضد شوكتهم بل ملاشاتهم

اذا دعت الحالة الى ذلك لأن وجود هؤلاء القوم كان ضربة قاضية على القبائل المجاورة .

وكانت الزريبة الموضوعة تحت اشراف كبير من كبار الزنوج يقال له فضل الله لا تختلف فى شىء عن مجموعة الاكواخ التى من القش المحاطة بسياج والمسماة بهذا الاسم .

وفى ٢١ فبراير رجع شاليه لونج الى مكراكا أساريا مبكرا بعد أن عرض الجنود . وكان عليه ان يظل فى هذه الناحية يوما وكان ينوى بعد ذلك ان يعود الى « مكراكا موندو Makraka Mundo » وهى محطة الاطروش لكى يتخذ الاجراءات اللازمة لايجاد العدد اللازم له من النيام نيام ليرافقوه بصفة حمالين لنقل العاج .

وبعد مسافة أربع ساعات وصل الى زريبة صديقه بارافيو Parafio الذى أقنع الاطروش صديقه أن يطلب منه البقاء الى اليوم التالى فأجيب الى هذا الطلب وفى المساء أقيمت حفلة رقص كبيرة من نوع رقص الكنغو احتفاء به .

وفى الغد عند الساعة السادسة صباحا ودع شاليه لونج بارافيو وبعد مسيرة ثلاث ساعات دخل محطة مكراكا أساريا تحت رذاذ من المطر واستقبله الشيخ احمد اغا بكثير من الابتهاج والفرح وأنبأه أنه جمع كثيرا من العاج وأن مسألة جمع الحمالين سائرة سيرا مرضيا .

وفى ليل ٢٣ منه أقام الشيخ مرقصا كبيرا على النمط الكونغى وجمع لهذه المناسبة سائر رجال حربه وأرسل دعوة الى كل عذارى النيام نيام .

وكان الشيخ وهو رجل قوى البنية شديد العضل يدير حركة مرقص رجال حربه . وكان يحمل صارما عجيب الشكل رمـــزا لسيطرته . وظلت الحفلة حتى مطلع الفجر .

وفى ٢٤ فبراير رجع شاليه لونج الى مكرا كا موندو وهى محطة الأطروش التى كان ينوى ان يجهز فيهـــا معدات السفر فى أقرب وقت لأنه كانت تتوعـــده رياح زعزع عاتيـــة تحمل فى ثناياها بردا منذرة بقـــدوم فصل الأمطار قبل الأوان . ونبأه الشيخ أن فصل الأمطار هناك يتقـــدم شهرا على زمن حلوله فى غندوكورو .

معاقبـــة شاليه لونج للينبـــاريين

وكانت التجريدة عندئذ قد بلغت مرادهـــا وأصابت المرمى الذى قدمت من أجله . وكان يحق له أن يغتبط بالنتيجة التى وصل اليهـــا لأنه وطـد اركان الحكومة وثبت دعائمـــا وجمع معلومات قيمة خاصة بالبـــلد وسكانه ولم يبق على كاهله إلا أمر واحـد ألا وهـو إنزال القصاص عند أوبته بعشيرة الينباريين . فوجه كل التفاته وحصر كل عنايته فى تجنيـد اهـــالى النيام نيام وهذه المسألة لم تكلفه سوى شيء زهيد من العنـاء . ومهد له الطريق لبلوغ غرضه هذا منحه الأهالى بعض هدايا من نسيج القطن .

وفى ليلة ٦ مارس كان شاليه قد فرغ من تجهيز جميـــع المعدات . وأمر باقتران كل ناب من ال ٦٠٠ نـاب الفيل المتجمعة لديه الواحـد بالآخر بواسطة حبل . وكان ٦٠٠ رجـــل من المكراكيين واقفـين على أهبـــة السفر فى الغد عند أول إشارة . ورغب الشيخ الأطروش الاياب معه وأن يستصحب

صيادى العاج الدناقلة غير النظاميين البالغ عددهم ٥٠ . وكان قد زاد عـــدد الحرس السودانى المكلف بمرافقته بمن انضم اليه من المجندين الجدد . وانضم كذلك الى حرسه الخاص كثير من أهالى نيام نيام . هذا ، وبضم غـــير النظاميين والحمالين الى من تقدم ذكره كان يبلغ عـــدد الذين تحت إمرة شاليه لونج ١٤٠٠ رجـــل . وقد ساوره شيء من الهم بشأن أقواتهم إلا أن الأطروش طمأنه من هذه الناحية وقال له انهم سوف يجدون الشيء الكثير من الزاد اثناء الطريق .

وكانت التجارب قد علمته انه اذا أراد السفر مبكرا لزم أن يأخذ فى السير من العشى . وعلى هذا أمر حمالى العاج وغير النظاميين أن يذهبوا ليلا الى نهر إليه ويعسكروا بجانبه وان يتأهبوا للسفر فى الغد وهذا الاحتياط حال دون أى تأخير فى المسير صباحا .

وفى ٧ مارس عند ما برز قرن الغزالة بارح شاليه لونج المعسكر مصحوبا بالأطروش وبالجنـــديين سعيد بقاره وعبد الرحمن الفوراوى وحرسه السودانى كى يذهب وينضم الى الكتيبة النازلة على ضفة نهر إليـه التى كانت مترقبـة قدومه لتعاود السير معه متجهـة شطر البحر الأبيض . وشعر شاليه بتحسن فى حالته الصحية بينما كان موليا وجهه نحـــو لادو مع أنه كان هو ورجاله عرضة فى كل يوم لنوبات الحمى . وما ذلك إلا لأن جسمه كان يتوق الى الراحة عقب عام قضاه فى حركة مستمرة بين أوحـــال وأدغال والاختلاط بأقوام همـج متوحشين . وبنـاء على ما تقدم كان يرى أن وصوله الى لادو يضع حدا لمتاعبه .

ولم يبد العساكر السودانيون أى تذمر من المسافات الشاسعة التى كان

يكلفهم بقطعها . وهذه شهادة حق كان يقر لهم بها فرحا مسرورا . وفوق ذلك فانه لم ير منهم ولا من الجنود المصرية فى أثناء رحلات متعبة وطويلة إلا إخلاصا ووفاء ونظاما لا يسمو عليه نظام عند ما كانوا يقومون بأعمال تحت إشرافه .

وفى ٩ مارس قبيل منتصف النهار وصلت التجريدة قرب المكان الذى كان هوجم فيه الجندى اسماعيل داشا هجوما فظيعا لقى فيه حتفه . فتهيج عند ذلك رفاقه السودانيون هيجانا شديدا غير أنهم أطاعوا الأوامر التى وجهها لهم شاليه لونج ولم يخرجوا عند منطوقها قيد أنملة . وكانت هـــذه الأوامر تقضى بأن لا يقوموا بأى عمل دون أن يوافق عليه . وكان فى نيته أن يتجه الى نجد ملاصق لجبل حتى إذا بلغه استحضر الشيخ الذى وقعت من رجاله الجناية وطلب منه تسليم القاتل . وأقيمت العقبات فى سبيل بلوغ هذا الأرب وعند ما انتهى الجيش الى المضيق الموصل الى النجد الذى كان يطمح الى الوصول اليه رأى أن الذروة اليمنى منه تحتلها قوة من الينباريين . وقابل هؤلاء الجيش بالصياح وتحرشوا لقتاله وعندئذ دفـــع شاليه القوة غير النظامية الى الامام بقيادة الأطروش لتطرد العدو من الأدغال الكثيفة التى كان يحتجب فيها ويقذف منها الجنود بسهامه المسمومة . وعند ما طرد شيخهم من مكمنه أصابته قذيفة فى رأسه فخر صريعا على الطريق . وفى هذا الوقت كان شاليه لونج لابدا على صخرة مشرفة على الميدان يدير حركة القتال وما لبث الجيش أن طرد الأعداء من مكانهم واجتاز المضيق عدوا بدون خسارة واستمر يرسل النار بانتظام وهو يتسلق منحدر النجد .

وأمر شاليه لونج رجال نيام نيام أن يكدسوا العـــاج وأقام عليه فصيلة



واقعة الينباريين مع الجنود المصرية والسودانية بقيادة أميرالألاى شاليه لونج بك
وهو الممتطى الجواد ، فى ٩ مارس سنة ١٨٧٥ م

من السودانيين لحراسته وأحاط المعسكر ايضا بحرس بعد أن جمع بداخله غير المقاتلين . وطرد بواسطة العساكر السودانية والجنود غير النظامية الينباريين من الأدغال التي تحيط بالناحية وأرسل رجال نيام نيام فى وسط الأعداء لينازلوهم جسما لجسم . وفى الحال أخذ الينباريون وهم لائذون بأذيال الفرار يبذلون الجهد لبلوغ الجبال القائمة أمام الجنود .

وعند ما أرخى الليل سدوله شوهد لهب ودخان يتصاعد فى الفضاء ويحيط الوادى والجند بدائرة من النيران . ولم يرجع رجال نيام نيام إلا فى الغد وذلك عند غروب الشمس بعد أن أشعلوا النار فى ٢٠ قرية وغنموا ماشية . وبذا تلقى الينباريون درسا يضمن عدم عودتهم فى المستقبل لسد الطريق بين البحر الأبيض وأراضى نيام نيام المواديين .

وصول التجريدة الى لادو

وفى صباح الغد ١١ مارس والت التجريدة سيرها فلم تر فى طريقها نفرا من الينباريين حتى كأنهم اختفوا بين سمع الأرض وبصرها . وفى عشية يوم ١٢ منه انتهت الى المكان الذى كان قضى فيه الانباشى على جلال أفندى نحبه ونزلت فيه عند ما توارت الشمس بالحجاب وكان التعب قد أنهكها بعد مسيرة يوم كامل . ورغما عن الـ ٣٦ ساعة التي وقفتها فى بلد الينباريين تقدمت بسرعة مدهشة فوصلت الى لادو فى ١٤ مارس . وانتشر خبر مقدمه وعند دخوله فيها استقبلته حاميتها المؤلفة من ٢٥٠ جنديا استقبالا عسكريا

نحيا وأخـــبره البكباشى على لطفى افنـدى [١] قائد المحطة بأنه أمر بأن يعمل هـكذا وألح عليـه إلحاحا شديدا بأن يظهر أمام الجيش رغما عن ان كسوته كانت ملونة وممزقة . فنزل شاليه لونج عن صهوة جواده واتجه نحو الجيش يصحبه القومندان وصالح افنـدى طبيب المحطة فقدمت له السلاح تكريما وتعظيما . وفى أثناء ذلك كان القومندان يتلو الأوامر العالية التى منحه بمقتضاها كل من جـلالة السلطان عبد العزيز وصاحب السمو الخـديو رتبـة أميرالألاى والنيشان المجيـدى من الدرجـة الثالثـة مـكافأة له على ما أداه من الخـــدم المبينة بالخطاب الذى سيذكر فيما بعد والموجه من صاحب السمو الأمـــير حسين كامل ناظر الجهادية الى أميرالألاى غوردون الحكمدار العام لمديريات خط الاستواء :—

القـاهرة فى ٧ ديسمبر سنة ١٨٧٤

نظـارة الجهـادية مـكتب النـاظر

ياحضرة الميرالاى

لقد تعطف سمو الخديو وأراد أن يظهر للقائمقام لونج التفاته وحسن رضاه نظرا لمـا أبداه من حسن السلوك والاقـدام والثبـات فى الموقعين اللتين حدثتـا عنـد مرولى بالقرب من خط الاستواء فمنحـه رتبـة أمـيرألاى مع النيشان المجيدى .

---

(١) — ترقى فيما بعد الى رتبة قائمقـام وأرسله عبد القـادر باشا حلمى حـكمدار السودان العام على رأس فرقة لتعزيز حـاميـة الأبيض التى كان يحاصرهـا عند ذاك المهدى فلم تتمكن من الوصول الى الجهة المرسلة اليهـا وأبادها تقريبا عن آخرهـا المهديون بالقرب من باره وقتلوه هو الآخر .

وتجدون مع هذا الفرمان الصادر بذلك فأرجوكم أن تسلموه لأميرالألاى لونج بك وتقدموا له فى الوقت ذاته من قبلى التهانى .

وتفضل ياحضرة الميرالاى بقبول تمنياتى الطيبة ؟

« إمضاء » حسين كامل

* * *

وفى ١٧ مارس قام شاليه لونج الى الرجاف ليقدم تقاريره ويتحدث مع أميرالألاى غوردون فى عدة مسائل هامة تتعلق بافريقية الوسطى . وكان يتمنى أن يكون كباريجا عوقب وكان يعتقد ان تنصيب ريونجا ملكا فى مرولى يمتن رابطة المودة مع متيسا ويدعو كباريجا لمزايلة البلد ويرى ان كوكبة من الرجال ممتطية ظهور الجياد أو البغال تستطيع عندئذ أن تتكفل باخضاع تلك البقاع وتعجل حل مسألة البرت نيانزا .

وتقرر فى نهاية الأمر أن يرجع الى القاهرة للاستشفاء واسترجاع صحته التى أمست فى اسوأ حالة . وزوده الحكمدار العام بوصاية بلغت عباراتها منتهى المدح لنيل قيادة تجريدة كان تقرر قيامها من نقطة من النقط الواقعة على شاطىء افريقية الشرقى ومسيرها الى أن تبلغ بحيرة البرت نيانزا .

ولم يبق عليه إلا أن يقدم للحكمدار العام وافر تشكراته لتقديره ما قام به من الاعمال تقديرا ساميا وان يعرب له عما يخالجه من الأمل ببلوغ الأرب واتمام الاعمال التى أمست شغله الشاغل ألا وهى ترتيب باخرة فى بحيرة البرت نيانزا وسبر غور ماء هذه البحيرة جميعه .

وفى ٢٠ منه عاد شاليه لونج الى « لادو » وبعد ان سلم جميع ما بعهدته وأخلى نفسه من كل المسئوليات الرسمية أبحر منها فى ٢٢ منه على ظهر باخرة قاصدا الخرطوم واصطحب معه الجنديين سعيد وعبد الرحمن الى القاهرة لانه كان يريد أن يقدمهما بنفسه الى الخديو مكافأة لما أبدياه من الاقدام والبسالة والاخلاص .

وفى ٧ أبريل بلغ الخرطوم وفيها تلقى أمرا من خيرى باشا بأن يتوجه فى الحال الى القاهرة عن طريق كروسكو . وبرح الخرطوم فى ١٦ منه ميمما بربر وفيها قابل البكباشى بروت Prout الذى كان قد تقرر أن يخلف أميرالألاى غوردون بصفة حكمدار عام لمديريات خط الاستواء .

وفى ٢٨ منه سافر من بربر وفى ٨ مايو وصل الى كروسكو ومنها أبحر فى الحال على متن ذهبية كانت قد أعدت له خصيصا لتنقله الى اسوان . وفى ١٦ منه وصل إليها فوجد الباخرة فؤاد راسية بها متربصة قدومه من عدة أيام فركبها وسافر فى اليوم الذى ولى يوم مجيئه وقصد اسيوط وهى المحطة الاخيرة لسكة الحديد فدخلها فى ٢١ منه .

وصوله الى القاهرة ومقابلته للخديو

وفى بكور يوم ٢٢ مايو ركب القطار الى القاهرة فوصل اليها فى اليوم عينه الساعة السادسة مساء . وبلغ الخديو خبر قدومه غداة اليوم الذى وصل فيه فأرسل يقول له انه مستعد لمقابلته فى الحال بسراى عابدين . وعند ما أدخل عليه تقدم نحوه وصافحه وشكره بعبارات مؤثرة على

الخدم التى أداها فى افريقية الوسطى .

وبعد ذلك ببضعة أيام استدعاه مرة أخرى الى قصر النيل حيث كان الخديو يحيط به وزراؤه وكبار موظفى البلاط وضباط الجيش فقابله بالايناس والبشر والمجاملة وانتهز شاليه لونج هذه الفرصة لتقديم مجموعة الأسلاب والغنائم التى رجع بها من حملاته .

وفى ٣٠ مايو أرسل الخديو يستدعيه مرة ثالثة فى قصر النيل حيث اجتمع عدد كبير من الموظفين ملكيين وعسكريين والجنديان سعيد بقاره وعبد الرحمن الفوراوى اللذان أمرا بمرافقته .

وألقى الخديو خطبة حافلة بعبارات فصيحة مؤثرة ردد فيها جمل المدح والثناء على ما أبدوه من الاخلاص والبسالة فى واقعة مرولى وما قاموا به من الخدم فى الحملة الثانية . وقدم الجناب العالى كدليل على رضاه وارتياحه الى شاليه لونج فرمانا بالانعام على الجنديين المذكورين برتبة باشجاويش والنيشان المجيدى من الدرجة الخامسة حتى يمكنه أن يعلقه بنفسه على صدريهما . وهذه أول مرة فى تاريخ الخدمة تمنح فيها النياشين للجنود البسطاء .

واليك ما حدث فيما بعد لهذين الجنديين البطلين أثناء قيامهما بالخدمة :

ترقى سعيد الى رتبة ملازم وكان يقود فصيلة فى محطة بور عام ١٨٨٨ م حين اغارة المهديين على مديرية خط الاستواء فهاجم هؤلاء نقطته واستولوا عليها وقتلوا جميع الحامية بما فيها سعيد .

أما عبد الرحمن فبقى برتبة باشجاويش لغاية سفر أمين باشا من مديرية

خط الاستواء ولحق بأحد قسمى الجيش الذى انضم تحت قيادة سليم بك مطر
عند تقسيمه كما سيأتى ذكره .



ارنست لينان دى بلفون

٢ — ملحق سنة ١٨٧٥ م

مأمورية ارنست دى بلفون في أوغندة

من ٢٥ فبراير الى ٢٢ أغسطس

إرسال وفد لربط العلائق بين مصر وأوغندة

أراد أميرالألاى غوردون أن يوثق عرى الصداقة والمودة بين مصر وأوغندة فوطد العزم على أن يرسل وفدا الى ملكها متيسا يكون على رأسه إرنست دى بلفون لأتمام المأمورية التى قام بها أميرالألاى شاليه لونج فى تلك النواحى فى السنة الماضية .

وصول الوفد الى فويرا

وفى ٢٥ فبراير سنة ١٨٧٥ بارح مسيو إرنست دى بلفون محطة فاتيكو العسكرية التى كان بها ويمم محطة فويرا ومعه ٣٠ جنديا سودانيا وسعيد أغا بصفة دليل . وعبر بادىء ذى بدء نجد فاتيكو من الشمال الى الجنوب . وامتداد هذا النجد فى هذا الاتجاه يبلغ زهاء ثلاثة كيلومترات . وكان الفصل عند ذاك فصل الجفاف والأرض مغطاة بأعشاب جافة وهذا ما صير اجتيازها سهلا . وكان يوجد فى الغرب بعض قرى كبيرة مولية ظهورها الى جبال شاهقة . أما فى الشرق فكان النجد ممتدا فى الفضاء الى ما وراء مرمى البصر . وينحدر الانسان بغتة من النجد فيصادف اخوارا قليلة الاتساع .

وعلى بعد ١٠ كيلومترا من فاتيكو توجد قرية « ساكا » Saka وتسمى كل هذه البقعة بفاتيكو . أما مركز ساكا فقد اصطلح الدناقلة على ان يسموه وادى العجوز Wadi El Agouz .

ومركز فاتيكو غنى فقيه الشيء الكثير من الحبوب والطيور والمعز والشاه وبه قرى عديدة ونواحيه عامرة وسكانه عائشون فى بحبوحة من العيش هادئين ساكنين والحماية لا تدع يد السوء تصل اليهم فيبيعون منتوجاتهم بلا خوف ولا وجل من حيف أو ظلم من الدناقلة الذين قد زالت اشباحهم واختفت آثارهم .

ولدى الوصول الى ساكا تنازل الأهالى عن اكواخهم لرجال الوفد بما فيها من الأدوات المنزلية وتركوا بها حتى النيران موقدة . والشيخ ساكا المسماة القرية باسمه هو ترجمان وادى العجوز قدم لهم دقيقا ودجاجا وبيضا وكل ذلك عن طيبة خاطر وبشاشة مبديا ارتياحه لرؤية الجيش فى دياره . وقضت الارسالية يومى ٢٦ و ٢٧ فى ساكا .

وفى ٢٨ حملوا متاعهم عند الساعة ٥ صباحا . وكان المطر قد هطل طول الليل وبلل الأرض . ويمم الوفد وجهه شطر الجنوب الغربى وبعد مسيرة ١١ كيلومترا انتهى الى « خور الزلط » وهو خور يمكن عبوره إذ انه لا يوجد به فى هذا الأوان إلا طبقة رقيقة من الماء ولكنه فى فصل الامطار ينقلب سيلا عرما .

وبعد مسيرة ١٢ كيلومترا أخرى وصل الوفد الى « خور الطور » وهو نهر يتجه نحو النيل الأبيض ويصب فيه تجاه فويرا . وفى جنوب هذا

الخور وعلى بعد ٨٠٠ متر منه يوجد مكان معسكر سير صمويل بيكر القديم ودوحة من شجر الجميز يطلق عليها اسم « شجرة الباشا » لأنه كان يعقد تحتها جلساته . وهنا قضى الوفد ليلته .

وفى أول مارس حمل الوفد متاعه عند الساعة الخامسة بعد ليلة ممطرة واجتاز نجدا واسعا فياحا به غابات وبه تشاهد آثار كثيرة لأقدام الفيلة والجاموس . وعلى مرحلة ١٥ كيلومترا من خور الطور يصل المرء الى بقعة مستديرة يقال لها « سجا » Sagga كان بها قديما معسكر الدناقلة وهى نقطة مفرق طريقى « فاتيكو » و « فابو » وفى وسطها شجرة وارفة الظلال حفر فى جذعها : « شاليه لونج ١٨٧٤ م » .

وبعد مسيرة ١١ كيلومترا من سجا يصل المسافر الى خور يقال له « خور الكرفا » Khor El Korva وعند هذا الخور نزل الوفد . وكان المطر قد أخذ يهطل ولم ينقطع إلا عند ما آذنت الشمس بالمغيب . وفى ٢ منه سار عند الساعة السادسة وعبر غابة وبعد سفر ١٣ كيلومترا حط رحاله ليقضى ليلته . وفى ٣ منه انطلق فى السير عند الساعة السادسة . وفى أثناء الطريق فرغ من رجاله الماء ووعد الدليل أن يجد لهم ماء فى بئر « الألابار » Elabar . وقد بلغ الوفد هذه البئر بعد أن قطع ١٠ كيلومترات غير أنه ألفاها ناضبة لا ماء فيها وعلى ذلك اقتضى الحال مداومة المسير لغاية « خور الكابولى » Khor El Kabouli الواقع على مسافة ١٥ كيلومترا حيث وقف . وهاجمت بين هذين الموضعين جماعة من قبيلة يقال لها لانجو Lango المتخلفين من رجاله ولكن نيران الخمسة الجنود الذين كانوا مكلفين بمرافقة هؤلاء المتخلفين بددت شملهم وجعلتهم يلوذون بأذيال الفرار . وعند الساعة

السابعة هبت زوبعة عاتية وأرسلت السماء صاعقة وقعت على مسافة ٢٠٠ متر من المعسكر ونزل المطر مدرارا الى الساعة التاسعة .

وفى ٤ مارس كان رجال الوفد فى ارتقاب بزوغ الشمس ليجففوا متاعهم . وفى الساعة التاسعة تكشفت السماء وأرسلت الغزالة أشعتها فتحرك واتجه شطر فويرا وبعد سفر ساعة بلغ مصب خور الكابولى فى الموضع الذى تصب مياهه فى النيل اتجاه فويرا .

وكان الخبر قد بلغ مسامع ريونجا فى العشية فأرسل عدة زوارق ليجتاز الوفد النيل عليها وكان يوجد بين هذه الزوارق زورقان طول الواحد ١٥ مترا وعرضه ١,٥٠ من الامتار فعبر الوفد النيل أمام فويرا .

وهنا تجلى أمام العين منظر يفتن الالباب ويأخذ بمجامع القلوب إذ يسرح الطرف فوق سطح ماء النيل البالغ مسطح عرضه ٤٠٠ متر وقد صقلت تلك الصفحة وكانت شبه المرآة ثم ينتهى الى الضفة الشمالية وقد وقفت منتصبة انتصابا يوشك أن يكون عموديا وفرش الشاطىء فوقها ببساط من زهر النيلوفر تحمله حشائش ذات خضرة فاقع لونها داعبتها أنفاس نسيم عليل فتمايلت عجبا ورقصت طربا . وقامت عند منتصف تلك الضفة غابة من أشجار الموز بسطت أوراقها العريضة الزاهية فكانت كستائر نصبت لوقاية تلك الحشائش . وفوق هذا وذاك كانت أكواخ فويرا تلوح كأنها تتكون منها سلسلة قباب سقوفها ذهبية . ويرفرف العلم المصري مزدهيا على السفح وقد قامت خلفه دوحات باسقات تزدرى بهبوب الرياح ولا تبالى بالعواصف الجسام طاولت أعناقها وشمخت رؤوسها فراحت تناطح السحاب . وقد سبى ذلك المشهد عقل المسيو إرنست وشجى لبه . وتقدم اليه الحكمدار بكير افندى

وصدره محلى بالنيشان العسكري الذي أنعم عليه به لاشتراكه فى تجريدة المكسيك . وبعد تأدية حفلة الاستقبال العسكرية يمم المحل الذى أعد لنزوله فوجده مستوفيا جميع أسباب الراحة .

وقضى يومى ٥ و ٦ مارس فى فويرا . وجاء ريونجا ليزوره وأحضر له بقرة وخروفا . فأهدى اليه إرنست ثوبا من الحرير ومسدسا وظروف جبخانة . وأخبر ريونجا مضيفه ان رجال كباريجا فى منطقة مرولى يمنعون أهالى مجندا M'Ganda من المرور فى الأرض . فضاق صدره لهذا الخبر لأنه خشى أن يكون ذلك سببا فى تأخير سفره لمقابلة متيسا إذ يتعذر حينئذ وجود الحمالين .

وكان الشيخ انفينا قد انزوى فى جزيرة على مسافة زهاء ٣٠ كيلومترا شمال فويرا وامتنع كلية من المجىء الى المحطة خوفا من أن يقع أسيرا ويسلم الى كباريجا . وأراد إرنست أن يقابله ويزيل ما علق بذهنه من المخاوف .

وفى ٧ منه انطلق ومعه ٢٠ جنديا ونزل النهر وسار بمحاذاة الضفة اليسرى وكان دليلهم فى هذه الرحلة رئيس من رؤساء سفن ريونجا أى « متونجولى » واجتازوا غابة من العوسج والحشائش لا حد لها وبلغوا شلالات أساكا Assaka وفيها أقاموا معسكرا . وكلف إرنست سعيد اغا بأن يتوجه الى الأمام مع ثلة من الجنود لينبىء انفينا بقدومه . وشيدت الجنود سقيفة ببعض من فروع الأشجار غير أنهم لم يحسبوا للمطر حسابا . وفى الساعة الحادية عشرة أخذ المطر يتساقط وبلل كل المعسكر .

وفى ٨ منه جففوا متاعهم وساروا متتبعين مجرى النهر . وعند الظهر وصلوا أمام معسكر به ٢٠٠٠ من رجال قبيلة يقال لها لانجو Lango غير أن مقدم

سعيد أغا بث فى نفوسهم الطمأنينة فى الحـــال . وكان الجند عندئذ امام دار انفينا . أما رجال قبيلة لانجـــو فكانوا عائدين من غزوة وجهوها ضد كباريجا وكانوا يفعلون ذلك بأمر انفينا فقتلوا خلقا كثيرا وغنموا قدرا كبيرا من الماشية .

وعند ما قدم إرنست بارح انفينا جزيرته وأتى لزيارته . فبث إرنست فى نفسه الطمأنينة من نحـــو نيات الحكومة وأهدى اليه ثوبا وخرزا من الزجاج . وبعـــد ذلك ذهبوا الى انفينا فأعـــد لهم ملجأ وأرسل اليهم بقرة وخرافا وفراريج وبيضا ودقيقا وذرة وأهدى الى إرنست أربعة أنياب جميلة من أنياب الفيلة .

وفى ٩ مارس رجع انفينا معه ليتعرف بحكمدار فـــويرا وأعطاه دابة وهذه الدابة عبارة عن ثور فسر بها كثيرا وعلم انفينا علم اليقين عند ما دخل فويرا حيث يسود النظام والنظافة أن الجيوش التى أمامـــه هى بلا جدال جيوش الحكومة وقرر أن يعين نائبا عنه مستديما فى هذا المكان ويجلب فيه العاج والدقيق .

وفى ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ منه لم يستطع إرنست أن يباشر عمـــلا ما لانحراف صحته . وفى ١٤ منه تقدمت له شكوى من بعض الجنـــود يطلبون فيها الانتصاف من ضابطهم ويتهمونه بأنه قال لرونجـــا أن الجنود ما هم إلا عبيد له أرقـــاء . فشكل مجلسا لفحص هذه الشكوى والبت فيهـــا . ولفت نظره شىء واحد وهو أن عساكره السودانيين لا شىء يثـــير ثائرة الغضب فى نفوسهم اكثر من تسميتهم عبيـــدا بل هم يعتبرون هذه التسمية أكبر مسبة .

وفى هذا التاريخ حضر من قبل ريونجا ٤٠ زنجيا بقصد الذهاب الى فاتيكو ليأخذوا باقى الأمتعة التى برسم مديرية فوبرا . وقبل سفرهم أقاموا مرقصا .

وفى ١٥ مارس وصل وفد من اهالى أوغندة مؤلف من ٤٠٠ رجل . ووقتما زايلوا أوغندة لم يكن عندهم علم بقدوم إرنست . وهذا الوفد كان مرسلا من قبل متيسا الى غوردون باشا ومعه مكتوبان بطلب أرسال حلاق ومقرىء . وكان متيسا يطلب غير ذلك عقاقير طبية ويرجو أن يؤذن بتصليح ساعتين له . فذهب ثمانية من المتونجوليين فى هذا الوفد لزيارته وقرروا أنهم لا يذهبون إلى لادو بل يرافقونه عند ملكهم .

ولغاية ٢٦ منه كان إرنست لم يزل فى فوبرا بسبب انحراف صحته . وكان عند ما قدم اليها ينوى أن يصعد بلا توان فى النيل لمقابلة متيسا . ولكن قيل له ان أهالى مرولى وهم أولئك القوم الذين هاجموا شاليه لونج سيحولون دون مروره .

وكان غوردون قد سمح لارنست أن يستولى على ناحية مرولى عنوة ويولى عليها ريونجا الذى كان صاحبها فى الأصل ثم انتزعها منه كرازى والد كباريجا . ولكن بعد أن فكر إرنست فى الأمر مليا رأى أن ريونجا لا يستطيع أن يثبت أقدامه فى هذه الجهة إلا اذا أقيم فيها حامية . وفوق ذلك فان قوات النقط كانت ضعيفة كثيرا والذخيرة غير وافية إذ لم يكن لدى كل جندى سوى ٣٠ ظرفا . ورأى أيضا أن الحالة ستكون عند الاياب على غير ذلك إذ تكون المؤونة والذخيرة قد وردتا من فاتيكو فلا يكون عندئذ ما يمنعه من البقاء فى مرولى الوقت اللازم لينظم المحطة الجديدة . وعلى ذلك

صحت عزيمته على الرحيل فى غد اليوم التالى الى أوغندة .

وقدم وفد جديد من أوغندة وكان يقوده شيخ من كبار المشايخ يسمونه القاضى . وقد دخل هذا الشيخ المحطة وزار إرنست . والظاهر ان متيسا كان ينتظر بفارغ الصبر قدومه . وكان هذا الشيخ يتخيل أنه سلطان كبير ولكنه صار يدرك الآن أنه لا سلطان فى افريقية الا واحد وهو سلطان المسلمين . وطلب أن تقدم له جميع الوسائل لدخول رعاياه فى الدين الاسلامى فأجابه إرنست بأن مليكه سيرسل حتما كل ما يلزم لتثقيفه وتهذيبه .

وفى ٢٧ مارس راى إرنست أن صحته قد تحسنت فأخذ يجهز معدات السفر فى الغد . وقدم الأوغنديون ليتفقوا على مسألة الترحال وكان عددهم يربو على ٤٠٠ رجل وكان من المحقق أن يوجد العدد الكافى من الحمالين . وأتى ريونجا لمقابلته والحزن يطفح على وجهه إذ رآه متهيئا للسفر قبل أن يقره فى مرولى . وكان سير صمويل بيكر وبعده شاليه لونج وعداه باتمام هذه المسألة ولم يفيا بذلك وها هو الآن يرى للمرة الثالثة الاخلال بالوعد . وشق ذلك على إرنست وأعطى على نفسه عهدا بأنه عند إيابه اذا شاء الله عده بالمساعدة .

وفى ٢٨ منه فى الساعة السادسة كانت معدات السفر قد جهزت وأخذ الأوغنديون يتجاذبون الأمتعة وقد حدث اختلال وضجيج مريع لكثرة عددهم . وسافروا فى نهاية الأمر عند الساعة الثامنة . وعلل إرنست النفس بالآمال ألا يتجدد هذا المشهد كل يوم وترك فى فويرا حميره لأنه ما كان يرجى من وجودها معه سوى حدوث العراقيل . وجواده الثانى كان قد نفق على أثر لدغة ذبابة ولم يأخذ غير الثلاثة البغال .

وولوا وجوههم شطر الغرب تاركين النهر خلف ظهورهم . وكانت السماء محجبة بالسحب والشمس تطل من ورائها بين حين وآخر وترسل عليهم أشعتها . ودخلوا غابة بها أشجار يسر مرآها الأعين وعند ما خرجوا منها توغلوا فى غابة أخرى تختلف عن الأولى . وهاتان الغابتان عبارة عن أشجار موز غابة فى الجسامة تكون من مجموعها بساط من الخضرة لا يدرك البصر نهايته وتعجز أشعة الشمس عن اختراقه . وكان مسيرهم تحت هذا البساط .

وبعد ٤ ساعات اتجهوا شرقا وساروا حتى أفضوا الى شاطىء النهر تجاه الجزيرة التى يقيم فيها ريونجا . وأخذت الغيوم التى كانت تتجمع ترسل ماء ثجاجا فوق رؤوسهم وساروا ساعة تحت نزول هذا المطر الهطال ابتغاء الوصول الى « كسامبوا » Kissembois . وهو المحل الوحيد الذى يستطيعون أن يجدوا لهم فيه عاصما من الامطار . وهذا المكان عبارة عن زريبة لريونجا ومحطة أيضا للاوغنديين الذين كان عددهم فيها ينوف على ٨٠٠ رجل بما فى ذلك الرجال التابعون لارنست . ووصل عشية اليوم رئيس من رؤساء بحارة متيسا ليستحث الوفد على الاسراع فى القدوم . وجاء أيضا ريونجا من جزيرته ومعه رأس من الضأن برسم إرنست وبقرة للجنود . واحتل القوم بعض الاكواخ ودفئوا ثيابهم بواسطة النيران على قدر ما استطاعوا .

وفى ٢٩ مارس علم إرنست بوفاة جندى يدعى مرسال فى غضون الليل وكان هذا الجندى يشكو وهو فى فويرا ألم المرض فأمر بالبقاء فيها إلا أنه لم يطع وهكذا قضى نحبه ومات شهيد أداء الواجب وورى التراب بعد القيام بعمل ما تقضى به شعائر الاسلام وتأدية الاحتفال العسكرى الواجب لشخص فى مرتبته . وبعد الفراغ من ذلك انطلق الوفد فى سيره واتجه غربا بين أشجار

شائكة فكان شوكها يمزق الوجوه والأيدى ثم مر بعد ذلك من غابتين من شجر الموز وأفضى فى نهاية الأمر بعد أن جد مسيرة ٣ ساعات الى « فانياتورى » Faniatori وهى زريبة عتيقة من زرائب ريونجا والآن أضحت خاوية وذهب كل ما كان بها إلا نحو ١٠٠ من الأكواخ الصغيرة أقامها الأوغنديون ليتخذوها محطة لهم .

وفى ٣٠ مارس سافر الوفد مبكرا وعند الساعة السادسة جابوا نجدا فياحا تكسوه نباتات تستوقف محاسنها الأبصار وبه كثير من الفيلة وفيه تصاد . وشوهد فى ربوعه سرب منها لائذا بأذيال الفرار مادا خراطيمه فى الهواء .

وبعد رحيل ٤ ساعات انتهى الوفد الى « مسمودى » Massoudi وهى محطة لريونجا وقد أمست خالية تنعق فيها الغربان . وعند الظهيرة بلغ « طيطى » Tili وهى عبارة عن معسكر للأوغنديين وحمد القوم السرى إذ وجدوا بها أكواخا تقيهم الأمطار التى بدأت تنزل مدرارا .

وصوله الى مرولى

وفى ٣١ مارس بارح الوفد طيطى متجها شمالا في وسط سهل كثير الاخاديد . وفى الساعة التاسعة صباحا بعد ان جاب ١٠ كيلومترات دخل فى ارض « مرولى » . و مرولى هذه اقليم كان يملكه فيما سلف ريونجا غير ان كمرازى استولى عليه بمعاونة الدناقلة . وهذه الناحية غنية بالأنعام والحبوب وكثرة السكان . ويوجد شرق الطريق سلسلة من الزرائب الواحدة تلو الأخرى بلا انقطاع وتعرف باسم « حلل نييكا » Heilal Nyéka

و « حلل موجا » Hellal Moga ويوجد فى ظهر هـــذه القرى طود شامخ والنهر يجرى تحت قاعدته . وفى هذا الموضع هوجم شاليه لونج وطورد .

وبعـــد مسير ٤ ساعات أفضى الوفد الى نهر « كافو » Kafu فعبره ونزل فى « حلل كافو » على مسافة ٣ كيلومترات من النهر . وكان الأهالى يتركـون أكواخهم عند ما يدنو رجال الوفـــد حاملين ما استطاعوا حمله فيحتلها هؤلاء ويقتاتون بما يجدونه بها . والظاهر أن هـذه عادة اعتـادها أهـالى هـذه المنطقة . وقد عاد على الوفـــد تصرفه هـذا بالراحـــة التـامة إذ لولا ذلك لعـانى كثيرا من الصعـاب نظرا لنزول المطر مدرارا طـول تلك الليلة .

وفى أول أبريل كانت الأرض زلقـا يصعب المشى فيهـا . وأخذ الوفد يجوب بلا انقطاع قرى تحدق بهـا الحدائق وأشجـار الموز وحقـول واسعة بهـا شجيرات اللوبيـا وغيرها . وكان الأهـالى فى كل مكـان يفرون من وجهـه هاربين تاركين كل شىء ولا يلوون على شىء .

وصوله الى حلل « وا كيتوكو » و « أرجو »

وفى الساعة التاسعة بارح الوفد اقليم مرولى ليدخـل فى « واكيتوكو » Wakituku وهى من أراضى كباريجا وفيهـا يوجـد كـثير من الحدائق . وفى الساعة الحادية عشرة نزل فى « حلل وا كـيتوكو » وكان الأهالى قد أخلوها . وطريقة السلب هـذه كانت لا تحلو فى عين إرنست ولـكنه كان مضطرا أن يعمل كما عمل الآخرون ومع هذا فانه يرى ان من واجبه ان يوفى جنوده حقهم من الثناء لامتناعهم عن النهب .

وفى ٢ أبريل حملوا رحالهم فى الساعة السابعة . وكانت حالة الناحيـــة كحالتها بالأمس وقطعوا فى مدة ثلاث ساعات ١٥ كيلومترا فقط وحطوا عند « حلل وارجـــو » Wargu . وفى ٣ منه ساروا عند الساعة السادسة وعبروا سهلا أرضه مبللة بماء المطر الذى سقط فى الليل الأمر الذى سير السير عسيرا وجعل الاقدام تنزلق فى كل خطوة . وبعد أن ساروا نحو ساعة فى الأوحال حمدوا الله إذ وجدوا الشمس قد أشرقت ومتاعهم أخذ يجف . وعند ما خرجوا من هذا السهل الذى صير المطر أرضه أشبه شىء بالمستنقعات دخلوا فى سهل آخر ومشوا فيـه ما يزيد على ٦ ساعات دون أن تصادفهم أية قرية أو أى كوخ وأفضوا فى نهاية الأمر بعد مسيرة ثمانى ساعات الى « حلل ميرمبا » Hellal Merimba وفيها حطوا رحالهم .

دخـــوله أراضى أوغندة

وفى ٤ أبريل دخل الوفد مركز « كاجانجو » Kagangu وهو أول منطقة من أراضى مملكة أوغنـــدة وشيخه المتونجولى موريكو من رجال حاشية إرنست . أما الناحية فمنظرها تستوقف العين محاسنه . وبها من الذرة والبطاطا والقرع وغيرها الشىء الكثير . ونزلوا فى جوف غابة من الموز . والشيخ عمر الذى كان يتألم من قرح فى قدمه طلب منهم أن يظلوا فى كاجانجو اليوم التالى . ولم يكن لدى إرنست مانع يمنعه من إجابة طلبه .

وقضوا يوم ٥ فى كاجانجـــو وفى ٦ منـه طفقـوا يسيرون عنـد الساعة السابعـــة . وهنا يتسربل البلد حللا أجمل رونقا وأكثر بهاء فلم تعد تقـــع العين بعد لا على سهول ولا على غابات بل على ربى تكسوها أشجار المـــوز ووديان صغيرة جميلة بها كثير من القرى . وبعد أن

عبروا منطقة « كارمورى » Karmouri كلها بلغوا « لوجابالا » Lugabala فنزلوا بها .

وفى ٧ أبريل حملوا متاعهم وولجوا فى منطقة « بيراماز كنجاؤونى » Biramaz Kangaouni وكانت أوصاف هذه الناحية كأوصاف الناحية التى قبلها ثم أفضوا الى « برياكى » Briaki وبها وجدوا جدولا ماؤه رائق فقرر إرنست المبيت عنده .

وفى ٨ و ٩ منه ساروا فى طريق عرضه ٢٠ مترا شيده متيسا فى قلب مملكته وعن يمينه ويساره أقيمت قرى كبيرة وغرست النباتات البهيجة . وعسكروا فى ذلك اليوم فى « حلل سفارجا » Hellal Safarga . وفى يوم ١٠ منه وهو اليوم الاخير فى هذه الرحلة تابعوا مسيرهم فى طريق الملك وعند الساعة الحادية عشرة نزلوا على قيد كيلومتر واحد من قصر متيسا .

وفى ١١ منه عند منتصف النهار جاء رسول من قبل الملك يحمل سلامه . وشرع رجال الوفد يسيرون فى طريق عرضه ٤٠ مترا وكان مرأى العساكر السودانية بسترهم الحمراء وسراويلهم البيضاء مؤثرا تأثيرا لطيفا . وكان المتونجوليون يسيرون فى المقدمة يدقون بنقاريآتهم ويلوحون باعلامهم . وكان فى اثناء ذلك يحيط بالموكب جمع مؤلف من بضعة الوف من الأهالى وهو يركض ويغنى ويقفز . ولدى المرور أمام قصر الملكة وقف الموكب ليبعث بسلامه اليها وحتى ترد اليه السلام كما هى العادة المتبعة فى مثل هذه الحالة ثم عاود المسير . وكان فى كل ربع ساعة يأتى ساع وهو يلهث من الجرى حاملا سلام الملك ويرجع بلا توان ومعه الجواب . ولاح فى نهاية الأمر قصر الملك وهو قائم على منحدر رابية من ناحيتها الشمالية إلا أن هذا اليوم لم يكن

اليـــــوم المعين لمثول إرنست أمام متيسا فرافقتـه حاشيته الى المـــنزل الذى أعده له .

مقابلة إرنست لملك أوغندة

وكان يوم ١٢ أبريل هو الموعد المضروب لمقابلة إرنست للملك متيسا غـير ان المطر الذى أخذ يسح الى ان انتصف النهار حـال دون ذلك . وعند الساعة الثانيـــة تكشفت السماء وانقطع المطر فأرسل متيسا رسولا ينبىء إرنست بأنه استعـد لاستقبـاله . فأخـذ الوفد فى السير حسب النظام والاحتفال الذى جرى بالأمس . وبعد نصف ساعة بلغوا باب القصر الخارجى ثم بابا آخر وهـكذا الى أن عـبروا خمسة أبواب فترجل إرنست واستقبـله الملك وهو واقف أمام قـاعـة الاستقبال وصافحـه . وكان على يسار الملك فى ذلك الوقت شخص أوربى ظنـه إرنست لأول وهـلة كمرون Cameron وهو فى الحقيقة استانلى .

ودخل متيسا قاعة الاستقبال وجلس على عرشه وأجلس إرنست على يمينـه واستانلى على يساره . وكان مرتديا الثياب التى كان متسربلا بهـا حين زيارة شاليه لونج ومتقلدا ذات السيف الذى كان يتقـلده وقت تلك الزيارة . وعرضت الهدايا ولـكن متيسا أظهر عدم الاكتراث لأن مركزه السامى لا يسمح له بفحص مثل هذه الأشياء .

وبعد محادثة دامت بعض الوقت استأذن إرنست بالانصراف . وعند ما صافـح استانلى دعـاه لتناول الطعام فلبى دعـــوته . وقـدم قبل المساء وظـلوا معـا الى الساعة الحـــادية عشرة يحـدث كلاهمـا الآخر بمـا وعـــاه وقيـده أثناء رحلته .

وفى ١٣ أبريل ذهب إرنست لتناول الطعام على مائدة استانلى وأعطاه هذا معلومات جغرافية لها أهمية كبيرة . وفى ١٤ منه انتقل إرنست الى قصر متيسا فأطلعه على محتوياته ومتع نظره بالمنظر الباهر الذى يشرف عليه قصره من الجهة الجنوبية وهو منظر بحيرة فكتوريا نيانزا .

وأتى استانلى ليتناول العشاء مع إرنست وفى هذه الليلة عقدا النية على أن يذهبا فى الغد الى البحيرة . وفى ١٥ منه سافر استانلى ليخطط رسما لقسم البحيرة الغربى . وتأهب ارنست لمرافقته لغاية الموردة التى سيبحر منها فى خليج مورشيزون وانطلقا معا . وبعد مسير ساعتين تسلقا تلا رأيا من قمته منظرا يبهر الأبصار لفخامته ألا وهو منظر صفحة ماء البحيرة اللجينية ترسل عليها الشمس أشعتها فتنعكس شررا والجزر الخضراء النضرة يتكون منها نطاق من الزبرجد فى خليج مورشيزون . وعاودا السير الى أن وصلا الى شواطىء هذا الخليج بعد ساعة .

وكان من المقرر أن يرافق رئيس ربابنة متيسا استانلى بثلاثين مركبا إلا انه ما كان يوجد هناك شىء مما ذكر . ووردت له الأنباء بأن كل شىء سيكون على استعداد فى اليوم التالى . وقضيا الليل فى اكواخ قائمة على الشاطىء .

وفى ١٦ منه لاح هناك عند الساعة الرابعة فقط شبح الاسطول ثم ركباه ابتغاء النزهة لأن استانلى قرر السفر فى الغد وبعد ذلك رجعا الى المعسكر .

وفى ١٧ منه ايقظهم الطبول فى الساعة الخامسة وفى الحال تمت المعدات ورافق ارنست استانلى الى الاسطول وتصافحا وركب هذا الاخير السفينة

ومخرت به فى اليم واخذ عند ذلك كلاهما يلوح للآخر بمنديله برهة ثم قفل ارنست راجعا متخذا طريق « روباجا » حيث يقيم متيسا فوصل الى قصره عند الساعة الحادية عشرة . ثم ما لبث أن لزم الفراش لاصابته بالحمى .

وفى ١٨ أبريل قابله الملك وألقى عليه أسئلة مختلفة خاصة ببناء السفن والمساكن . وفى ١٩ منه قابله رمضان كاتب يد الملك ليجس نبضه ويرى اذا كان يقبل هو وجيشه الانضمام الى متيسا لمهاجمة كباريجا فأجابه ان العساكر ليست له بل لخديو الديار المصرية وأنه لا يمكنه أن يتصرف فيها فى مأمورية أخرى غير المأمورية التى كلف بها .

وفى ٢٠ منه ذهب إرنست الى قصر الملك وعرض الجنود السودانية أمامه ساعة بناء على طلبه وعقب ذلك طلب أن يمنح كل جندى عشرة من العبيد غير أن ارنست مانع فى ذلك . وفى ٢١ و ٢٢ و ٢٣ منه تحدث متيسا معه فى شؤون مختلفة إذ أنه طلب منه معلومات شتى عن دول العالم على أنواعها من جهة عاداتهم وتأليف حكوماتهم وقواهم الحربية وغير ذلك من الأمور .

وفى ٢٤ منه وهو اليوم المضروب لمقابلة أم الملك جاء « شمبارانجو » Chambarango رئيس الوزراء الذى ندب ليقدم لها إرنست عند الساعة السابعة وأخبره أن الملك ذهب ليزور والدته ولذلك تأجلت المقابلة . وفى ٢٥ منه استدعى الملك ارنست وفقيه الخطرية فى آن واحد وحصر محادثته فى القرآن دون سواه فارتبك الفقيه واحتار فى أمره ولم يدر كيف يجاوب على جميع الأسئلة التى وجهها اليه .

وفى ٢٦ منه قابلت أم الملك إرنست فى حفلة حافلة . وكان شمبارانجو مكلفا بتقديمه لها . ولدى وصوله الى قصرها وجد الباب مغلقا وما أمامه يسوده سكوت عميق يشبه سكوت أهل المقابر . وبعد انتظار نصف ساعة فتح الباب بغتة واخذت نحو ٢٠ نقارية ترن وعدد آخر مثله من الطبول يدق ثم دخلوا فى حوش كبير يوجد فى نهايته كوخ وتجاهه الموسيقا .

وهذا الكوخ ـ وان شئت فقل قاعة الاستقبال ـ مبنى من الخيزران وترتكز قبته على فروع من فروع الاشجار . وكانت الملكة جالسة على الارض فوق ثوب من نسيج القطن وثيابها تتألف من قطنية تلتف حول جسمها ومشبوكة بأعلى صدرها . وثوب آخر من هذا النسيج يحيط برأسها وعقد من الخرز متمم للكسوة . وكان فريق من الضباط واقفا من ناحية وطائفة من العذارى واقفة فى الجانب الآخر .

وبعد التحيات وفحص الهدايا التى قدمت اليها قال ارنست شيئا من العبارات المعتادة للمجاملة فى مثل هذه الاحوال فكانت أقواله توجه الى سليم وهذا يترجمها الى شمبارانجو وهذا ينقل نفس العبارة الى وزير الملكة فينقلها بدوره اليها . وعلى هذا كان لا فائدة مطلقا من وجود الوزير ولكن المقام الملكى يترفع عن التفاهم المباشر . وبعد تبادل بعض العبارات بالكيفية والصيغة التى سلف ذكرها استأذن ارنست بالانصراف وودع بالطريقة التى قوبل بها .

وفى ٢٧ أبريل استدعاه متيسا وسأله عن الشمس والقمر والسماء فاضطر لكى يفهمه حركات الاجرام السماوية ان يرسم صورا على لوحة ومثل الاجرام السماوية بكرات دقيقة من الزجاج . وكان المجتمع قليلا عدده اذ انه

لم يكن يضم غير الوزيرين « كاتيكيرو » و « شمبارانجو » وأربعة من الضباط والكاتبين وبعض الندماء .

وكان متيسا منشرح الصدر فكان كلما سمع شيئا من ارنست شرحه بنفسه للحاضرين فتبدو على وجوههم سمة الدهش والاستغراب .

وفى ٢٨ أبريل بعث له الملك ١٠ أبقار ومثل هذا العدد عنزات و ٨٠ حملا من الموز هدية . وفى ٢٩ منه أحاط متيسا ارنست بتاريخ أوغندة . وفى ٣٠ منه تفرغ متيسا للصيد فكانوا يعتقلون على مسافة ما تارة بقرة وطورا عنزا ثم يتمرن الملك وهو جالس فى كوخ على اطلاق النار . وهذا ما يسمى فى عرفهم بالصيد الملكى .

وقضى ارنست يوم ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ مايو فى معالجة المرضى فى المعسكر ولسوء الحظ ونكد الطالع كانوا كثيرين والضابط همام افندى كان مصابا بالتيفوس وكان يائسا من شفائه .

وفى ٦ منه طلب متيسا من ارنست أن يرافقه هو وجيشه وبروجيته وطبالوه فى رحلة نوى القيام بها لمعاينة طريق أمر بتمهيدها . فاعتذر إرنست بانحراف صحته وأرسل اليه البروجية وبعض الجند وذلك ما حمد الله فيما بعد لأجله لأن الجنود عند العودة أخبروه أن الرحلة كانت شاقة جدا .

وفى ٧ منه جاء الوزير « كاتيكيرو » من قبل الملك ليزوره ويسأل عن صحته وليخبره بانه سيسلمه الدناقلة العشرة الفارين من معسكره الذين عنده . وفى ٨ منه توجه متيسا للصيد فانتهز ارنست هذه الفرصة وذهب لزيارة « كاتيكيرو » المتزوج من أخوات الملك الأربع وابنته فوجده فى داره فدار

بينهما الحديث وعلم انه عنده من النساء ما يربو على ٢٠٠٠ امرأة .

وفى ٩ مايو استقبل متيسا ارنست واستعلم منه عن كيفية تحنيط الاجسام والمدة التى يمكن ان تظل فيها الجثـــة محفوظة وأبدى رغبته الشديدة أن يرى عنده اناسا لهم دراية بهذه الصناعة . وفى ١٠ منه استدعاه متيسا واخذا يتجاذبان الحديث وكان الكلام يدور بينهما حول النساء وابدى إرنست رغبته فى العودة الى فويرا إلا أن متيسا طلب منه أن يمد مدة اقامته شهرا .

وفى ١١ منه زار ارنست « كاتيكيرو » فاستقبله وسط جمع من النساء وقدم إرنست الى مضيفه بعض الخرز على سبيل الهدية فقدم اليه فراء من جلد فأر وكسوة من قشور الشجر .

وفى ١٢ منه قابل إرنست الملك وشكا له من الاهمال الحاصل فى تموين عسكره فوعده انه سيضع حدا لذلك . وانصرف بعد ان سمع نوبة موسيقية عزفت ادوارها جماعة من اهالى « السوجا » Sogas على القيثارات .

وقضى يوم ١٣ و ١٤ و ١٥ منه فى معسكره . وفى ١٦ و ١٧ منه اشتبك ارنست مع متيسا فى محادثة طويلة بخصوص واجب الرجل نحو نفسه وواجبه نحو اقاربه . والامر الذى كان يهمه له بنوع اخص هو ان يعرف ماهية الجنة وماهية النار والملائكة . واين مركز هؤلاء من العالم وما هى انواع المتع التى يتمتع بها الانسان أو العقاب الذى يناله بعد الموت .

وانقضى يوم ١٨ و ١٩ و ٢٠ منـــه في تصليح وترميم الاكواخ التى كان ينزل المطر من سقوفها لبنائها على عجـــل . وفى ٢٤ منه حصل ارنست من الملك أثناء محادثة طـــويلة جرت بينهما على أمر يحظر بيع

وشراء الرقيـــق فى مملكته . وأبان له انه مادام يرغب فى ربط صلاته بالدول المتمدينـــة فيجب عليه بادىء ذى بدء أن يعمل وفق مبادىء الهيئة الاجتماعية الأولية أعنى حرية الانسان .

وحصل منه أيضا على أمر ببيع سلع أوغندة فى محطات الحكومة المصرية وعلى تصريح بزيارة « أوسوجا » Usoga وكان وطد العزم على ان يسافر فى الغد وأن يصعد فى النيل لغاية خروجه من بحيرة فكتوريا نيانزا .

وكان يوم ٢٥ مايو الموعد المضروب لسفره . وفى ٢٦ منه لم يظهر أى شىء لغاية الساعة الثامنة . ووصل فى نهاية الأمر « عيد » كاتب متيسا ومعه شيخان وقال انه قد تقرر أن يرافقا الوفد وأن يقدما لارنست ما يلزم من الحرس ثم انصرفا بدعوى استحضار ذلك الحرس غير انهما لم يعودا . وانقضى طول اليوم ولم يرد أى نبأ بخصوص سفره .

وفى ٢٦ منه علم ارنست ان عيـــدا الذى تعين لمرافقته سافر الى مزارعه فكتب خطابا الى متيسا يقول له فيـــه ان مأموريته انتهت واضحى من واجباته الاياب الى غوردون باشا . فطلب منه الملك ان يقابـــله لأنه لا يريد أن يراه مسافرا وهو غير منشرح الصدر ولكنه أبى وأرسل سليما ليعتذر نيابة عنه ويبدى انشغاله فى تجهيز معدات السفر لأنه قرر قطعيا الرحيل غدا ميمما « اوروندوجانى » فأرسل اليه متيسا مؤنا لجنوده .

وفى ٢٧ منه عند الساعة العاشرة حضر شقيق الملك بنفسه ومعه ضابط من كبار الضباط وعدد كبير من الرجال يقال لهم « مرونجولى » Mrongolis وهم الاشخاص الذين تعينوا لمرافقته فشكره ارنست للرعاية التى شمله بها الملك

وسافر فى الحال غير ان الطريق كانت رهيبـــــة يسير فيها الانسان دواما بين ادغال تمزق الايدى والوجوه . هـذا عدا معاكسة الامطار . وبعد سفر بطىء شاق وصل عند الساعة الثالثة الى « كيسيجولا » وفيها قضى الليل .

وفى ٢٨ مايو بارح « كـيسيجولا » Kissigula وعبر عـدة مجارى ميـاه وكان اجتيازهـا متعبا وشاقا دواما . وآخر مجرى عـبره يقـال له « لواجارى » Luagari وهذا هـو المجرى الوحيد الذى يستحق الذكر من بين المجارى التى اجتازها ابتداء من روباجا حيث يقيم متيسا وبعد عدة لحظات افضى الى املاك عيد حيث توجد ابقاره ومعزه وفيها قضى الليل .

وفى ٢٩ منه لازم ارنست المعسكر ولم يتحرك منه يمنة ولا يسرة وعزم على ان ينطلق الى الصيد فى الغد وعلى ارتياد منابع مجرى « لواجارى » .

وفى ٣٠ منـه ذهب لصيد النمر واصطاد واحـدا بديع الشكل . وعـــثر ايضـا على منبـع « لواجارى » غـــير انه لاحظ ان ما ينبع منه من المـاء يسير جدا فلا يكفى لتغذية هذا النهر وعلم من الاهالى ان له منابع اخرى تمده اثناء جريانه .

وفى ٣١ منـه أتى الى ارنست نبأ بأن النـار شبت فى قصر متيسا وان ضابطـا مصريا ومعه عشرة جنـود قادمون لمقابلته ومعهم شىء كثير من المتاع وان هذا الضابط يوجـــد الآن فى منطقة « موريكو » Moreko وهذه الظروف حملته على أن يرتد على عقبه الى « روباجا » .

* * *

هـــذه هى خلاصة « رحلة إرنست دى بلفـون » التى دونت فى نشرة

الجمعية الجغرافية الخديوية « الملكية الآن » فى السلسلة الأولى لعام ١٨٧٦ م لغاية ٣١ مايو . أما القسم الذى بعد هذا التاريخ لغاية ايابه الى لابوريه فى ٢٢ اغسطس فلم يمكنا العثور عليه . وكل ما علم عن هذه المدة الاخيرة مسطر فى ملخص الخطاب الآتى الذى كتبه إرنست الى والده بتاريخ ٢٣ اغسطس أى قبل وفاته بثلاثة أيام وقد سبق ذكر تفصيلات هذا الحادث المحزن ، قال :—

تركت متيسا فى ١٥ يونيه بعد مشقة عظمى لأن هذا الماتى الغشوم كانت ارادته الوحيدة ابقائى فى خدمته مع حرسى وكان لا يريد ان يتحول عن ارادته هذه قيد أنملة . وكان لا يدرك ان مملكته برمتها لا تقدر ان تعوضنى الاقامة عنده اسبوعا واحدا . ولما رأى أن فى غير استطاعته بلوغ أربه من طريق الاقناع صمم على أن يسلك مسلك الشدة وإراقة الدماء . واتفق مع كباريجا ملك اونيورو الذى قاتل بيكر باشا لادراك غرضه هذا .

وفى ٥ يوليه عند الساعة السابعة صباحا لدى وصولى الى شاطىء نهير « كافو » الذى كانت مياهه تفيض من على جوانبه فتسد فى وجهى الطريق هاجمنى خلائق كثيرة يبلغ عددهم ٨ أو ١٠ آلاف رجل تقريبا وكان حرسى مؤلفا من ٤٦ رجلا . وطفقنا نقاتل من الساعة ٧ صباحا الى الساعة ٣ مساء واستوليت على اكواخ المغيرين قبل الساعة العاشرة صباحا . وبما ان هذه الاكواخ مبنية من القش فكان من السهل اتلافها . وصنعت فى لمح البصر رمثا واجتاز اتباعى النهير عليه . وفى الساعة الثالثة لم يبق معى إلا ١٠ جنود وكلهم يحسنون السباحة . وعندئذ صوبنا آخر طلقات الى اعدائنا ثم القينا بأنفسنا فى الماء بعد أن وضعنا أسلحتنا على الرمث واجتزنا النهير سابحين بدون أن

يعترضنا ولله الحمد حادث ما .

وبعد عدة أيام بلغنا فاتيكو وفيها أخذنا شيئا من الراحة . ثم زايلت هذه الناحية وسرت وجبال شوا Shua الى ان أدركت نهير « أسوا » لأن الطريق من « فابو » كانت فى هذا الفصل غير مطروقة . فوجدت ان مياه هذا النهير تطفح من فوق شواطئه ومكونة سيلا عرما جارفا وبذا انقطع خط السير أمامى . وكان من العبث التفكير فى عمل رمث أو اجتياز النهر سباحة أو محاولة عبــوره فى أى نوع من أنواع الفلك إذ أن كل ذلك كان من الامور الصعبـــة فى فصل الأمطار . فيئست من الوصول الى لادو قبل نهاية هـــذا الفصل . وبينما انا كذلك إذ أخبرت بأن الجنرال غوردون صعد النيل فى سفينة لغاية لابوريه . وفى الحال اجتزت النهر عند الابراهيمية « دوفيليه » وسرت والضفة الشرقية ونزلت فى لابوريه وفيها قابلت الجنرال المذكور وعلمت منه ان محطة غندوكورو أزيلت واستعيض عنها بمحطة بور واتخذت هذه مقرا للمعسكر العام وأقيمت بالتبع لها محطات فى « إلياب » Eliab و لاتوكا و مكراكا . وانه شيدت أيضا محطات على بحر سوباط .

وبعـــد ان تم انشاء محطتى لادو و الرجاف صعد الجـــنرال غوردون النهر من هذه المحطة الى لابوريه مع ان الناس كانوا مجمعين حتى الآن على ان هـذه المسافة لا يمكن اجتيازها . نعم كان يوجد عدد عديد من التيارات السريعة فى هـذا القسم ولكن استطاع الجنرال عبورها بصعوبة ويااليت هـذه الصعوبة كانت منحصرة فى هذه العوائق الطبيعية بل زاد الطين بلة ما كان يبديه قاطنـــو شواطىء النهر من ضروب العداوة . ومع ذلك فقد عثر الجنرال بالمضيق الصالح لعبــــور المراكب واضحى اليوم يوجد فى النهر عند لابوريه

وابور بخارى و ٣ مراكب كبيرة . وعلى هـذا يرى ان هـذا العام كان مجديا وجنيت فى غضونه اثمار يانعـــة . ومن ناحية اخرى فان المواصلات مع الخرطـوم أصبحت يومية لأنها صارت بطريق النيل . وقد جعلت الطريق فى غاية من الأمن محطتا « بيدن » و « كري » الجديدتان اللتان أقيمتا بين الرجاف و لابوريه .

وقد عهد الى الآن بمهمة جديدة ذلك انى سأسافر بعـد بضعة أيام لأقوم بانشاء محطات بين فويرا وبحيرة « موتان » Mutan ـ بحيرة البرت نيانزا ـ على فرع سومرست . وسأدخل فى البحيرة واخرج منها فى النهر وانحدر فيـه بمركب لغـاية مساقط « ماكيدو » Makedo حيث التقى مرة اخرى بالجنرال غوردون الذى يكون قد وصل فى ذلك الحين الى هذه الناحيـة التى سنتخذها مركزا لدائرة اعمالنا . وأؤمل ان اكون قد انتهيت من عملى هـذا فى ٣ أو ٤ أشهر على اكثر تقدير . وسنضع بعد ذلك الوابور البخارى فى البحيرة ونأمل انه بمعونة الله تعالى سيكون لنا بعد مرور ١٥ شهرا أو سنتين مركب تجارى على بحيرة « اوكريو » ـ بحيرة فكتوريا نيانزا .

سنة ١٨٧٦ م

سفر غوردون من فاتيكو الى ماجونجو

والخطة التى رسمها

قدم غوردون الى فاتيكو الواقعة على قيد ٨٠ كيلومترا من « فاشيليه » Fashelie فى ٣ يناير ورحل عنها فى ٩ منه ميمما فويرا فدخلها فى ١٣ من الشهر المذكور . وكانت المنطقة التى سار فيها عبارة عن برية مترامية الاطراف شاسعة واسعة تموج بالادغال والشجيرات ليس بها ديار ولا نافخ نار . وبعد أن سار اليوم الأول دخل فى أرض لا يوجد بها ماء إلا فى الغدران . وكان عرض النهر تجاه فويرا ٢٠٠ متر وماؤه راكدا والغدران منبثة فى سائر أرجاء ضفته الجنوبية .

وهذه هى خطة السير التى كان رسمها غوردون لنفسه :—

يقطع فى ظرف ٣ ايام المسافة إلى مرولى الواقعة على بعد ٥٠ كيلومترا من جنوب النهر فينشىء بها محطة ثم يتابع السفر الى أوروندوجانى فيقيم فيها محطة اخرى . ويولى بعد ذلك وجهه شطر شلالات ريبون عند أول مخرج النيل من بحيرة فكتوريا نيانزا فيبتنى ثالثة وعند إتمامها يقفل راجعا الى فويرا ومنها يذهب الى « ماجونجو » حيث كان ينوى أن يؤسس محطة وبعدها يؤوب بطريق النهر الى دوفيليه . وكان قد أقام صرح آماله على أن يجد الباخرة والسفينتين المصنوعتين من الحديد وسفينة أخرى جاهزة ومستعدة فوق الشلالات فتنقل المثونة الى ماجونجو فيدخل جيسى فى البحيرة ويرتادها وبذا

يكون قد رفع العلم الخديوى فوق البحيرتين . وكان عليه بعد ذلك أن يقوم بتفتيش فى « مكراكا » ومن ثم يرجع الى الخرطوم فالقاهرة .

هذه هى الخطة التى كان قد وضعها غوردون . وعلى ذلك بدأ يسير من ١٨ يناير قاصدا مرولى وكان السير عسيرا جدا فى أرض غير مسلوكة لابد للمنبعث فيها أن يشق له طريقا بين الادغال . ولا تقع العين فى هذه المنطقة على مخلوق من البشر والماء لا يوجد فيها إلا فى المستنقعات . أما النهر فلا يمكن الوصول اليه لحيلولة الغدران المبثوثة على ضفته . وكان غوردون يريد سرعة الوصول الى بحيرة فكتوريا نيانزا ليرفع هناك علم الخديو حتى يستطيع أن يثبت حقوقه عليها . وكان قد نبذ ظهريا مسألة فتح المواصلات عن طريق البحر الاحمر لأنه كان يرى أن جنوده لا تستطيع القيام بهذا العمل وأنه لو استمر عاقدا النية على فتح هذا الطريق لاضطر الاميرال ماكيلوب وأميرالآلاى شاليه لونج أن ينتظراه مع حملتها زمنا طويلا .

وقد استرجع الخديو فيما بعد هذه الحملة بناء على طلب انجلترا التى حتمت على مصر استدعاءها حتى أنها تمهد السبيل لوضعها تحت حمايتها كما حصل بالفعل .

وفى ٢٢ منه جد غوردون فى السير الى ان أفضى الى ضفاف الكافور Kafour أمام مرولى ولدى وصوله أشعل رئيس المنطقة وهو من اتباع كباريجا ملك أونيورو النار فى مسكنه وتعلق هو وقومه بأذيال الهرب ونزلوا فى مازندى على مرحلة يومين من مرولى ودخل غوردون هذه المحطة بعد أن عبر نهر الكافور وأرجع ريونجا خصم كباريجا إلى مركزه الذى عينه فيه سير صمويل بيكر عام ١٨٧٢ م وكيلا للحكومة عوضا عن كباريجا الذى كان خلعه منه . وعين كذلك القائمقام محمد ابراهيم بك المكنى بابن جميعه ومن مواليد

السودان قائدا للمنطقة . ورحل غوردون من مرولى فى ٢٤ يناير ميمما فويرا بطريق النهر على متن زورق فوصل اليها فى يوم ونصف يوم . وفى ٣١ منه بارح هذه الناحية قاصدا دوفيليه لان وجوده فى هذه كان محتما ضروريا لاسباب جمة . وكان يريد ايضا أن يرسل المؤن صعدا فى النيل قبل أن يهاجمه فصل الامطار الوشيك الحلول .

وفى ٣ فبراير قدم غوردون الى فاتيكو بعد أن قطع المسافة التى بينها وبين فويرا البالغة ١٢٠ كيلومترا فى ظرف ثلاثة أيام ونصف يوم . وسمع لدى وصوله ان كباريجا حين سمع بتقدمه بارح مازندى عاصمة ملكه متأبطا عرشه السحرى لأن العقيدة السائدة بين قومه هو انه اذا فقد عرشه فقد معه سيطرته وضاع نفوذه .

وفى ١٠ منه وصل غوردون الى دوفيليه وأدركه أسف شديد لعدم استطاعته قياس فوهات نيل فكتوريا إذ أنه كان يرى أنه لا يوجد ما يبرر استعمال وسائل النقل التى فى حيازته للاستكشاف بينما الجند فى مختلف المحطات ينقصها كل شيء . وتلك الوسائل كانت ضرورية ولا بد منها لتموين أولئك الجنود الذين يجب أن تعطى لاحتياجاتهم الافضلية على كل ما سواها وأنه حتى فيما اذا كان انتهى العمل من الباخرة يكون من غير المستطاع استخدامها فى ارتياد بحيرة البرت نيانزا إلا بعد أن تمخر بعض الزمن بين دوفيليه و ماجونجو لنقل الزاد والذخيرة للجنود . ولدى وصوله الى دوفيليه وجد ان الاعمال تقدمت تقدما كبيرا وان سفينة من السفن الحديدية كان انتهى العمل منها واخرى على وشك التمام وأما الباخرة فكانت الاعمال فيها سائرة سيرا مرضيا .

وفى ٢٣ فبراير بعث غوردون من دوفيليه الى مرولى بكمية من المؤونة . وكان مرتاحا جد الارتياح من سير الاعمال . وكان قد تقرر ايضا سفر جيسى بعد بضعة أيام الى ماجونجو بالسفينتين الحديديتين ومعه قدر من الميرة ثم يبحر منها فيطوف بدائر البحيرة . وكان غوردون مترددا فى السماح له بالقيام بهذه الرحلة غير أنه لشدة إلحاحه أذن له بالارتحال . وبما أن ثلث الباخرة كان قد تم وجميع المحطات تقريبا كانت انشئت ساورت غوردون الآمال بان لا يقع جيسى فى أنياب المرض فيضطر عند ذاك أن يذهب هو بنفسه لارتياد البحيرة .

وفى ٧ مارس سفر غوردون جيسى فى السفينتين الحديديتين من دوفيليه الى ماجونجو ليذهب منها الى البحيرة ثم بعد أن أرسل فى ٨ منه قافلة الى لابوريه توجه الى هذه الناحية سيرا على الاقدام بمحاذاة النهر ومر بشلالات فولا ليتمم خريطته . وكان ماء النيل ينساب من ثغرة ضيقة متدهورا من ارتفاع ٢٥ مترا ويجرى تياره مسرعا مدى ٣ أو ٤ كيلومترات يستحيل على أى انسان اجتيازها لسرعة جريان مائه . ولما كان ارتفاع كلتا الضفتين ١٥ مترا وتقطعها الخيران العميقة كان من الممتنع المسير عليها وسحب المراكب بالاحبال .

وحمل له البريد الذى جاءه من فويرا خطابا من متيسا ملك أوغندة يصف فيه ما حاق به من الهم والغم ويقسم انه مخلص لمصر . أما كباريجا فقد سافر يحمل عرشه شطر الجنوب وأخلى القسم الشمالى من مملكته .

وفى ١٢ منه شخص غوردون الى « كري » Kerri ومر فى طريقه على « موجى » Moogi ونظرا لما صادفه من الصعوبات فى سبيل الحصول على

حمالين استحضر زهاء ٤٠ جملا بقصد التجربة . وكانت تساوره الآمال بأن يفلح باستعمال هذه الطريقة وفاته ان ذلك يثير حنق الاهالى .

وفى ٢٣ مارس رحـــل غوردون الى « لادو » حيث دعت بعض الأعمال إلى وجوده .

وفى ١٠ أبريل رجـــع الى بيدن وقرر أن ينشىء محطة صغيرة على نهير « طيو » Tyoo لأن المسافة بين لابوريه و دوفيليـــه يوم ونصف فكان ينشأ من جراء ذلك أن العساكر التى تسير بين هاتين المحطتين تضطر الى المبيت فى الطريق وتستولى من الأهالى على أشياء ليس لهم حق فى أخذها وكان ينتج من ذلك تغيظ الأهالى وبغضهم للحكومة . وفوق ذلك فان هـذا النهير كان لا يمكن خوضه فى فصل الامطار وكان يحول دون عبوره مخاطر كبيرة وهـذا ما دعا غوردون أن يشيد محطة صغيرة فى هـــذه النقطة ويعين بها ٤٠ جنديا ومركبا وبهذه الكيفية يقضى الجنود الذين يجتازون هـذا الطريق الليل فيها .

وفى ١٢ منه بارح بيدن ميمما كري . فوجـد الناحية مليحة جـدا الا أنه لا حظ ان ابقار هـذه الناحية لا تعيش فى فاتيكو ولا فى الجهات الجنوبية وان الخيل تنفق ايضا وبالعكس تعيش الحمير والبغال .

وفى ٢٩ منه قدم الى كري جيسى ليرى غوردون إذ أنه كان قد فرغ من ارتياد سواحل بحيرة البرت نيانزا . وأتم هـذا العمل فى ظرف ٩ أيام فوجـد طولها ٢٢٥ كيلومترا وعرضها ٨٠ وان الضفة الغربية لا يمكن الاقتراب منها نظرا لما يضمره الأهالى من العداوة والبغضاء . وانه لا يخرج من البحـيرة أى نهر

من ناحيـة الضفة المذكورة وان الماء فى القسم الجنوبى قريب الغور والضفة تكسوها المستنقعات . وهبت عاصفة هوجاء فألقته على شاطىء جزيرة بها رجال من قبائل كباريجا واضطر الجنـد أن يرموهم بالمقذوفات النارية ليبعدوهم . وكان جيسى بحارا ماهرا ومع ذلك قال انه لم ير قط شيئا كهذا . وجاهر البحارة بأنهم لا يعودون الى البحيرة مقابل ما ينالونه من اجر مهما بلغ الاجر وانهم يؤثرون الهروب من الجندية على الرجـوع الى البحيرة . وحاول جيسى أن يفاوض الأهالى فأبوا واصروا على عدم حصول أية مفاوضة قبل ان ينصرف لأنهم يعتبرونه كشيطان لبياض لون بشرته .

وارتاح غوردون جد الراحة من هـذه الريادة . وفى ٢٠ مايو قفل راجعا الى لادو فعلم ان الباخـرة سيفرغ العمل منها بعد مرور ٣ اسابيع . وفى أول يونيـه حضرت باخرة من الخرطوم تقل ٤٠ رجلا من الدناقلة .

وفى ١١ منه انتقل الى كري وفيها علم ان الرحالة « بياجيا » Piaggia كشف بحيرة بين مرولى و « اورونذوجانى » على نيل فكتوريا طولها ٨٠ كيلومترا وكان أميرالألاى لونج قد تحدث عن هذه البحيرة غير ان غوردون ظن ان هـذه لم تكن سوى منخفض من الأرض مغمور بالمياه . وقال « بياجيا » انه رأى فرعا آخـذا من البحيرة وان هـذا الفرع لابد ان ينصب ماؤه إما فى سوباط أو فى أسوا .

وفى ٤ يوليه وصل غوردون الى لابوريه وكان قد استعاد صحته وزالت من أمامه جميع العوائق . وأخذ يتأهب لفك الباخرة « الخديو » التى حمولتها ١٠٨ أطنان فى « موجى » لكى يعيد تركيبها فوق الشلالات فى « دوفيليه » واعدادها للملاحة فى بحيرة فكتوريا نيـانزا وكان يطمح أن يفرغ من هـذا

العمل فى أبريل القادم فيضمن بذلك ملكية البحيرة للخديو .

وكان قد ورد اليه ٢٥٠ جنديا أخذت تتأهب للذهاب الى أونيورو لتعزز مركزه فى تلك الاقطار . وكان يشعر بشيء من الارتياح إذ آنس من ضباطه وجنوده انشراحا وسرورا من عدالته وحسن طويته . وها هو قد مر على معاشرته لهم واختلاطه بهم أكثر من عامين وكان همه الوحيد فى أثنائهما السهر على راحتهم واسعادهم على قدر ما فى استطاعته ومراعاة أحوالهم وغذائهم وكافة احتياجاتهم .

وصوله الى ماجونجو

وفى ٩ يوليه رحل غوردون الى دوفيليه فوجد ان الباخرة « نيانزا » على قدم الاستعداد فاعتلى ظهرها ومخرت به عباب النهر فى ٢٠ منه تقطر السفينتين الحديديتين . وكان عرض النهر يتراوح بين كيلومتر واحد و ٥ كيلومترات وماؤه راكدا . وكانت جزر البردى منثورة فى سائر أرجائه وتمتد بطول ضفتيه أوحال من الطمى تحول دون الدنو منهما اللهم إلا بصعوبة كبرى . وهاتيك الربوع تكاد تغص بمن فيها من السكان .

وفى ٢٨ منه وصل غوردون الى ماجونجو عند مخرج نيل فكتوريا فى بحيرة البرت نيانزا وقضى ليلته هناك . وكان يحجب مدخل النهر عدة جزر من شجيرات البردى . وكان قصده ان يذهب من ماجونجو الى فويرا فيرسم خريطة تلك الارجاء لأنه قرأ فى صحيفة الدكتور شوينفورث يقول فيها إنه قد يجوز أن تكون بحيرة « البرت نيانزا » تابعة لحوض النيل . ولكن هذا الأمر لم يقم عليه دليل ما لأنه كان لا يزال الى ذلك الوقت نحو ١٠٠ كيلومتر

بين فويرا وبحيرة البرت لم يرتدها أحد . وانه بناء على ذلك ليس فى استطاعة أحد أن يجزم بأن النيل يخـرج من بحيرة البرت إذ أن هـذه المسألة كانت لا تزال الى تلك الساعة من الأمور المشكوك فى صحتها .

وكتب غوردون يقـول إنه من المختلف فيه أن النيـل يخرج من بحـيرة فكتوريا ويجرى مارا ببحيرة البرت نحـو الشمال بل انه يخرج نهير من بحيرة فـكتوريا وآخر من بحيرة البرت ثم ينضمان الى بعضهما فيكونان النيل . ويقول ان هذا البيان لا يمكن نفيه بتاتا بمجرد القول بأنه إلى الآن لم يتتبع أحـد مجرى النهر من فويرا الى ماجونجـو . وهذا هو السبب الذى حداه للقيام بهذا العمـل ومتابعـة مسير النهر مـع احتمال كثير من المشاق ليفصل فى هذه المسألة .

واتضح له أيضا انه ابتداء من فـويرا أو من مساقط « كاروما » Karuma الى مساقط « مورشيزون » وهى واقعة بين بحيرتى فـكتوريا نيانزا و البرت نيانزا وأقرب من البحيرة الثانيـة بكـثير ، توجد سلسلة مساقط اخرى يختفى بسببهـا تدريجيا فرق الألف قدم التى فى منسوب المياه بين « فويرا » و « ماجونجو » .

وبعد تأدية هـذا العمل كان ينـوى غوردون أن ييمم مرولى ثم يذهب من هـذه الى اوروندوجانى ومن ثم الى مساقط ريبون حيث يرفـع العلم المصرى على بحيرة فكتوريا نيـانزا وبعد ذلك يتمم خريطة النيل من هذه المساقط الى اوروندوجانى ومنها الى مرولى . والمسافة الأولى طولها ٦٥ كيلومترا بطريق البر لأن الملاحة ممتنعة بين هاتين النقطتين وذلك بخـلاف المسافة الثانيـة فانه ممكن اجتيازها بطريق النيل وقد سبق لغوردون أن مخر عبابها . وبهذا العمل

تكون خريطة النيل قد تمت .

الأعمال التى قام بها بعد ذلك

وكان غوردون يبنى صرح آماله على أن يسافر بعد ذلك من فويرا الى مازندى ثم يهبط ليصعد الباخرتين « الخديو » و « نيانزا » .

وفى ٢ اغسطس ورد من مرولى ومازندى بريد فعلم منه ان متيسا يطلب بالحاح أن تقام فى عاصمته روباجا الثكنة التى أرسل غوردون الضابط نور محمد افندى ليقيمها فى « اوروندوجانى » . ولما كانت هذه رغبته لبى غوردون هذا الطلب وأرسل اليه ال ١٦٠ جنديا وقد جال عندئذ بخاطر غوردون أن احتفاظ متيسا باستقلاله لم يكلفه شيئا اكثر من احتلال جيشه خط اوروندوجانى ـ مساقط ريبون . أما وقد أضاع الآن ذلك الاستقلال فبخطئه لا بخطأ سواه وليس له ان يلوم غير نفسه .

وكان يرى غوردون انه يصيب من وراء وجوده فى مركزه هذا مزية اخرى ذلك انه يستطيع اعتمادا على وجود حامية له فى عاصمة متيسا ان يكتفى بتعيين عدد قليل من الجنود فى المحطات الأخرى وانه اذا أظهر روح التمرد أمكنه ان يأمر بأخذه أسيرا ويقبض بكلتا يديه على أزمة التجارة بحذافيرها مع زنزبار .

ورسخ فى ذهن غوردون ان متيسا لم يطلب اقامة الثكنة فى عاصمته إلا بقصد أن يغرى الضباط والجنود ويسول لهم أن يهاجموا معه اعداءه . واستدل على صحة استنتاجه هذا بأن متيسا سبق أن طلب من إرنست دى بلفون لما كان عنده ان يهاجم سكان جزيرة كبرى يقال لها جزيرة

ساسيه Sassé وذلك بسبب ما بينه وبينهم من العداوة . وكان هؤلاء القوم من مهرة الغطاسين وكان كلما أرسل اليهم زوارق وزودها برجاله ليهاجموهم غطس أولئك تحت الزوارق وقطعوا عيدان الخيزران المؤلفة منها تلك الزوارق فتغرق بمن فيها من رجال متيسا .

وفى ٥ اغسطس كان غوردون على قيد خمسة كيلومترات غرب مساقط مورشيزون وكانت ضفتا النهر تكسوهما الغابات البالغة غاية الكثافة وماؤه يسيل ببطء وكانت شجيرات البردى تغطى كلتا حافتيه كما هو الحال فى دوفيليه ولذا لم توجد إلا أمكنة قليلة يستطيع الانسان الدنو فيها من البر . وكان عرض البحر لا يتجاوز ال ٢٠٠ متر . وقدمت طائفة من اتباع كباريجا ليقسموا يمين اخلاصهم للحكومة فأراد انفينا وهو من رؤساء القبائل المتحابة وكان عندئذ بصحبة غوردون أن يذبحوا فمانع غوردون فى ذلك بطبيعة الحال .

وفى ٦ منه كان قد رسم خريطة النهر على طول ١٥ كيلومترا غير أنه اضطر أن يمشى والمطر يهطل فوقه ضعف هذه المسافة بين الأدغال حتى أنهك قواه . وعلى بعد ١٠ كيلومترات من المساقط تقع العين على نجد مرتفع تكسوه الغابات وبأسفله تلاع يفصل الواحدة عن الآخرى خور عميق يهبط لغاية مستوى النهر . ومن كبريات المجازفات عبوره مشيا على الاقدام وكان النهر صالحا للملاحة لغاية المساقط وقد أمكن الباخرة أن تصل اليها بالفعل .

وفى ٧ منه سار ٢٥ كيلومترا ورسم خريطتها وقد صادفه فى هذه المسافة نفس الصعوبات التى صادفته بالأمس لبعد الدرب عن مجرى النهر

مسيرة ٥ كيلومترات . وفى ٨ أغسطس قطع نفس المسافة وقام بالعمل عينه الذى قام به أمس . وفى ٩ منه رسم ٣٠ كيلومترا لقى فى خلالها ما لقيه فى الأيام التى قبلها ونزل على ضفة النهر .

وفى ١٠ منه بعد أن خطط ٢٥ كيلومترا وصل الى زريبة مهجورة لأنفينا . وتجاوزت الصعوبة التى لقيها فى هذا النهار حد الصعوبات التى عاناها فى الايام السابقة لأنه لم يجد دربا يمشى عليه وسقط عدة مرات على الحضيض .

وفى ١٣ منه وصل غوردون الى فويرا . وكان عند ما رحل من مرولى فى ٢٥ يناير أمر ضابطا من ضباطه أن يستطلع من متيسا عما اذا كان يريد جيشا فى أوروندوجانى فاذا كان الرد بالايجاب يتوجه لزيارته أما اذا كان سلبيا فيذهب ويحتل نياميونجو Nyamyongo التابعة لكباريجا وبالاستيلاء عليها تصبح مرولى من ممتلكات الحكومة . وكان يظن عند ما قدم ان الامر قد تم واذا بالضابط يكتب له الآن يعلمه بأن متيسا يرغب فى الحصول على الحامية فى روباجا عاصمة مملكته وانه لبى طلبه وبعد أن وصل الى هذه الناحية صرف حماليه ارتكانا على وعد متيسا بأن يقدم له ما يلزمه من الحمالين . غير أنه لم يبر بوعده حتى هذه الساعة وأبدى لذلك اعذارا أوهى من بيت العنكبوت وأنه ـ أى الضابط ـ أقام ثكنة وأنه فى انتظار ما يصدر اليه من الاوامر .

وعلم غوردون أن متيسا يمتار بكميات كبيرة من البارود يبتاعها من زنزبار فتخيل أنه عقد النية على القيام بعمل عدائى وقام بفكره أن الاصوب أن يذهب بنفسه الى روباجا ويسحب منها الحامية ويضعها كما

كانت عزيمته متجهة فى بادىء الأمر فى نياميونجو الواقعة على قيد ١٥ كيلومترا شمال أوروندوجانى حيث يمكنه منها أن يرقب مجرى الحوادث . وكان النهر صالحا للملاحة بين فويرا و أوروندوجانى ومن اللازم اصعاد احدى البواخر للملاحة فى هذه المرحلة . وكان الضابط قد أخبر غوردون بأن متيسا اضحى اقل اسرافا فى القتل منه من قبل .

وصوله الى مرولى

وفى ١٨ اغسطس وصل غوردون الى مرولى وفى أثناء الطريق عدل عن فكرة ذهابه الى « روباجا » للأسباب الآتية :—

١ — تأكده أن متيسا لا يستطيع مطلقا ان يحول دون عودة جنوده .

٢ — اذا ذهب هو نفسه فمن الممكن حدوث ارتباكات من المستحسن اجتنابها .

٣ — ان المسافة طويلة شاسعة ومنهكة والأمر لا يستحق هذه المشاق .

وعلى ذلك اكتفى بأن أرسل ٦٠ جنديا الى نور محمد افندى وهذا العدد مضافا اليه ال ١٦٠ جنديا التى لديه من قبل كان يجعل فى استطاعته التغلب على جميع الطوارىء .

وفى ٢٣ منه قرر وهو فى مرولى ما يأتى :—

يأخذ لدى رجوع الجنود من « روباجا » ١٠٠ جندى منها ويرسم خريطة النهر بين مرولى و « نياميونجو » و أوروندوجانى . أما قسم النهر الذى بين

أوروندوجانى وبحيرة فكتوريا فقد رأى نفسه مضطرا أن يؤجل رسمه مؤقتا اجتنابا لحدوث قلاقل وارتباكات قبل ان يستعد . وقد اسف لذلك جد الأسف إذ أن هذا كان القسم الوحيد من النهر بين بربر والبحيرة الذى لم يكن قد خطط خريطته . وقادته حصافته الى أن يضم قوته ليعززها بدلا من ان يفرقها فيضعفها .

وفى ٢٨ اغسطس وردت الأنباء بخلع السلطان عبد العزيز وإحلال السلطان الجديد محله . وفى ٢٩ منه أحدث هذا النبأ هرجا ومرجا بين صفوف الجند .

وفى ٣٠ منه عرض غوردون على متيسا عقد محالفة يعترف فيها باستقلال أوغندة ووعده أن يصحب سفراءه الى القاهرة وكان يقوم بفكره ان هذا أحسن ما يستطيع .

وفى ٢ سبتمبر كتب غوردون من مرولى مذكرة الى البعثة الدينية الانكليزية فى أوغندة ليعرفها الخطة التى يجب عليها اتباعها إذا كانت ترغب أن تفيد متيسا فائدة مستديمة فقال : « ان المصريين أخذوا يديرون للانكليز اكتافهم ويولونهم إعراضهم . وانه اضحى من المحقق أنهم لن يصبروا طويلا على احتمال ما يرسمونه لهم من الخطط إذ ان كل حادث صغير يحدث يذكى فى نفوسهم نار الكراهة للانكليز ويزيد فى شنآنهم لهم . فمداخلة الانكليز فى زنزبار والحبشة وارسالهم الآن ايضا هذه البعثة التي يتجلى من كيفية تأليفها انها بعثة لا دينية اكثر منها دينية كل ذلك مما يزيد فى جفاء المصريين لهم . وقال ايضا لها انها اذا لم تتصرف فى أعمالها بالعقل والحكمة فسوف تجر الخراب على متيسا وانها بالعكس اذا تصرفت حسب مشورته

فأن تصرفها يعود عليه بالخير . وانه يجب عليها أن تسعى فى توثيق عرى الاتحاد والمودة بينه وبين مصر إذ ان وقوفه فى موقف المعارضة يعرضه لأوخم العواقب . وانه مهما كانت جنود متيسا منظمة ومزودة بالسلاح فان جنود مصر لا تلبث أن تنتصر عليهم وتلحق بصفوفهم الهزيمة . وعلى البعثة أن تفهم أنه يقصد من هذا القول مهمتها الدنيوية لا الدينية وهو يسألها إلى أى الأمرين يجب توجيه نظر متيسا : أ إلى تسليح رجاله أم الى التكفير عن ذنوبه ؟ إن أولئك الذين يأخذون الناس بالسيف بالسيف يؤخذون . انه ـ أى غوردون ـ يعتقد اعتقادا لا يتسرب اليه الشك ان الله تكفل برعاية الأمور الدينية أما اذا ما هوى الانسان فاتخذ الوسائل الدنيوية فمن غير المستبعد ان تصادفه مقاومة عالمية » .

وفى ٢ سبتمبر عند ما كان غوردون فى مرولى طرأ على فكره ان مأموريته أشرفت على النهاية وانه بعد بضعة أيام سيولى وجهه شطر بلاد الانكليز وانه لم يقم بعمل يسمى عملا حقيقيا إلا سنتين فقط بدايتها سبتمبر عام ١٨٧٤ م ونهايتها الشهر المذكور عام ١٨٧٦ م ومع ذلك سلم بأن ما أداه من الاعمال كان فى حيز الاستطاعة تأديته فى ١٥ شهرا فقط بدلا من عامين . هذا اذا لم تعترضه رداءة المناخ وترامى المسافات وهما العلتان اللتان تقفان عثرة فى سبيل تقدم البلد بسرعة .

وفى ٩ منه قدمت الجنود التى كانت فى عاصمة متيسا الى مرولى وكان بصحبتها طبيب . وكان متيسا قد طلب من هذا الطبيب أن يترجم له التوراة التى كان استانلى قد أهدى اليه نسخة منها . وللوصول الى ذلك دعت الحالة لترجمتها الى ثلاث لغات متباينة . وأخذ غوردون يتساءل عما

استطاع ان يفهمه متيسا بعد ذلك . وأراد متيسا ان يحجز لديه الشيخ الذى أرسله اليه الخديو رغما عن كونه خرج عن دينه واعتنق الديانة المسيحية ولكن غوردون لم يجبه الى مرغوبه .

سفره من مرولى الى نياميونجو

وفى ١١ سبتمبر بارح غوردون مرولى وانتقل الى جبل ماروزى Marousi الواقع على مسافة ٢٥ كيلومترا جنوب مرولى ولدى وصوله تعلق الأهالى وهم من اتباع كباريجا فيما سلف بأذيال الفرار وتواروا عن الابصار فى جوف الحشائش العالية القائمة على جروف النهر . وورد اليه تحرير من أحد ضباطه كان قد ذهب لمقابلة متيسا وهو تحرير مضحك . ويلوح ان هذا الملك استاء أشد الاستياء عند ما علم بقدوم غوردون الى ما جونجو بالباخرة .

وزايل متيسا اعتقاده فى الاسلام والنصرانية فأرسل فى طلب السحرة وتحادث معهم زهاء خمس ساعات دون ان يحصل على نتيجة طيبة . ثم بعث بعد ذلك وراء الضابط وأقسم له انه لا يضمر لغوردون إلا المودة والحب العظيم ثم وجه الى الضابط وابلا من الاسئلة عن الموجب لقدومه دون أن يحصل من ذلك الضابط على جواب مطمئن . وكان نصف بنادقه بشطف ولم يكن لديه رصاص ولكنه كان يعمل خردقا من الحديد . وكان لديه ٥ مدافع صغيرة من البرونز بدون جرار من الطراز الذى يوضع فى اليخوت لتأدية السلام .

وكان متيسا اضاع ثقته من الناس قاطبة فما لبث أن غير ضباطه وكان جميع ما فى حوزته من البنادق ٨٠٠ بندقية مختلفة الطراز . وخشى غوردون

ان يكون متيسا تعلم من جنود مصر كيفية تشييد الزرائب غير أنه يلوح انه هدم الزريبة التى أقامها هؤلاء الجنود .

وكانت بلاده مكشوفة من جميع نواحيها وبها الشيء القليل من الحشائش عكس بلاد المشايخ الآخرين الجانحين للمداوة والخصام الامر الذى كان يلقى المصاعب فى سبيل كبح جماحهم . ومن باب الاحتياط ابتعد غوردون عن البحيرة وكان المصريون مغتاظين أشد الاغتياظ لميل متيسا للديانة المسيحية . وقد استدعى متيسا الطبيب وكان المانى المحتد ويدين بالديانة الاسلامية وتسمى باسم امين افندى وترقى فيما بعد الى رتبة باشا وصار حكمدار مديرية خط الاستواء . وبعد أن أراه ناقوسا قال له ان عرب زنزبار حجروا عليه أن يدقه فى أوقات الصلاة وطلب منه أن يعلمه ماذا ينبغى عليه ان يعمله . فسأله الطبيب عن الدين الذى يعتنقه فأجابه انه نصرانى فقال له انه ينبغى عليه ان يدقه وقت الصلاة فأجابه بأنه سيفعل ذلك . وبعد سفر الطبيب استدعى متيسا الشيخ الذى كان بعث له به الخديو وأمره بأن يقيم الصلاة جهرا حسب الشعائر الاسلامية .

وفى ١٣ سبتمبر مشى غوردون ٣٠ كيلومترا وكان الحر شديدا . وكان عليه ان يسير علاوة على ذلك يوما ونصف يوم نحو الجنوب ليتمم رحلته ثم يقفل راجعا نحو الشمال . وفى ١٤ منه قطع مسافة ٢٥ كيلومترا مشى ال ٨ كيلومترات الاولى منها بين حشائش عالية وأدغال كثيفة وهجم عليه من الأدغال شرذمة من الأهالى فرد غارتهم بنوبة طلقات من افواه البنادق بعد ان جرح من عسكره جندى واحد . وفى ١٥ منه وصل الى نياميونجو وكانت الاراضى كثيرة الآجام والغابات .

عـــودته الى مرولى

وصمم على ان يقفل راجعا فى الغد الى مرولى التى تبعد عن نياميونجو ١٢٠ كيلومترا . وكان فى كل هذه المسافة لا يمكن الرسو بجانب ضفاف النهر بسبب شجيرات البردى والمستنقعات إلا فيما يقرب من الكيلومترين . وتبعد مرولى عن فويرا هـــذه المسافة عينها ولا يمكن الدنو فيها من البر إلا فى نقطتين اثنتين . وبين فـــويرا ومساقط مورشيزون يوجد اكثر من نقطتين . ومن هذه الى ماجونجـــو مسافة ٣٠ كيلومترا لا يوجد اكثر من ٣ رسوات . ومن الناحية الاخيرة الى دوفيليه كان يوجـــد ٥ رسوات فى مسافة ٢٢٠ كيلومترا . وفيما وراء مساقط فـــولا الى الرجاف أى مسافة ١٧٠ كيلومترا كانت السفن تستطيع الرسو أينما أرادت . ومن الرجـــاف الى لادو مسافة ٤٠ كيلومترا لا يمكن الدنو من الـــبر إلا فى غندوكورو لا غير . ومن لادو الى بور مسافة ١٤٠ كيلومترا لا توجـــد إلا رسوة واحدة فى بلد الشير . ومن بور الى سوباط مسافة ٦٠٠ كيلومتر لا يمكن الرسو إلا فى محل واحد هو محل البعثة القديمـــة . ومن سوباط الى فاشودة مسافة ١٠٠ كيلومتر لا توجد أية رسوة .

وفى ١٧ سبتمبر وصـــل غوردون الى مرولى وكان النهر أشبه شيء بالبحيرة وماؤه رهوا . وشرع رجال كباريجا يهددونه بالهجوم غير ان بعض طلقات من البنادق ردتهم الى الصواب وحملتهم على العدول عن الاغـــارة . وكان اجتياز المعابر الضيقة أمرا فيه شيء كثير من الخطر لأن فى استطاعة الأهالى الاختفاء بين الاعشاب العالية وتصويب حرابهم نحو المراكب بدون أن يستطيع من بها أن يراهم .

ووجد غوردون لدى وصوله مكاتبات من متيسا ردا على ما كان حرره له بشأن ما عرضه عليه من عقد المحالفة وقد التزم متيسا فى رده الصمت عن هذا الأمر وأخذ يوجه الى غوردون الاستعطافات وطلب منه بنادق .

سفره الى مازندى

وفى ٢٠ سبتمبر اتخذ سبيله فى البر ميمما مازندى وسار الى أن وصل فى ٢٢ منه الى نجد مرتفع يقال له « كيسوجا » وكان غوردون ارسل من فويرا قبل ذلك بأيام تجريدة لاحتلال مازندى وكان رغما عما بلغه من التوكيدات بصدد احتلال التجريدة لها تساوره الشكوك فى صحة الاخبار التى وصلت اليه . أما الآن وهو على قيد زهاء ٢٠ كيلومترا من مازندى فقد تحققت ظنونه وثبت لديه ان الناحية التى احتلها باسم مازندى ما هى إلا قرية تبعد عن هذه مرحلة يوم وكان سائرا شطر مازندى معتقدا ان جنوده محتلة ربوعها . ولما وصل اليها وجد انه بقى بينه وبين جنوده مرحلة يوم وكان يصحبه ١٠٠ جندى وكان يأمل أن يصل اليها بسلام . وبعد أن جالت برأسه هذه الأفكار ارتأى أن هذه الحالة ربما مهدت له سبيل توزيع الجند بطريقة اكثر نفعا وأنه على كل حال لا يقع فى ملكه سبحانه وتعالى إلا ما أراد .

وفى ٢٤ منه اجتاز مسافة ٢٥ كيلومترا . وكان الأهالى يحدقون بجنوده طول عصر هذا اليوم وهم يدقون الطبول وينفخون فى الابواق اشارة لما يجنحون اليه من مناصبته العداوة والبغضاء وعلامة على نيتهم الاغارة عليه . وكان ما زال عالقا بذهن غوردون مسألة انسحاب سير صمويل بيكر من

مازندى ولذلك ما كان مطمئن الخاطر ولا مستريح البال لا سيما ان ال ١٠٠ جندى التى كانت برفقته كان من بينهم ٣٠ جنديا من الجنود الحديثة لا تتجاوز سن الواحد منهم ١٦ عاما . وفى الواقع كانت الحالة داعية لعدم الطمأنينة موجبة للاشفاق لان الجنود كانت تعبر منطقة تكسوها الحشائش العالية الشديدة الكثافة تحيط بها الأهالى من كل ناحية . وكان هؤلاء صوبوا ذات مرة النيران على الجنود غير انه لحسن الحظ جرت جميع الامور فى مجرى حسن وتم كل شىء على غاية ما يرام فقدم غوردون الشكر على ذلك لله وحمده من سويداء قلبه

وأخطر ضابط القوة التى كانت أرسلت لاحتلال مازندى بأن يحضر لمقابلة غوردون وكانت الآمال تساور غوردون بأن يتحدث معه عشية اليوم اذ انه كان دهشا لاقدام هذا الضابط على ان يؤرخ مكاتباته من مازندى ويرسل إليه الأخبار بالاستيلاء عليها . وكان غوردون يظن انه استولى على « كيروتو » فى الاغلب . ولما علم كباريجا بتقدم غوردون بارح مازندى وولى وجهه شطر بحيرة البرت .

وفى ٢٥ سبتمبر قطع ١٥ كيلومترا فى نواحى مغطاة بالحشائش المتناهية فى الكثافة وكان يأمل ان يصل فى الغد الى الجهة التى يقال لها مازندى . وفى ٢٦ منه قطع ايضا ٢٠ كيلومترا بين غابات كثيفة ظل فى جوانبها فأرسل ادلاء للبحث عن « كيروتو » التى قيل انها مازندى وانتهى الأمر بالعثور عليها ودخلوها فى اليوم نفسه بدون ان يحضر أحد من الحامية لمقابلته فأنب غوردون ذلك الضابط على ما حدث منه وعنفه تعنيفا شديدا الا انه نظرا لعدم طروء أى حادث مكدر وانقضاء الحالة على ما يرام

عفا وصفح عنه .

وقد عزم غوردون على مناوأة كباريجا وتربص حتى تجف الحشائش فيحرقها ثم يؤلف كتائب لهذا الغرض بالكيفية الآتية :—

تؤلف الكتيبة الاولى من ١٥٠ جنديا و ٣٠٠٠ رجل من قبيلة « اللانجو » وتذهب من مرولى الى كيسوجا .

وتؤلف الثانية من مثل هذه القوة وتسير من كيروتو الى مازندى .

وتقيم هاتان الكتيبتان زرائب فى كيسوجا وفى مازندى . وهذا العمل يستغرق ٤ أيام ثم بعد ذلك يجوسون خلال الديار فى سبيل البحث عن كباريجا .

وتقلع الكتيبة الثالثة على ظهر الباخرة ميممة شطر بحيرة البرت نيانزا ومنها تذهب الى فاكوفيا فتحتلها بقصد تلهية كباريجا وتضليله .

وكان غوردون يتساءل عما اذا كان ينبغى عليه ان ينتظر وقتا ما ليسير هذه الكتائب .

وبعد أن قتل هذه المسألة بحثا وتمحيصا رأى أن تربصه لاتمام هذا العمل ليس ضروريا لأن القوة التى تحت تصرفه من الرجال للقيام بهذا المشروع تضمن نجاحه . نعم يوجد لدى كباريجا عدد كبير من الاتباع ولكن عند ما يهاجم من كل صوب وناحية لا يستطيع البتة الخلاص من الهزيمة . وعلاوة على ذلك فانه بعد ما زود الضباط بالتعليمات والآراء اللازمة وتغدو فى حوزتهم جميع الوسائل المؤدية لتنفيذها فانهم يقومون بالعمل

على الوجه المرضى أحسن مما لوكان معهم غوردون إذ أن وجوده بينهم يغل أيديهم ويحصر دائرة افكارهم فلا يتصرفون إلا حسبما يوحيه اليهم ويأمرهم به . وكان وجود السياجات فى كيسوجا و مازندى سندا للجنود وعضدا كبيرا لهم . ثم إن احراق الحشائش يزيل جميع الأخطار إذ به تنكشف الأرض فيمتد البصر ويرى الاشياء على مسافات شاسعة . وفوق هذا وذلك فان اهالى هذه النواحى بعكس الباريين لا يشنون غارات البتة فى الليل .

وقد تألفت التجريدة السابق ذكرها بعد ذهاب غوردون وطاردت كباريجا وعادت بغنائم كثيرة من الماشية إلا أن الجنود ما كادوا ينسحبون من البلد حتى رجع كباريجا اليه .

وبارح غوردون فى ٢٨ سبتمبر « كيروتو » Keroto وسار ٣٠ كيلومترا ثم عاود المسير فى الغد (٢٩ منه) حتى وصل فى هذا اليوم عينه الى ماجونجو . ومن هذا يستنتج أن صحته كانت على ما يرام .

وكان من عادته انه عند ما يصل الى محطة يجمع الجنود ويسألهم عما اذا كان لديهم ما يشكون منه . وكان يفعل ذلك اتقاء لوقوع جور على الجند . غير أنه فى هذه المرة لم يفعل ذلك إذ انه رأى ان جمع الحامية عقب وصوله فى الحال من سفر ٦٠ كيلومترا عمل غير سديد .

وذهب فى الغد لمشاهدة مساقط مورشيزون فوجد ان ليس لها من الأهمية ما كان يتخيله أولا . وفى ٢ اكتوبر بارح ماجونجو قاصدا « شيبيرو » Chibero الواقعة على بحيرة البرت نيانزا وقد عقد النية على أن يعود

الى حيث سافر بعد ٤ أيام . وألقيت المرساة على قيد ٢٥ كيلومترا من « ماجونجو » .

وكان البحر ماؤه رهوا غير ان تموجه كان يشعر به . وهذا يدل على ان عاصفة قريبة العهد مرت به . وأخذت الباخرة فى الليل تمايل بمن فيها على الجانبين ومن الأمام الى الخلف وبالعكس بسبب مرور عاصفة الأمر الذى جعل غوردون يدرك أن الابحار على تلك البحيرة مع ملاحين مجردين من الخبرة لا يميزون رداءة الجو ولا كيف يعدون المواقف الموافقة للرسو ، شىء لا تحمد عقباه .

وفى ٣ اكتوبر واصل السفر الى ان بلغ بقعة تجاه « شيبيرو » وأبصر جبال مازندى على بعد زهاء ٤٠ كيلومترا . وكان صياد من الأهالى يصطاد فى زورق ففاجأته الباخرة على حين غرة منه ولم يرها إلا بعد ان دنت منه . وحاول عندئذ الهرب إلا انه لم يجد الوقت الكافى لذلك وقبض عليه وسيق الى ظهر الباخرة . ودهش الرجل إذ أن بصره لم يقع قبل الآن على شىء كهذا . واعطاه غوردون خطابا برسم كباريجا الذى كان يوجد فى داخلية الأرض على مسافة بضعة أيام وأعطى له كذلك بعض الهدايا وأطلق سراحه فانصرف وقد تلعثم لسانه وأخذ يسير بدون أن يلتفت وراءه لشدة ما أصابه من الذهول الى ان اختفى فى الحشائش .

وكان غوردون ينوى من وراء هذه السياحة أن يقيم محطة فى شيبيرو لكى ينظم خط مواصلات بين البحيرة ونيل فكتوريا ولذا أصدر أمرا لجنوده بالعودة عند ما وصل الى الموضع الذى كان يرى وصوله اليه لازما .

عودته من ماجونجو الى لادو

وفى ٦ اكتوبر رحل عن ماجونجو ميمما وجهه شطر الشمال ابتغاء العودة . وفى ١١ منه بلغ لادو . وبعد بضعة أيام من وصوله اليها وردت له انباء من « لاتوكا » منبئة بأن طائفة من الزنوج هاجمت السيد احمد العقاد وتجارا آخرين وأن هؤلاء جميعا أمسوا فى أحرج المراكز محاصرين من جميع النواحى وأخذ زادهم ينضب .

وتقول هذه الأخبار أيضا ان لدى أولئك التجار كميات كبيرة جدا من السلع الغالية عظيمة القيمة وانهم يلتمسون الاسعاف فى اقرب وقت وإلا فمصيرهم الأسر أو القتل ومصير بضائعهم ومتاعهم السلب والنهب . فاضطر غوردون ان يعد تجريدة ويسيرها الى تلك الربوع بقيادة الصاغ محمد عبد الكافى افندى وهو ضابط سودانى من ضباط الجيش المصرى .

وانطلق ذلك الضابط ووجهته « لاتوكا » فى طريق تتخلله الجبال الوعرة وأراضى يسكنها زنوج متوحشون فكانوا يقطعون عليه الطريق ويضطرونه لمحاربتهم وايقاع الهزيمة بهم بواسطة الأسلحة النارية .

واستمر سائرا على هذا الحال الى ان ادرك المكان الذى يقصده فوجد طه بن محمد وكيل محمد السيد موسى العقاد وفريقا من المصريين فخلصهم من الورطة التى كانوا واقعين فيها والمأزق الحرج الذى كان محدقا بهم ورجع ومعه أولئك الاشخاص بأمتعتهم وبضعة آلاف من حمير لاتوكا وهى حمير ذات لون اخضر تمشى ببطء فهى تشبه فى مشيها الابقار وتدر لبنا كما تدر هذه وتقنى لهذا الغرض لا للركوب وحمل الاثقال .

وقد دهش الجنود لما رأوا هذا النوع من الحمير بهذا الشكل وهذا اللون الغريبين . ووزع غوردون هذه الحيوانات على الضباط والجنود وأوصى بتدريبها تدريجيا على حمل الاثقال والانسان ودربت فعلا الى أن استعملت لذلك ولكن بعد صعوبة كبرى .

سفره الى الخرطوم ثم القاهرة

وفى ١٦ اكتوبر بارح غوردون لادو الى الخرطوم فبلغها فى ٢٩ منه . ثم سافر من الخرطوم فى ١٢ نوفمبر موليا وجهه شطر القاهرة فدخلها فى ٢ ديسمبر .

وإلى هنا انتهت حكمدارية غوردون لمديرية خط الاستواء وقد دامت من الوقت سنتين وشهرين وثمانية عشر يوما .



جيسى باشا مدير مديرية بحر الغزال

١ — ملحق سنة ١٨٧٦ م

رحلة جيسى وارتياده لبحيرة البرت نيانزا [١]

من ٧ مارس الى ٢٣ أبريل

تكليف جيسى كشف بحيرة البرت نيانزا

كان أميرالألاى غوردون يحاول حل اشكال بحيرة البرت نيانزا من الوجهة الجغرافية أثناء وجود جيسى فى نواحى بحر الغزال وكان يريد أن يتحقق مما اذا كانت هذه البحيرة هى آخر خزان للنيل أو تابعة لمجموعة « الشيرى » أو الكنغو المائية .

وقبل هذا كان سير صمويل بيكر قد كشف من عهد غير بعيد وجود اتصال بين فكتوريا نيانزا وبحيرة البرت أعنى نيل فكتوريا ، وأكد أنه يوجد مجرى ماء شمال نيل فكتوريا الذى هو عبارة عن خزان وانه من الجائز ان هذا المجرى لم يكن سوى النيل بين دوفيليه وغندوكورو .

غير ان بعض علماء تقويم البلدان ارتابوا فى وجود هذا المجرى الشمالى الذى لم يستطع سير صمويل بيكر أن يجزم برؤيته رأى

---

(١) — راجع كتاب « سبع سنوات فى السودان » لمؤلفه جيسى باشا من ص ٩٩ الى ص ١٣٦ .

العين . وكان هؤلاء العلماء يؤيدون ان نيل فكتوريا يخرج من بحيرة فكتوريا نيانزا ويسير محاذيا لبحيرة البرت من جهة الشمال الشرقى بدون أن يختلط ماؤه بماء هذه البحيرة . ويوجد بالفعل عدة خرائط مخططة فى ذلك العهد وفيها نيل فكتوريا مرسوم على يمين بحيرة البرت .

وعلى هذا كان يهم غوردون بنوع خاص ان يفصل هذا الاشكال لما فى ذلك من الفوائد العلمية عامة والفوائد الاقتصادية والسياسية خاصة التى تعود على الحكومة المصرية . إذ أنه لو تحقق ان النيل يخرج من بحيرة البرت لاستطاع السودان المصرى بواسطة هذا المنفذ النيلى العظيم أن يمد نفوذه وممتلكاته الى قرب خط الاستواء لغاية مملكة كباريجا شرقا وموتبيتو Monbettu و أكا Akka والاقطار التى لم يرتدها أحد الى ذلك الوقت غربا .

وقد أرسل لهذا الغرض اثنين من أفاضل ضباط الانكليز وهما المستر وطسون وشيبندال وكلفهما أن يصعدا مع النيل لحسم هذا الاشكال . فسافر وطسون وبعد أن سار بضع مراحل غير مجدية رجع الى دوفيليه التى سافر منها . أما شيبندال فتابع السير وأخذ يرتاد النواحى الى أن بلغ وادلاى . وهنا علم ان مرض الجدرى منتشر فى أعالى النهر الذى كان يرتاده . ولما لم يكن مزودا بأية آلة من آلات التلقيح وكان يخشى على حرسه من الهلاك آب هو ايضا الى دوفيليه بدون أن يتمكن من انجاز مأموريته .

وعندئذ فكر غوردون فى استدعاء جيسى الذى قبل القيام بهذا المشروع العسير . وكان جيسى فى هذه الآونة فى الخرطوم فاستقدمه غوردون الى غندوكورو فى شهر اكتوبر سنة ١٨٧٥ .

اعداد حملة لهذا الغرض

حضر جيسى وأخذ يشتغل فى اعداد وترتيب الحملة . وتزود لهذا الغرض بباخرة ومركبين مصنوعتين من الحديد احداهما اسمها « دوفيليه » والاخرى « ماجونحو » حمولتهما معا زهاء أربعة اطنان ونصف طن . وهاتان المركبتان كانتا فى غندوكورو من نحو سنة واستقدمها سير صمويل بيكر ثم أمر بفكهما . وكان نقلها الى دوفيليه وهى النقطة المزمع الاقلاع منها لا يخلو من الصعوبة . واضطر جيسى لاتمام عملية النقل ان يجمع ٧٠٠ رجل من مكراكا واستحضرهم خصيصا من بلدهم لهذا الغرض وجمع من غندوكورو ٣٠٠ من الحمالين . وكان الطريق بأسره محفوفا بالمصاعب . وكان على الحملة ان تجتاز جبالا شاهقة وغابات ليس بها مسالك مطروقة ومخاضات وتقتحم عقبات شتى .

ووصلت الحملة أخيرا الى دوفيليه وفى الحال شرع جيسى فى تركيب الباخرة والمركبين بهمة كبيرة حتى ان غوردون لما قدم بعد شهر ليعاين الاعمال وجد ان المركبين قد تم تركيبهما وان العمل فى تركيب الباخرة سائر شوطا بعيدا .

وهذه ترجمة مذكرات جيسى التى كتبها بالقلم الرصاص يوما يوما فى خلال رحلته المحفوفة بالأخطار :—

سفره من دوفيليه

فى ٧ مارس سنة ١٨٧٦ أقلع من دوفيليه ومعه سفينتان من الحديد

وهما « دوفيليه » و « ماجونجو » وكانتا مسلحتين وبهما ١٨ ملاحا من الدناقلة و ١٢ جنديا . وانضم الى جيسى حينما شرع فى القيام بهذه الرحلة « كارلو بياجيا » Carlo Piaggia وكان كلف هذا بمرافقة الحملة لغاية « ماجونجو » على أن يحاول بمفرده القيام بارتياد نواحى بحيرة كابيكى Kapeki .

وقضى جيسى الليل فى زريبة بخيت ومنها اكترى مترجما . وفى الغد هدأت الريح فمخرت بهم السفن النهر بسرعة أعظم منها فى اليوم السالف غير أنه عند ما أشرفت الشمس على الأفول هب إعصار اضطر الحملة الى الرسو عند زريبة . وصاد جيسى وعلا وفرقه على رجاله .

وفى ٩ مارس أتت الرياح بغير ما تشتهى سفن الحملة إذ اخذت تهب من الغرب والجنوب الغربى . واقلعت المراكب عند الساعة الثانية والنصف صباحا وداومت السير الى الساعة ٦ مساء فقطعت ١٨ ميلا .

وفى الغد عاود جيسى الابحار عند الساعة ٥ صباحا . وفى الساعة العاشرة صباحا لاح للحملة بعض جزر مغطاة بأشجار الموز ولكن الحشائش العالية حالت دون الاقتراب منها . وفى الساعة الثانية والنصف مساء عصفت رياح عاتية من الغرب مصحوبة بالامطار واستمر هذا الحال الى الساعة الرابعة والنصف مساء . وفى الساعة ٧ اخذ ثانية فى المسير إلا أن زوبعة أخرى مالبثت ان ثارت فعاقت سير المراكب فى الحال .

وفى ١١ منه بينما كانت المراكب تمخر عباب الماء عند الساعة ٥ صباحا اصطاد جيسى حيوانا يقال له « بيرينجى » Piringi غير انه لم يستطع ان ينتشله لكثرة الحشائش السابحة . وعند الساعة العاشرة مرت المراكب أمام

زريبـــــة « بارو » Baro . وتشبه الأرض المرتفعة فى هذه الناحيـة جزيرة بارزة فى وسط المستنقعات تكسوها غابة على حافتها تقـوم القرية . فجال فى خاطر جيسى أن هـذا المكان يصلح كثيرا لبناء محطة وللحصول على الوقود اللازم للملاحة . وقد تعلق اهالى تلك الجهة بأذيال الفرار .

ويوجد فى هذه المنطقة عدة مسطحات من الأرض صالحة كثيرا للزراعة وأشجار جمة من شجر المـوز والنهر فيها عميـق تستطيع فيـه المراكب ان تدنو بعضها من بعض بسهولة . ومن « بارو » الى دوفيليـه أى مسافـــة ٧٣ ميلا يوجد دواما بالنيـل العمق الكافى رغما عن ازدحامه بالجزر السابحة ازدحاما خارقا للعادة ولا يوجـد بهذه الجزر كثبان من الرمل بل كلها مكونة من الاعشاب ونباتات البردى ذات الجـــذور المشتبكة اشتباكا عظيما ويبلغ عرض الجزيرة الواحدة منها على وجه العموم ٤ أو ٦ ياردات ولكنها غـــير صالحة للسكنى والبعض منها يمتـد فى الطول ٣ أو ٤ أميال بدون أن تعوق مع ذلك الملاحة . وكثيرا ما كانت تنتقل هذه الجزر من مواضعها . فاذا ثارت عاصفة عاتية اكتسح الهـواء الجزر امامه وسيرها بسرعة ٤ أو ٥ أميال فى الساعة ثم يلقيها على جزر أخرى من نوعها أو على حافات النهر فيقلبها فى الماء .

فلهـذه الاسباب كان منظر النهر يتغير دائما ويتعذر رسمه على الخريطة رسما محكما . وعلى ذلك كانت الخريطة التى شفعها جيسى برحلته لا يمكن أن تكون مضبوطة من حيث دلالتها على مجرى القنوات . وكان كذلك من المتعسر ذكر سرعة جريان الماء فقد كانت تبلغ فى بعض المواضع ميلا واحـدا فى الساعة وفى مواضع اخرى كانت تتراوح بين الميلين والثلاثة اميال . ويمكن تقدير متوسطها بنحو ميلين فى الساعة .

وكانت ضفتا النهر وبخاصة الضفة اليمنى مأهولة بكثير من السكان . وبشرة الأهالى سمراء كلون البرنز والجميع بدون استثناء يكسون جانبا من اجسامهم بجلد الماعز أو جلد الوعل . وهم من مهرة الزراع . سلاحهم المزاريق والقسي . ومساكنهم فى القرى لم تك متفرقة ومشتتة على مسافات بعيدة كما هو الحال فى الجانب الاكبر من الاقطار الافريقية بل مجتمعة مع بعضها ومحاطة بسياج من الاخشاب .

وفى الساعة ٣ مساء وصلت الحملة الى ممر كثير الاخطار ليس له منفذ نحو الجنوب . وكانت المراكب التى يجرها الرجال تلاقى صعوبة كبرى فى اجتيازها هذا الممر وبعد معاناة الأهوال مدة ٥ ساعات دخلت فى المجرى الاصلى غير أن جيسى عندئذ أدرك أنه ضل الطريق وأنه لابد أن توجد قناة أخرى فكان عليه ان يدرس الموضع درسا أوفى ما دامت الطريق التى سلكها لا تصلح لاتجاه الباخرة صوب البحيرة .

وفى صبيحة ١٢ مارس حصر همه فى البحث عن القناة التى يجب عليه ان يمر منها فاهتدى الى ترعة صالحة للملاحة رغما عن كون مدخلها تكاد النباتات المائية تحجبه عن الأبصار .

وزايل هذا المكان فى الساعة الثامنة والربع صباحا واتجه شمالا مغربا وسار بمحاذاة الضفة المأهولة بقبيلة « مادى » Madi . ووقع نظره على مكان مرتفع به غابات يصلح كثيرا لاقامة محطة فيه . ويلوح أن الأهالى على جانب عظيم من الجبن إذ أنهم ما وقعت أبصارهم على أفراد الحملة حتى لاذوا بأذيال الفرار الى داخلية البلاد خوفا وجزعا تاركين ضياعهم وقطعانهم . وإن هى إلا أن انسحبت الحملة بعد ذلك حتى رجعوا الى مساكنهم .

ولم يكن الهواء موافقا وكانت المراكب تسير ببطء وألقت مراسيها في الساعة ٦ مساء . وفى ١٣ مارس أقلعت عند الساعة ٥ صباحا . وكان الهواء يهب على غير المرام جنوبا مغربا فأخذت البحارة فى التجديف . وانكشفت أمامهم قرية جهة اليسار على مد البصر وعلى مسيرة ساعة . وأهالى هذه القرية يختلفون اختلافا كليا عن قبائل « الاردرو » Ardrus لأن مئات منهم لاحقت مراكب جيسى ولما رأوا انه لا ينوى الوقوف أخذوا فى الصياح . ويقول جيسى انه مع شدة رغبته فى التفاهم معهم لم يتوصل الى ادراك شيء مما كانوا يقولون . وركب ثلاثة منهم قاربا ونجحوا فى الوصول اليه فاستقى منهم الاستعلامات التى كان يريد الحصول عليها بصدد بلاد وادلاى .

وفى الساعة العاشرة من اليوم المذكور وقفت الحملة عند قرية واقعة على الضفة اليسرى بين القرية السالفة الذكر وجدول ماء صغير . فبادل أهلها بأن أعطاهم أشياء وأخذ فى نظيرها دجاجا وبعض المأكولات وانطلق عراكبه يمخر عباب الماء . وبعد مسير نصف ساعة وجد الطريق مسدودا . وكانت سرعة التيار فى هذا المكان ميلين فى الساعة والريح فيه تهب من الجنوب فتحول دون تقدم المراكب . وبعد بضع ساعات عاودت الحملة الابحار ثم ألقت عصا التسيار عند قرية « اديلاى » Adilai الكبيرة التى شيخها شقيق وادلاى . وهذه القرية واقعة على ضفة النهر اليسرى . وحضر اكثر من ٤٠٠ نسمة من الاهالى وهم عزل من السلاح لاستقبال الحملة وصافحوها ووجوههم طافحة بالبشر دلالة على الارتياح . وأزال عدم حملهم الاسلحة كل ريب من النفوس لدى الحملة . وكان جيسى قد علم عند ما بارح دوفيليه أن مدير هذه الناحية غاب عن ذهنه أن يزود جنوده

بكمية من الذرة تكفى مدة شهر وسافر الجنـــود بدون أن ينبسوا ببنت شفة .

وقد حدث به الحفاوة التي قابله بها الأهالى أن يأمل منهم الحصول على شيء من الزاد . وبالفعل أمدوه بكمية وافرة من الدقيق وجانب من البطاطة وعدد من الدجاج وعندئذ أقام سرادقه ليقضى ليلته متمتعا براحة هنية . وفى ١٤ مارس حضر عدد آخر من الأهالى فى الصباح وقدم ميرة غير التي أحضرت بالأمس . وبعد ان اختار جيسى منها ما رآه لازما وضروريا أصدر أمره بالرحيل . وفى هذا الوقت علم ان التراجمة الذين استحضرهم الشيخ بخيت اختفوا عن الابصار . واستطاع جيسى بعد كثير من الترغيب بالوعود والهدايا أن يحصل على رجل هرم من الجهة يقتادهم الى وادلاى .

وأقلعت المراكب فى الساعة ٨ صباحا وكان النهر فى أديلاى عميقا وماؤه يجرى بسرعة ميلين فى الساعة بين ضفتين مرتفعتين اليسرى منهما تكسوها نباتات . وارتفاع الضفتين مائة قدم تقريبا . وكانت اراضى هاتيك البقاع عامرة بالسكان والأدغال وقراها ليست عديدة إلا انها تفوق فى الاتساع كل القرى التي وقعت عينه عليها فى أواسط افريقية .

وفى نهاية الأمر وصلت الحملة عند الساعة ٤ مساء الى مسكن شيخ وادلاى وكان غرض جيسى من هذه الزيارة الحصول على ترجمان .

وفى الساعة ٦ مساء أرسل الشيخ يقول انه سوف يأتى غـــدا واشترط لحصول ذلك أن يرسل له جيسى جنديين إذ أنه كان يخشى أن يقلع هذا قبل قدومه . وعلى هذا جاوبه جيسى أنه باق فى انتظار مجيئه .

وأرسل جيسى جميع الملاحين فى بكور صباح الغد الى الشاطىء حتى يتمكنوا من نزح ماء المطر المدرار الذى هطل فى جوف المراكب . وبعد ان أتموا ذلك أرجعوا السوارى الى مواضعها . وقبيل الساعة ٦ مساء كان كل شىء فى مكانه والبحارة انتظموا فى أماكنهم . وكان جيسى يريد بعمله هذا الاستفادة من الوقت الذى اضطر الى ضياعه فى انتظار هذا الشيخ الذى يرغب كثيرا فى لقياه ومن المتعذر جدا مرآه .

وبعد ساعتين من اتمام جميع ما ذكر حضر شقيق وادلاى ومعه عنز وبيض وموز واشياء أخرى وأخبر بأن الزيارة الموعودة ستتم بعد الظهر . وكان الوقت قصيرا غير انه كان لابد حتما من الصبر والاحتمال لأهواء ذلك الرجل . غير ان عدد الأهالى الآخذ فى الازدياد كان يلوح مدهشا إذ أنه ارتفع من ٣٠ الى بضع مئات وأخذ السهل يموج بهم . وعرف جيسى بسهولة بين هذه الجموع عدة وجوه سبق له رؤيتها فى بعض الزرائب التى زارها فى سياحة سالفة . وهنا تساءل جيسى : ماذا يعمل هؤلاء هنا ؟ وقال فى نفسه لعلهم قدموا للدفاع عن وادلاى . ومما لا مراء فيه انهم لم يأتوا لمطلق المشاهدة إذ أنهم فيما سبق رأوا الحملة اكثر من مرة .

وطلب شقيق وادلاى من جيسى هدايا . فجبر هذا خاطره ومنحه عطايا مؤلفة من أشياء متنوعة مثل بلطة وادوات نحاسية وخيط وجواعير [1] وغير ذلك وعلم منه ان وادلاى وان كان رئيسا ذا قوة وبطش فهو لم

(١) — الجاعور لعبة للأولاد من الخشب أو غيره وهى أشبه بالخذروف ولها يد رأسية يقبض عليها باليد وتهز فتدور ويصدر من دورانها صوت أجش .

يخرج عن كونه واليا من اتباع كباريجا ملك « أونيورو » وان وادلاى يتنزل عن جميع ما يجمعه من العاج الى الملك ويرسله اليه على ٥ أو ٦ دفعات فى العام ويحتاج فى نقله كل مرة الى ٢٠٠ أو ٣٠٠ حمال . وأن كباريجا يقطن فى جزيرة ومنها يدير شؤون مملكته . وكل هذه التفصيلات نقلت الى جيسى بواسطة الترجمان ومع هذا لم يستطع أن يفهم اسم الجزيرة . وكان جيسى شديد الشغف والشوق لمحادثة وادلاى وكانت تساوره الآمال بأن يأخذ عنه معلومات أوفى واخبارا أصح .

ولاح فى نهاية الأمر رجل وطنى هرم مرتد ثوبا قطنيا قرمزيا تتبعه حاشية مؤلفة من ٣٠٠ رجل . وخطر فى بال جيسى فى بادىء الأمر ان هذا هو الشيخ ولكنه ما عتم ان تذكر ان الاوصاف التى تلقاها بصدد وادلاى تنبىء بأنه رجل بادن قوى الجسم فأدرك فى الحال ان هذا الذى حضر لم يكن سوى رسول . وقدم هذا الرسول جرتين من المريسة Merissa وعنزة وقال ان وادلاى مريض فلا يستطيع المجىء وانه كلف بأن يصطحب جيسى الى حيث يقيم سيده .

وبينما كان جيسى مرتبكا محتارا فى اختيار المسلك الذى يسلكه مع هؤلاء القوم اذا بذلك الرسول الذى حادثه بالأمس يقترب . وإن هو إلا أن وقعت عين ذى الثوب القرمزى على جيسى حتى تملص من ثوبه وفر فرار الآبق . وعندئذ أيقن جيسى أن أمامه عصابة لصوص وعقد النية على الانتقام .

واستدعى شيخ زريبة تبعد نحو ٦٠٠ قدم عن النهر وأمره أن يخبر وادلاى بأنه اذا لم يرد إليه هداياه قبل غروب الشمس ولم يحضر الترجمان

قبل الغد أضرم النار فى الزريبة وأحدث من الخسائر جهد ما يستطيع . ولم يلبث جيسى بعد هذا التهديد إلا قليلا حتى قدم الشيخ وادلاى . وهو شخص بادن غير أن هيئته لا تنم على شىء من الوحشية . وأحضر وادلاى معه الى جيسى على سبيل الهدية جرتين من المريسة وهى ضرب من الجعة يستعملها الاهالى ، وعنزتين وجانبا من الموز .

وتحادث فى نهاية الأمر مع الحملة وبذا استطاع جيسى أن يأخذ معلومات منه بصدد فرع من النهر يتفرع من النيل وينساب متجها نحو الشمال الغربى . واتساع هذا الفرع على ما يقال ٦٠٠ قدم وعمقه يتراوح بين ال ١٨ و٢٥ قدما . وقال وادلاى لجيسى إن تياره شديد جارف ولكنه لا يستطيع أن يدله على مدخله . وأنه يجرى تحت سفح الجبال فى بلاد « اللورى » Lori وان هؤلاء هم عبارة عن قبائل رحل غارقين فى بحور التوحش والهمجية . وأردف ذلك فقال إنه لم يستطع قط أن يخاطر بالتوغل فى حدود أراضيهم ثم طفق يشكو من نهب هؤلاء القوم لماشيته واحراق قراه وذبح رعاياه .

وبعد أن قدم جيسى للشيخ وادلاى بعض هدايا من الزجاج والأوانى النحاسية والحديدية والأنسجة القطنية انقلبا صديقين حميمين لدرجة ان الشيخ عرض عليه أن يتبادلا الدم . ولما كانت هذه الصداقة تفيد كثيرا جيسى قاوم ما كان يجيش بصدره وتغلب على ما كانت تشعر به نفسه من الاشمئزاز من حفلة تبادل الدم وامتثل لشعائرها ما دام ان ذلك يعتبر عندهم بمثابة عين الاخاء .

وهذه كيفية القيام بتبادل الدم حسب اصطلاح أهالى أعالى النيل :

بعد أن توثق ذراعا المتحابين يتبادلان الدم من جرح صغير يحدثانه فى القسم الأسفل من الذراع فيمتص كل منهما دم الآخر .

وأعطى وادلاى وقتئذ الى جيسى مترجما وعند الساعة الثانية اتخذت المراكب سبيلها فى البحر واستمرت فى سيرها لغاية الساعة السادسة وكان منظر النهر واتساعه فى المكان الذى وصلت اليه الحملة أشبه شىء ببحيرة وكان منقسما الى ترع احداهما متجهة الى الجنوب الغربى والاخرى الى الشمال الغربى . وقال الأهالى لجيسى ان هذه الترعة الأخيرة واصلة الى مسافات بعيدة وهذا ما جعله يظن أنها موصلة الى مكرا كا غير انه لم يجد احدا يستطيع ان يمده بمعلومات شافية بهذا الصدد .

وفى ١٦ مارس عاودت الحملة السير فى الساعة الرابعة صباحا إلا أنه عند ما وضح ضوء النهار أدرك جيسى أنه أخطأ الطريق وتوغل فى رافد من روافد النيل خاله أنه المجرى الرئيسى . وأدت الحال الى مسير ساعتين حتى استطاعت الحملة الاهتداء الى الطريق اللازم أن تسلكه غير أنها اضطرت الى الوقوف بسبب ريح صرصر هبت من الجنوب الغربى .

وتقوم فى هذه الناحية على الضفة اليسرى سلطة وادلاى محل سلطة الشيخ « ياكو » Yako لأن هذا كان فى حرب مستمرة دائمة وعلنية مع « اللورين » . وكان هؤلاء نازلين فى الجنوب الغربى وقاموا أخيرا بحملة شعواء فاجئوا بها قوم ياكو وأثخنوهم ذبحا وتقتيلا ثم بادلوا بعد ذلك الأسرى بثيران . وكان ياكو هذا مثل وادلاى من اتباع كباريجا ويورد له ما يجمعه من ولايته من العاج .

وكانت ضفاف النهر مرتفعة من كل ناحية ولا يمكن الدنو منها إلا فى مواضع قليلة إذ كان يوجد بينها وبين مجرى الماء الصالح للملاحة لسان من الأرض مفروش بالنباتات المائية . والجانب الممتد من النهر بين « دوفيليه » و « بيرا » Bira متسع وعميق وهو بحسب رأى جيسى أصلح الاقسام التى مر بها .

ويوجد على ضفاف النهر قرى عديدة عامرة بالسكان فيها يسرح ويمرح الأهالى فى سعة من العيش واليسار مما لم تقع عين جيسي على مثله فى بقعة أخرى من بقاع اواسط افريقية . وزراعة الذرة فى تلك الجهات قليلة نادرة بل تكاد تكون معدومة . اما الموز فيقطع وينشر ويجفف ويقوم مقام القمح . ويزرع مع ذلك كميات وافرة من أنواع الفاصوليا والبطاطة . ويباع الدجاج والبيض بأثمان بخسة . فبخمس عشرة خرزة من الزجاج يستطيع الملاحون أن يأكلوا اكلة دسمة مشبعة . ولقد توغل العرب أو النخاسون الدناقلة فى غاراتهم فى العصور الغابرة وواصلوا السير الى هذا المكان ولكن هذه الغارات كانت قليلة .

وفى ١٧ مارس دفع نسيم خفيف الحملة الى اراضي مملكة اللانجو Langos . وفيها يزداد عدد القرى عن الممالك الأخرى . وأحصى جيسى ٢٧ قرية فى ميلين . والارض مرتفعة من جانبى النهر ويعم الخصب سائر الارجاء . وكانت الضفاف عارية من الاعشاب . ويبلغ عرض النيل فى هذه الجهة ١٥٠٠ قدم وعمقه ثابت على حالة واحدة وهو أحسن مجرى ماء رأته عين جيسى فى افريقية وربما فى أوربا .

وفى ١٨ مارس أخذت السفن مجراها عند الساعة ٤ صباحا . وكان

النهر متسعا فى بعض الجهـــات اتساعا كبيرا جدا حتى انه كاد يتعذر على العين تمييز ضفـافه .

ورأى جيسي بعض الأهالى من بعد يصطادون فحاول ان يقـترب منهم إلا انهم كانوا حذرين فلم يشاءوا ان يتريثـوا ولاذوا على عجل بالفرار . وبعد ذلك لما رأوا انه لم يطاردهم وقفـوا عن كثب ولـكنه لم يستطع أن يحصل منهم على المعلومات التى كان يطمح فى الحصول عليها .

وترك هذا المكان وعنـد اجتيـازه للنهر صادف زورقا يسيره أربعة من الأهالى فساورته الآمال أن يستقى منهم المعلومات التى يبتغيها . ولكنه لم يستطع ذلك رغم ما بذله من المنح .

واظلمت السماء وا كفهر الجـــو ولاحت بوادر العاصفـة فألقى الملاحون المراسي فى مكان أمين . وأخذت تهب ريح الاعصار عنـد الساعة ٨ واشتدت حتى تخيـــل المرء ان السموات قد فتحت فروجها . وقضت الحمـــلة طول ليلهـــا تحت مطر كأنه الطوفان مصحوب بريح صرصر عاتية حـالت دون نصب المضارب .

وفى ١٩ مارس لاح نور النهار والمطر ما زال ثجاجا ولم يبرز قرن الغزالة إلا عند الساعة ٨ صباحـــا . وامكن البحارة وقتئذ ان يعرضوا ملابسهم لأشعتها ليجففوها . وكانت المراكب ملأى بالمـــاء فأخذوا فى نزحها وعند الساعة ١١ كانت المراكب انسابت تسير فى اليم ودخلت فى الفرع الموصـــل الى ماجونجـو . وكان الهواء يهب من الجنوب باعتدال . وعلى هـــذا قام بخلد جيسى ان يصل فى الليل ولكن سرعان ما تبدد هـذا الأمل إذ ان

زوبعة أخرى أتت من ناحيــة ماجونجو فاضطرب الماء وتلاطمت الامــواج فى مدخل البحيرة وعلى ذلك رمى الملاحون المراسى عند الساعة الثانية .

وفى ٢٠ مارس كانت اعاصير مناطق خط الاستواء المتواصلة تعـــوق تقدم الحملة . وانتهز جيسى مـــع ذلك فى هذا اليــوم وقتا هــدأت فيـــه الريح وحاول ان يجتاز المسافة الواقعة بين مكان الحملة و « ماجونجو » . وبعد عبــور ٤ ساعات كاملة وصل الى الضفة الشرقيــة . وعلى بعد ٤ أو ٥ أميال من البر لاقت الحملة بضع جزائر وكثبان من الرمل غير أنه لما كان عمق الماء لا يقل عن ٦ أقدام أمكنهـا المرور من بين هـــذه العقبات . ولمح فى هـــذه الجزر سطوح بعض اكواخ لاذ سكانها بأذيال الهرب ومعهم انعامهم ودخلوا فى الارض اليابسة حيث الضفة يتكون منها خليج يلتجأ اليه من هبوب رياح الجنوب .

وفى ٢١ منــه كانت الحملة على أهبة الرحيـــل عند الساعة ٤ صباحـا . وعلى مقتضى حساب جيسى كان لابد ان يكون نهر « ماجونجو » غـــير بعيد بعــدا كبيرا . ووصلت الحملة الى شبه جزيرة كبيرة . وإن هى إلا أن وقعت عــين سكانهـا عليها حتى هرع منهم ألوف الى الشاطىء يلوحـــون باشارات تدل على التهديد والوعيـــد . ورأى جيسى أنه من الرزانة والحيطة أن يجعل بينه وبينهم مسافة . وسألهم عما اذا كانت الشقــة الى « ماجونجو » لم تزل بعيـــدة . فأجابوا مرارا وتكرارا قائلـين : نحن رعايا كباريجا . وهــذا ما جعـــله يظن أن كباريجا يقطن هــذه الاصقـاع أو فى النواحى التى تحيط بها مباشرة .

وعنــد ما كان جيسى مـع شيخ « وادلاى » حضر رسول من قبل

السلطان كباريجا وطلب ارسال جميع الرجال الذين تحت يده الى مازندي لنقل العاج المجتمع فيها الى محل أمين لأن العرب أخذت فى الاقتراب من ممتلكات السلطان . وكان كباريجا مع سائر رجال الحرب التابعين له يتهيئون فى غضون ذلك لمهاجمة محطة انفينا . وكان وادلاى قد وعد بالشيء الكثير من الزاد والمئونة غير انه لم يرسل شيئا .

وعلى هذا سار كباريجا نحو الشمال على رأس قوة كبيرة إذ روت له الانباء ان مراكب العدو الحربية لاحت . ولم تكن تلك المراكب سوى مراكب حملة جيسى . وهذا الخبر الفجائى غير المنتظر انقض على رءوس جميع رجال القبيلة انقضاض الصاعقة فكان كلما اقترب جيسى ورجاله من القرى الواقعة على شاطىء النهر ينادى المنادى بين اهاليها : الفرار !! الفرار !! الهرب !! الهرب !! وفى الحال ترك السكان اكواخهم حاملين متاعهم وسائقين أمامهم أنعامهم واختفوا فى الادغال الكثيفة أو فوق قنن الجبال . وكانوا يداومون على النفخ فى الابواق ليلا ويستدعون المحاربين بواسطة إشارات مصطلح عليها فيما بينهم ويشبون النار فوق المرتفعات . وفسر ترجمان جيسى هذه العلامات التى كان على علم بها فقال : إن نارا واحدة معناها اقتراب عدو . ونارين إحداهما تبعد قليلا عن الأخرى معناهما الاحتراس والتحصن فى أماكن منيعة . وثلاث نيران بمثابة استدعاء للتجمع والاستعداد للقتال . وأربعا تفيد تقدم العدو وهكذا .

وكان كباريجا قد دخل قلبه الرعب فاستنجد بالسلطان متيسا وطلب منه عقد محالفة وامداده بالمعونة غير ان متيسا استصوب معالجة المسألة وتسوية الحالة بارسال مكتوب الى أميرالألاى غوردون . وكان هذا المكتوب مسطرا

بلغة انكليزية رديئة جـــدا . وقد ظن جيسى أن كاتبه خادم انكليزى تركه استانلى فى « روباجا » (١) عاصمة السلطان متيسا ليحتفظ بجميع الاشياء التى تركت فيها على سبيل الأمانة .

وهذا مغزى الكتاب المذكور :—

« أنا متيسا سلطان سلاطين أوغندة نمقت لكم هـذا الخطاب لاخبركم بأن لا تشبوا نيران الحرب على كباريجا لأن ذلك يكون بمثابة إعــــلان الحرب ضدى أنا . وكباريجا هـو ملك أونيورو . ولقد علمت انكم شيدتم مراكب حربيــــة . وسأذهب الى بومباى . وان ملك ملوك أوغنـدة يهدى اليكم سلامه » .

هذا ، ولربما أراد متيسا باخبار غوردون أنه مزمع السفر الى بومباى إشعاره بأنه سيضع نفسه تحت حماية الحكومة الانكليزية .

وكان متيسا يشنأ العرب شنآنا كبيرا ويتمسك بأن سلالته الملكية هى من عنصر حبشى ولذا فهـــو يمت فى الدين الى المسيحيين . ولتأيـــــد هـذا الرأى يكتفى الحال بالقول ان العنصر الأونيورى كالعنصر الأوغندى تماما يختلف عن جميع قبائل أواسط افريقية الأخرى سواء أكان من ناحيـــة لون البشرة أم من ناحية العوائد والاخلاق . وكباريجا خليفة أبيــــه كمرازى الطائر الصيت الذى كان جالسا على العرش فى عهد حكمدارية بيكر باشا . ولدى وفــــاة كمرازى أقيمت احتفالات شتى تستوى فى غرابتها ووحشيتها .

---

(١) — كانت عاصمة أوغندة وهى كمبالا Kampala والآن أوروندوجانى .

فقد وضعت جثة الملك فى حفرة على طبقة من الاحياء وما كانت هذه الطبقة إلا نساءه . ومن المدهش ان يرى نساء هذا البلد ونساء أرجاء أخرى جنوب البحيرة يستسلمن للدفن أحياء كما علم جيسى وذلك محبة فى بعولتهن . وهذا برهان على الحب والاخلاص أشد هولا من ذلك البرهان الذى كانت تقدمه فى الأزمان الماضية أرامل الهنود لأزواجهن بالقاء أنفسهن فى المواقد التى كانت تعد لاحراق جثث أولئك الازواج .

وقال جيسى لابد أن يأتى يوم يدخل فيه التمدن هذه البلاد ومتى تأصل فى أوغندة فأول الاصلاحات التى يجب القيام بها ابطال هذه التضحية البشرية الوحشية .

ولنرجع الآن الى متابعة الكلام على رحلة جيسى وارتياده لبحيرة البرت فنقول :

كانت الأهالى متجمعة على مدى طول الشاطىء الجنوبى الشرقى والزحام شديدا . وكانوا متسلحين بالحراب يرمون رجال الحملة بالنبال ويدعونهم الى النزول من المراكب ويلوحون لهم فى الوقت نفسه بالحراب ليريهم كيف ستكون مقابلتهم . لكن جيسى تركهم وشأنهم فاستمروا فى متابعة الحملة وحالوا دون رسوها فى أى خليج من الخلجان .

وتغيرت حالة الجو وأخذ المطر يهطل والرياح تثور ولاحت بوادر الشر وحرج الموقف . وبينما كانت المراكب على أهبة الدخول فى مأوى يعصمها من الارياح اذا بمئات من الرؤوس تطوف فوق سطح الماء . فكان لابد من الاسراع الى القيام بعمل حاسم . ولم تدع الحالة لتشتيت شمل أولئك

السائحين الى اكثر من طلقتين من فوهة قربينة جيسى .

وفى ٢٢ مارس قضت الحملة ليلتها فى هدوء وسكينة تحميها فرضة صغيرة وتقيها شدة ريح الجنوب جبال شامخة . وكانت سلسلة الجبال الممتدة من لسان الأرض الذى اتخذه كباريجا مقرا له الى مسافة ٤٠ ميلا من الشاطىء جرداء عارية تقريبا من الغابات . وجميع رؤوس الجبال صاعدة صعودا عموديا وضفة النهر ضيقة ومبثوثة فى أرجائها الحجارة الساقطة من عل . وكانت توجد قطعة من الأرض منفصلة من الشاطىء ومرتفعة ارتفاعا تدريجيا بحيث تتكون منها شبه جزيرة أقيم عليها عدة زرائب . ويؤخذ من المعلومات التى استقاها جيسى من أحد أهالى هذه النواحى ان عدد الوفيات فيها كان كبيرا جدا بين رعايا كباريجا .

وكان أولئك القوم ملزمين أن يقتصروا فى تغذيتهم على الاسماك محرومين من الموز ليس لديهم من الانعام إلا القليل التافه متكدسين على بعضهم ألوفا فوق لسان ضيق من الارض فلا عجب إذن ان تنتابهم جميع الأمراض وتفتك بهم .

واستمرت الحملة فى سيرها نحو الجنوب وفى الساعة ٣ مساء اظلم الجو وغامت السماء فى اتجاه الجنوب فاعتصمت الحامية بسفح تل متوقعة هبوب الزعازع ونزول المطر مدرارا ولحسن الطالع أخذت الرياح وجهة اخرى وكفى الله الحملة شرها هذه المرة .

واعتصم اهالى قرية مجاورة بالجبال واخذ غيرهم وكانوا مسلحين يرمقون الحملة عن بعد ولما رأوا انها لا تعيرهم التفاتا اقدموا على المجىء لغاية الشاطىء

ولوحوا لها بالابتعاد والانصراف وحلوا فى الوقت ذاته الحبل الذى كانت مربوطة به السفينة واخذوا يضاعفون حركاتهم ويهددون جيسى بالهجوم . وحاولوا فى آخر الأمر ان يقطعوا بحرابهم طرفا من الحبل ولما هددهم جيسى بقربينته عدلوا عن ذلك وانصرفوا وهم يكررون حركاتهم التي يريدون بها أن يحملوا الحملة على مبارحة المكان .

وفى ٢٣ مارس قضت الحملة عدة ساعات فى اصلاح أدوات السفينة ثم لما لاح ضوء الفجر عاودت المراكب الابحار بعد أن قضت الحملة ليلة مدلهمة قد أزعجها فيها طائفة كبيرة من افراس الماء فلم تترك لها فرصة للراحة . وكانت الجبال المحدقة بالناحية لا تدع أملا البتة فى الحصول على وقود . غير أنه كان فى حيز الامكان الحصول على هذا الوقود بعد مشقة وعناء من شاطىء البحيرة الجنوبى .

وقد عارضت تقدم الحملة ريح شديدة هبت من الجنوب فاضطرتها الى الوقوف فى الساعة الثانية بعد الظهر . وفى ٢٤ مارس قضت ليلتها قرب قرية لها فرضة صغيرة وقال الأهالى انها تجاه « فوكواش » Foquash وبالقرب من « فيجارو » Faigaro وانها غير بعيدة عن ماجونجو . فالتزمت الحملة أن ترجع أدراجها الى القرية التى قضت الليلة الماضية بالقرب منها نظرا لقيام زوبعة أخرى فى البحيرة حين فجأة .

وعاودت الحملة اجتياز البحيرة فى الساعة ٦ صباحا . غير أن ريحا صرصرا عاتية هبت من الجنوب الشرقى فاضطرتها الى طى أشرعتها . ولما كانت المراكب تمخر فى موج كالجبال وكانت الحالة منذرة بالخطر فقد آبت الى ملجئها المعتاد . واقترح جيسى على ترجمانه أن ينزل من المركب ويذهب ليعقد

استشارة مع رؤساء الناحية فقبل وبارح الحملة .

ولما لم يعد بعد ظن جيسى أنه صار فى عداد الغابرين رغماً عن أنه فى ذلك اليوم لم يظهر ديار من الأهالى . وزايل هذه الرسوة فى نفس المساء والقى المراسى فى محل آخر يبعد عن الاول مسافة ثلاثة أميال شمالا بدون ان يدنو مع ذلك من الشاطىء حيث كان جمع غفير من الأهالى آخذ فى الازدياد مسلحا ومهددا الحملة .

وعند الساعة ٣ مساء تغير مهب الريح من الجنوب الى الشرق وصار منظر البحيرة مع عظم سعتها وارتفاع الأمواج فيها وتلاطمها أشبه شيء بمنظر البحر عند ما تثور الزعازع . وكان الوقت قد أمسى ولم يعد هناك وقت كاف للوصول الى محل يعصم الحملة من الماء .

ونقل جيسى كل من كان بالمراكب فى مؤخرها لكى يخفف مقدمها على قدر الامكان . ولكن هذه المراكب الواهية كانت تمتلىء بالماء على الدوام ولم تعد بعد فائدة من مجهودات الرجال الذين كانوا يدأبون على العمل فى نزحها ولم ينقطع المطر فى صبيحة يوم ٢٥ مارس عن الهطل إلا عند الساعة الثالثة فابتلت ثياب جميع رجال الحملة وكان من العبث محاولة تغيير ملابسهم .

ولما كان الموضع الذى فقدت فيه الحملة ترجمانها عرضة لمهب الرياح وضفته مغطاة بالصخور قرر جيسى تركه . وسافرت الحملة عند الساعة الثانية واخذت تبحث عن مكان صالح لرسوها وكان الجو يهدد بالنوء والبرق يشق

أعنان السماء فيسطع نوره على صفحات الماء .

ووجدت الحملة فى نهاية الأمر عند الساعة ٨ مساء نقطة سهلة المدخل وضفتها رملية غير أنه فى الساعة ٢ عادت الأنواء وغيرت الريح التى كانت تعصف من جهة اليابسة اتجاهها فجأة وأخذت تهب من الشمال الغربى ولعبت الأمواج بالمراكب واستحال على الملاحين اقتلاع المراسى والاقلاع من النقطة الراسية بها .

ورفع جيسى شراعا فى المقدمة ليحول على قدر الاستطاعة دون دخول الامواج فى المركب واغراقها إلا أن مرساة السفينة « دوفيليه » لم يستطع تثبيتها فى موضع مع ان جميع سلاسلها كانت ملقاة بالماء وكانت كلما تمايلت على جانبيها انساقت صوب الضفة . وعند الساعة الثالثة والنصف شحطت وبمجرد ما هاجمتها أول موجة امتلأت بالماء وغابت رمتها فى جوف البحيرة ولم يبق ظاهرا منها غير جانب من مؤخرها . فقفز الرجال فى الماء إذ كانوا على قيد ٥ أو ٦ أمتار من البر . وطفقوا يجمعون المؤنة التى كانت بالسفينة وسقطت من على حافتها . وقد انتشلوا فيما بعد مؤونة أخرى غير انها كانت مبتلة بالماء . ولقد فقد كل شخص بعض ملابسه ومتاعه إلا أن أعظم الخسارة حاقت بلا مراء بالمسيو جيسى . والذى أحزنه اكثر حرمانه من بوصلته وساعته ومنظار الرصد « تلسكوب » وتألم كذلك أشد الألم من التلف الذى حصل للآلات العلمية . وشرعت أعضاء الحملة فى الحال فى تجفيف الملابس والآلات الخاصة بمعرفة ارتفاع الاماكن وعند الظهر أرسلت الشمس عليها أشعتها .

وكان أول شىء وضعه جيسى نصب عينيه فى غضون زمجرة العاصفة

انقاذ جميع لوازم السفر . فبعد أن كد وجد ساعتين تماما وفرغ المركب من الرمال التي كانت تجمعت فى باطنها رآها وهو يكاد يبكى من شدة الفرح تسبح على سطح الماء وتلاطم الامواج .

وصولها الى ماجونجو

وفى ٣٠ مارس وصلت الحملة الى ماجونجو واستحال عليها أن تعثر على محل للنزول فيه الى البر لأن الترع التى حفرها الأهالى كانت قريبة الغور كثيرا . فاجتهدت ان تذهب فى النهر صعدا إلا أنها لاقت من العوائق ما لاقته أولا . ولدى رجوعها الثلاثة الأميال التى كانت قد قطعتها عثرت على المرسى الذى نزل فيه سير صمويل بيكر غير أن شجيرات البردى قد طمرته . وإن هو إلا ان لاحت للأهالى الحملة حتى دقوا الطبول ونفخوا فى الأبواق علامة على الاستعداد للحرب وأخذوا يركضون الى الشاطىء وكان عددهم زهاء ال ٢٠٠٠ .

وذهب جيسى على متن المركب الصغيرة وسار حتى اقترب منهم وأخذ يشرح لهم الحالة ويقول انه لم يأت ليلحق بهم أى أذى وان ليس لهم ان يخافوا منه شيئا غير أنهم أعاروا كلماته أذنا صماء ولم يشاءوا أن يصدقوه وأخذوا يرشقون النبال وما كاد يرجع الى السفن حتى استدعوه وطلبوا منه النزول الى الشاطىء . وبينما هو عائد اليهم اذا بالحملة تتوسل اليه أن يرجع قائلين له ان الأهالى مصوبة اليه سهامهم . وكان بالفعل كثير منهم مختفين فى آجام المستنقعات وشرعوا يجعلونه هدفا لمقذوفاتهم ولو لم ينسحب فى الحال لكانت عاقبته غير محمودة .

ولما لم يكن لديه ما يجب عليه أن يقوم بعمله وكان يرغب فى أن يتريث الى ان يتمكن من الاتصال بواد الملك صمم على ان يواصل السير الى مساقط مورشيزون مؤملا ان يعثر على طريق مؤدية الى قرية يكون سكانها اكثر ألفة وان يجد ايضا وسيلة تمكنه من ارسال مكتوب الى واد الملك .

وفى أول أبريل توجه الى المساقط . وكانت شواطىء النهر على ارتفاع ٥٠ قدما مفروشة بالنباتات النضرة وبأسفلها اعشاب وشجيرات البردى . ومتوسط عمق الماء ٢٤ قدما وهو مشوب بالوحل وبه الشىء الكثير من حطام النباتات والفروع الناشفة وافراس البحر وهى حيوانات تأكد أنها مصدر خطر فى أثناء الليل . أما التيار فليس على حالة واحدة إذ كان يظهر للرائى فى بعض النقط انه راكد بينما فى البعض الآخر كانت سرعته تبلغ ميلين ونصف ميل فى الساعة . ولم تتمكن الحملة من الاقتراب بسبب ما أبداه الأهالى من العداوة والبغضاء وقد تعقبها مئات منهم ولم يدعوها تغيب لحظة عن ابصارهم . وتمكن جيسى بعد اللتيا والتى من التخلص منهم ولكنه عول على ان لا يتحرش بهم اذا وجد الى ذلك سبيلا .

وفى ٢ منه رأت الحملة على مد البصر المساقط . وقد كان منظرها عجيبا وهى من أبهج ما وقعت عليه الأعين . وكانت الجبال النضرة تكتنفها من جميع النواحى والماء يتدهور الى الحضيض من بين صخور بارزة ومنبثة على مرتفعات شامخة ويتصاعد من خلال الماء المزبد ضباب لونه أبيض ناصع كالثلج . كل ذلك ودوى الماء الذى يصم الآذان أذهل جيسى وقتا ما . وكانت توجد تجاه المساقط صخرتان ارتفاعها ٢٠ قدما وشكلها هرمى يخالهما

الرأى من صنع يد الانسان .

وفى اثناء ذلك طلب سكان القرى المجاورة ان يؤذن لهم بالدنو من الحملة وان يبيعوا لها ما تحتاج اليه . وبعد حوار طويل ارتدوا الى قراهم ورجعوا بدون سلاح علامة على جنوحهم للسلم ومعهم دقيق ودجاج . وتوصل جيسى الى ان يعلم منهم ان واد الملك كان فى انفينا وان الجنود زايلت مازندى وان عساكر كباريجا فى ضواحى ماجونجو . وسأل عما اذا كان فى الامكان ان يتحادث الى الشيخ فكان الجواب بالايجاب . وعلى مسافة ٢٧ ميلا تفرق مصب النهر من المساقط ولم يدر جيسى لماذا كانت الخرائط تجعل هذه المسافة اثنى عشر ميلا ونصف ميل فقط .

وفى ٣ أبريل عند الساعة ٧ صباحا قدم الشيخ فطلب منه جيسى رجلا ليوصل خطابا الى انفينا فى مقابل أجر يتقاضاه . فتقدم شخصان من الأهالى لتأدية هذه المهمة وسافرا فعلا . وقد قال فى هذا الخطاب لواد الملك انه حضر ومعه أدوات للمحطة وعليه أن يبعث بمن يلزم لتسلمها .

وفى عصر ذلك اليوم هطل المطر وكان الموضع الذى تحتله الحملة ضيقا جدا فقرر جيسى ان ينحدر قليلا . وأحضر له الأهالى ميرة فوق الكفاية . وفى ٥ أبريل بلغ جيسى خبر اياب الرجلين اللذين ذهبا الى انفينا .

وفى الساعة ١١ صباحا أخبره ترجمانان من قبل واد الملك ان رئيسهما على وشك ان يطلق الحرب على اتباع كباريجا فى شبه الجزيرة التى سبق ذكرها . وزادا على ذلك بأن قالا ان هذا الرئيس سيكون عند مدخل النهر بعد يومين .

وفى الغد استعد جيسى لمقابلة وادى الملك . والآن نترك هذا الاخير سائرا فى طريقه الى ماجونجو ونذكر بعض تفصيلات ننقلها عن جيسى بشأن بلد واد الملك وسكانه وحاصلاته وها هى :

يؤكد جيسى ان من ربر الى ٢٠ ميلا فوق دوفيليه لا توجد منطقة أحسن من هذه المنطقة لغاية ماجونجو وانه لا يقصد بكلامه هذا المناطق الواقعة فى داخلية البلاد لأنه لم يرها بل يريد الاراضى التى يقطعها النهر . ففى هذه الأراضى لا يرى الانسان جبال لادو و دوفيليه الجدباء ذات النبات الضئيل القليل ولا الزرائب الحقيرة المأهولة بالسكان الكسالى الذين يكاد يقتلهم الجوع . وقد رأى جيسى فى هذه المنطقة شعبا لديه استعداد كبير لقبول المدنية . ولما كان الأهالى متعودين احترام سيطرة الرؤساء فقد كانوا يطيعون الأوامر ويؤدون الرسوم المفروضة عليهم سواء أكانت عينا أم عيدا . وأخذ منظر قراهم بجامع لب جيسى فاستشف من وراء ذلك انهم يسيرون امورهم فى طرق منظمة . ويعيشون كذلك عيشة داخلية هنيئة . فلديهم الادوات الخشبية والاوانى للمطابخ . وهم يدبغون الجلود ويصنعون الاحبال ويغزلون الشباك لصيد الاسماك باتقان واحكام ويخيطون الجلود أحسن مما يخيطونها فى روسيا وتركيا . وتتألف ثياب الأهالى من جلد واحد أو جلدين من جلود الوعل أو الماعز .

وأما المحصولات فأنواعها وكمياتها اكثر مما هو فى وادى دوفيليه . وتوجد الذرة البيضاء والبطاطس والفاصوليا بمقادير وافرة . وزراعة الدخان منتشرة ونوعه من أجود ما يزرع فى السودان . وتعادل أحجام الثيران ضعف ما يوجد منها فى « كري » و « لادو » . وعدد المعز فى تلك المنطقة يجاوز الحد المعتاد فى الجهات الاخرى .

وقد رجع واد الملك من الجزيرة التى احتجب فيها اعداؤه بعد ان قتل منهم ٤٠٠ نسمة فى ميدان الحرب وغنم ٧٠٠ رأس من المعز . وركب جيسى الباخرة الصغيرة وذهب لمقابلته وأخبره عن ازماعه السفر فى ١١ أبريل . وسافر فى الواقع للقيام برحلة إلى البرت نيانزا يوم الاثنين التالى .

وفى ١٢ أبريل سارت الحملة سيرا بطيئا لهدوء الريح غير ان النسيم اشتد فيما بعد واستقوى حتى انقلب إعصارا هائلا . وعثر جيسى على جزيرة أمل ان يعتصم فيها من العاصفة إلا أنه رأى ان قوم كباريجا الذين فروا من ماجونجو ونجوا من مطاردة واد الملك التجئوا اليها واحتلوها . وبدت من هؤلاء العداوة والبغضاء نحو الحملة وهددوها بالهجوم اذا لم تبادر بالانسحاب . ولم يبال جيسى بتهديدهم ووعيدهم وعددهم وأطلق عيارين ناريين وألقى المراسى ونزل هو ومن معه الى البر وهكذا انقضت تلك الليلة بعواصفها وهم فى راحة تامة .

وأخذ الأهالى يقتربون تدريجيا فأعلمهم جيسى أن من واجباتهم أن يعودوا بهدوء وسكينة الى مساكنهم ويبعثوا بوفد منهم الى انفينا ليقدم الطاعة والخضوع . فانصرف القوم في اليوم نفسه . وعلم فيما بعد ان ٢٠ منهم ذهبوا فعلا الى انفينا .

وأبى جيسى قبول ثورين كانوا يبتغون تقديمها له على سبيل الهدية فوعدوه عندئذ أن يعودوا اليه بعد يومين بمقدار من سن الفيل . فأشار عليهم بأن يقدموه الى واد الملك . والجزر الآنفة الذكر على مسافة ٧ أميال فقط من ماجونجو .

وفى ١٣ أبريل بارح جيسى هـــذه الجزر عند الساعة السادسة والنصف صباحا . وكانت الريح هادئة ولكن ماء البحيرة كان مضطربا هائجا عقب الزوبعة التى ثارت بالأمس . ومرت الحملة أمام أرض منخفضة قد فرش جانب منها بالعوسج وكان النزول اليها سهلا . ولاحت لجيسى قرية كبيرة بها عدد هائل من الثيران وغيرها من الانعام . وعلى قيد ٦ أميال داخل اليابسة كشفت الحملة جبال « بيسو » Bisso الواصلة إلى البحيرة ومتوسط ارتفاعها يبلغ زهاء ١٠٠٠ قدم .

وفى الساعة ٢ اعتصمت الحملة من زوبعة هبت بجانب جزيرة سابحة . وكان يوجد على جزيرة صغيرة نحو ٣٠ كوخا تركها أربابها قبل بضع دقائق بمجرد اقترابها منهم . وعثر النوتية على بعض الدجاج وقطع من الاحبال . وبعد ساعتين عاد الأهالى وأخذوا يقتربون شيئا فشيئا ويصيحون : انفينا !! انفينا !! فقدم لهم جيسى هدية من الخرز عوضا عن الدجاجات التى أكلتها الحملة وأرجع اليهم الأحبال وقال لهم انه ليس هنالك من داع للهرب عند اقتراب سفن الحكومة . وعادوا فعلا الى أماكنهم وصرحوا بأنه لم يعد لهم بعد علاقة بكباريجا ويعترفون لانفينا بالسيطرة عليهم . وكان المطر سجالا والحالة الجوية سيئة إلا أن الحملة قطعت ٦ أميال .

وفى ١٤ منه أيقظ جيسى النوتية عند الساعة ٢ وكان ذلك عند بزوغ القمر تماما إذ أنه كان يبتغى أن يمر بالنقطة المعادية التابعة لكباريجا بدون أن يشعر به أحد ويذهب لمعاينة المساقط التى رسمت على خريطة سير صمويل بيكر .

وساءت حالة الجو وأخذ قصف الرعد ولمعان البرق يشيعان الحملة أثناء مسيرها الذى استمر طول اليوم وقطعت فى غضونه ٣٢ ميلا وعبرت

ممتلكات كباريجا إلا ان جيوشه توارت واختفت عند ما اقتربت منها الحملة . وكانت الرياح تهب طـــول النهار . وكانت الجبال التى يتكون منها الشاطىء شامخة ووعرة المنحدرات تكسوها نباتات ضئيلة والماء عميقا . وشاهد جيسى حول الشواطىء تقريبا سيلا ينحدر من الجبال من ارتفاع ٣٥٠ قدما فكان أشبه شىء بالشلال . وقال له الأهالى ان هـذا الماء لا ينضب قط ولم يستطع أن يتسلق المنحدر لوعورته .

وألقت الحملة مساء يوم ١٤ أبريل عصا التسيار قرب هذا الشلال . وهـو موضع رأت أنه أكثر صلاحية لذلك من غيره . وفى الواقع كانت الجبال التى تكتنفه تقيه شر رياح الجنـــوب الشديدة التى هبت طيلة الليـل . وفى ١٥ منه بزغت الشمس ووضح ضـوء النهار والريح مستمرة الهبوب بشدة . وحاول جيسى ورجاله جر الباخـــرة الى الشاطىء لتكون فى مأمن اذا زادت حالة الجو سوءا إلا أنه رغما عما بذلوه من الجهد لم يتوصلوا الى مطلوبهم وذهبت مساعيهم ادراج الرياح .

وسفن الحمـــلة وان كانت فى غاية من الجودة إلا انها لم تكن معـدة لمثل هـــذه الرحلة إذ انه كان يجب ان تكون مسقوفة . نعم ان الامـــواج فى هذه الجهـة لايبلغ ارتفاعها الارتفاع الذى تبلغه أمـواج البحر المتوسط ولكنها تتلاحق بسرعة هائلة فتدخل السفن . وكانت الرجال دواما مبتلة ان لم يكن بسبب الامـــواج التى تتكسر على المراكب فمن الامطار المنهمرة الدائمة . فـــلو كانت السفن مسقوفـة وأحسنت قيادتها لتيسر عبور البحيرة والسير فيها فى جميع الاتجاهات . والدناقلة قوم مهرة وحذاق للغاية فى السفر على النيل غير انهم ليس لهم الملم أو أية دراية بالبحيرة

ويتلمسون دواما متابعة الابحار بجوار الشاطىء .

وفى عصر هذا اليوم « ١٥ أبريل » احتجب وجه السماء وراء الغيوم وأخذت تهب ريح شمالية غربية واستحال سحب المراكب . فترك جيسى الجنود على اليابسة ونوتيا كان يقول إنه يداخله شىء من الخوف . وألقى مراسى السفن وأخذ يرتقب اعتدال الجو . ولحسن الطالع برزت الغزالة من خدرها بعد زمن يسير فعاد جيسى الى قرب الضفة وأخذ يحاول مرة أخرى سحب المراكب بالأحبال .

ووصلت الحملة الى مسافة ثلاثة أميال ونصف ميل من الشلال السابق ذكره فوجدت شلالا آخر يقل عنه كثيرا فى الاهمية . ووجدت بقرب هذا الشلال قرية . وإن هى إلا أن وصلت اليها حتى هبت أهاليها من مساكنهم ليروها . وقد زودوا جيسى بكل المعلومات التى طلبها منهم . فأكدوا له أنه يوجد نهر كبير آت من نواح بعيدة من جهة أوغندة يسمى « التيزا » Eltisa وبه ثلاثة مساقط : الأول وهو الذى مر به جيسى ويسمى « هويوما » Hoyoma والثانى « وانبابيا » Wanbabia والثالث « نانزا » Nanza ، وماء الثلاثة لا ينقص على مدى طول أيام السنة .

وكان الأهالى يعرفون ان هذا النهر يمر من أسفل جبل « انموكا » Anmoka لأنهم سافروا عدة مرات فى داخلية أوغندة لينقلوا عاجا برسم كباريجا غير أنهم لم يتابعوا السير لغاية منبع النهر . وكان يود جيسى أن يرى هذا المجرى الذى وصفوه له بانه يبلغ فى عرضه وعمقه مبلغا كبيرا . إلا أن الجبل الذى كانت الحالة تدعو الى تسلقه صخرى وواقف وقوفا رأسيا كأنه حائط وكان لا بد من القيام بعمل دورة كبيرة ليجد

له ممرا مطروقا .

وفى ١٦ أبريل انتهز جيسى هـــدوء الريح ليعاود السير عنـد الساعة ٤ صباحا ورأت الحمـــلة المسقط الثالث عند الساعة السادسة وهـــو يشبه تماما المسقط الثانى . وتصب هـــذه المساقط الثلاثة فى البحيرة من الماء مقـدارا وافرا جـــدا . وتنحدر هذه المياه من ارتفاع يتراوح بين ال ٥٠٠ و ٦٠٠ قدم . وكان ماء البحيرة كثير الاضطراب . والظاهر إن اعصارا هب فى ناحية ما أثناء الليل .

وتقـدمت الحمـــلة فى ذلك اليـوم فى سيرها بواسطة المجاديف ولم تعـثر حتى الساعة الثانيـــة صباحا على موضع تلقى فيـه مراسي المراكـب . وكانت السماء متلبـــدة بالغيوم والبرق يشق بين آونة وأخرى عبـاب الجـو فينير وجه البسيطة الى مد البصر . وحاول جيسى ان يدرك رأسا بارزا فى البحـــيرة على شكل مقـــدم سفينة أبصر به وقت الغروب . وكان منظر ضفـــاف البحـــيرة كأنه اكمـات مستـديرة غطيت بالحشائش والآجام وغطست فى الماء عموديا .

وعلى مقـــربة من الشاطىء كان الماء كدرا بسبب ما يجلبه التيـار من الطين الأصفر . وفى هذا الموضع تكثر الاسماك كثرة ما عليها من مزيد . وكان رجال الحملة يرونها تثب فوق سطح الماء على الدوام فى كل صوب هربا من مطاردة التماسيح التى يوجد منها عدد وافر من ذوات الاحجام الهائلة فى هذه المنطقة . أما افراس البحر فيندر وجودها فيها .

وعاد الجـــو ينـذر بتدفق الامطار غير ان جيسى عرف كيف يستفيد

من شدة الريح فكانت المراكب تسير بانتظام بسرعة ٦ أميال فى الساعة وفى مدة ٤ ساعات وصلت الحملة الى فرضة صغيرة لكنها ملائمة جدا عرضها ٧٥٠ قدما وعمقها ٨٠٠ قدم غير معرضة للرياح فسماها جيسى « فرضة شبرا » Port de Shoubra وهذه الدائرة واقعة حسب تقدير جيسى فى وسط البحيرة تقريبا وفى الامكان بحسب رأيه استخدامها كمأوى للمراكب ومحطة للوقود .

وكان جيسى قد قطع الى هذه المسافة ٥٢ ميلا . وأحدث ذلك فى نفوس النوتية أثرا عظيما إذ أنهم كانوا موقنين ان العاصفة لو باغتت سفنهم وهم على مقربة من الشاطىء لما نجت من الغرق مطلقا . وسر أيضا جيسى لحدوث هذا الأثر . وبلغ الاعصار النهاية العظمى فى الشدة وقاوم المركبان « دوفيليه » و « ماجونجو » هجماته مقاومة جديرة بالاعجاب . وأذن جيسى للملاحين والجند بالاستراحة فى اليوم التالى مكافأة لهم على المشاق التى لاقوها فى الليلة الماضية .

وفى ١٧ أبريل لما صادفت الحملة فى اليوم السابق ضفة موافقة خرج جميع افرادها ليجففوا ملابسهم ونزح الملاحون الماء الذى أغار على السفن ودخل جوفها ورمموا الأشرعة والاحبال وهكذا انقضى ذلك اليوم كله .

وفى ١٨ منه كان الهواء يعصف بشدة من الجهة الجنوبية الشرقية . وانطلقت الحملة فى السير عند الساعة ٦ صباحا . غير ان ماء البحيرة كان هائجا لدرجة اضطر جيسي معها ان ينقلب الى النقطة التى سافر منها .

وعاودت الحمله المسير عند الساعة ٩ نظرا لهبوط هبوب الرياح وتمشت بمحاذاة

جبال ذات منحدرات وعرة نازلة الى البحيرة وبعد أن جابت زهـاء ال ٢٠ ميلا وقـع نظر جيسى على جزيرة كبيرة ممتـدة فى اتجاه الشاطىء فنشر البحـارة جميع الاشرعـة ابتغاء الوصول اليها فى أقرب وقت . ورأى جيسى على حين فجأة ان ماء البحيرة انقلب من رائق شفاف الى لون أبيض فتسلق سارية سفينـة ورأى لون الماء مشربا بالحمرة بالقرب من الضفاف المنخفضة التى كان بهـا اكداس جمة من شجيرات البردى . وهـذا مما يدل بلا ارتياب على ان الحملة كانت بالقرب من نهر . وفعـلا عند ما حـدق جيسى نظره فى الاتجاه الجنوبى الشرقى وقعت عينه على مصب اتساعه ٤٠٠٠ قدم تقريبا فأمر بالولوج فيه .

وبعد ان سافرت الحملة فى ذلك النهر ٦ اميال صعدا أفضت الى موضع به مسقط كبير ماؤه زاخر . والنهر يقف عند اسفل هذا المسقط . وللتمكن من فحص هذا فحصا أتم يمم جيسى قرية صغيرة قائمة على الضفـة اليسرى غير ان السكان امتنعـوا عن الاقـتراب من الحملة أو التحدث اليها . ولما رأى أن لا فائدة من محاولة ازالة ما علق بأذهانهم من الخوف أمر بالقاء مراسى السفن تجاه القرية إذ أنه ما كان يريد ان ينصرف بدون ان يبذل كل ما فى وسعه ابتغاء الوصول لمحادثة أولئك الاقوام .

وكان يأمل من وراء ربط السفن وعدم ابداء اية حركة ان يترك لهم وقتا لتبـديد مخاوفهم والرجوع عما بدا لهم فى برهـة مباغتة الحملة لقريتهم . وتناول جيسى قلمه وشرع يدون رحلتـه وإذا بالنوتيـة استدعوه وأروه فـرس بحـر كبير الحجم يسبح وهو يتجه الى الضفـة ورأسه بارز من الماء على قيد ١٠٠ قدم بعـد القرية . فصوب اليه طلقا ناريا اصابه

فى جهته وجـــره النوتيـة والجنـد الى البر . واقتحم اهـــالى القرية الخطر ودنوا مسافة تقرب من ١٠٠ خطوة من الحمـــلة وأخـذوا يرمقون الفريسة بعين الشراهة متمنين الحظوة بمقدار من لحمها . فأمر رجاله أن يعـودوا الى ركوب السفن ثم اقـترب من الاهـالى بمفـــرده وقدم لهم فرس البحر الذى اصطـاده . وان هو إلا أن أتى بهذا العمل حتى انطلقوا يشرحون تلك الجثـة الهائلة وفي لمحة عين أضحت قطعـا وتوارت . وفاز جيسى بالحصول منهم فى نظير ذلك على المعلومات الآتية :—

ان النهر الذى ينتهى عنـد المسقط يأتى من جهات قصية وتصطف على طـول جوانبه قرى عديدة مهمة . وان هـذا النهر ينضب ماؤه والمسقط يقف جريانه فى شطر من السنة ولكن فى فصل الامطار يـكون المـاء عميقـا وعكـرا وتبلغ سرعته فى الساعـة ٣ اميال . وان البـلد يسمى « كواندا » Quanda وخاضع لسلطان كباريجا .

وهب إعصار بلل أفـراد الحمـــلة بللا اخـترق الجـلد ووصل الى العظم رغم وجودهم داخل مضرب وفى نفس هذه اللحظة بصروا بجزيرة كبيرة سابحة مقبلة عليهم بشدة ولم تترك لهم من الزمن إلا الوقت الضرورى للتنحى عن طريقها . ولولا الحركة السريعة التى أجـــراها رجال الحملة لوجدت نفسها فجـــأة فى وسط حقـــل شاسع من شجـيرات البردى عرضـة للسحق أو الدفن بين أدغال الجـــزيرة المتحركة أو أدغال جزيرة اخرى اصطدمت بها الجزيرة الأولى .

وفى ١٩ أبريل تقدمت الحملة بمحاذاة امتـــداد شبه الجزيرة التى رأتها فى اليـــوم الماضى وهى عبـــارة عن حطام نباتى . وصرف جيسى مقـدارا

كبيرا من الوقت فى البحث عن ممر وفى نهاية الأمر وجد نفسه على ضفة النهر الأخرى . وكان الانسان أينما سار يجد الماء كدرا وراكدا وعمقه يزيد على ٣ أقدام . ولونه الترابى ناشىء من إثارة الامواج لقاعه المكون من الاوحال . وكان رجل من رجال الحملة يتسلق من حين لآخر سارية احدى السفن ويتطلع فلا يرى شيئا الى مد البصر اللهم إلا أعشابا وحشائش . وكان يرى على الشاطىء بجانب منه جبل لا يقل ارتفاعه عن ٤٠٠٠ قدم أطلق عليه جيسى اسم « جبل نوبار » . ويوجد فى طرف البحيرة سلسلة جبال على شكل نصف دائرة فاستنتج جيسى من ذلك ان البحيرة تنتهى فى هذه الجهة .

وأضاعت الحملة عدة ساعات فى سبيل البحث عن منفذ يوصل الى الضفة حتى يمكن الاتصال بالاهالى إلا ان الضفاف كان يتعذر الاقتراب منها فى هذا الموضع بسبب الحشائش وشجيرات البردى والخيزران الممتد على طولها بعرض ربع ميل . وفى نهاية الأمر بصرت الحملة زورق للصيد إلا أنه ما لبث أن توارى بسرعة البرق .

وجد جيسى فى أثر هذا الزورق متتبعا نفس الطريق الذى سلكه وبعد ساعتين نزلت الحملة إلا ان اهالى الناحية ما لبثوا ان أتوا مهطعين مهددين طالبين رجوع الحملة الى المراكب . وكان واد الملك زود جيسى برجل يفهم لغة هؤلاء القوم ليرافق الحملة غير انهم كانوا يجاوبون على كل سؤال أو طلب يوجه اليهم بقولهم : اليكم عنا !! انصرفوا !! نحن لا نقبلكم !! ولا يريدون ان يتحولوا قيد شعرة عن هذه الكلمات .

وفى اثناء ذلك أقبل الجنود الوطنيون يهرعون من كل الزرائب المحيطة

بالناحية غير ان ذلك كان فى وقت متأخر وصار من الضرورى للحملة البحث عن مأوى تعتصم فيه ليلا بعيدا عن متناول يد أولئك الفتاكين .

وفى ٢٠ أبريل بذل جيسى مجهودا آخر فركب مركبا واقترب منهم وهرع اليه عدد كبير من الأهالى فوعدهم بواسطة الترجمان بهدايا إذا هم دلوه على الطريق التى يجب عليه ان يسلكها . فأجابوه ان هذه الجهة هى نهاية البحيرة وأن التقدم الى ما وراء ذلك أمر محال .

ووجه اليهم هذا السؤال : وما هو غاية العمق فى هذا المكان ؟ فأجابوا بالاشارة : لغاية الركبة .

وكان من المستحيل الحصول منهم على معلومات اكثر من التى صار الحصول عليها فعقد جيسى النية على أن يستقى معلومات اخرى ليتأكد من صحة ما رووه .

ووصلوا بعد ذلك بساعتين الى قرية غير القرية التى سبق ذكرها . ولدى اقتراب الحملة فر أهلوها واختفوا ولم يعودوا للظهور إلا بعد أن وضعوا أدوات مساكنهم وأنعامهم فى أماكن منيعة .

وعقب أن أتموا عملهم هذا أخذوا يقتربون شيئا فشيئا الى ان وصلوا بجانب السفينة التى بها جيسى فمنحهم بعض التحف فهدأ ذلك روعهم وأصلح مزاجهم . وانتهز جيسى هذه الفرصة ليوجه الى شيخهم نفس الأسئلة التى وجهها الى القرية الاولى . وكان هذا الشيخ قدم بعد قدوم رجاله بساعة وهو رجل طاعن وفى العقيد السابع من عمره . واعطاه جيسى بعض اللعب التى تهدى

للأطفال وقضيبا من النحاس وأشياء أخرى تافهة القيمة . وكانت أجوبته منطبقة على تلك التى استقاها من القرية التى سبق ذكرها . ولما لم يعد لدى جيسى شيء آخر يجب عليه تأديته عاود السفر .

وساعده فى السير ريح خفيفة فمر فى الثلاثة المساقط الواحد تلو الآخر . ويوجد فى هذه البقعة جبل لا يقل ارتفاعه عن ٤٠٠٠ قدم فأطلق عليه جيسى اسم « جبل مدرج » Mont Modrog وجوانبه من كل ناحية تكاد تبلغ ١٥٠٠ قدم تكسوها الحشائش وسفوحها غاطسة عموديا فى البحيرة .

ولما لم يجد جيسى موضعا يلجأ اليه فى الليل وكان يسمع من مسافات دوى الرعد قرر الاستمرار فى السفر وظلت الريح هادئة والجو صحوا الى الساعة ٨ مساء . واشتدت الرياح عند الساعة ٩ تدريجيا الى أن بلغت غاية الشدة حتى أنه حار فى أمره ولم يدر كيف يوجه الأشرعة . وفى منتصف الليل انقلبت الى زوبعة قل أن يهب نظيرها فى البحيرة . وقد قال جيسى انه لم ير نفسه طول حياته واقعا فى خطر كهذا وهو على صفحات الماء .

وعند الساعة الثانية عشرة والنصف صباحا تغير اتجاه الهواء فبعد ما كان يهب من الغرب صار يعصف من الشمال الغربى واهتاجت البحيرة وثارت أمواجها واضطربت اضطرابا ينذر بالويل والثبور فولت الحملة الادبار أمام العاصفة مدة ١٢ ساعة متوالية . وعند الساعة الخامسة والنصف اشتد الهواء اشتدادا ليس بعده من مزيد وابتدأ يهب من الجنوب الشرقى . وفى وقت ما اشتد الذعر وتمكن الهلع من نفس الحملة حتى كانت تتخيل أن امواج اليم ستبتلعها . وطوى النوتية بعض الأشرعة وحاولوا الاقتراب من الشاطىء

فلم يفلحوا فى ذلك لأن حافة الجبل كانت نازلة فى الماء نزولا رأسيا والامواج تتكسر على الصخور بعنف وشدة .

وفى صباح اليوم التالى عند الساعة ٧ دار الهواء وأخذ يهب من الجنوب وصار فى حيز الاستطاعة توجيه مقدم السفن الى جهة الشمال . وفى الساعة ٥ مساء وصلت الحملة ازاء ماجونجو وفى الساعة ٨ دخلت النهر .

وصولها الى دوفيليه

وفى ٢١ أبريل كان جيسى قد قطع بحيرة البرت نيانزا . ولكى يتصور المرء السرعة التى قطع بها هذه البحيرة من اقصاها الى اقصاها يجب أن نذكر انه أقلع فى يوم ٢٠ صباحا وظل مسافرا حتى عشية اليوم التالى الى الساعة ٨ فقطع ١٣٥ ميلا وباضافة ٥٠ ميلا قطعها عبثا وبدون فائدة و ٢٠ أخرى قطعها فى النهر يكون المجموع ٢٠٥ أميال طواها فى ظرف ٣٥ ساعة .

ويبلغ مقاس أكبر عرض للبحيرة حسب تقدير جيسى ٦٠ ميلا . ويقول جيسى علاوة على ما ذكر انه ابتداء من فرضة شبرا الواقعة شرقا الى نهاية حدها الشمالى تتكون ضفافها من سلسلة جبال متصلة ببعضها وجروفها نازلة فى مياهها نزولا رأسيا . أما فى الضفة المقابلة فالجبال تمتد الى البقعة التى يصب فيها النهر الآتى من الجنوب فى وسط المضيق الذى فى البحيرة .

ويقول جيسى ايضا إنه لا يستطيع أن يصرح بشىء يتعلق بداخل الأرض لانه لم يكن فى حالة تمكنه مع الحرس الضئيل الذى كان يرافقه

والمؤلف من ١٢ جنـــديا أن يتوغل فى السير بين قبائل يضمرون العداوة والبغضاء ومن شيمهم الغدر ، ولو فعل ذلك لاضطر عندئذ أن يترك السفن بدون حرس ما .

وبذا قد توصل جيسى الى الغرض الرئيسى من ريادته .

وتأتى كمية الماء التى تصبها البرت نيانزا فى النيل من المساقط التى شاهدها جيسى وكذلك من مساقط مورشيزون القائمة على نيل فكتوريا . ويقول فوق ذلك ان كل من يعاين بحـــيرة البرت فى نفس الفصل الذى سافر هو فيه ويرى الطوفان الذى ينزل من السماء ٢٠ مرة فى النهار ويسقط كذلك أحيانا كثيرة فى الليل لا يعجب قط من غزارة البحيرة .

وحالما دخل جيسى فى البرت نيانزا بين منسوب ارتفاع الماء بعلامات خطها على صخرة ليتثبت من حقيقة الفيضان فى مدة فصل الامطار . واستنتج من بعض العلامات التى نزل عنها الماء فيما بعد ان المنسوب نقص عن المنسوب السابق بضع بوصات . وحين عودته وجد ان الماء لم يرتفع إلا بضعة خطوط .

ولما كانت ضفاف البحيرة كما سبق القـــول معظمها عموديا لم يصادف جيسى إلا القليل من الضياع ولكن المنطقة الواقعة وراء هذا القسم مأهولة كثيرا بالسكان ويشبه ساكنوها أهل أوغندة مشابهة تامة . ويقال ان العاج يوجد فيها بوفرة .

وتبين لجيسى ان المناخ مليح جدا رغمـــا عن الامطار ففى لادو و غندوكورو عانى كثيرا من وطـــأة الحمى . ولكنه وهو على البحيرة كان يتمتع هو والبحارة بصحة تامة رغما عن بقائهم يوميا مدة ١٦ ساعة مغمورين

بالماء . وفى ٢٢ أبريل نزل والنيل متجها الى دوفيليه . وليس ثمت اخبار بعد ذلك . وفى ٢٣ منه وصل الى دوفيليه .

ومما تقدم يتبين ان الجنود المصرية كانوا أول من ارتادوا هذه البحيرة وأن المراكب المصرية التى أقلتهم اليها كانت أول المراكب التى مخرتها كما أن العلم المصرى كان أول الاعلام الخافقة فوق هذه الجهة التى اغتصبتها من مصر بريطانية وحكومة الكونغو البلجيكية .

٢ — ملحق سنة ١٨٧٦ م

مأمورية الطبيب أمين افندى
فى أوغندة

من ٣ يونيه الى ٧ سبتمبر

سفر الطبيب امين افندى الى دوفيليه

استمر غوردون ممعنـــا فى سياسته التى ترمى الى تقـــوية مركز مصر فى أوغنـــده فكلف الطبيب أمين افندى بالذهاب اليها فى بعثة فأخـــذ طريقه يضرب فى الأرض ووجهته مملكة متيسا . وبدأ رحلته من لادو فى ٣ يونيه ومعه حرس من الجند وهدايا الى ملك تلك البلاد . وفى ٥ منه وصل الى بيدن .

وفى ١٥ منه وصل الى دوفيليه . ووصف أمـــين افندى هذه المحطة فقال انها صغيرة يحيط بها متراس من التراب وواقعـــة فى سهل مبثوثة فى أرجائه أشجار . ويوجـــد فى النهر على مسافة قليلة فوق المحطة منحنى ظاهر كثيرا ممتد فى الاتجـــاه الغربى . وكل القبائل التى تحيط بها مصافية للحكومة .

وصـــوله الى مرولى

وقام أمين افندى باستكشافات شتى حـــول دوفيليه ثم ولى وجهه شطر

الجنوب واستمر فى سياحته فوصل الى مرولى فى ٤ يوليه ويوجد بقرب هذه المحطة بقعة يحتلها ٥٠٠ رجل من اتباع متيسا . وطلب أمين افندى من هؤلاء أن يرخصوا له بالدخول فى أرضهم وقضى عدة ايام فى التفاوض معهم على غير جدوى .

وفى ١٠ يوليه صرحوا فى نهاية الأمر بأنه لا يمكنهم بدون أمر متيسا أن يسمحوا لأحد بالدخول فى أرضهم ولا بطلب حضور حمالين .

ولم يأبه أمين افندى لمعارضتهم البتة واستمر فى مسيره وبعد سفر ١٢ يوما وصل الى « روباجا » عاصمة متيسا سليما معافى رغم ما اعترضه من الموانع الأخرى .

ولدى وصفه لرحلة اليوم الأخير قال ان الجو كان رائقا وكانوا يسيرون فى طريق عرضه ٣ أمتار وعلى جانبيه أشجار الموز ثم هبطوا من جبل وعر المنحدرات مخترقين قطعا من الاراضى بها أصناف منوعة من النخيل والموز البرى وبعد ذلك أفضوا من درب ضيق مار بين الحشائش المرتفعة الى جدول ماء صاف وهذا أول ماء رائق صادفهم فى طريقهم من وقت مبارحتهم فويرا .

وبعد ذلك عبروا أرضا بها كثير من المستنقعات ثم صعدوا جبلا ولدى هبوطهم منه مروا بغابة من النخيل ثم فى وسط سلسلة من الروابى وأخيرا بلغوا فضاء مكشوفا . وهنا أمر أمين افندى الحملة بالوقوف للاستراحة . وبعد ان استراحوا نصف ساعة افتقدوا « مريما » Mrema فلم يجدوه . ومريما هذا هو الدليل المكلف بارشادهم . وكان السبب فى عدم وجوده انه تأخر فى

بعض الزرائب ليحتسى قدرا من « المريسة » . وأبى « كيتاكا » Kitakka دليل أمين افندى المسير مع الحملة محتجا بأن لديه أمرا بانتظار حضور مريعا المكلف بالسير على رأس الحملة . ورفض أمين افندى الانتظار أكثر من ذلك وأمسك بوصلتـــه « بيت الابرة » بيده وسار أمام الحمـــلة هو وستة من الجنود .

وتابعت الحمـــلة السفر فى الطريق الملكى مارة فى أرض متماوجة السطح وبعد ذلك بأويقات تسلقت تلا عاليـــا قابلها فوقه حرس تشريفى واقفا هنالك يرتقب قدومها وكان يرتدى رجال هـذا الحرس ثيابا بيضاء وبعضهم كان متسلحا بالبنادق والبعض الآخر بالسيوف وكان معهم رسولان من قبل متيسا مكلفان باستقبال الحملة بالترحاب وارشاد أمـــين افندى الى المحل الذى اعد لاقامته .

وانطلق الجميع يسيرون والموسيقا فى مقـــدمتهم وكلما تقدمـــوا فى السير ضخم الموكب الى أن وصلوا الى أرض مكشوفة قابلهم عليها ال ٢٠٠ جندى المصريون مصطفين لتقديم التحية العسكرية للحملة [١] . وكان هؤلاء الجنود قد قدموا لاحتلال « روباجا » عاصمة أوغنـدة بقيادة نور افندى محمد وكان لدى أمـــين افندى أمر بسحبهم . وكان قائد هذه الحامية غائبا عنـد قدوم الحمـــلة ووكيله محمد افندى ابراهـــيم ذهب ليشترى بعض المرافق . وألقى أمين افندى خطبة وجيزة شكر فيها الحامية ثم استمر فى طريقه

(١) — يلاحظ القارىء هنا أن جنود الجيش المصري النظامية كانت قد احتلت روباجا عاصمة أوغندة .

مصحوبا بضابط و ١٥ جنديا ليصل الى سكنه .

وفى الساعة ٤ قدم محمد افندى ابراهيم ووضع نفسه تحت أوامره وأتى بعد ذلك فى الحال وفد من قبل متيسا . وهذا الوفد مؤلف من وزيره ومن ثلة كبيرة من الوجهاء . وكان يحمل مكتوبا مخطوطا باللغه الانكليزية وفيه يصف أمين افندى بـ : « صديقى الغالى العزيز » . ويهنئه ويتمنى له طيب الاقامة . وسأل الموفدون عما عساه يطلبه . فطلب منهم أمين افندى منزلا أحسن من الذى أعد له وفى الحال وضع تحت تصرفه مسكن آخر أوسع من الأول وانتقل اليه . وقدم له من قبل متيسا عجلان وعنزة وكمية من الموز وقصب السكر على سبيل الهدية . وقدم هو الآخر لكل من الرئيسين قيصا أبيض ولثالثها صندوقين بها صابون ثم عادوا أدراجهم مغتبطين ووعدوا بأن يصلحوا كل الأمور . وفى المساء ورد الى أمين افندى جرتان من الماء وكمية من الوقود .

مقابلته لملك أوغندة

وفى ٢٨ اغسطس أعد كل شىء فى البكور للمقابلة . وأراد محمد افندى ابراهيم ان يذهب أمين افندى بدون انتظار دعوة فرفض . وفى أثناء ذلك أتى « مريما » Mremma مطالبا بهديته ومع انه لا يستحق شيئا من ذلك فقد منحه أمين افندى ثوبا « قفطانا » أبيض ففرح به . وفي هذه البرهة سمع طلقة مدفع فاستدل من هذا ان الملك بارح الحرم . وقدم في الحال بعد ذلك جندى وقال ان متيسا في انتظاره في قاعة الاستقبال ويرغب في حضوره .

وقام أمين افندى لتأدية هذه الزيارة يرافقه محمد افندى ابراهيم و ٢٠ جنديا وقدامهم الحمالون يحملون الهدايا . وكان الحرس مؤلفا من عدد كبير من الرجال وبأيديهم سيوف بمقابض جميلة من الفضة . وكان الموكب يزداد عددا كلما تقدم فى السير وبعد نصف ساعة وصل الى قصر الملك بعد ان عبر زرائب ومزارع من أشجار الموز . وقبل أن يصل الى الباب الخارجي بقليل رأى عمارة لم يتم بناؤها وهى عبارة عن جامع من الطوب الأحمر كان إرنست دى بلفون شرع فى تشييده بناء على أمر متيسا ثم تركه .

وقوبل الموكب بالتحية العسكرية لدى المرور من الأبواب وكان عددها ستة والساحات الواقعة بين كل باب وآخر طافحة بالجماهير . وعند الوصول الى الباب الأخير وقف الموكب برهة . ثم فتح الباب وظلت الجماهير خارجه وسار أمين افندى بين صفين من الجند يبلغ عددهم ٢٠٠ جندى مرتدين كساوى بيضاء ويرتدى ضباطهم كساوى حمراء أو زرقاء الى منزل له دهليز صغير متصل بقاعة رحبة كان متيسا جالسا بها فوق أريكة مرتفعة مغطاة بالبسط الفارسية .

ونهض متيسا عند دخول أمين افندى وتقدم لمقابلته لغاية منتصف القاعة وصافحه ثم رجع وجلس مكانه . وجلس أمين افندى امامه وقعد على الأرض كبار الموظفين من الجانبين . وإذ ذاك سلم أمين افندى للسكرتير الأول للملك خطاب غوردون باشا وثنى بشرح مقصده من هذه الزيارة باللغة العربية واهداء تحياته الى متيسا . وكان من بين كبار الموظفين الجالسين رجل لون بشرته أفتح من لون بشرة الآخرين قدم الى أمين

افندى باسم الشيخ احمد من أهالى زنزبار . وأدى هذا الشيخ وظيفة مترجم لأن متيسا رغما عن فهمه اللغة العربية كان يؤثر هذه الطريقة على الكلام المباشر . ويظهر أن كلام أمين افندى قد أعجبه بدليل أنه رفع يده مرات كثيرة ووضعها على قلبه وجبهته . وقدمت الهدايا وبعد بضع لحظات أمضياها فى تبادل الحديث استأذن أمين افندى وانصرف قائلا للملك انه دواما تحت أمره متى اقتضت إرادته واستحسن أن يستدعيه . واستعملت لدى انصرافه ذات المراسيم التى عملت عند قدومه ورافقه الوزير والشيخ احمد الى مسكنه وثلة من الجند بصفة حرس . وعند الوصول دعاهما لتناول القهوة فلبيا الدعوة وبعد ان قضيا معه أوقات قفلا راجعين .

وبعد رحيلها بزمن يسير أتى صبيان وقدم أحدهما وهو راكع دجاجتين ومقدارا من البيض من قبل متيسا والثانى قدم جرة مملوءة مريسة من قبل الوزير ففرح بها رجال أمين افندى .

وعند الساعة ٤ قدم سكرتير الملك يحمل مكتوبا منه باللغة الانكليزية لا يستطاع فهم معناه إلا بمشقة عظيمة وبه يخبر متيسا صديقه العزيز أمين افندى بأنه نصرانى ويود ان يرى قومه على هذا الدين . فكتب له أمين افندى واختصر على ان يقول انه لم يأت ليشتغل بمسائل تتعلق بالدين بل ليحمل الهدايا وانه فيما عدا ذلك يضع نفسه تحت تصرف الملك حتى لو رأى ضرورة سفره فى الحال بما انه هو نفسه على الدين الاسلامى . وعلى هذا انقلب السكرتير على عقبه راجعا بعد أن طلب وحصل على قطعة من الافيون .

وفى ظرف ال ٢٤ ساعة التى وليت ذلك ظلت الحالة فى الشك الذى

أثاره جواب متيسا الأخير وما استطاع أحد أن يبدى رأيا . على ان متيسا كان يعلم جيد ان أمينا الذى أراد ان يعامله كمسيحى قدم اليه بصفة سفير من قبل أمة اسلامية .

واثناء الليل هرب جندى بسلاحه وذخيرته لينضم الى متيسا ولما كان هذا رابع جندى اقترف مثل هذا العمل منذ قدمت البعثة إلى اوغندة أتى محمد افندى ابراهيم الى امين افندى وقال انه عول على الذهاب للمطالبة بأولئك الجنود فوافقه على ذلك وقال علاوة على ما ذكر انه سيعاضده فى مسعاه بكل ما أوتى من قوة . وكان متيسا لا يرسل أقواتا للعساكر ليشجعهم على الهرب وعند ما يطلب منه إرجاعهم يختلق شتى الأعذار ويبنى عليها رفض تسليمهم .

وارتد البكباشى محمد افندى ابراهيم على عقبه بدون أن يرى الملك والظاهر انه كان يصيد الفيران فى الحدائق الملكية إلا انه قابل الشيخ احمد فقال له مفسرا جواب متيسا بأنه ظن ان أمينا نصرانى وعلى ذلك رأى ان يرضيه بهذا الجواب . ثم زاد على ذلك بان قال وعلى كل فان جميع العرب متأهبة للسفر مع أمين افندى اذا أبى الملك ان يقدم الايضاحات اللازمة . وان هذه الايضاحات يجب أن يبديها فى اليوم التالى .

غير ان البواعث التى حملت أمين افندى على الجزع وانشغال البال تبدلت معالمها فى الأيام التالية عقب عدة جلسات مع متيسا انقضت فى غاية من الصفاء والود . وفى الحال نال امين افندى ثقة الملك التامة وانعاماته حتى انه عرض ان يكتب الى غوردون باشا ليستبقى امينا بصفة دائمة فى

أوغندة . ولاحت لأمين افندى فى الوقت نفسه الفرصة لاستخدام مهنته الطبية ليس بين رجال حملته الذين كان كثير منهم يعانى آلام الأمراض فحسب بل ايضا بين كبار حاشية الملك .

ولما كانت المحادثات التى دارت بين متيسا وأمين افندى بصدد المسائل الدينية قد أوجدت ريبا فى نفس الأول وأراد ان يتحقق مما اذا كان أمين مسلما حقا فكتب له ليستعلم منه عما اذا كان هو فى الواقع ونفس الأمر تركيا أو الرجل الأبيض الذى كان قد طلب من غوردون ان يبعث به اليه .

فأجابه أمين افندى بقوله : انك طلبت من غوردون باشا ان يرسل اليك موظفا ساميا ابيض بدون ان تذكر دينا ما . وان الباشا أرسلنى كما هو ثابت من الخطاب والهدايا التى حملتها اليك . فاذا كنت قد اقترفت زلة فى مأموريتى أو اذا كنت ارتكبت ما يسيئك فى اقوالى أو افعالى فما عليك إلا ان تشكو للباشا . واذا كنت ترغب الحصول على موظف مسيحى فما عليك إلا ان تطلبه وانه من المرجح أن يرسل اليك ذلك الموظف .

وفى ٣١ أغسطس تمكن أمين أفندى فى هذا التاريخ فقط من السفر بالرغم من مشيئة متيسا . ووقع اختياره على طريق فاتيكو ثم دوفيليه ثم لادو . غير أنه لما انتهى الى مرولى فى ٧ سبتمبر وجد بها غوردون باشا فبسط له ما تم فى مأموريته . وبعد أن سمع أقواله أخبره بأن طبيبا آخر سيصل قريبا من القاهرة وأنه لهذا سيضطر الى الاستغناء عن خدماته إلا أنه سوف يكلم بصدده البكباشى « براوت Prout » الذى سيخلفه فى حكمدارية مديريات خط الاستواء .

وفى اليوم التالى استدعاه غوردون وأخبره بأنه عينه أمينا لعموم مخازن المديرية حتى انه عند قدوم الحكمدار الجديد يجد ان التعيين قد أضحى فى حكم الأمر الواقع وكلفه أن ينتظره فى مرولى لغاية أوبته التى ستكون بعد زهاء ٨ أيام .

٣ — ملحق سنة ١٨٧٦ م

رحلة الطبيب جونكر
الى محطة ناصر (١)

من ٢٠ أغسطس الى ٣٠ سبتمبر

سفر جونكر الى فاشودة

قدم الطبيب جونكر Junker وهو روسى الجنس الى السودان ليقوم ببعض استكشافات . ووصل الى الخرطوم فى ٤ مايو سنة ١٨٧٦ بعد ان جاب السودان الشرقى . وكان ذلك بعد بضعة أيام من قدوم اسماعيل أيوب باشا حكمدار السودان العام الى هذه المدينة عائدا من « دارفور » التى كان قد تم فتحها وأقام فيها حوابن ليرتب إدارتها وينظم فيها الحاميات التى تلزمها من الوجهة الحربية .

وكانت الخرطوم إذ ذاك قائمة قاعدة فى إقامة الزينات ودق طبول الافراح ابتهاجا بهذا الحادث السعيد واستمر ذلك عدة أيام واشترك جونكر مع الحكمدار العام فى هذه الافراح وكان الحكمدار قد وصلت اليه وصايا على جونكر من مركز السلطة العام فى القاهرة فاستقبله بغاية

(١) — راجع كتاب « رحلات فى افريقية » للدكتور جونكر المجلد الأول ، الفصل الخامس .



الدكتور جونكر

البشاشة والايناس .

وفى ١٩ يونيه قام اسماعيل باشا الى القاهـــرة بناء على دعوة من الخديو ليبسط له شفويا تفصيلات ما حدث فى فتـــح دارفور ويحيطه علما بأحوال هذا البلد . وقام عبد الرازق بك مدير سنار باعباء حكمدار السودان العام فى مدة غيابه فى عاصمة القطر .

وكان جونكر عاقدا النية فى بادىء الأمر على أن يرتاد كردفان و دارفور . وبينما هو يتأهب لذلك اذا به قد تعرف بجيسى وكان هذا قادما من غندوكورو ليقيم فى الخرطوم بصفة وكيل لأميرالألاى غوردون حكمدار مديريات خط الاستواء العام .

وبعـــد اقامة بضعة أيام علم جونكر من جيسى ان باخرة آخذة فى التأهب للرحيل قريبا بميرة الى محطة سوباط التى أنشأها غوردون والرجوع منها بسن الفيـــل . وعرض عليه جيسى القيام بهـــذه الزيادة فقبل ذلك شاكرا لأن هذه الزيادة تمهـــد له سبيل السياحة فى النيل الأبيض والالمام به .

وفى ٢٠ أغسطس أقلع جونكر على ظهر الباخرة « الصافية » التى مخرت فى الحال تجر ٣ سفن بها جنود لمحطات الجنوب .

وبما ان ابتداء السفر كان من النيل الأزرق فقد انحدرت فيه السفن لتجتاز الرأس الفاصل بين النيلين وبذا تمكن من ان يمتع نظره بالمشهد العجيب الذى ينبسط أمام عينيه ويرى مياه الفرعين ذات اللون المختلف تنساب

جنبا لجنب الى بضع مئات من الامتار بدون ان تختلط .

وفى اليوم التالى لسفرهم صادفهم اعصار شديد جدا اضطرهم الى أن يلقوا المراسى ويوقفوا السير .

وفى اليوم الثالث وصلت السفن الى الدويم وهى بقعة كان فيها سوق ذات شأن تتردد عليها قبيلة البقارة التى كانت تمتد اراضيها من النيل الى داخليـــة مديرية « كردفان » وبعد ان أمضت فيها ساعات الليل أبحرت ثانية ميممة شطر « كوا » Kawa وهى ناحية على جانب من الاهمية ويطلق عليها كذلك « حلة الدناقلة » ولما لم يكن بعد ذلك نواحى هامة داومت الحمـــلة المسير ولم تقف إلا فى المحـــلات التى تتزود منها حطبا لتستعمله وقودا للباخرة .

ووصلت الحملة فى نهاية الأمر الى فاشودة وهى نقطة وسيطة على جانب عظيم من الاهمية ومركز لمدير . وكان بها حامية وتعتبر منفذا لمناطق النيـــل العليا ومنها يتزود جميع السياح الصاعدون والنازلون مع مجرى النيل ما يلزمهم من التجار اليونانيين المقيمين بها . وهى أيضا محطة اصلاحية ترسل اليها الحكومة المصرية المجـــرمين السياسيين والذين اجرموا ضد الهيئة الاجتماعية .

وعند ما نزل جونكر من الباخرة ذهب لزيارة المدير يوسف حسن بك الكردى فقابله هذا بالبشاشة والترحاب وكانت عمائر الحكومة قريبة من النهر . أما قرية الشلوك الواقعة فى فضاء شاسع فتبعد عن النيل مسافة كيلومتر واحـــد .

وصـــوله الى محطة سوباط

أقلعت السفن فى عشية نفس اليوم السابق وبعد ان سرت طول الليل أفضت فى بكور اليـــوم التالى الى محطة سوباط وهى الاولى فى مديريات خط الاستواء . وكان غوردون قد أنشأها قبل ذلك بعامين على ربوة حيث ينحدر منها فى الحال ماء الأمطار الى النهر . وقائد هـــذه المحطة ضابط سودانى يقال له سرور افندى بهجت اشترك فى حرب المكسيك سنة ١٨٦٣ م تحت اشراف المارشال بازين ونال فيها وساما وترقى فيما بعـــد الى رتبة قائمقام واشترك فى عدة معامع حربية ضد الدراويش وفى نهاية الأمر كان ضمن حامية الخرطوم وقتل مع من قتل فيها حين سقوط هذه المدينة فى يد المهديين سنة ١٨٨٥ م .

وأكد سرور افندى لجونكر ان الاقليم مناخه صحى ومما يثبت ذلك حالة الحامية المكونة من ٧٠ جنـــديا فانها فى غاية من الصحة والسلامة . وكان يوجـــد أيضا فى المنطقة مزارع من الذرة والدخن على جانب عظيم من النمو والجودة .

واتخذت السفن سبيلها فى اليم فى ذات اليـــوم ثم ألقت مراسيها على قيد ٥ كيلومترات من المحطة ابتغاء احتطاب الوقود للباخـــرة . وقابلت الحملة فى هذا المكان باخرة أخرى رست لنفس هذا الغرض وهى قادمة من « لادو » ووجد جونكر على متنها صديقه الرحالة لوكاس Lucas الذى كان قد سافر من بضعة أشهر مضت الى الجنوب . وكان قد رافق غوردون لغاية « ماجونجـــو » الواقعة على بحيرة البرت نيانزا ثم تركه

واتجه غوردون صوب الجنـــــوب قاصدا بلاد أونيورو وقفل الآخر راجعا الى لادو عن طريق دوفيليه لكي يعود منها الى الخرطوم على ظهر باخرة وكانت صحته وقتئذ فى حالة يرثى لها .

وعند ما آذنت الشمس بالمغيب أقلعت الباخرة « الصافيـــــة » وسارت ليـــــلا بين ضفاف مرتفعة واستولى على جونكر شيء من الأسف والحسرة لحرمانه من مشاهدة مناظر تلك الربوع فى وضح النهار وذلك لأنه كان يخيل له انها على جانب كبير من الفخامة والحسن .

وفى الغـــــد تغير وجه الأرض وأخذ البصر يقع على أراض بور شاسعة بها على مد البصر حشائش عاليـــــة بدلا من الادغال والغابات . وكانت السفن تصادف من حين الى آخر بعض قرى يسكنها قوم من « النوير » Nouers ومزارع من الذرة .

ووقفت الباخرة فى اثناء الطريق لتقطر سفينتين موسوقتين ذرة لتموين محطة ناصر . ثم وقفت بعد ذلك لدى الشيخ « عامول » Sheikh Amol وهو كبير قبيلة « الفلنج » Tribu des Falanjs وكان مرتديا حلة حمراء أهداها اليه غوردون وكان يتيه عجبا وهو لابسها .

ومع أن ربان الباخرة « الصافيـــــة » كان قد ذهب مرة الى ناصر مع أميرالألاى شاليه لونج بك إلا انه كان غير ملم تماما بالمسافات وكان يظن أنه يصل اليها قبل الظهر والحال انه لم يدركها إلا بعد الغروب بساعة . وكانت المحطة ترى على قيد بعض الابعاد حتى فى جنح الظلام لوجـــــود غيضة بها من شجر الدوم وهى واقعة على أحد منحنيات النهر الحادة . ومركزها يقل فى

الصلاحية عن موقع محطة سوباط وهى مؤلفة من نحـو ال ٣٠ كوخا يحيط بها سياج شائك مشتبك بنباتات متسلقة .

ويوجد فى الجهة الشرقية من المحطة جزيرة قائم عليها قرية يسكنها زنوج من قبيلة يقال لها قبيلة « النواق » Tribu des Nouaks . وقد ذهب جونكر الى هذه القرية وزار سكانها واهتم لحالتهم كثيرا لأنه وجـد نفسه لأول مرة أمام عالم يختلف اختلافا كليا عن العالم الذى وقع نظره عليه الى تلك الساعة . ورد اليه شيخ القبيلة فى اليوم ذاته الزيارة وقدم له جملة هدايا ضمنها بقرة بيضاء مليحة الهيئة . وبعـد ان قدم لزائريه شيئا من مشروب « الابسنت » انصرفوا يتحدثون بمحاسن هذا المشروب .

وأخبر قائد الموقع جونكر بأنه على مرحلة ٢٥ كيلو مترا فيما فوق ينقسم نهر سوباط الى أربعة افرع . وكان جونكر يود كثيرا أن يرى ذلك بعينه إلا أنه لما كانت مأمورية رئيس الباخـرة « الصافية » هى المجىء الى ناصر فقط لم يستطع ان يغريه بالذهاب الى تلك البقعة .

وفى ٤ سبتمبر قفلت المراكب راجعة . وفى ٧ منه وصلت الى فاشودة . وفى ١٣ منه وصلت الى الخرطوم ولم يحدث فى اثناء ذلك كله أى حادث يخل بنظام السفر .

٤ — ملحق سنة ١٨٧٦ م

رحلة الطبيب جونكر الى مديرية خط الاستواء [١]

القسم الاول

من ٢٣ أكتوبر إلى ٣١ ديسمبر

اتضح للطبيب جونكر بعد رجوعه الى الخرطوم ان الرحلة التي عقد النية على القيام بها فى نواحي دارفور لم تزل الى ذلك الوقت غير مستطاعة إذ أن تصريح الحكومة المصرية لم يصل بعد . واسماعيل باشا أيوب ما زال أيضا فى القاهرة . وفوق ذلك فانه كان فى شك كبير من سماح الحكومة المحلية له بالذهاب الى تلك الاصقاع حتى لو جاءه ذلك التصريح وذلك لاستحكام حلقات القحط فى دارفور حتى ان مكيال الذرة الذى يساوى ريالا واحدا فى الخرطوم كان يباع بثلاثين ريالا هناك . وجال فى خاطره علاوة على هذه الاعتبارات ان الضباط الامريكيين الذين رافقوا الحملة المصرية التي فتحت دارفور لا بد ان يكونوا ارتادوها فى ظروف موفقة كثيرا وبطريقة أفيد مما لو كان ارتادها هو نفسه نظرا لما لديهم من الاستعدادات والوسائل الكثيرة التي تزيد على ما فى حوزته . وعلى

(١) — راجع كتاب « رحلات فى افريقية » للدكتور جونكر المجلد الاول ، الفصل السادس .

ذلك لم يكن في استطاعته ان يجنى من وراء رحلته الثمار التى كان يأمل الحصول عليها .

ومن جهة اخرى قد بعثت رحلته الاخيرة التى قام بها حديثا فى اعالى النيل فى نفسه حب تلك الاقطار واخذ شوقه يزداد يوما فيوما للقيام برحلة اكثر امتدادا من الرحلة السالفة فى الاصقاع التى يسكنها الوثنيون .

وقرر لهذه الاعتبارات المتضاربة أن يعدل عن رحلة دارفور ويسافر الى لادو ابتغاء ارتياد مناطق مديرية خط الاستواء المتباينة وأعالى النيل . إلا أن مخاوفه من السياحة فى اراضى خاضعة لسيطرة غوردون كانت تفت فى عضده إذ أنه لو عومل بحسب التعريفة الرسمية الحديثة التى سنها ونشرها لنضبت ماليته بين عشية وضحاها .

وبما ان عددا كبيرا من السياح كان قد شخص الى مديرية خط الاستواء وحدث منهم فى الواقع وتفس الأمر ما أوجب استياء غوردون فقد بعث هذا بمذكرة رسمية الى سائر قناصل الدول بالخرطوم قال فيها ان على كل سائح يسافر من هذه المدينة ان يدفع غير أجرة السفر على الباخرة الرسوم الآتية عما يأخذه من المتاع حسب هذه التعريفة : ٢٠ شلنا عن كل بقرة ، و ١٠ شلنات عن الخروف ، ١٥ شلنا عن اردب الذرة ، و ٥ شلنات أجر الحمال الواحد فى اليوم .

وكان من المحظور بتاتا استصحاب رجال مسلحين بدون ترخيص من الخديو ويشترط على السائح ان يكون اثناء اقامته فى المديرية خاضعا لسلطة ضباط الحكومة .

وكان جيسى الذى عرض عليه الطبيب جونكر هذه الملاحظات ملما تمام الالمام بما انطوت عليه جوانح غوردون فطمأنه طمأنينة تامة ونزع من صدره جميع المخاوف من ناحية تلك الرسوم واشار عليه أن يأخذ معه بعض الحمير حتى لا يكون خاضعا لمطالب الحمالين وتحكماتهم .

ولما أتم جونكر فى نهاية الأمر مشترى لوازمه تأهب للاقلاع على ظهر الباخرة التى أعدت للابحار من الخرطوم بعد عيد الفطر وهى الباخرة « الاسماعيلية » . وكانت من احسن واسرع البواخر المعدة للسفر الى اعالى النيل .

وتحدد يوم ٢٢ اكتوبر للسفر . وفى اليوم المعين ذهب جونكر وامتطى متن الباخرة فوجدها غاصة بمن فيها من الركاب والسلع والانعام الصادرة لمختلف الجهات . وسافرت الباخرة على بركة الله .

وفى اليوم التالى دهش الركب وأى دهش إذ قابل الباخرة « تلحوين » آتية من ناحية الجنوب وعليها غوردون . وكان جونكر يأمل أن يراه فى « لادو » لأنه كان قد طالع فى جواب صدر منه أن فى نيته أن لا يبارح هذه المحطة إلا بعد ثلاثة أسابيع . وعلى كل حال كان لابد أن يراه لأنه ليس لديه أية رخصة رسمية اللهم إلا بعض توصيات من جيسى لقواد محطة « سوباط » و « شمبى » و « بور » .

وانتقل غوردون الى ظهر الباخرة « الاسماعيلية » ليفتشها وعند ما رأى جونكر سلم عليه وحياه وهش فى وجهه وبش . ودارت المحادثة طبعا حول الرحلة التى نوى جونكر القيام بها فى المديريات المعهود اليه

أعمالها . فسلمه خطابات توصية الى ضباطه وأكد له ان التسعيرة الرسمية ستعدل فيما يختص بعاملته ودعاه للذهاب معه الى الباخرة « تلحوين »
وفى اثناء الحديث عرض له جونكر بحالته المالية وعرفه بأنه اطاعة لمشورة جيسى أحضر معه ٢٥٠ ريالا وأودع فى الخرطوم ٥٠٠ جنيه انكليزى فأجابه غوردون حالما سمع منه هذا القول بأنه ليس هنالك من حاجة الى الدراهم ثم استرد منه الخطابات التى أعطاها له ومزقها وكلف سكرتيره أن يكتب الأمر الآتى :—

على كافة المديرين والمأمورين ورؤساء المحطات ان يزودوا حامله عند طلبه بالذرة والثيران والحمالين بدون مقابل أو أى أجر . وحرر له هذا للعمل بمقتضاه وعليهم فوق ذلك ان يحتموا على من يلزم تقديم الطاعة والامتثال .

حكمدار مديريات خط الاستواء العام
(الامضاء) غوردون

* * *

وتحدثنا بحكم الطبع عن المناطق التى يلزم ارتيادها فأشار عليه غوردون ان يذهب الى « مكراكا » مع القافلة التى ستشخص اليها عما قليل . لأن أوغندة والبلاد الواقعة فى الجنوب يعمهما الهرج والمرج وصادف ذلك استحسانا من نفس جونكر لأنه رأى ان هذا الرأى ينطبق على رأيه . وهكذا قضيا معا الهزيع الأول من الليل ثم انصرف جونكر ولما انبثق نور النهار عاد كل منهما فاتخذ وجهته التى يقصدها .

وفى ٢٩ اكتوبر وصل جونكر الى فاشودة فقابل الباخرة « الصافية » وعلى متنها ابراهيم افندى فوزى الذى تولى فيما بعد حكمدارية مديرية خط الاستواء ونال رتبة الباشوية وكان إذ ذاك مديرا لبور فاستدعاه غوردون الى الخرطوم . وكانت هذه هى المرة الأولى التى رأى فيها جونكر ابراهيم افندى فوزى وبعد ذلك كانت له به صلات كثيرة .

وصوله الى محطتى « سوباط » و « بور » .

وفى ٣٠ اكتوبر وصل الى محطة « سوباط » ووقفت فيها الباخرة أوقات لتمتار بالوقود وتبادل جونكر وقائد المحطة سرور افندى بهجت بعض الهدايا .

وبعد هذه المحطة دخلت الباخرة فى منطقة شجيرات البردى والسدود . ودعت الحال فى كثير من المواضع الى الجد والكد ابتغاء شق طريق فى السدود القائمة فى النهر .

وفى ٤ نوفمبر ألقت الباخرة مراسيها أمام شمبي وهى عبارة عن محطة أخرى تحت قيادة يوسف الشلالى [١] الذى كان يحترف قبلا النخاسة ويملك عددا كبيرا من الزرائب استولت عليه الحكومة فيما بعد .

واذا استثنينا المحطات العسكرية التى شيدها سير صموئيل بيكر وغوردون وجدنا ان كل الزرائب التى تملكها الحكومة كانت قبل ذلك للنخاسين على

(١) — نال فيما بعد رتبة الباشوية وتولى قيادة فرقة أرسلت لمحاربة المهدى عند بداية ثورته فأبيدت هذه الفرقة عن آخرها وقتل معها .

اختلافهم ثم استولت عليها الحكومة فى نظير عوض أخذه هؤلاء .

وفى ١٥ نوفمبر وصلت الباخـــرة الى محطة « بور » وهى المحطة التى تلى شمبي . وكانت بور فيما مضى زريبـــة للشيخ احمد العقاد . ونزل جونكر وزار المحطـــة والديوان وكان هـذا مكلسا وفى غاية من النظافة . وكان المدير متغيبا . وسمع على حين فجـــأة صوت بوق وبعض طلقات من أفواه البنادق . وكان ذلك من باب التحذير وقد ضوعف الحرس فى هـذه الليلة نظرا للعداوة والبغضاء التى يبديها أهالى تلك النواحى .

وانتهز وكيل المديرية فرصة وجود الباخرة وشحن بها ٥٠ جنـــديا فاجتـــازت بهم النهر وأنزلتهم بالضفة المقابلة ثم وجههم الى قـــرية مشاغبة لتأديبهـــا . وكانت هذه القرية قائمـــة فى وسط ادغال من الحشائش العاليـة . وبعد ذلك سمـــع بعض طلقات اعقبها رجوع العساكر بعد زمن قليل ومعهم بعض سلال مفعمة بحبوب الذرة . اما الاهـــالى فلاذوا بالفرار بمجرد أن وقعت ابصارهم على الجنـد . وبعد أن افرغت الباخرة ما بهـــا من الجند والغنائم عاودت الابحار وفى اليـوم التالى ١٧ نوفمبر وصلت الى لادو وذلك بعد ابحار ١٧ يوما .

وتوجـه جونكر فى اليوم نفسه الى أمـــين افندى وقـدم له خطابات التوصية التى زوده بهـــا غوردون . فرأى هذا فيه لأول وهلة رجـلا من رجـال الأدب وفطاحل العلم . وكان أمين افندى عائدا حديثا من مهمـــة سياسية كان كلفـه بها غوردون لدى متيسا ملك أوغندة . وكان غوردون ترك لأمـــين افندى تعليمات بأن يلحق به فى الخرطوم على ظهر الباخـرة الاسماعيلية ليعرض عليه نتيجة مأموريته . وعلى ذلك لم يكن لدى هذا الأخير

إلا أيام قلائل ليمضيها فى لادو مع جونكر .

وكانت هذه المحطة إذ ذاك غاصة بمن فيها من الناس . واضطر جونكو بسبب ازدحام المساكن أن يبقى على ظهر الباخرة لغاية سفر أمين افندى الذى وضع تحت مطلق تصرفه مسكنه مدة غيابه .

وضرب اليوم التالى موعداً لسفر الباخرة . وارسل أمين افندى متاعه اليها فى ساعة مبكرة وفى الوقت نفسه نقل حمالو الباريين الذين بعث بهم كوتاح افندى المدير الى دار أمين افندى لنقل متاع جونكر الى هذه الدار .

وقد أنشأ غوردون لادو سنة ١٨٧٤ لأن النهر انتقل من مجراه فصارت غندوكورو غير صالحة لرسو السفن طول فصول السنة وفضلا عن ذلك فانه نشأ بسبب هذا الانتقال تكوين مستنقعات امام محطة غندوكورو صيرت جوها فاسدا فانتشرت فيها الحميات واضحى من اللازم البحث عن بقعة اخرى لاقامة المحطة عليها .

وفى ٢٦ نوفمبر وصل الى « لادو » القسم الاول من القافلة آتيا من مكراكا وكان مؤلفا من بضع مئات من الرجال وبعد بضعة ايام وصل القسم الآخر أيضا . وتضطر ندورة الماء فى الطريق القوافل الكبيرة ان تتجزأ وتسير اقساما وتترك فترة من الأيام بين سفر قسم وآخر . ولما كان سياج المحطة ضيقا كثيرا لا يتسع لأيواء عدد كبير كهذا نزل رجال مكراكا على قيد ١٠ دقائق خارج المحطة .

وكان يرافق القافلة حرس من العساكر النوبيين غير النظاميين عدا

موظفى مديرية مكراكا . واقيمت الأفراح وسرت روح المسرة الى النفوس لأن كل هؤلاء لهم اصدقاء فى لادو . ويعرف الكثيرون من أهالى مكراكا اللغة العربية ويرجع السبب فى ذلك الى ان تجار الخرطوم أقاموا مذ سنين طويلة زرائب فى بلادهم لتجارة العاج والنخاسة .

ووصل مع القافلة بخيت افندى بتراكى مدير مديرية مكراكا وهو ضابط سودانى (١) . ودعا بخيت افندى جونكر الى مشاهدة حفلة رقص وسماع أغانى أهالى مديريته فدهش هذا مما رأى وسمع .

وفى ٣ ديسمبر وصلت الباخرة بردين الى لادو وعليها البريد . وتلقى جونكر به خطابا من قنصل دولته بالاسكندرية ينبئه بقبول الخديو سياحته فى دارفور إلا أنه يلزمه مع ذلك انتظار أوبة اسماعيل باشا أيوب الى الخرطوم . فقدم جونكر الحمد والشكر لله على قيامه من هذه المدينة قبل ورود هذا الخطاب .

وفى ٥ منه قدمت باخرة اخرى تقل شخصا من أتباعه والثلاثة الحمير التى كان تركها فى محطة سوباط لعدم وجود محل لها بالباخرة الاسماعيلية .

وحدث فى هذه المدة مشاغبة بين الأهالى فى غندوكورو أفضت الى معركة سالت فيها الدماء وقتل فى غضونها ١٧ جنديا فسافر كوتاح افندى

---

(١) — اشترك فى حرب المكسيك تحت إمرة المارشال بازين ونال وسام الشرف العسكرى وترقى فيما بعد الى رتبة أميرألاى وتولى قيادة برنجى آلاى سودانى فى الخرطوم اثناء حصار الدراويش لها وقتل عند ما استولوا عليها — انظر كتابنا : بطولة الاورطة السودانية فى حرب المكسيك .

مدير لادو ليخمد أنفاس الثورة ويرد الثائرين الى الصواب . وتمرد الأهالى أيضا فى موجى وهذه الناحية هى التى قتل فيها « إرنست دى بلفون » فى السنة الغابرة . وبارح كذلك بخيت افندى لادو مع قسم كبير من رجاله فى مكراكا ليوطد الأمن فى الجهات التى اختل فيها النظام .

وشرع جونكر يعد معدات حملته فى مكراكا واضعا نصب عينيه وصية غوردون له فاجتهد أن يخفض على قدر الاستطاعة متاعه لدرجة أنه اكتفى بـ ٤٠ حمالا .

وفى ٢٤ ديسمبر فوجىء بمفاجأة سر لها . ذلك أنه جاءته حزمة خطابات من « سان بترسبورغ » وأوراق وردت له مع الباخرة المنصورة من الخرطوم .

وقضى جونكر عيد الميلاد مع رفاقه فى هدوء وراحة بال .

وفى غد ٢٦ منه كان أول يوم من أيام عيد الاضحى فتوجه الى الصيدلى حسن افندى وزاره بمناسبة العيد وكان حسن افندى زاره قبل ذلك مرارا . وفى أثناء هذه الزيارة عاد بخيت افندى من رحلته فقدم له جونكر التهانى .

وفى ٢٨ منه رجع كوتاح افندى من رحلته . وأحضرت الحملتان كثيرا من الغنائم وأغلبها من الذرة والاسلحة وادوات الزينة وآلات من التى يستخدمها الباريون فأخذ القسم الأكبر منها جونكر وفرح به لأنه كان قد بذل جهدا كبيرا فى الحصول على شىء من ذلك فأخفق فى مسعاه ولم ينجح فى الحصول عليها مباشرة من الباريين .

وتتمة هذه الرحلة مدونة فى الملحق الأول للسنة التالية .



أميرالألاى براوت بك

حكمدارية أميرالالاى براوت

من سنة ١٨٧٦ الى سنة ١٨٧٧ م

عند ما سافر غوردون من الخرطوم عهد الى الكولونيل الأمريكى براوت Colonel Prout من اركان حرب الجيش المصرى العام بحكمدارية مديرية خط الاستواء فذهب اليها فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧٦ وقام بالمهمة التى ولى أمرها بهمة ونشاط عظيمين . فتوجه من « لادو » الى « فاتيكو » ومن هذه الى « مرولى » الواقعة على نيل فكتوريا ثم تقدم لغاية ماجونجو الواقعة على بحيرة البرت نيانزا وعين موقعها بالتدقيق إلا أن المرض اضطره للاياب الى « لادو » .

وفى مايو سنة ١٨٧٧ م تحرجت صحته فالتزم أن يسافر الى انكلترا ثم عاد بعد ذلك غير أن صحته ما كانت لتسمح له بالبقاء فاضطر أن يبارح المديرية نهائيا .

حكمدارية أميرالاألاى ابراهيم فوزى بك

من سنة ١٨٧٧ الى سنة ١٨٧٨ م

سفر ابراهيم فوزى بك الى لادو

عند ما استعفى أميرالألاى براوت لأسباب صحية من حكمدارية مديرية خط الاستواء عين غوردون بدلا منه فى هذه الوظيفة أميرالألاى ابراهيم فوزى بك . وكان فى ذلك الحين فى الخرطوم ولما وصل اليه أمر تعيينه أخذ يعد معدات السفر .

وأقلع على الباخرة « الاسماعيلية » من الخرطوم ووصل الى لادو وهى أهم مراكز تلك المديرية . ولدى وصوله حرر منشورا وبعث به الى كافة المراكز ليخبرها بتعيينه حكمدارا للمديرية وليبين لها الطرق اللازم اتخاذها لتوطيد دعائم الأمن فى سائر انحاء البلد واسعاد الأهالى وانجاحهم .

طوافه بالاقاليم وتفتيشه لها

ثم استحسن بعد ذلك أن لا يطيل إقامته فى لادو وأن يطوف بالأقاليم ليتحقق من حالة البلد وقاطنيها . وابتدأ يزور الجانب الجنوبى وأخذ يتنقل من بقعة الى أخرى واستغرقت رحلته زهاء ال ٤٠ يوما وبعد ذلك قفل راجعا الى لادو . وبعد أن مكث بها نحو ال ٢٥ يوما شخص الى الجانب الشمالى أى قسمى « بور » و « سوباط » على متن الباخرة



ابراهيم فـــوزى بك « باشا »

« الاسماعيلية » .

وهذا ما قاله ابراهيم فوزى بك « فيما بعد باشا » بعد طوافه بتلك البقاع ورجوعه الى لادو واننا نثبته هنا نقلا عن كتابه « السودان بين يدى غوردون وكتشنر » ج ١ ص ٤٠ وما بعدها ، قال :—

« وبعد عودتى من الرحلة التى لقيت فيها ادريس ابتر جاءنى سائح اسمه الدكتور ينكر « جونكر » يطلب منى أن أجمع له مائة شخص من الاهالى يحملون أثقاله مدة تجوله فى انحاء خط الاستواء . وكانت العادة المتبعة عندنا إذ ذاك أن نسمح بتمثيل ذلك لكل سائح على شرط أن يؤدى أجرة كل شخص ثلاثة غروش من العملة الصاغ عن كل يوم وأن يدفع لكل شخص أجرة ثلاثة شهور سلفا وأن يكون مكلفا بلوازمهم اليومية من الطعام . فعرضت عليه هذه الشروط فأكبرها وادعى ان لديه أوامر من غوردون باحتساب كل نفقات سياحته على جانب الحكومة . فطلبت منه الرقيم الصادر من غوردون فلم أجد عنده شيئا من ذلك . وأخيرا دفع أجرة شهر واحد لكل حمال من الذين جمعناهم له وتعهد بدفع الباقى عند عودته . وبعد ثلاثة شهور عاد من سياحته وامتنع عن دفع ما بقى فى ذمته من أجرة الحمالين . وبعد محاورات كثيرة دفع لهم أجرة الشهرين الباقيين ثم أخذ فى أهبة السفر ومعه شىء كثير من العاج فأخبرته باحتكار الحكومة هذا الصنف ومنعها الاتجار به وحمله الى الجهات الشمالية وأفهمته ما تقضى به الأوامر من ضبط ما معه وأخذه لجانب الحكومة فامتنع أولا ثم رضخ ثانيا . وكان كثير الألفة والتودد الى طبيب الحكومة الدكتور شنيتزر (Schnitzer) الذى سمى نفسه بعد باسم « محمد أمين » ثم صار حاكما على أقاليم خط الاستواء

باسم أمين باشا .

وفى غضون إقامة هذا السائح بخط الاستواء نقل الى كثير من تجار الأوروبيين هناك أنه مصمم على الوشاية بى عند غوردون وأنه لابد من أن وشايته ستفضى الى فصلى وأنه يرشح أمين افندى طبيب الحكومة لولاية الحكم على أقاليم خط الاستواء بعد فصلى .

على أننى لم أكترث بهذا القول وعددته من قبيل الهوس وخصوصا ما ذكر من أمر أمين افندى الطبيب لانى وسائر من معى من الموظفين نعتقد فيه فقدان الروية وعدم الحذق حتى فى صناعته التى انقطع لها ودرسها فكيف يكون شأنه إذا عين بوظيفة حاكم لأقاليم خط الاستواء ادارتها عسكرية ومدار عملها على الحركات العسكرية والمهارة الحربية ؟ ثم غادر الدكتور « ينكر » خط الاستواء على إحدى البواخر فكتبت الى الكولونيل غوردون اعلمه بكل ما وقع بينى وبين الدكتور المذكور وشرحت له ما علمته من أولئك التجار من نواياه ونوايا أمين افندى الطبيب . ولما وصلت الباخرة الى مكان يدعى « شبشه » يبعد عن الخرطوم بنحو مائة ميل أصابها خلل أوقف متابعة سيرها فخرج السائح منها واستأجر نوقا وصل على ظهورها الى الخرطوم وقابل والكولونيل غوردون والقى عليه ما شاء من الاكاذيب والوشايات فاحتدم غيظا جريا على عادته حيث كان من طباعه أن يصغى لكل واش سبق غيره بالشكوى اليه من غير أن يتحرى صدقه ويقف على كنه قصده .

وبعد بضعة أيام أصلح خلل الباخرة فاستأنفت سيرها الى الخرطوم وبعد وصولها ذهب صاحب البريد ليسلمه للكولونيل غوردون فامتنع من

استلامه وأصدر أمرا بفصلي من مديرية خط الاستواء وتعيين أمين افندى الطبيب وكيلا عني حتى تصدر أوامر أخرى . ثم غادرت خط الاستواء قاصدا الخرطوم حيث أصدر الكولونيل غوردون أمرا بتعيينه حاكما عاما على أقاليم خط الاستواء فوقع ذلك موقع الدهشة والاستغراب لدى الموظفين الذين لا يعرفون لهذا الرجل أهلية إدارية أو عسكرية تبوئه هذا المنصب الخطير وأيقن الكل بأن الدكتور ينكر هو الذى مهد له هذا السبيل وبوأه هذا المنصب .

ولا غرابة فى ذلك فان الدكتور شنيتزر قدر على اخفاء دينه وتسمى بمحمد أمين فليس ببعيد على منافق كهذا استمالة مثل الدكتور ينكر ما داما عالمين من الكولونيل غوردون الاصغاء لكل مبادر بالوشاية ولو كان ذا قصد سيء » . اه

ولا يخلو هذا الكلام من بعض الحقائق فقد ذكر الدكتور جونكر فى المجلد الأول من كتابه « رحلات فى افريقية » من عام ١٨٧٥ الى ١٨٨٦ م بصدد تعيين خلف لابراهيم فوزى بك ما يأتى :—

« سألنى غوردون عن افكارى فى هذا الشأن ومن الذى يمكننى أن أشير بتعيينه . فعرضت عليه الطبيب أمين افندى فعارض غوردون فى بادىء الأمر إلا أنه انتهى بالقبول وعين فعلا أمين افندى حكمدارا لمديريات خط الاستواء ومنح لقب بك » . اه

١ — ملحق سنة ١٨٧٧ م

رحلة الطبيب جونكر في مديرية خط الاستواء (١)

القسم الثانى

من أول يناير إلى ٣١ ديسمبر

سفر جونكر من « لادو » الى « نيامبارا » .

قدم أمين افندى من الخرطوم ووصل على غير موعد الى لادو فى ٢ يناير ففرح جونكر بذلك لأنه كان يأمل انه بوساطته لدى السلطة المصرية تذلل مصاعب كثيرة وتنجز الأمور بسرعة .

وفى ١٢ منه أتى الى جونكر موظف ليتناقش معه فى مسألة الحمالين فدعاه ذلك الى الأمل باقتراب موعد الرحيل الى « مكراكا » . وكان قد طلب ٤٥ حمالا فلم يجب طلبه فحسب بل وعد بخمسين . وتمم معدات السفر غير أنه رغما عن الأوامر التى أصدرها غوردون صادف بعض صعوبات فى مكتب مأمور المؤن والذخائر . وفى نهاية الأمر حصل على مؤونة

(١) — راجع كتاب « رحلات فى افريقية » المجلد الاول ، الفصل السابع والثامن والتاسع والثالث عشر .

شهر له ولرفاقه .

وفى ١٩ يناير أخبره أمين افندى ان القافلة ستسافر فى الغد ثم حدث بعد ذلك تأجيل آخر فلم تسافر إلا فى ٢٢ منه .

وقدم فضل الله افندى وهو رجل نوبى وقائد محطة من محطات « مكراكا » ومعه بعض الجنود والحمالين ليسلم الى هؤلاء الأحمال المكلفين بنقلها بعد أن وضع على كل حمل علامة لأن العادة المتبعة هو أن لا يغير أى حمال الحمل الذى تسلمه طول مدة السياحة . وقضى جونكر آخر ليلة مع أمين افندى ولم يفارقه إلا فى ساعة متأخرة .

وبعد إقامة شهرين ونصف شهر فى لادو سافر منها جونكر فى نهاية الأمر فى ٢٢ يناير سنة ١٨٧٧ فى الساعة ٧ صباحا ورافقه أمين افندى وأصدقاؤه الى باب المحطة ثم ودعوه بعد أن تمنوا له سفرا سعيدا .

وكانت القافلة مؤلفة من ١٢٠٠ نفس من مختلف القبائل ومن كل جنس وسن . وكان يوجد فيها عدا هؤلاء الموظفون وأسراتهم و ١٠٠ جندى غير نظامى بصفة حرس ثم عدد كبير من المواشى منها ما هو للركوب ومنها ما هو للذبح والتغذى بلحومها مدة السفر . وكان جميع هذا الخليط تحت قيادة بخيت بتراكى افندى مدير مكراكا الذى كان مركزه فى « واندى » Wandi . وفضل الله افندى مدير « كابايندى » Kabaiendi .

وكان النظام المتبع فى تسيير مثل هذه القافلة هو النظام المألوف منذ أجيال لدى أهالى تلك الاصقاع . فكل قسم يمشى مع رئيسه والعلم المصرى

يخفق فى مقدمته . وكان بخيت افندى يسير راكبا هـــو وأركان حربه فى المقـــدمة وتتكون منهم الطليعة . ويأتى على أثره مباشرة حمالو الحكومة الذين يحملون الأشياء الخاصة بمختلف محطات مديريته من بنادق وذخيرة وأطعمة ومنسوجات وغير ذلك من الأشياء المعدة لمبادلتها بالعـــاج . أما فضل الله افندى فكان يؤلف المؤخرة ومن واجباته أن لا يدع أحـــدا يتخلف . وكانت القافلة تقف فى الطريق للراحة كل ساعتين .

وبعـــد مبارحة لادو بزمن يسير غاب النهر عن الابصار بتوغل القافلة فى غابة من السنط واللبخ ومرورها على كثير من قـــرى الباريين المحاطة بسياجات شائكة ومزارع الذرة والتبـــغ . ويعتنى اهل هـــذه البقاع بزراعة التبغ اعتناء خاصا فيغطونه بأوراق العوسج لوقايته من شعاع الشمس .

ونزلت القافلة فى أول يوم قرب « خـور الرملة » الذى كان جافا فى تلك الآونة إلا أنه كان فى الامكان الحصول منه على ماء بعد حفر بعض أقدام فى مجراه . ويصير هـذا الخور فى فصل الامطار مسيلا عمقه متران ويصب فى النيل فيكون صالحا لملاحة المراكب الصغيرة .

وانطلقت القافلة فى السير فى اليـــوم التالى عند ما انبلج وجه الصباح ومرت على مجموعة من قرى الباريين فى ذلك النهار وكان قاطنوها يولون الأدبار فى كل مرة يقترب منها رجال القافلة ومع ان هـذه القرى كانت على وجه الاجمال يماثل بعضها بعضا إلا انه كان يوجد بون فى الاراضى التى تكتنفها بحسب حالة اصحابها رعاة أو مزارعين .

ووقتما حطت القافلة رحالها فى اليوم الثانى للاستراحة اخبر بخيت افندى جونكر ان البارين الساكنين غرب هذه البقعة ما زالوا غير خاضعين الخضوع التام وانهم كثيرا ما يناصبون الحكومة العداوة ويتحرشون بها وانهم ذبحوا منذ عامين قافلة مؤلفة من ٨٠ رجلا كانت تحمل عاجا من مكراكا الى لادو .

وأتى جملة مشايخ خاضعين لسيطرة الحكومة ومرتدين ثيابا حمراء طويلة كان منحهم اياها الحكمدار العام لتكون علامة يتميزون بها عن المشايخ الآخرين وقدموا واجب الاحترام الى بخيت افندى والموظفين الآخرين وقدموا للقافلة بعض أشياء أخذوا عوضا عنها بعض رؤوس من الماشية .

وكان عندئذ لا بد من الحصول على كمية الذرة اللازمة لتموين القافلة الى ان تصل الى اراضى « النيامبارا » [(١)] Niambaras وكانت الوسيلة الوحيدة المؤدية الى ذلك هى الاغارة على أراضى الباريين المشاغبين فأرسلت تجريدة لهذا الغرض وبعد أن أطلقت بعض العيارات فى الهواء لاذ سكان القرى المجاورة بالفرار وهكذا عادت التجريدة ومعها الذرة اللازمة .

وفى ٢٤ يناير دخلت القافلة فى أرض « النيامباريين » . وهى عبارة عن سهل رحب منظره على منوال واحد وليس به أشجار يتقى فى ظلالها ساعات الهجير . وفى ذلك اليوم حطت القافلة رحالها بجانب مسيل ليس به ماء . وصادفت فى اليوم التالى أول قرية من قرى « النيامباريين »

---

(١) — أسماها أمير الالاى شاليه لونج بك : « يبارى » .

وهى تشبه تماما قرى البارين . وبعد أن نصبت القافلة المضارب للنزول هب إعصار سبب لرجالها كثيرا من المتاعب .

وفى ٢٦ يناير مكثت الحملة مكانها طلبا للراحة وفى الغد شخصت مبكرة فى السفر ووصلت فى اليوم نفسه الى محطة « نيامبـــارا » وهى المحطة التى يرأسها عبد الله افندى المرافق للحملة . وكانت هذه المحطة قد انشئت من ١٨ شهرا فى منتصف الطريق بين « لادو » و « مكراكا » ، وكانت تستعملها القوافل التى تنقل العـــاج للاستراحة وتمتار منها الذرة والماشية وتجد فيها ايضا الأمن والطمأنينة من شر قبائل النيامبارا المعادين وذلك تحت كنف حاميتها المؤلفة من الجنود النوبيين غير النظاميين . وكان فريق كبير من هذه القبائل يأبى باصرار أن يدخل فى علاقة ما مع موظفى الحكومة رغما عما حصلوا عليه من المنح والهدايا الكثيرة .

ولما كانت الحامية قاست كثيرا من الاهوال من تلك القبائل فكان لا بد من القيام بعمل شديد حاسم لابقائها فى مركزها إذ بغير ذلك كان لا يمكن مطلقا تأمين طريق القوافل بين « لادو » و « مكراكا » . وعلم جونكر من بخيت افندى ان احمد الأطروش مدير « وانـــدى » قادم على رأس فرقة مؤلفة من ٢٠٠٠ جندى من مكراكا و ١٠٠ عسكرى نوبى بقصد توجيه بعض حملات ضد القبائل الأكثر عـــداء ابتغاء تموين المحطة . ولما كانت الحاجة ماسة للاسراع أرسل فضل الله افندى على جنـــاح السرعة فى ٢٩ يناير ومعه فرقة ليقوم بغزوة فذهب وآب فى نفس ذلك اليوم ومعه مقدار من الذرة أودعه فى مستودعات المحطة .

ووصل احمد الأطروش فى اليوم التالى وتقرر أن يقوم بحملة تأديبية ليغزو شيخا من المشايخ الثائرين على الحكومة وكان هذا الشيخ يهدد الطريق الجنوبية الموصلة الى لادو وسبق له أن قاوم ضابطا من معاونى يوسف الشلالى فى منطقة « رول » Rôl ونجح فى مقاومته .

وقامت الحملة فى أول فبراير ورجعت فى ٩ منه ومعها كمية كبيرة من الذرة و ١٠٠٠ رأس من الانعام فأخذ الحمالون ما خصهم من الذرة وأودع الباقى فى مخازن المحطة لتستقضى منه الحامية والقوافل التى تأتى بالمرور لوازمها ولتوزيعها أيضا على الأهالى الذين يقدمون الطاعة .

وفى ١١ منه بعد أن تقوت القافلة بانضام فرقة الاطروش اليها شرعت فى السير وكانت مؤلفة من ٣٠٠٠ نسمة . وبعد سفر خمسة ايام أفضت الى محطة « وندى » فى ١٦ فبراير . ووندي هذه هى عاصمة مديرية مكراكا .

ولدى وصول جونكر كانت هذه المديرية التى هى احدى مديريات خط الاستواء مقسمة الى ٥ مراكز وهى :—

(١) — وندى وهى مرتفعة ٢٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر وعاصمة المديرية ومحل اقامة المدير بخيت افندى الذى كان احمد الاطروش افندى تحت إمرته .

(٢) — مكراكا الصغرى وهى مرتفعة ٢٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ورئيسها احمد افندى وهو ذلك الرجل الافغانى الذى ذكره أميرالألاى شاليه لونج بك عند الكلام عن الحملة التي قام بها لضم مكراكا .

(٣) — مكراكا الكبرى أو « كابانـــدى » وهى مرتفعة ٢٧٥٠ قدما عن مستوى سطح البحر ورئيسها فضل الله افندى الذى توفى بعد ذلك بزمن يسير وحل محله ريحان افندى . وهذا ضابط سودانى ترقى فيما بعد الى رتبة بكباشى وهو الذى كان يقود ١ جى أورطة فى لادو حينما وصلت حملة استانلى الى خط الاستواء وتوفى قبل حملة الدراويش على المديرية .

(٤) — ريمو Rimo وهى مرتفعة ٢٨٢٠ قدما عن مستوى سطح البحر ورئيسها عبد الله افندى ابو زيد .

(٥) — مديرفى Mdirfi وهى مرتفعة ٣٠٠٠ قدم عن مستوى سطح البحر .

وكان فى كل محطة من تلك المحطات ٣٠ جنـــديا نظاميا مسلحون ببنادق « رمنجتون » ومن ٥٠ الى ٧٥ جنديا غير نظامى من الدناقلة كما انه كان يوجد فى كل محطة عـــدد مماثل لهـــذا من التراجمة مكلفون بتنفيذ أوامر الحـــكام والسهر على تحصيل الضرائب المفروضة على المحاصيل .

ولدى وصول جونكر الى واندى نزل على بخيت افندى الذى أكرم وفادته كل الاكرام . وبخيت افندى هذا هو من اهالى « دار النوبة » الواقعة جنوب كردفان وكان فيما سلف مستخدما عند « بتريك » Petherick قنصل انكلترا فى الخرطوم ثم اندمج فى ألاى سودانى وكان ضمن جند الاورطة السودانية التى حاربت فى بلاد المكسيك بقيادة المارشال بازين ونال من اجل ذلك الوسام العسكرى ثم ترقى فيما بعد الى رتبة أميرألاى وتولى قيادة ١ جى

ألاي سودانى فى الخرطوم عندما حاصر الدراويش هذه المدينة وقتل عند وقوعها فى قبضة ايديهم . وغوردون هو الذى عينه مديرا لمديرية مكراكا .

وكان فضل الله افندى و ريحان افندى من بلد بخيت افندى أى من مواليد « دار النوبة » وكانوا يسمون انفسهم بـ « الاخوان » . أما احمد الاطروش فكان تركى المحتد .

ويمكن وصف المنزل الذى وضع تحت تصرف جونكر بأنه منزل مزخرف بالقياس الى المسكن الذى نزل فيه فى لادو لاتساع ارجائه وطلاء حيطانه بالجص من الداخل والخارج واحتوائه على شبابيك فى سائر الاتجاهات ينفذ اليه منها النور والهواء بكثرة . وكان يورد له احمد الاطروش ماء فراتا للشرب وموزا وشماما وبيضا ولبنا وخضرا وحماما .

وصوله الى مكراكا الصغرى ومكراكا الكبرى

لم يشأ جونكر ان يطيل الاقامة فى وندى رغم هذا النعيم الذى كان يتمتع به أثناء وجوده بها وشخص فى ٢٢ فبراير الى مكراكا الصغرى الواقعة فيها محطة احمد افندى الافغانى فوصل اليها فى اليوم نفسه صحبة المذكور إذ ان هذا هو أيضا كان عائدا من وندى .

وكانت المحطة مقامة فى بقعة جميلة بالقرب من نهير فاستقبله احمد افندى بغاية البشاشة والايناس وأسكنه فى منزل حسن ودعاه الى وليمة تناول فيها أكلة لم يتمتع بمثلها من مدة مديدة .

وكان احمد افندى يعتنى ويهتم كثيرا بالزرع بدلالة شدة اعتنائه بروضته الغناء التى أوجد فيها الليمون والنارنج والبرتقال والبلح والشمام والتفاح والخيار وكل انواع الخضر .

وفى الغد يمم جونكر محطة مكراكا الكبرى أو كباينذى وكان رافقه فضل الله افندى رئيس المحطة الذى كان عائدا معه من لادو . فمروا طول نهارهم بقرى كثيرة ومزارع شاسعة من الذرة وفى المساء أفضوا الى المحطة المذكورة .

ولم تقع هذه المحطة من نفس جونكر لدى وصوله اليها موقع الاستحسان بالقياس الى المحطتين السابقتين وهذه المحطة قائمة على ربوة بجانب خور . ونزل بمنزل رحب يتخلله الهواء .

وعند ما انتشر خبر عودة فضل الله افندى قدم جميع المشايخ للسلام عليه وتقديم احتراماتهم له ولجونكر الذى زاره ايضا كبراء الدناقلة . وبذل فضل الله افندى كل ما فى وسعه لمرضاة جونكر . ولما كان جونكر ينوى القيام بزيادة فقد أحضر له دنقلاويا بصفة مرشد اسمه حسن كما أحضر له الحمالين الذين طلبهم .

وفى ٤ مارس شرع فى الرحيل ابتغاء القيام بجولان دائرى حول المحطة وفى غضون هذه الرحلة زار البقعة التى كانت مقامة عليها محطة فضل الله افندى القديمة وهى المحطة التى مر بها أميرالالاى شاليه لونج بك من مدة عامين . وزار أيضا زريبة ابراهيم جورجورو Gourgourou وأقام بها يومين لانحراف صحته ثم بعد ارتياده الضواحى عاد الى محطة فضل الله افندى التى

كان رحل منها بعد أن غاب عنها ١٦ يوما قطع فيها ١٦٠ كيلومترا .

وفى فترة غيابه سافرت قافلة من وندى الى لادو تحمل العاج تحت قيادة بخيت افندى وكان فضل الله افندى سيذهب فى إثرها قريبا على رأس قافلة أخـــــرى . وانتهز جونكر فرصة سفر هذه القافلة وأرسل معها مراسلاته الى الخرطوم وأوربا .

وكانت مديرية مكراكا قد أرسلت فى أول الأمر كميات وافرة من العاج أما الآن وقد قلت قطعان الفيلة للاكثار من صيدها فمعظم العاج الذى يرسل الى الخرطوم مصدره أرض نيام نيام .

ومع ان جونكر كان شيقا الى مواصلة السير من جـــديد إلا أنه قرر التربص الى حين قدوم الضابط المصرى المبعـــوث من قبل أميرالألاى براوت حـــكمدار مديرية خط الاستواء للقيام بجـــولة ابتغاء تفتيش مختلف المحطات وكان قد أشيع خبر وصول هـــذا المفتش الى وندى . ولايجاد شىء من التلهى كان يزور اليوزباشى محمد افندى الدكتور جونكر وكان يعطيه درسا فى اللغة العربية . وهذا اليوزباشى كان رجلا تركيا مسنا وظيفته قيادة العساكر النظامية .

ومر محمد ماهر افندى فى هذه الفترة على كابايندى ـ وهذا الافندى ترقى فيما بعد الى رتبة باشا وتعين وكيلا لنظارة الجهادية ـ ثم سافـــر ليقوم بتفتيش المحطات الأخرى . وعلى ذلك أعد جونكر معدات السفر ورحل فى ٨ أبريل . وكانت قافلته مؤلفة من خدمه و ١٠ من الحمالين فارتاد أراضى « بومبيه » Bombehs ، و « أباكا » Abakas ثم عاد فى ٢٨ أبريل بعد أن قطع ٢٥٠ كيلومترا .

وأطال جونكر هـــذه المرة مدة إقامته فى كبايندى . وفى أثناء الايام الأولى من إقامته زاره ريحان افندى واليوزباشى محمد افندى وسائر الموظفين وباقى المقيمين بالمحطة وهنئوه بسلامة الوصول .

وفى ١١ مايو ورد بريد تلقى فيه مكاتبات من برلين والخرطوم ومن أمين افندى من لادو . وكانت مثل هـذه المراسلات تبعث فى نفسه دواما بهجة وسرورا لانها تجعله فى اتصال مع العالم المتمدين .

وفى ٢٧ منـه سافر جونكر للقيام برحلة ثالثة دائرية ومر فى ٣٠ منـه عكرا كا الصغرى ونزل فيها ضيفا على احمد افندى ومع ان هذا كان غائبا فى لادو فلم يحل ذلك دون اكرام وفادته وتأدية جميع مطالبه نظرا لاتقان ترتيب منزله . وبعد أن أتم جولته آب الى كبايندى فى ١٣ يونيه وهو على غاية ما يرام من الصحة والعافية وقطع فى هذه الرحلة ١٥٠ كيلومترا .

ونزل جونكر عند عودته الى كبايندى فى منزله مرة أخرى . ومـــا أنه كان ينوى الذهاب الى وندى أبقى متاعـــه على حاله ولم يفك منه إلا النزر اليسير . وكان يقصد من ذهابه الى هـــذه الناحية الأخـــيرة المداولة مع بخيت افندى فى مسألة رحلته الى كاليكا Kalika مع القافلة المزمع سفرها اليها والتى كان منتظرا قدومها من لادو بين عشية وضحاها .

وانتشر فى اليـــوم التالى خبر وفاة فضل الله افنـدى فى محطة لادو . وعند ما طرق الخـــبر مسامع جونكر توجه الى ريحان افندى فعلم منه ان الناقل لهـــذه الاشاعة هم جماعة الأهالى القادمون من وندى . وقبل ان يتركه أتى عدد كبير من النوبيين وأكد صحة الخبر وعلى ذلك أقيمت الرسوم

الواجبة فى مثل هذه الحالة .

وبناء على طلب بخيت افندى بارح جونكر فى ١٨ يونيه كابايندى وسلك طريقا يمر بكراكا الصغرى وهى محطة احمد افندى الافغانى . ومع أن هذا لم يعد من لادو فان جونكر نزل فى نفس المسكن الذى نزل فيه فى المرة الأولى وبارحه فى الغد ووصل الى وندى فى ١٩ منه فنزل فيها على احمد افندى الأطروش الذى أكرم وفادته .

وكان جونكر شديد الرغبة أن يباحث بخيت افندى مباحثة جدية فى مسألة سفره الى كاليكا وأن يطلب منه امداده بما يلزم من التسهيلات أثناء الوصول اليها وإلا فانه ينوى الذهاب الى يوسف افندى الشلالى فى منطقة « رول » . وفى غضون هذه المقابلة قال له بخيت افندى انه لم يكن لديه ثم مانع من الاذن له بالقيام بهذه الرحلة وأنه سيمده بالتسهيلات بقدر ما فى طاقته وأنه عدا عبد الله أبى زيد افندى المكلف بقيادة القافلة سيرافقه ايضا احمد افندى الأطروش .

رحلة جونكر الى كاليكا

وصلت القافلة بعد ذلك بزمن يسير من لادو الى وندى وقدم معها عبد الله افندى أبو زيد رئيس محطة نيامبارا وبعض الجند ولما كان يزمع العودة بعد بضعة أيام سلمه جونكر مراسلاته التى كان ينوى إرسالها الى الخرطوم .

وفى نهاية الأمر سافرت القافلة فى ٧ يوليه وكان يرافق جونكر فيها احمد الاطروش حسب الوعد الذى قطعه على نفسه بخيت افندى .

وبما ان الاطروش كان يود المرور على محطته أولا يممت القافلة ريمو حيث كان فى انتظارها الحرس النوبى غير النظامى .

وفى اثناء الطريق لحق بها رسول من وندى يحمل خطابا فيه دعــــوة للأطروش بأن يتوجه فى الحال الى مكراكا وبسبب عدم وجود من يعرف القراءة تقرر الذهاب الى مكراكا الصغرى للاستفهام من احمد افندى الافغانى رئيسها عما اذا كان لديه شيء من الاخبار . وعند الوصول الى مكراكا الصغرى تبين ان مدير مديرية بحر الغزال استدعى سائر مديرى المناطق المجاورة للحضور ومعهم القوات التى تحت ايديهم لكى يقاومــــوا ذلك الخليط المغـــير على مديريته بقيادة سليمان بن الزبير باشا وعلى ذلك دعت الحالة الى العدول عن رحلة كاليكا وعاد الجميع الى كابايندى وهى المقر الذى كان تعين سفر الحملة منه .

وفى ١٦ يوليه سافرت الحمـــلة من كابايندى بقيادة بخيت افندى ومن ضمنها جونكر . غير انه لما كانت هذه الحوادث وقعت بعيدا عن مديرية خط الاستواء فلا محل لذكرها فى هذا الكتاب ونكتفى بالقـــول إن الحملة ومعها جونكر عادت فى ٢٧ أكتوبر الى كابايندى بعد ان غابت اكثر من ثلاثة أشهر .

ولما كان مع ذلك مقررا السفر الى كاليكا اتخـــذت الأهبة لهذه الرحـــلة وقامت فى ١٢ نوفبر . وكان تقرر الاجتماع فى محطة ريمو وان يأتى اليها احمد الاطروش ورجاله من وندى وذهب اليها أيضا جونكر فوجد فيها حركة شديدة وكان كل يوم يمر يأتى اليها جموع جديدة من كافة انحاء المديرية . وكان قد استقر الرأى على ان تتألف الحملة من ٣٠ جنديا نظاميا

و ٤٠٠ من غير النظاميين و ٦٠٠ حمال . وكانت هذه الجموع تحت قيادة احمد افندى الأطروش وعبد الله افندى ابى زيد رئيس محطة رعو بصفة قائد ثان . وكان الغرض الحقيقى من هذه الحملة جلب عاج للقيام بنفقات الحكومة ومواشى لتموين المديرية .

وسارت الحملة فى طريقها الى جهة الجنوب فى ٢٠ نوفمبر وكانت تقوم بغارات تارة يسارا وطورا يمينا ولسوء الحظ كان لا بد أن تكون هذه الغارات سببا فى اهراق دماء الأهالى وتخريب البلدان مع أن الافضل من ذلك كان بلا جدال استعمال الطرق التى تتفق مع مبادىء الانسانية . إلا أنه لا يلزم أن نغض النظر عن أن بعض الدول الأوروبية تتخذ فى الأراضى الواقعة تحت نفوذها نفس هذه الاجراءات باسم حملات تأديبية وتقترف فيها من الفظائع ما هو أكثر من ذلك .

ووصلت الحملة الى نهاية مرحلتها قبيل أواخر العام بعد أن أسرت ٤٠٠٠ رأس من الماشية .

وتتمة هذا الكلام مسطرة فى الملحق الأول للسنة التالية .

٢ — ملحق سنة ١٨٧٧ م

تقـــرير (١)

فى استكشاف بحيرة البرت نيانزا مقدم من الكولونيل ميسون بك الى سعادة غوردون باشا حكمدار عموم السودان بمقتضى الأمر الصادر من سعادته الى الكولونيل المذكور .

من الخرطوم فى ٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٧

الى سعادة غوردون باشا حكمدار عموم السودان .

اتشرف بأن اخبر سعادتكم انى رجعت من بحيرة البرت نيانزا وهأنا أقدم اليكم التقرير المشتمل على نتيجة مأموريتى هذه مصحوبا بالخرط الاستكشافية والأدلة المختلفة المتعلقة بها فأقول :

قد قمنا من قرية ماجونجو فى اليوم الرابع عشر من شهر يونيه سنة ١٨٧٧ ورجعنا اليها ثانيا فى اليوم التاسع عشر من ذلك الشهر بعد ما استكشفنا مع

---

(١) — ورد هذا التقرير فى نشرة الجمعية الجغرافية الخديوية بمصر (رقم ٥ ـ سنة ١٨٧٨ م) وفى جريدة أركان حرب الجيش المصرى فى سنتها الثالثة بالجزأين الثانى والثالث من المجلد الثانى سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨م) ترجمة مصطفى افندى توفيق ملازم ثانى أركان حرب . وقد نقلناه عن هذه الجريدة الأخيرة .



میسون بك

الدقة شواطىء البحيرة بواسطة ركوبنـــا فى المركب البخارية المسماة نيانزا لأن المركب المذكورة بعد أن تجهزت للسفر سارت مـدة ٥٢ ساعة وهـــذا الزمن كان يبيح لنا أن نمتحن بالكلية جميـــع مسالك البحيرة مع الحالات الخصوصية لكافة جهاتها .

ولمـــا سرنا بطول الشاطىء الغربى منها وجـــدنا أنه يشرف عليه جبال شاهقة تكاد أن تكون واقفة بالكليـــة ومع ذلك فكان يتراءى لنا أن ذلك الشاطىء يحتوى على سكان كثيرة العدد وفى جميع جهاته كانت منافـــذ الجبال ومهـــابط السيول المكونة لأشكال مثلثية تسوغ للنظر أن يمتد بحيث تشاهد عـدة قرى كبيرة وعلى العمـوم فسكان تلك القرى مقيمـون فى أودية صغيرة خلف هذه الجبال .

ويستدل على وجـــود السكان هناك بوجـود عـــدة مراكب صغيرة مربوطـة بالشواطىء وبأعمـــدة الدخان التى ترى صاعـدة فى الجـــو فوق تلك الاودية .

وفى اليـوم المذكور عند غروب الشمس رمينا مرساة المركب البخارى بالقرب من ساحل أرض مستوية عليها قرية كثيرة السكان محـــاطة بأشجار الموز فانشرحت كثيرا لما رأيت شيخ تلك القرية المسمى « حقيقى » الذى كان أتى ليقرئنا السلام وبيده خروف سمين اهداه لنا .

فقال لنا ذلك الشيخ ان اسم تلك القرية هـــو « نورسوار » وظهر لنـا فى الحـــال من حقيقة كلامـه ان السبب الاصلى من زيارته ايانا هـو أن يندبنا لمساعدته فيما صمم عليه من حرب سكان بعض القـــرى التى فى

شمـــال قريته وعلى مقتضى كلامـــه ان اهالى تلك البلاد عندهم كثير من الماشية فالتزمنا أن نمنع عنـــه جميع انواع المساعدة ونصحناه بأن يستمر فى صلح معهم .

وكان ذلك الشيخ لابسا أساور من معدن أصفر وقد أخبرنا انهـــا وصلت إليـــه من رجـــال أنفينا وحقق لنا إنه ليس فى قبيلته شىء من انواع سن الفيل .

وفى اليـــوم الثانى اخذنا فى الاستمرار فى طريقنا الى الجنوب الغربى وسرنا بجانب تلك الجبـــال مدة ست ساعات وبعد ذلك أخذ خط الجبال فى التباعد كثيرا الى جهة الجنـــوب ونشأ من ذلك بينه وبين الشاطىء سهل متسع جزء منه مغطى بغابة كبيرة كثيفة جدا ووجدنا شواطىء البحـــيرة مبسوطة جدا فى ذلك المكان .

وفى الساعة الثالثة من بعد الظهر دخلنا فى خليج متسع وركبنا فيه المرساة لاجل ان نستكشف تلك الامكنة جيدا ولنحتطب ما يلزم لنا من الخشب ولنأخذ الملحوظات اللازمة لتعيين خطوط العرض فى ذلك المكان .

وفى صباح اليـــوم التالى له عبرنا الخليج وسلكنا طريق البر واحتطبنا ذخـــيرة الخشب اللازمة وقد اتى الينا بعض سكان تلك البـــلاد لاجل زيارتنا وفهمونا ان ذلك المحـــل يسمى « كفالى » واننا اذ ذاك بالقرب من نهاية البحيرة وقالوا لنا أيضا انه من هناك يمكنهم ان يصلوا الى الجبـــال التى على الشاطىء المقابل لهم فى ظرف ثلاثة ايام وانه من المستحيل ان يمروا من العنبج الذى بالقرب من النهـــاية الجنوبية للبحيرة ومع كون

ذلك المحل مستنقعا كبيرا يوجد خلفه كثير من القرى العديدة السكان ثم قمنا من « كفالى » بعد الظهر بقليل وشاهدنا اننا لو اتبعنا ذلك الشاطىء لرجعنا بسرعة الى جهة الشرق وبعد ما سار المركب البخارى مدة ساعتين وصلنا الى العنبج الذى كنا أخبرنا به من اهالى كفالى ووجدنا النهاية الجنوبية للبحيرة قليلة العمق ومشحونة بالحشائش ورأينا فى الجنوب الغربى لجزء هذه البحيرة خليجا آخر كبيرا جدا .

ولما شاهدت الجبال قد انحطت نظرت حينئذ غابة كثيفة جدا فظننت فى مبدأ الأمر أنه لا بد أن يوجد هناك بعض مجارى مياه ولكن لما لم أجد ولا مصبا واحدا فى البحيرة هناك تحققت أن أهالى كفالى كانوا أخبرونى بالحقيقة مع اثباتهم لى أنه ليس فى ذلك المحل نهر تصب مياهه فى البحيرة .

ثم اننا أخذنا فى الاستمرار فى طريقنا وعند غروب الشمس رمينا مرساة المركب البخارى فى وسط أشجار وعما قليل وجدنا سحابا كثيفا جدا من الناموس محيطا والذى يظهر انه في هذا المحل أكثر مما على نهر النيل منه .

وفى اليوم الذى يليه بعد ما دخلت بالتعاقب فى جملة مصبات صغيرة كنت انجبر على الرجوع منها بسرعة نظرا لقلة عمق مائها ودخلت اخيرا فى نهر واسع مياهه محمرة قليلا ومتجهة جهة الشمال ولكن مع سرعة بطيئة جدا ولم يكن مغطى بنباتات طافية على سطح مياهه بل كان يظهر أنه لا يحمل على سطحه إلا جزءا من مواد جافة وبعض آثار من الخشب والتبن وكلها طافية على سطحه كما لو كانت مملوءة بالماء .

وعرض مجـــرى الماء هذا هـــو ٤٠٠ متر تقريبا وشواطئه عاليـــة وظاهرة الوضوح ومغطاة بالاجمات ولم يمكنى أن أسير فيه إلا مدة ساعة واحدة فقط لأنه كان قليل العمق جـــدا بحيث ان المركب كانت تمس سطح الأرض فى كل لحظة وظهر لى أن جزءا كبيرا جـــدا من النباتات كان يمنع المرور الى جهة الجنوب والى أمام السالك وشاهدت أيضا فى الجنـــوب الشرقى غـــابة عظيمة من النخيل وفى الجنوب مع الجنـــوب الغربى بلدة أرضها ذات طيات مغطاة بالاشجار العظيمة . وقبل أن أترك هـــذا النهر أمكننى أن أتحقق اننا عـــبرنا البحيرة واننا لو اتبعنا ذلك الشاطىء لأخذنا اتجاه الشمال .

وارتفاع الجبـــال فى ذلك المحل قليل جدا على الشاطئين وفى الجنوب بين سلسلتى الجبال وخلف نهاية البحيرة يشاهد جبـــل عظيم منفرد عن الجبال الاخـــرى . وبرصد الشمس فى وقت الزوال تبين لى عرض درجة واحدة و ١١ ثانيـة من العروض الشماليـــة وكنا وقتئذ فى نهاية الجنوب الشرقى فحينئذ النهـــاية الجنوبية للبحيرة لا تتجاوز الدرجة الأولى من العروض الشمالية المذكورة .

ولما تبعنا جانب الشاطىء الشرقى وجـــدنا أن الجبال التى تشرف عليـه أقـــل ارتفاعا من التى على الشاطىء المقابل له وانمـــا هناك جبـل واحـد ارتفاعه يقرب من أن يساوى ارتفاع أعلى جبـــل من الجبال التى عـلى الشاطىء الغربى ووجـدنا أيضا فرقا بينا بين نباتات جزأى هـــذه البحيرة ، والجبال فى جهـــة الغرب مغطاة كلية بالخضرة والغابات بخلاف جهـــة الشرق فانها بعكس ذلك وميـل الجبـــال فيها مكشوف وخال بالكلية

من النباتات .

وباتباعى للشاطىء الغربى فى اتجاه الجنوب كنت أميز من غير تأكيد جبال الشاطىء الشرقى . وأما عند اتجاهى الى الشمال مجانبا فى سيرى للشاطىء الشرقى فأنى كنت أميز جيدا جبال الشاطىء الغربى .

وخلاف ذلك رأيت جميع أهالى القرى التى على الشاطىء الغربى مولين الأدبار وراكنين الى الفرار بمجرد ما شاهدوا مركبنا البخارية وشاهدت بالقرب من النهاية الجنوبية الشرقية للبحيرة دوى ماء ضعيف كان أخبرنى بعض أهالى « متنجولى » ان مياهه واردة اليه من مجرى ماء يقال له « كاتوكا » .

وفى اليوم التالى له مررنا من أمام عدة قرى كبيرة يقال لأحدها انها محل إقامة « كباجونزا » أخى كباريجا . وبعيدا عنها بقليل صادفنا قرية « كبيرو » وأبعد منها أيضا والى جهة الشمال وصلنا الى « تيابوته » التى أقمنا فيها ساعة واحدة وأمكننى أن أنجح ولم يكن نجاحى فى منع الأهالى من الفرار فقط بل ألزمتهم أيضا أن يحملوا لى خشبا من مراكبهم الصغيرة وفى شمال تيابوته أرض البلدة مستوية وبعد ذلك يتجه الشاطىء الى جهة الشمال كما تعلم سعادتكم جيدا هذا الاقليم .

وحقيقة الخط المرسوم على خريطة البحيرة وكذا الطريق الذى تبعته الآلة البخارية فى سيرها تتعلق بتدقيق رصد السمت الذى اخذته فى خليج كفالى لأجل تعيين انحراف بوصلة الآلة البخارية . وأما الأوضاع الأخرى فقد صار تعيينها بطريقة خصوصية .

وقد عينت أيضا فى كفالى فرق الطـــول بينها وبين ماجونجـو والناتج الذى تحصل من حسابى تطابق جـــدا مع الناتج المتحصل من سير الآلة البخارية وقد استعملت أيضا الفرق بـــين العروض المتعينـــة بالرصد مقياسا لذلك والطريق الذى تبعته المركب فى سيرها كان معينا بدقائق زمنيـــة مع حذف السموت وقد عينت المسافة التى بين كل وضعـين بالعامل المتوسط الناتج من عدد الدقائق وتعين أيضا عدد الأميال المحصورة بين كل رصدين .

وقد عينت أيضـا طـول ماجونجـــو بأربع رصـدات لكسوف بعض الكواكب التابعة للمشترى وصار تعيين عرضها بالمتوسط بين عـدة ارتفاعات لعدة كواكب فى شمـــال وجنوب سمت الرأس وتحصلت على عروض النقط الأخرى برصد ارتفاعـــات الشمس فى وقت الزوال وفى كفـــالى قد عينته بواسطة الافق الصناعى وفى بعض نقط أخرى صار استعمال الافـــق الطبيعى وهـــو سطح البحر وبقية عروض النقط الأخـرى هى المتوسط النـاتج كما فى ماجونجو . وبينت فرق الطول بـــين ماجونجو وكفالى بواسطة ساعة كانت تسير بالانتظام وكانت منتظمة على حسب سير كرونومـتر مضبوط جـدا . وأما أطوال المحلات الآتية وهى قرية دوفيليه ، و لابوريه ، و كري ، و لادو فقد تعينت بالطريقة عينها .

والناتج من ذلك وجد متطابقـا جدا مع الفرق المتحصـل من فروقـات السموت وزيادة على ذلك أضفت الى هذا التقرير مختصر الارصاد الفلكية . اه

وقد جاء فى جريدة أركان الحرب بعد ذلك ما يأتى :—

ولنتم هـذا التقرير بما ذكرته جـريدة الجمعيـة الجغرافية الخديوية المرقومة

بنمرة ٥ وهـــو تقرير مجلس الجمعية المذكورة المنعقدة فى ١٧ فبراير سنة ١٨٧٨ وفيـــه ان سعادة رئيس عموم اركان حرب الجنرال استون باشا اطلع عليه فنقول .

قد قرأ سعادة الجنرال استون باشا هـــذا التقرير المتعلق بالملحوظات المضيئة المختصة باستكشاف بحيرة البرت نيانزا وبين النتائج التى هى الآن متبعة فى العلم الجغرافى فأول خبر حكاه سعادته ان قال .

ان بحيرة البرت نيانزا الموتانزيجة كان اخبر بها سائح مشهور وهو حضرة القبطان « سپيك » ومع ذلك لم يكن رآها قط فضلا عن كونه رسم صورتها فى خريطته وذلك بواسطة الاستفهامات التى أخذها المذكور من اهالى تلك البـــلاد فرسمها بضبط واحكام يوجب التعجب للغاية وفى تلك الحـــالة قد بين المذكور شواهد جديدة تـــدل على مهارته العظيمة وان تقريراته على حسب الاستعلامات الصحيحة التى كان يأخذها من هؤلاء المتوحشين الجاهلين .

ولكن الفضل فى ذلك يعـــود على سعادة سير صمويل بيكر باشا فانه اجـــرى استكشافا حقيقيا عن هذه البحيرة المهمة لأن الموما اليه كان فى قرية غندوكورو وقت وصول كل من مسيو « سپيك » و مسيو « جرانت » عند عودتهما من سياحتهما الشهيرة فى بحيرة فكتوريا وذلك فى اليـــوم الخامس عشر من شهر فبراير سنة ١٨٦٢ قال سعادة الجنرال استون باشا يحق لى أن أقول ان هذا الاستكشاف هـــو أول استكشاف لسير صمويل بيكر أعنى وجود بحـــيرة البرت نيانزا التى كان هو أول رائد لها حيث قال .

قد كنت فى قـرية غندوكورو من منذ اثنى عشر يوما وأنا منتظر قافلة « دبونو » التى ترد من أقاليم الجنوب وكنت اريد أن أصحبها الى تلك الأقاليم فبينما أنا كذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر فبراير سنة ١٨٦٢ إذ سمعت على بعد طلق بنادق مجتمعة وبعض طلقات منفردة فى جهة الجنوب فلأجل أن أبين الأحوال التى اعترتنى فى ذلك الوقت شرحت ذلك فى جرنالى المختصر الذى احرره الان فأقول .

الطلقات البعيدة علامة حضور الجلابين لسن الفيل الذين أنا فى انتظارهم وعندها ما أشعر الا ومن كان برفقتى من الناس قد انقضوا بسرعة نحو مركبى بحالة مدهشة قائلين ان معهم رجالا بيض الخلقة آتين من جهة البحر فقلت أنا فى نفسى هل من الممكن أن يكون مسيو سبيك و مسيو جرانت فعند ذلك أسرعت فى السير اليهم ثم قلت بميل رأسى نعم هما هذان وأتبعت هذا بقولى « هورا » لانجلترة قديمة الشرف وها هما قد أتيا من بحيرة فكتوريا نيانزا التى يخرج النيل منها وحينئذ مخبئات القرون السالفة استكشفت الآن .

فانشرحت كثيرا عند رؤيتهم ولكن كان سرورى ممزوجا ببعض الخجل لأنى كنت أردت أن اقابلهم فى محل أبعد من ذلك ومع ذلك فقد اكتفيت بما أجريته من التجهيزات وكنت متحققا من انقاذهم اذا كانوا فى حالة الضيق والطريق الذى كنت مصمما على سلوكه كان يوصلنى اليهم مباشرة لأنهم كانوا آتين من البحيرة بذلك الطريق وجميع من كان بمعيتى انشرحوا جدا وطلقات الرصاص تسبب عنها قتل أحد الحمير التى كانت معى وقتل هذا الحيوان كان قربانا محزنا لتتميم هذا الاستكشاف الجغرافى وعند

شاهدتهم اتجهوا نحـــو مراكبي سائرين الى بطول النهر فعلى بعد مائة قصبة تقـــريبا عرفت صاحبي قديم العهد وهو مسيو سبيك وخفق قلبي من شدة الفرح ثم انى رفعت لاجله برنيطتي وصحت قائلا « هـــورا » وجريت اليه بكل قوتى .

وبمجرد ما قابلت هؤلاء السياحين أول ما طـــرق باب فكرى قلت ان سياحتى قد تمت بتلك المقابلة وانهم قد استكشفوا منابع النيل ولكن عندما قدمت اليهم للتهنئة بما حصلوه من الشرف العظيم أعطونى تخطيطـــا مشتملا على سياحتهم يفهم منه أنه ما أمكنهم أن يتمموا استكشاف النيل وأن جزءا كبير الاهمية من مجراه باق لم يتم استكشافه وظهر لى أنهم قد عبروا النيل من النقطة التى على ٢١٧ درجـــة من العروض الشمالية بعدما تبعوه من ابتداء بحيرة فكتوريا وهذا النهر بعد خروجه من تلك البحيرة يجرى الى جهة الشمال ثم يأخذ بسرعة اتجـــاه الغرب بالقرب من شلال « كارومه » وهذا المحل هـــو الذى قد عـــبروا النيل منه وما رأوا ذلك النهـــر ثانى مرة مطلقا إلا عندما وصـــلوا الى النقطة التي على ٣٣٢ درجـــة من العروض الشمالية وهى التى عندها يتجه النيل الى الغرب مع الجنوب الغربى .

وقد قالت أهالى تلك البلاد وملك « أونيورو » المسمى « كرازى » إنه من ابتداء كارومه يتجـــه مجرى النيل الى الغرب مسيرة عـــدة أيام ثم يصب اخيرا فى بحيرة كبيرة يقال لها « موتانزيجـــه » واتجاه تلك البحيرة يأتى من الجهـــة الجنوبية ويدخل النيل فى نهايتها ويخرج منها بسرعة من الجهة الاخرى ويمكن ان تستمر المراكب سائرة فيه آخذة اتجاه الشمال الى ان

تصل الى قرية « كوسهى » وقرية « مارى » .

ثم لما كان مسيو سبيك و مسيو جرانت يعتقدان الأهمية الكبرى لهذه البحيرة كانت تظهر عليهما حالة الكآبة حيث لم يمكنهما استكشافها جيدا .

وقد علم مسيو سبيك أنه لا بد من وجود بعض علماء جغرافيين جالسين على كراسيهم المزخرفة ويسيحون بطريقة فى غاية السهولة وهى ان يضعوا اصابعهم على الخريطة ويسألون لماذا لم يسر من ها هنا الى هنالك ولماذا لم يتبع النيل لغاية بحيرة موتانزيجه وايضا من تلك البحيرة الى قرية غندوكورو وقد كان من المستحيل ان مسيو سبيك و مسيو جرانت يتبعان نهر النيل من ابتداء كارومه لأن الأهالى كانت مشتغلة بغارة الملك المسمى « كمرازى » ولم يسمحوا لاجنبى بعبور بلادهم .

وحينئذ فالموما اليهما قد اخذا الاستفهامات بالاعتناء على قدر الامكان وتمما خريطتهما ورسما البحيرة فى الوضع التوهمى لها باتباع مجرى النيل من بعد خروجه من تلك البحيرة على حسب استعلامهما من الأهالى .

وقد وصل مسيو صمويل بيكر الى شواطىء البحيرة فى اليوم الرابع عشر من شهر مارس سنة ١٨٦٧ بالقرب من قرية فاكوفيا وقد وصفها كما سيأتى فقال .

انه عند وصولنا الى تلك البحيرة لم تكن أشرقت شمس اليوم الرابع عشر من شهر مارس وقد حثث الثور الذى أنا راكبه على المسير بان وكزته بمهموز الجزمة لان حميتى وغيرتى كانت متوجهة الى الدليل الذى كان

متقدما علينـــا وكنت وعدته بتضعيف ما شرطت عليه أخذه منى من الخرز عند وصولنا الى البحيرة وكان ذلك اليوم صحوا معتدلا وبعدما عـــبرنا واديا عميقا محصورا بين التلول تسللنا على ميـــل الجبل المقابل لنا وقد أدركنا قمته بكل سرعة فعنـــد ذلك انتشرت أمام أعيننا مكافأة المشقات التى كابدناها وهى انه تراءى لنا ان أسفل منا بحر من زيبق وأن طـــول امتداد البحيرة يحدد الافق من جهة الجنوب والجنوب الغربى وكأن البحيرة تقدح نارا بمصادمة اشعة شمس الظهيرة لسطحها وانه فى جهة الغرب من هـذه البحيرة على مسافة خمسين أو ستين ميلا يظهر ان عدة جبال لونها ضارب للزرقة خارجة من المـــاء وتصل الى ارتفاع يقرب من ٧٠٠٠ قـــدم أو « ٢١٥٠ متر » .

وكان من المستحيل أن أصف عـــلامات الظفر التى حصلت عليها وحصلت أيضا على كافة أشغالى جميعها وجميع السنوات التى كنت فى مدتهـــا أتبع أغراضى مع المعاندة الشديدة فى افريقية الوسطى « وقد استكشفت انجلترة منابع النيل »

وقبل أن نصل الى البحيرة كنت اتفقت أنا ومن معى من الناس على أن نصيح ثلاث مرات بلفظة « هورا » كعادة الانجليز بسبب هذا الاستكشاف ولكن الآن لما تأملت من هـذا البحر المتسع الداخلى الموضوع فى وسط افريقيـــة تذكرت السعى الذى اجتهدت فيـــه الناس من مدة قرون من السنين السالفة لأجـــل أن يصلوا الى هذه النقطة من الكرة الأرضية وافتكرت إذن انى الآلة الوحيدة المنتخبة لتبيين حقيقة جزء من الكرة الأرضية وذلك عبارة عن سر مخبأ كان لا يمكن القرب منه لكثير ممن

م أعظم منى قدرا وحسست انه اعترانى عدة أفكار مفرحة للغاية تحثنى على الصياح بعدة أصوات عالية تنبئنى عن حالة الفرح التى قامت بى فى ذلك الوقت وحمدت الله تعالى بكلية قلبى حيث نجانا وحمانا من كافة الاخطار الشاقة حتى توصلنا الى مقصودنا وكنت وقتئذ مرتفعا عن سطح ماء البحيرة بقدر ١٥٠٠ قدم تقريبا لأنى كنت على جزء منحدر بالكلية من حجر الجرانيت وما أمكننى أن احول نظرى عن هذه المياه المباركة وعن هذا الحوض المتسع الذى تتغذى منه أرض مصر وتخصب الصحراء فى سيره وكان هذا المنبع الكبير مخبأ من منذ زمن طويل على ملايين من أفراد النوع البشرى مع كونه عبارة عن فاعل خير لهم مبارك وهو من عجائب الكرة الأرضية وأردت أن أسميه باسم شهير فلأجل التذكار دائما باسم الشخص الذى توفى أخيرا وحزنت عليه جلالة الملكة هى وجميع والامة الانجليزية قد سميت هذه البحيرة الكبيرة بهذا الاسم « البرت نيانزا » وحينئذ فبحيرة البرت نيانزا وبحيرة فكتوريا هما منبعا النيل .

والمدق المعوج الذي يقتضى الحال سلوكه لنزولنا الى شاطىء الماء كان واقفا وصعبا جدا حتى انجبرنا على أن نترك أبقارنا خلفنا برفقة دليل وأمرناه أن يذهب بها الى ماجونجو وينتظر فيها حضورنا .

ثم شرعنا فى النزول مشاة وابتدأت فى أن أسير متكئا على عصا قوية وبما ان زوجتى كانت ضعيفة جدا ومنحلة العزم بالكلية كانت تنحنى على أكتافى عند النزول وكانت تقف فى سيرها من عشرين خطوة الى اخرى للاستراحة وبعد ما نزلنا بكل مشقة مدة ساعتين تقريبا ونحن ضعيفون دائما بالحمى التى كانت ملازمة لنا من مدة عدة سنوات تقوينا الآن

بحصولنا على النجاح ودركنا السهل المتصل بقاعدة تلك الصخور وبعدما مشينا مسافة تقرب من ميل فى أرض مستوية مرملة ذات اجزاء هشة جدا مغروسة بانواع الأشجار التى يكثر فيها شجر العوسج وصلنا الى شاطىء الماء فوجدنا ان موج تلك البحيرة يتبدد شمله بملاطمته لشاطىء من الحصا الأبيض فعند ذلك أسرعت فى الدخول فى البحيرة حيث اعترانى الظمأ الشديد من كثرة الحر والتعب ثم انى شربت عدة جرعات كبيرة بشهية عظيمة من منابع النيل وعلى مسافة أقل من ربع ميل توجد قرية أهلها صيادون تسمى فاكوفيا وفيها أقمنا بعض أوقات وفى كل جهاتها تشم رائحة السمك وجميع ما ينظر هناك يدل على الصيد .

وليست عملية الصيد صغيرة كالتى تصنع فى بلاد الانجليز بواسطة خيط رفيع وصنارة صناعية بل كانت جملة من الخطاطيف مع جزء عظيم من خيوط يقرب سمكها من سمك الأصبع الصغير موضوعة فوق الاخصاص لأجل التجفيف ومسلحة جميعها بصنانير من الحديد هيئتها تعطى فكرة عجيبة من خصوص الاسماك المهولة الخلقة الموجودة فى بحيرة البرت نيانزا .

ولما دخلت أحد تلك الاخصاص وجدت كمية عظيمة من ادوات الصيد وخيوطا جيدة الصناعة من الياف شجر الموز قوية جدا وذات مرونة ويمكن أن تقاوم أعظم شدة تحصل من سمكة كبيرة .

والصنانير المذكورة وان لم تكن لطيفة الصناعة لكنها مزينة بعدة كلاليب يتغير سمكها من أصبعين الى ستة ووجدت أيضا عددا عظيما من الخطاطيف المعدة لصيد حصان البحر موضوعا فى أعظم ترتيب ومجموع ذلك الخص يفيد أن صاحبه له بغية عظيمة فى صيد السمك والخطاطيف المعدة

لصيد حصان البحر هى عين ما هــــو مستعمل عند العرب الحراوية فى التاك على حدود الحبشة لها نصل ضيق يقرب عرضه من ان يكون ثلاثة ارباع اصبع مع كلاب واحد فقط وحبالها مصنوعة جيـــدا من الياف الموز والعوام عبارة عن قطعة كبيرة من خشب العنبج قطـــرها نحو خمسة عشر اصبعا والأهالى يقذفون تلك الخطاطيف على خيول البحر وهم فى مراكبهم ثم ان تلك العــــوامات الكبيرة هى ضرورية لامكان اتباعها بسهولة عندما يكون الماء مضطربا .

ومنظور البحيرة احدث لاصحابى حيرة عظيمة وكانت السياحة طويلة جدا ومملوءة بالاكدار لما انهم قطعوا العشم من وجود بحيرة وتصوروا انى كنت اقودهم الى جهة البحر وصاروا منتظرين تلك الفرجة الحالية مع غاية الاندهاش ثم ان اثنين من بينهم كانا قد رأيا البحر الأبيض المتوسط فى اسكندرية فاظهرا لنا اننا بالقرب من البحر ولكن لم يكن ماؤه مالحا .

ثم ان قرية فاكوفيا هي عبارة عن محل محتقر وأرضها مملوءة بالملح بحيث يستحيل زرع أى نوع من المزروعات فيهـــا وذلك الملح هو محصول طبيعى فى تلك الأقاليم وجميع الأهالى يشتغلون بتجهيزه ثم يتحصلون بطريق العوض منــــه على الذخائر اللازمة لهم فى بلادهم وتوجهت لأجل مشاهدة الحفر التى يستخرج الملح المذكور منها فوجدت عمقها يقرب من ستة اقـــدام ويخرجـــون منها طينة مسودة مرملة ويضعونها فى ازيار كبيرة من الفخار موضوعة على كمرات من الخشب وهـــذه الازيار مثقوبة من قاعها ثقوبا صغيرة ثم يملؤنها بالماء فيرشح ذلك الماء من تلك الازيار فى ازيار اخـــرى ويكون ممزوجا أيضا مع جـــزء من الطين ويستمرون على اجراء ذلك

الى ان يتحصل ماء مشحون بالملح فعنـــدها يوقدون الحطب اسفله فيتصاعد الماء بخارا ويبقى الملح راسبا ويكون لونه ميضا إلا انه من واظن ان الملح المذكور ناتج من تحليـــل الحشائش التى تنبت فى قاع البحيرة المحتوية على مقـــدار عظيم من البوتاسا وتقذفها الامواج على الشاطىء فتصير ترابا فيجرون عليها ما تقدم والارض المستوية المرملة التى تمتد الى مسافة ميل بين البحيرة وقاعدة الارتفاع الصخرى الذى ارتفاعه الف وخمسمائة قدم يظهر انها هى التى كانت مكونة سابقا لقاع البحيرة .

وعموما فان الأرض المستوية فى فاكوفيا تشبه خليجا لأن الصخور المكونة حولها للقوس الذى فتحته خمسة أميال تسقط فى البحيرة بميـــول واقفة من يمين وشمال ذلك المنحنى الذى فى مركزه ساحل كبير أرضه مستوية ثم أنه إذا ارتفع سطح ماء تلك البحيرة عن أصـــله بمقدار خمسة عشر قدما فان جميع ذلك الساحل يصير كلـــه مغموا بالماء لغاية قاعدة تلك الصخور المرتفعة .

وفى صباح اليوم الثانى عند شروق الشمس أخـــذت البوصلة وصحبتى شيخ القرية ودليلى المسمى « رابونجـــو » والمرأة المسماة « بخيتة » وتوجهت الى شاطىء البحيرة لأجل عمل بعض رسومات والسماء كانت فى غاية الصحو وبواسطة نظارة قوية أمكننى أن أميز على الشاطىء المقابل لنا سقوط مياه غديرين قاطعين باتجاهيهما المبيضين جوانب الجبال .

ولو أن تلك السلسلة المرتفعة كانت محددة بغاية الوضوح على زرقة السماء وفيها عدة انخفاضات عميقة تدل على مجـــارى سيول عظيمة فما أمكننى أن أميز إلا الشلالين الكبيرين اللذين تسقط منهما ميـــاه الغديرين مشابهة

لخيوط الفضة .

ولم تشاهد قاعدة أدنى شيء حتى ولا قاعدة الجزء الذى ارتفاعه ١٥٠٠ قدم الذى شاهدت منه أولا ذلك الماء وليست حادثة النظر اللازمة بدون شك للمسافات الكبيرة هى وحدها التى تخفى قاعدة الارتفاعات تحت الافق بل كان هناك اعمدة كثيفة من الدخان يرى انها تتصاعد من فوق سطح الماء مع انها يمكن ان تكون ناشئة عن حرق حشائش المراعى الكائنة أسفل الجبل .

وحقق لى ذلك الشيخ ان مراكب كبيرة عبرت من شاطىء الى آخر من البحيرة ولكن تلك السياحة كانت استدعت ثلاثة ايام أو أربعة وكان يلزم فى مدتها ان يجـــذف بالمجاذيف بغاية الشدة وكثير منها قد غرق فى مدة العبـــور وان مراكب الاونيورو لم تكن مصنوعة لأجل سياحة خطرة جدا كهذه .

ثم ان الشاطىء الغربى للبحيرة تابع لحكومة ماليجا الكبيرة التى ملكهـــا المسمى « كاجـــورو » يمتلك مقدارا وافرا من المراكب وكان هذا الملك يتجر مع كرازى فى محل كائن فى مقابلة ماجونجـــو التى عندها ينضم شاطىء البحيرة بحيث يمكن عبورها فى يوم واحد وعلى حسب ما أخبرنى به الدليل أن ماليجا هى بلدة ذات شوكة واكثر امتداد من الأونيورو ومن الأوغندة .

وفى جنوب ماليجا بلدة تسمى تورى محكومة بملك يسمى بهـــذا الاسم أيضا وأما الجهات الأكثر بعد الجهة الشمال الشاطىء الغربى فلا يمكن أحدا أن يعرف عنها أدنى شىء .

ومن المعلوم ان هـذه البحيرة تمتد نحو الجنـــوب لغاية كاراجوه وطالما تكرر لى التاريخ القـــديم الذى مضمونه ان رومانيكا ملك تلك البلاد كان من عادته سابقا ان يرسل الى « اوتمى » الكائنة فى شمال البحيرة عدة سريات لاجل التحصل على سن الفيل وكيف ان مراكبه تقدمت سابقا الى ان وصلت الى ماجونجو وهذا قد أكد لى ما اخبرنى به مسيو سبيك فى غندوكورو وهو ان رومانيكا ارسل الى اوتمى صيادين الافيال .

ثم ان الشاطىء الشرقى محدد من الشمال الى الجنوب بالاماكن الآتية وهى كوبى و الأونيورو و الاوغنده و الاوتمى و الكاراجوه ومن هذه النقطة الاخيرة التى لا يمكن ان تكون على أقل من درجتين من العرض الجـــنوبى يقال ان البحيرة تنعطف دفعة واحدة الى جهة الغرب وتمتد فى هذا الاتجاه بدون ان يمكن تحديد نهايتها وفى شمال ماليجا وغرب البحيرة بلده صغيرة تسمى « مجارولى » ثم تعقبها قرية « كوسهى » فى غرب النقطة التى يخرج النيل عندها من البحر الداخلى .

واما فى شرق النهر فتوجـــد صحراء قرية مادى فى مقابلة كوسهى وقد اخبرنا الدليـــل وشيخ فاكوفيا ان مراكب ستحملنا الى ماجونجو عند النقطة التى فيها نهير السميرسه الذى تركناه فى كارومه يصب فى البحيرة ومع ذلك اخبرنا انه من المستحيل سلوك ذلك النهر لأنه من ابتداء كارومه الى مسافة صغيرة جدا يتكون فيه عدة شلالات متوالية .

وكان النيـل قابلا لان تسير فيـــه المراكب مسافة عظيمـة من ابتداء خروجه من البحيرة الى كوسهى ويمكن لبعض المراكب ان تنزل فى النهر المذكور الى قرية مادى .

وقد اتفق رأى الاثنين معا على ان موازنة سطح ماء بحيرة البرت نيانزا لا ينخفض عن مقداره فى ذلك الوقت وانه لا يرتفـــع مطلقا فوق بعض علامات مصنوعة على شاطىء من الرمل يظهر منها زيادة قدرها أربعـــة أقدام وساحل البحيرة عبارة عن رمل رفيع جـدا تنكسر عليه الامـواج عند وصولها اليه كما يحصل ذلك لامـواج البحر وترسب فيه نباتات مائيـة كالنباتات البحرية المطروحة على شواطىء بلاد الانجليز .

وأما عرض فا كوفيا فانه يقدره ١٥ دقيقة عرضا شماليا وطولها ٣٠ درجة و ٥٠ دقيقـة طولا شرقيا . واما النقطة الا كثر قربا الى الجنوب التى وصلت اليها من ابتداء سفرى من مجاورلى فانها تقابل عرضا قدره درجة و ١٣ دقيقة . واما مسيو صمويل بيكر فلم يتيسر له ان يشاهد فى جنوب بحيرة موتانزيجة أبعد من فاكوفيا « التى عرضها الشمالى درجة و ١٥ دقيقة وذلك بناء على ارصاده » إلا انه على حسب الادلة التى كانت تعطى له من الأهالى ثبت عنده ان المياه كانت تمتد فى جهـة الجنوب بعيدا عن مملكة كاراجـوه اعنى الى بلدة رومانيكا كما ان خريطـة مسيو صمويل بيكر تبـين البحيرة لغـــاية عرض درجة و ٣٠ دقيقة من جنوب خط الاستواء ومن ابتدائها ترك صورة الخريطة غير تامة .

وفى شهر يوليـــه سنة ١٨٧٦ ساح المسيـو جيسى بناء على أمر سعادة غوردون باشا حكمدار عموم مديريات خط الاستواء ودخل فى البحيرة بسلوكه نهر النيل وعلى مقتضى كلامه أنه مر فى جميع امتدادها مستكشفا شواطئها حسب ما هو موضح فى الخريطة التى قدمها .

وهذه الخريطة تبين ان وضع فا كوفيا على مسافة تقرب من ٢٥ ميلا من

شمال غابات العنبج الذى يحدد البحيرة من نهايتها الجنوبية .

وفى تلك السنة لما ترك السياح الشهير استانلى تحت حكومة أوغنده ودخل فى تلك البلاد من جهة الغرب وصل الى شواطىء بحيرة كبيرة تسمى عند الاهالى موتانزيجه الكائنة على عرض ١١ دقيقة شماليا بالابتداء من خط الاستواء أعنى على درجة واحدة وأربع دقائق من جنوب فاكوفيا . وبالأقل على مسافة خمسين ميلا من جنوب نهاية البحيرة بمقتضى كلام مسيو جيسى .

والآن على مقتضى كلام مسيو استانلى و مسيو جيسى وتقرير الكولونيل ميسون بك الذى فى غاية التفصيل هل يعتبر أن هناك سدا فى جزء ضيق قليل العمق من البحيرة أو يقال أنه يوجد أيضا فى جهة الجنوب بحيرة اخرى ذات امتداد عظيم يمكن أن تكون متصلة ببحيرة البرت .

وهذا سؤال مفصل جدا ومهم فى الجغرافيا وهو باق الى أن يحل بمعرفة المستكشفين المستجدين وليس من المفيد أن نضيع أنفسنا فى الفروضات بل يلزم أن نصبر الى أن يعمل استكشاف حقيقى فى الجزء الذى بين النقطة الأكثر بعدا جهة الجنوب التي وصل اليها الكولونيل ميسون بك والمياه التى نظرها مسيو استانلى بالقرب من خط الاستواء .

فان كانت المسائل الجغرافية الكبيرة المختصة بافريقية الوسطى هى الآن تامة فلم يزل باقيا حل مسائل كثيرة مثل هذه مهمة جدا وبعض أشغال كثيرة جديرة بالاعتناء يفعلها المستكشفون أولو الجراءة والصداقة .

ولأجل أن نرجع الى التكلم على استكشاف بحيرة البرت الذى حضر من عمله الكولونيل ميسون بك تقول انه كان معه الآلات اللازمة الجيدة وامكنه عمل الارصاد الدقيقة الشافية التى يلزم اعتمادها وزيادة على ذلك فان تلك الارصاد تثبت بمجموعها الملحوظات الصغيرة التى بينها سابقا مسيو « جيسى » .

وزاد قائلا سعادة الجنرال استون باشا وكيل الجمعيـة الجغرافية الخديوية ان وسط افريقية صار مستكشفا ومعروفا من منـــذ سياحة مسيو استانلى وان الجغرافية تحصلت على اصول الاستكشاف وحينئذ فالعلم الطبوغرافى منوط بان يبين درجة الضبط والتفصيل اللازمة لها .

٣ — ملحق سنة ١٨٧٧ م

مأمورية الدكتور أمين افندى
فى الاونيورو

من ٥ يوليه الى ٢٥ أكتوبر

سفره الى « امبارانياماجـــو » .

استدعى غوردون باشا الذى تعين حكمدارا عاما للسودان أمين افندى الى الخرطـــوم فوصل اليها فى ٣٠ أبريل وكلفه بمأمورية لدى كباريجا ملك الأونيورو تشابه مأموريتـــه السالفة فى أوغندة ثم يذهب من أونيورو ويؤدى زيارة الى متيسا ملك أوغندة . وكان يقصد بهذه الارساليات حفظ وصون حسن الجوار مع جيرانه وتقوية منزلة مصر فى تلك الاصقاع .

وبعد ان تلقى امين افندى التعليمات من الحكمدار العام بشأن مأموريته زايل الخرطوم موليا وجهه شطر لادو وسافر من هذه على متن باخـــرة فى ٥ يوليه قاصدا دوفيليه فدخلها فى ٥ من الشهر عينه ولبث بها لغـــاية ٢٥ منـــه ثم رحل عنها بطريق النيل متجها الى ماجونجو الواقعة فى طرف بحيرة البرت نيانزا الشمالى . وفى هذه الناحية ترك طريق النيل وسار برا عن طريق « كيروتو » Keroto و مازندى فوصل الى مرولى فى النصف الاول من شهر أغسطس . وهنا التزم ان يتربص بعض أوقات بسبب المخابرات التى دارت بغية حصوله على تصريح من كباريجا بدخوله أونيـــورو . وحالما

تسلم هـذا التصريح شخص فى ١٣ سبتمبر قاصدا « كيسوجا » Kisoga التى ترك فيها جميع متاعه خشية أن يطلبه كباريجا حسب عادته .

ومن كيسوجا توجـه الى « لوندو » Londu حيث التزم أن يحصل على اناس من رجال كباريجا بصفة حمالين لأن الحمالين الذين كانوا معه أبوا ابتـداء من مرولى أن يدخـلوا أرض ملك الأونيورو عـدوهم الألد . وعاق مسيره مطر هطال غير أنه وصل فى نهاية الأمر فى ٢١ سبتمبر الى مقر كباريجا فى « أمبارا نياماجو » Mpara Nyamagos .

وكانت الأكواخ المعدة لسكنه قائمـة على رابيـة على بعد ربع ساعـة من محل اقامة الملك . ولدى قدوم أمـين افندى أطلقت البنادق لتحيته . وأتى أحـد رجال حاشية كباريجا المسمى عليا متشحـا ببذلة التشريفة الكبرى لمقابلته وأبدى انه يعد نفسه سعيدا لرؤيته .

ولم يأت « كاتيكيرو » Katikiro الوزير الاول لكباريجا إلا فى ساعـة متأخرة من الليل ليرحب بقدومه وليقول له ان الملك كان يتوخى مقابلته فى ذلك اليوم غير ان المطر حال دون ذلك وانه لهذا السبب عينـه ما امكن اقتيـاد الثيران التى هيئت له وانه يرجـو التجـاوز عن هـذا التأخير . فأجابه أمين بقوله انه مغتبط وشاكر للمليك وانه لم يأت ليطلب ثيرانا وأنه اذا لم يكن لدى كباريجا شىء منها فهذا أمر يمكن الاستغناء عنه تماما .

أما على فكان واثقا بأن يتوصل الى عقد معاهدة مع الملك .

مقابلته لملك أونيـــــورو

وفى ٢٣ سبتمبر فى الساعة ١١ صباحا تقريبا قـــدم دليـل أمين أفندى متسربلا ثوبا « قفطانا » وعلى رأسه طربوش وقال له ان كباريجا مستعد لمقابلته . فاتشح فى الحال كسوته وركب جوادا وسار الموكب بالنظام التالى وهو : فى المقـــدمة ثلاثة من المتونجوليين والترجمان والرجال الحاملون الهـدايا وأمين افندى وياوره ثم على .

وبعـــد أن مر الموكب ببضع زرائب ومساكن افضى الى ميدان مكشوف فيه قاعة رحبة لها بابان كبيران احدهما من الجهة الامامية والثانى من الخلف . وهذه هى القاعة التى بها عرش كباريجا . وفى وسطها مصطبة مرتفعة من التراب مدكوكة ومحصورة بين عمودين حاملين لسقف القاعة . وفى وسط هذه المصطبة يوجد مقعد كان الملك جالسا عليه ومرتديا ملابسه الوطنيـــة أى أنه مستور لغاية صدره بقطعة من النسيج لونها مشرب بحمرة وما فوق ذلك مع رأسه عار ويحف به نحـــو الخمسين شخصا جلوسا هذا عدا عدد يتراوح بين الاربعمائة والخمسمائة فى الخارج .

ولما كان مقعد أمـين افندى موضوعا بجانب العرش جلس عليـه وقدم جواب اعتماده بوصف أنه نائب عن الحكمدار العام . وبعد فتحه بمعرفة اتباع الملك أعيـــد الى أمين افنـدى ليقرأه إذ أنه لم يكن هناك من يعرف القـــراءة . ثم بعد تلاوته أعرب كل منهما عن سروره من هذه المقابلة وأعرب كباريجا عما يكنه شعوره من المحبـة والود نحـو حكومته وعن رغبته فى قبـــول كل اقتراح يعرض عليه . وعندئذ قدمت الهـدايا ويظهر ان

الشيء الذى نال اكثر اعجابه هـو الصابون المعطر والنقود وهذه عبارة عن ٣٠ ريالا عدت مرتين . وبعـد اسئلة شتى فى عدة موضوعات ومحادثة جعلت الجلسة تستمر زهاء ساعتين ونصف ساعة انصرف أمين افندى باحتفال كالذى عمل لدى قدومه .

وفى ٢٣ سبتمبر عند منتصف النهـار أتى كاتيكيرو وأخبره ان الملك فى انتظاره فذهب اليه فى الحال . ولما كان القوم قد سهوا عن استحضار كرسى أمين افندى وقف يتحادث مع كباريجا الى ان احضروه وعندئذ جلس هو وجلس الجمـع واشترك الكل فى الحديث إذ ان الاصطلاحات الرسمية لم تكن مرعية كما هو الحال فى أوغندة .

وقد أبدى الملك فى حديثه تذمرا من الدناقلة ومن انفينا و ريونجا وقال ان هؤلاء يتحرشون به ويغيرون عليه بلا انقطاع . فأجابه أمين افندى بأن الآخرين ارتبطوا مع الحكومة برابطة الصداقة ولكنه هـو استمر على ابداء العداوة . وقال « كباريجا » ان من ذكروا ما عقدوا تلك المعاهدات إلا لطمأنينتهم . اما فيما يختص بما بدا منـه من العداوة فقال انه حقيقة ناوش سير صمويل بيكر ولكن هـذا لم يكن إلا دفاعا عن النفس غير أنه يرجوه الآن ان يقول له عما تنـويه الحكومة لانه يريد ان يعيش معها فى سلام ووئام .

وأجابه أمين أفندى ان الحكومة تشعر نحوه بنفس هذا الشعور . فاذا كان يرغب الحصول على اعانة مالية ترسل اليه سنويا فما عليه إلا أن يصرح بذلك وهـو فى امكانه ان يكفل نيله ما يطلب وإذا كان يريد أن ينتدب وفدا ليذهب الى القاهـرة فهو يعطيهم جوازا للمرور واذا كان هـو

نفسه يشتاق ان يذهب اليها ، وهذا هو الافضل ، فعندئذ يظل امين فى عاصمة ملكه رهينة لحين عودته . أما رونجا و انفينا فقد قال للملك عنهما ان من رأيه انه يجب عليه الرجوع الى جزرهما وانه لا يقطع على نفسه وعدا بأن يأتى اليه بهما ولكنه اذا رجع هنا مرة أخرى فهو يبذل كل ما فى وسعه ليصلح فيما بينهم جميعا .

ويظهر ان كل هذه المحادثات أعجبته فقال ان أمينا هو الرجل الأكثر رشدا بين جميع من وقع بصره عليهم وعرض عليه ان يبقى لديه طلبا للراحة ثم يسافر الى مرولى فالخرطوم ومعه الوفد الذى سيرافقه اليها وطلب منه امين ان يرسل اناسا يفهمون اللغة العربية حتى يستطيعوا ان يتحققوا انه لا يقول شيئا ما للباشا يخالف ما جرى بينهما فى الحديث . وعلى ذلك تناول كباريجا يد امين افندى وقال له : « نحن اخوان » . وبما ان الجلسة استمرت زمنا ليس بالقليل فقد استأذن أمين افندى وانصرف .

وفى ٣٠ سبتمبر أرسل الملك فى طلب أمين افندى ولدى وصوله وجد المجلس حافلا بالناس اكثر مما كان بالعشى ودار الحديث على جغرافية البلد والوان البشر من أبيض وأسود ولكن امينا لم يستطع ان يحصل على معلومات كثيرة عن الموضوع الأول . وبعد ان لبث قليلا انصرف .

ووصل قبل سفره بزمن يسير اونباشى وجندى وترجمان من محطة « ماجونجو » فمنح كباريجا كلا منهم بصفة هدية زنجيا وثورين وطلب الى أمين افندى أن يأخذهم معه ووضع فى الوقت ذاته تحت أمره سعاة يحملون مراسلاته التى يريد ان يبعث بها الى مرولى ليبين فيها سبب اطالة اقامته عنده وليبدد ما ربما يعلق بالاذهان من المخاوف نظرا لهذه الاطالة . وكان الجند قضوا

٧ أيام فى المجىء ثم رجعوا حاملين مراسلات أمين افندى التى بعث بها الى غوردون باشا ومرجان افندى الدناصورى [1] قومندان محطة ماجونجو وهو ضابط سودانى حضر حرب المكسيك وأنعم عليه بالوسام العسكرى .

وانتهت مأمورية أمين افندى لدى كباريجا على ما يرام . واتضح ان كباريجا لم يتخذ معه طرق الاستبداد والجبروت التى اعتاد اتخاذهـا مع الآخرين . ومن الجائز ان الهدايا الثمينة التى بعث بها اليه غوردون باشا أثرت فى نفسه تأثيرا حسنا وأقنعته بأن الحكومة التى بعثت له أمين افندى سفيرا هى حكومة ذات بطش وقوة ولم يأذن كباريجا لأمين افندى بمبارحة مملكته إلا بعد إقامة خمسة أسابيع .

(١) — سمى مرجان الدناصورى لأنه من بلدة دناصور احدى بلاد مركز شبين الكوم من مديرية المنوفية وهو من السودانيين الذين توطنوا بهذه البلدة وقد جند مع من جندوا من بلاد القطر للانخراط فى الاورطة السودانية المصرية التى سافرت لحرب المكسيك .

٤ — ملحق سنة ١٨٧٧ م

مأمورية الطبيب أمين أفندى في أوغندة

القسم الأول

من ٢٥ اكتوبر الى ٣١ ديسمبر

سفره الى « روباجـــا » .

فى ٢٥ أكتوبر بارح أمين افنـدى مقر كباريجا ملك الاونيـورو ليتمم المأمورية التى كلفه بها غوردون بزيارة متيسا ملك أوغندة مرة ثانية فوصل الى « كيسوجا » فى ٢٩ منه ومنها ذهب الى محطة مرولى حيث التزم ان يتربص ثلاثة اسابيع فى انتظار مجىء الحمالين من قبل متيسا .

وفى ٢٠ نوفمبر سافر الى الجهـــة المقصودة ونظرا لبطئه فى السير دخـل « روباجا » فى ٢٢ ديسمبر . وروباجـــا هذه مقر متيسا . وفى أثنـاء مسيره وصل اليه عدة رسل من قبل متيسا ليبلغوه تحيـات الملك فتعرف من بينهم على كثير من معارفه القدماء .

مقابلته لملك أوغنـــدة

وفى ٢٣ ديسمـبر خـرج من مسكنه ليقـابل الملك المقـابلة الأولى .

وأخـــذ الموكب فى طريقه كالمرة السالفة ولدى وصوله الى البـــاب الأول أخبر بأنه يجب عليه التربص . ولما كان لايريد أن يعامل بمثل هـــذه المعاملة عاد وأمر فى الوقت نفسه رجاله بأن يتبعوه . وما كاد يخطو عشرين خطوة حتى لحق به كل الرؤساء وتوسلوا اليه بأن يعود فيقابله الملك فى الحال . وبما أنه كان لم يزل مترددا أتى شامبارانجو Chambarango الوزير وعيد كاتب الملك ومن معارفه القدماء مسرعين ورجوه أن يرجع معهم لأن الملك أرسلها خصيصا لذلك .

وقبل أمين افندى وعـــاد ادراجه ودخل مارا بمختلف الأبواب حسب العادة فرأى بجانب كل منها مدافع صغيرة من البرونز الاحرى تسميتهـــا دمية تلعب بهـــا الصغار لا أداة للتدمير والهلاك . ومن الباب الأول الى أن أفضى الى مقر متيسا مر بين صفين من الجنود مسلحين ببنادق بكبسول من الطراز القديم . ويقدر عـــدد الجنود بألف جندى تقريبـــا ومرتدين بكساو حسنة من نسيج القطن الأبيض . ولدى وصوله الى مدخـــل دار الملك حيته الموسيقا . ودخل قاعـــة الاستقبال ، وهى قاعة مقسمة بواسطة جذوع النخل الى ثلاثة أروقة متوازية . وهـــذه الجذوع موضوعة رأسيا على شكل اعمـــدة . أما اتساع القاعة فلا بد أن يكون ١٢ مترا فى ٦ امتار . وكان الرواق الذى فى الوسط الموصل الى العرش خاليـــا والرواقان المحاذيان له من اليمين واليسار حافلين بكبار الموظفين والضباط مرتدين بكساوى التشريفات ذات اللون الأحمر والأسود مذهبة ومفضضة . وكان واقفا بجانب كل عمود جندى متشحا بكسوة بلغت الوانها الغاية القصوى فى البهجة . وهو يقدم السلاح تعظيما .

واعتذر متيسا من عدم مقدرته الوقوف لما يعانيه من آلام المغص . ووضع مقعد أمين افندى بجانب العرش فجلس عليه وكان الملك عكس المرة السالفة مرتديا سروالا « بنطلونا » أحمر ومعطفا أسود وطربوشا أحمر وحذاء من هذا اللون الاخير ومعلقا فى عنقه سلسلة من الفضة وقرصا من الفضة أيضا سمكه كسمك الريال « مارى تريز » Marie-Thérése .

ووجه أمين افندى عندئذ الكلام الى الملك فقال له : ان غوردون باشا نظرا لما لاقيته منكم فى السنة الماضية من حسن الوفادة وكرم الضيافة كلفنى بالمجيء الى هنا وأن أقدم لكم الهدايا التى أرسلها الخديو من القاهرة برسمكم بناء على طلب الباشا المومى اليه . وزودنى بمعلومات مقتضاها توسيع سائر انواع العلاقات الودية السائدة الآن . هذا ولا ريب فى ان الملك يرى أنه من المفيد تنمية وتقوية هذه العلاقات . واستطرد فقال ان لديه تعليمات اخرى سيبديها باسهاب أكثر فى الجلسة القادمة وقدم عقب ذلك جوابات اعتماده مكتوبة باللغتين العربية والانكليزية وهى الجوابات التى تلقاها من الباشا .

وفتحت الجوابات فى الحال فالجواب العربى ترجمه مسعود وهو من عرب زنزبار وسكرتير الباشا . أما الجواب الانكليزى فترجمه مفتاح وهذا كان خادما لدى استانلى . وهنا قدمت الهدايا وفتحت وعرضت واحدة فواحدة وعلى مسافة إذ أنه كان لا يجب ان لا يقترب شيء من الملك . وبعد عرضها رفعت وحملت داخل القصر .

وبعد مبادلة بعض الحديث العادى الذى لم يلبث سوى مدة قصيرة استأذن أمين افندى وانصرف يصحبه عيد و « شامبارانجو » وبعد زمن يسير لحق بهم « كاتيكيرو » الوزير الأول وساكيلابو Sakilabo ورافقوه

الى باب داره . ووقتئذ أمسك بيدهم مسلما وطلب من « كاتيكيرو » أن يأتى فى الغد لزيارته ولكى يقدم له هديته .

وفى غضون هـــذه المقابلة التى استمرت ساعة من الزمن سأله متيسا عما إذا كان حقا أنه ذهب عند « كبارجـــا » وإذا كان هذا صحيحا فهل استصحب معه عددا كبيرا من الجند لأنه يرى انه من الأمور غير المحتملة التصديق انه ذهب الى هنالك .

وفى ٢٧ ديسمبر أرسل فى طلب أمـــين افندى لزيارته فذهب اليه فى الحـــال وقوبل بالطريقة التى قوبل بها فى المرة السالفة . وبعد أن جلس وتحدث مع الملك فى موضاعات تافهة ليس لها أهميـــة سأله هذا لمن يتبع الخديو وسلطان زنزبار . وعما إذا كانت ملكة الانكليز تستقبل سفراءه بحفاوة وهل يوجد فى افريقية ملوك أقوياء غير الخديو . وهل ممكن أن يبعث للخديو بسفراء وهل يقبل هو أى أمين افندى أن يرافقهم اليه .

وأجابه أمين افندى أنه يرى من واجبه أن يفعل ذلك لا سيما والخديو أرسل له سفراء وهدايا فى كل الأعوام مع أنه هو لم يرسل أحدا وهذا أمر ليس فيه شيء من الظرف والكياسة .

وأجاب متيسا أنه كان أرسل « تاندى Tandi » غير أنه رجع من مرولى دون أن يتمم مأموريته . وسلم أمـين افندى بصحة هذا القول إلا أنه سأله عما إذا كان من اللياقة أن يرسل ضابطا صغيرا مثل « تاندى » فى حين ان الخـــديو يرسل إليه أمراء ألايات . فسكت متيسا برهة ثم سأل عن عدد الايام التى تلزم للذهاب من هنا الى الخرطوم ومن هذه الى القاهرة وكم يوما

يلزم للوصول الى زنزبار .

وسأل متيسا بعد ذلك عما اذا كان لدى أمين افنـدى شيء آخر ليبلغه إياه فكان جواب هذا ايجابيا وقال له فى الوقت نفسه انه يود ان يراه يوميا ولكن يحول دون ذلك بعد المسافة بين بيته وقصر الملك فوعده متيسا انه سوف يعمل فى هذا الصدد ما يرضيه .

ودقت الطبول علامـة على انفضاض الجلسة فنهض متيسا ليدخل فى منزله وانصرف أيضا أمـــين . ودامت المقابلة ساعة زمانيـة أى من الساعة ١٠ الى الساعة ١١ صباحا . ولدى وصول أمين افندى الى سكنه وجد فيه كيزا Kisa وكيله قديما وكان قد قدم من مرولى وصادفته مصاعب فى الطريق وسبق رفيقه فى السفر وهو رجـل من رؤساء بحارة ريونجا . ويحمل هذا البحار بريد أمين افندى . وينتظر قدومه غدا .

وبقية هذه الرحلة مذكورة فى الملحق الأول للسنة التالية .

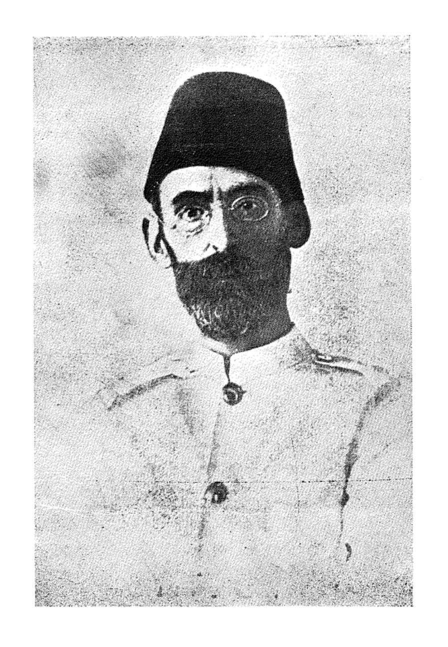
حكمدارية أمين باشا

من سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٨٩ م

سنة ١٨٧٨ م

كان أمين طبيبا المانى المحتد ترك دينه واعتنق الدين الاسلامى فى تركيا ثم بعد ان خدم حكومة هذه الدولة زمنا أتى الى السودان فألحقه غوردون الذى كان عندئذ حكمدارا عاما لمديريات خط الاستواء بخدمة هذه المديريات بصفة طبيب . والظاهر ان أمينا لم يقم بأعباء هذه الوظيفة قياما فعليا لأن غوردون كان كما سبق الايضاح كلفه بتأدية عدة مأموريات سياسية فى البلاد المجاورة مثل مأمورية الأونيورو والأوغندة . ويظهر أنه قام بهذه المأموريات قياما أرضى رئيسه حتى أنه فكر فى تعيينه حكمدارا عاما لمديرية من مديريتى خط الاستواء . أما المديرية الأخرى وهى مديرية بحر الغزال فكان غوردون باشا قد فصلها وقت تعيينه حكمدارا عاما للسودان وصارت فيما بعد مديرية مستقلة بذاتها .

وكان تعيين أمين لهذه الوظيفة قبيل منتصف عام ١٨٧٨ م . وبما انه قضى جميع ادوار خدمته فى الحكومة المصرية فى المديرية التى تعين فيها حكمدارا فلم تكن هذه مستجدة عليه أو هو غريبا عنها . ويلوح ان أمين كان عالما من العلماء واداريا إلا ان الخلال الحميدة التى كان يتحلى بها من الوجهة الادارية قلل كثيرا من ثمارها ضعف عزيمته



أمـــين باشا

ضعف عزيمته لأن من النتائج الطبيعية لهذا الخور التردد فى الامـــور وزاد الطين بلة اشتغاله بالمسائل العلمية أكثر كثيرا من اشتغاله بادارة مديريته . وأدى هـذا وذاك الى سوء المنقلب ووخامة العاقبة وما ذلك إلا لأن ادارة المديرية وقعت فى يد أوهن الحكمداريين الذين تقلبوا عليها وهذا فى الوقت الذى كانت فيه أحوج لمن يكون أمضاهم عزيمة وا كثرهم همة وذلك بسبب الحقبة الحرجة التى كانت مشرفة عليها وهى أحرج الحقب التى مرت بها .

تقسيمه المديرية الى اقسام إدارية

ابتدأ هذا الحكمدار بتقسيم الأرض من جديد تقسيما اداريا وعين ثلاثة وكلاء حكمداريين وعين لكل منهم مقرا فجعل مقر الأول « مكراكا » فى الشرق ، ومقر الثانى « كرى » فى القلب ، والثالث « ماجونجو » فى الجنوب وقسم المحطات أيضا بطريقة متساوية بين الثلاثة الاقسام على قدر الامكان . وعين لكل قسم قائدا عسكريا ووكيلا فوض اليه الفصل فى القضايا المدنية وأعطى لكل منهما كاتبا .

ورتب بريدا اسبوعيا لاتصال المحطات ببعضهـــا . وقال المبشر فيلكن Felkin ان المراسلات كانت تسافر وهى فى غاية من الأمن .

وحاول ان يوسع حدود مديريته بقدر ما يستطيع . وكان سير صمويل بيكر ضم بلد اللوريين و اللاتوكيين اللذين فى شرق النيل وذلك بدون ان يحتله فقام هو بهذا الاحتلال فى الحال وقوى صلات المودة مع الأهالى واجتهد فى التوسع فى الزراعة بقدر الامكان .

وأصدر غوردون أمرا باخـــلاء المواضع الواقعة جنوب نيل فكتوريا

وهو القسم الموصل بحيرة فكتوريا بالبرت نيانزا واعتبار هذا النهر الحد الجنوبى لمديريته وذلك على أثر قيام مشاكل فى الجزء الجنوبى من هذه المديرية . فرفض الحكمدار أمين ان يمتثل وينفذ هذا الأمر الذى كان يعتـــبره ضارا بأمن مديريته . غير ان غوردون ألح وبعث بجيسى الذى كان فى بحر الغزال فى ذاك الوقت لينفـذ الأمر ولكن ان هو إلا أن استقال غوردون من وظيفة حكمدار السودان العام فى السنة التالية حتى عاد فاحتلها .

ذهابه الى فالورو و فابو

وظل الحكمدار أمين وقتا فى لادو وزاره فى غضون هذا العام « بيرسون » Pearson و « ليتشفيلد » Litchfield و « فيلكن » Felkin . وقبيل آخر السنة شخص الى بلد الشوليين Shoulis حيث توجد محطة فاتيكو وذلك ان بعد مر فى طريقه بدوفيليه . وبعد ان زايل المحطة المذكورة انتقل الى فالورو وكانت المنطقة بين هاتين النقطتين عبارة عن سهل به مزروعات غاية فى الجودة . وقدم اليه شيخا الناحية وهما اخوان لزيارته وقدما اليه نابين بصفة هدية وقدم لهما هو أيضا بعض هـدايا وقدم كذلك بعض الهـدايا لأمهما وأحضرا له بناء على طلبه حمالين . والمنطقة التى يقطنها الماديون Madis كانت حافلة بالطماطم والموز .

ومن فالورو انتقـل الى فابو فقـــوبل فيها مقابلة لاتقـل فى المودة عن المقابلة فى الجهـــة الأولى . وأعرب الأهالى له فى الناحيتين عن رغبتهم فى ان تأذن الحكومة للدناقلة بالعودة الى المديرية . وكان هـؤلاء الاشخاص تجـــارا يأتون شراذم صغيرة بمنسوجات وبارود يستبدلونها بالرقيق . وبما ان الحكومة المصرية كانت تستنكر هـذا النوع من المبادلة فقد نقم هـــذا الحكمدار من مديريته .

ذهابه الى فاتيكو وعودته الى لادو

وكانت المحطة التالية لفابو فاتيكو ، وهى آخر مرحلة لزيادته هذه . وقد قام اليها فدخلها قبيل آخر ديسمبر . وكان الطريق بين الناحيتين ذاهبا صعدا وكانت فاتيكو هذه قاعدة مركز كثير الخصب وكانت معتبرة فى ذاك الوقت كمستودع لحبوب جميع المنطقة فيما بين دوفيليه و مرولى ويسكن هذا المركز قبائل الشولى . ويسمى شيخهم « روشاما » Rochama وبواسطة نفوذ هذا الشيخ وسيطرته تحالفت قبيلته مع الحكومة المصرية غير ان احد قواد المحطة السابقين عامله معاملة مهينة فانسحب الى جواره وقطع علاقته بالحكومة .

ولدى قدومه أرسل هذا الشيخ له ولده ليدعوه الى المجىء إليه لأنه كان لا يأمن هو نفسه المجىء . ولما كان الحكمدار يعلم أن الخطأ وقع من جانب الحكومة انتقل اليه عن طيب خاطر ليسوى مسألته .

وعند وصوله الى قرية روشاما القائمة على مرحلة يوم من المحطة استقبله حرس شرف مؤلف من رجاله متشحين بملابس ذات الوان بهيجة جدا ومسلحين ببنادق عتيقة وكان الشيخ واقفا على ناحية فى وسط فريق من الزنوج متسربلين بجلود مصبوغة حديثا باللون الأحمر . والتمسوا من الحكمدار أن ينتظر قليلا ريثما يذبحون عنزتين فى طريقه ويكون الدم قد سال ثم اجتاز روشاما على الدم وأتى وصافحه وذهب به الى قريته وهناك كان يوجد عنقريب « سرير » تحت شجرة فجلس عليه الشيخ . أما الحكمدار فجلس على مقعده . وكان واقفا على جانبى الشيخ حرس مسلح ويحيط به من كل ناحية جمع من العبيد الغوغاء مؤلف من ٣٠٠ زنجى ذكورا واناثا لابسين كساوى

متنوعة كثيرا سواء أكان من جهة الألوان أو الزى وبها جميع انواع الزخارف .

وكان يبدو على محيا « روشاما » Roshama سيماء المسرة من زيارته ومن الهدايا التى حياه بها وعوضا عنها منحه نابين فاخرين وقدم له زوجه لحباها ايضا بنصيبها من الهدايا . ثم آب الحكمدار بعد ذلك الى فاتيكو فلبث بها يوما وانقلب راجعا الى لادو عن طريق دوفيليه .

١ — ملحق سنة ١٨٧٨ م

مأمورية الطبيب أمين أفندى في أوغندة

القسم الثانى

من أول يناير الى ٢١ مايو

تبادل الهدايا مع ملك أوغندة ونفاد مئونة أمين افندى

فى أول يناير من سنة ١٨٧٨ م أرسل كاتيكيرو الى أمين افندى من قبل الملك هدايا متنوعة بمناسبة رأس السنة . وهذه الهدايا هى عنزتان ومزراقان وترس مصنوع من القش وحوضان من الفخار وحذاء وقطعة من قشور الشجر مشغولة ومديتان من صنع أوغندة . وعوضا عن ذلك بعث له أمين افندى ايضا ببعض الهدايا . وأعطى لأمين افندى ايضا منزل غير المنزل القاطن به وهو المنزل الذى كان يسكنه فى الرحلة الأولى وهو أقرب أكثر من نصف ساعة من المسكن الذى كان نازلا به .

ومتيسا الذى كان أمين افندى قد رأى ان صحته اعتلت كثيرا سقط فى مخالب مرض شديد ولم يتمكن أمين افندى من مشاهدته فى الايام التالية واضطر أن يطيل مدة اقامته أكثر مما كان يبتغى .

وفى ١٢ منه طلب من كاتيكيرو ان يمده بجانب من الموز لأنه هو ورجاله

لم يكن لديهم طعام سوى اللحم .

وكان متيسا لا يرسل شيئا وبدون أمره وإذنه لا يجرؤ أحد أن يرسل شيئا وكانت الأهالى تخاف أن تبيع لأمين افندى شيئا حتى بعض لوازمه .

اضطراره الى السفر والعودة الى لادو

وفى ٢٦ يناير كتب أمين افندى الى متيسا يطلب أن يؤذن له بالسفر الى مرولى لأن زاده آخذ فى النفاد وليس فى امكانه أن يدع رجاله يموتون جوعا . وبعد اقامة ثلاثة أشهر لدى متيسا أخذ أمين افندى فى نهاية الأمر أجازة تخول له السفر .

وفى ١٩ مارس عند الساعة ٨ صباحا حضر لأمين افندى من أخذه بالاحتفال المعتاد ليودع الملك . ودار الحديث بحكم الطبع حول سفره وطلبات متيسا . وتقرر ان يأخذ ٣٠ ثورا وان يرافقه الى الخرطوم كاناجوربا Kanagurba واثنان آخران ومنها يشخصون الى القاهرة لطلب الهدايا . وان يعين أمين افندى لدى متيسا شخصا بصفة وكيل ويحضر له بنادق وبارودا وطرابيش وفانيلات ومنسوجات حمراء وجوارب واحذية وجوادا . وان يرسل متيسا الى مرولى فيما بعد عاجا برسم البيع ولكن كل طلباته يجب ان تقدم له على سبيل الهدية أو يدفعها أمين افندى من جيبه الخاص . واستغرق الحديث وقتا طويلا وكان حادا وألح فيه متيسا مرارا على أمين افندى بالاياب وسلمه رسالة الى غوردون باشا واخرى للخديو بطلب بنادق « رمنجتون » Remington لجنوده . وبعد جلسة استمرت ساعتين استأذن أمين افندى فى نهاية الامر وانصرف .

وفى ٢٢ مارس جهزت جميع معدات السفر . وكان المتاع يستلزم ٥٠ حمالا غير انه ما كان يوجـــد منهم سوى ١٢ . وبعد كثير من الالحاح أمكن تكملتهم الى ٣٥ ودعت الحالة لترك ١٥ حملا وعد المتونجـــولى موكاصا Mtongoli Moukassa أن يلحق أمينا بها فى الحال . وفى الساعة التاسعة والنصف انطلقت القافلة فى المسير ورافقها جميع العرب الى مسافة ثم أفرغـــوا بنادقهم اشارة للتحية وقفلوا راجعين فحيتهم الجنود بتحية مثل تحيتهم .

وكان الطريق وهو نفس الطريق الذى سلكه أمـــين افندى فى العام المنصرم مع نور محمـد افندى يمر بين مساكن ومزارع وبعد أن سارت القافلة لغاية الساعة الواحـدة نزلت فى الخلاء طلبا للراحـة لأن الجنود كان ادركها التعب لتركها المشى من مدة طويلة . وقبيـل المساء قـدم رئيس وعشرة رجال مسلحين يحملون السلام من قبل متيسا وطلبوا بعض صواريخ فوعدهم أمين افندى بارسالها لهم عند بلوغه مرولى وسألهم أن يعجلوا بارسال متاعــه . ووصل كاناجوربا فى ساعة متأخرة من العشى ومعه أمتعته ولم يحضر أمتعة أمين افندى .

وبعد رحلة شاقة ومقاساة الصعائب مع الحمالين وصل أمـــين افندى الى مرولى وقضى بهـــا خمسة أيام وبعد ذلك تابع السير على متن الزوارق الى أن أدرك فويرا ثم اضطر أن يلبث فيها زمنا ليسترد جنـوده الذين كان المرض أنهك قواهم ، عافيتهم .

ومن فويرا سلك أمين افنـدى طريق البر ميما شطر كيروتو Keroto وفى اليـوم الاول عبر بلدا غـير مأهول مؤلفا من تلال مصفوفة وبه غابات من اشجار الموز وجميع ما فى منطقة افريقيـة الحارة من نبات ذى رونق وبهاء . وتغـير المنظـر فى اليـــوم الثانى فمرت القـافلة بمحيط واسع من الحشائش

لتنزل فى زريبـــة من زرائب ريونجا حيث قوبلت بالبشاشة والترحاب من أتباعه ، وكانت المرحلة شاقة لعدم استواء سطح الارض ولوجود كثير من المرضى بين صفوف الفرقة الأمر الذى حمل أمين افندى على ان يمشى الهوينا .

وفى ٢٨ أبريل بلغ ماجونجـــو وداوم السير متجها نحو دوفيليه و لادو فدخل هـــذه فى ٢١ مايو وقوبل فيها بالاحتفال المعتاد ان يقابل به كبار الموظفين فكانت الحامية مصفوفة على ضفة النيـــل على هيئة عرض لتقدم له واجب التعظيم . وعرض أمين افندى الجند برفقة القومندان نور محمد بك والضباط وانتقل معهما الى الديوان الذى كانت اقامته قد تمت حديثا وهناك قدم له جميع الموجودين عبارات التهانى .

ووجد امين افندى أيضا فى لادو الوفد المرسل من متيسا ملك أوغندة فأرسله الى غوردون باشا بالخرطوم .

---

٢ — ملحق سنة ١٨٧٨ م

رحلة الطبيب جونكر في مديرية خط الاستواء (١)

القسم الثالث

من أول يناير الى ٢٩ يونيه

عودته الى « رعـــو »

وفى أول يناير سنة ١٨٧٨ بدأ جونكر عـــودته مسافرا من نفس الطريق التى أتى منها . وقد تفشى مرض الجدرى بين رجاله فسبب أضرارا جمـــة وأودى بحياة الكثيرين فى الطريق وانتشر هـــذا الوباء فى كل البلد حتى بلـــغ لادو فاستحكمت حلقات الضيق وساد العسر . وترك هـــذا المرض اشأم أثر فى مكرا كا التى كانت اجمـــل منطقة فى مديرية خط الاستواء المصرية .

وكانت القافلة تسير متجمعة مع بعضها عندما تكون على أرض للاعداء وحالما تخرج منهـــا تتفرق وكل قائد محطة يسلك الطريق الذى يراه أقصر

(١) — راجع كتاب « رحلات فى افريقية » للدكتور جونكر المجلد الأول الفصل ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ .

للوصول الى محطته .

وعاد جونكر الى ريو مع احمد الاطروش اما عبد الله أبو زيد افندى رئيس تلك المحطة فسبقهما اليها لاعداد معدات الاستقبال وفعلا أنزلهما على الرحب والسعة واكرم وفادتهما احسن اكرام . وبعد ان أقام الاطروش زمنا يسيرا شخص الى محطته فى وندى .

زيارته لمحطة مدبرفى وعودته الى أوربا

وبما أن حملة كاليكا كانت انتهت من ارتيادها منطقة مكرا كا فقد خطر ببال جونكر ان يقفل راجعا الى اوربا . ولما كانت « مدبرفى » هى المحطة الوحيدة التى لم تطأها قدمه قرر ان يراها قبلما يبارح هذه البلاد نهائيا . وعلى هذا قام بدورة ليزور هذه المحطة عوضا عن ان يذهب الى كابايندى التى هى فى طريقه الى مدبرفى . وفى ظرف يوم واحد دخلها واستقبله فيها تومیه Tomé رئيس التراجمة نظرا لغياب قائدها . وتوميه هذا كان من ضمن رجال حملة كاليكا وكان جونكر قد اخبره بما كان ينويه من أمر ارتياد مدبرفى . وقد تطوع توميه لخدمة جونكر وقدم له جميع مطالبه . أما سكان مدبرفى فهم خليط مؤلف من عدة قبائل . وبعد ان أقام فيها جونكر زمنا يسيرا بارحها قاصدا كابايندى التى اتخذها محطا له . ومع انه كان غير ملم بالناحية التى مر بها فانه لم يستفد منها امرا جديدا إذ انها كانت تشابه تماما الناحية التى اجتازها من قبل .

وفى ٣٠ يناير بلغ كابايندى . ولما كان يتوقع ان يقيم فيها مدة طويلة اتخذ لنفسه الوسائل اللازمة لراحته على قدر الامكان مدة

اقامته وقضى اوقاته فى ترتيب وتنظيم مجموعاته واعداد جريدته اليومية وتنسيق نتائج ريادآته .

وقبيل منتصف شهر فبراير جاءه اخطار علم منه ان القافلة التى تقرر سفرها من وندى الى لادو ستبارح الجهة الأولى نحو آخر الشهر وانها ستكون مؤلفة من اناس عديدين .

وكان من أمره أن أعد معدات السفر ورحل الى كابايندى فى ٢٠ فبراير مارا بمكرا كا الصغيرة ليزور احمد افندى الافغانى قائد المحطة لآخر مرة قبل ان يبارح المديرية فاستقبله هذا ككل مرة فى منزل منظم احسن تنظيم . ويقول جونكر انه يستحق اتم المدح والثناء لعنايته العناية البالغة ببساتينه ومزارعه وكان هو واحمد الاطروش من اقدم الجالية فى مكرا كا .

وفى ٢٢ فبراير وصل الى وندى فوجد المحطة نقلت من مكانها بعد مبارحته لها الى مسافة ربع ساعة من محلها القديم ولكن احمد الاطروش الذى كان ترقى الى رتبة بك ظل فى زريبته القديمة مفضلا ان يبقى فى وسط بساتينه مؤثرا عدم البعد عنها .

اما بخيت افندى بترا كى الذى كان هو ايضا نال رتبة القائمقام فقد نمى اليه خبر قدوم جونكر فأعد ما يلزم من المعدات لاستقباله . ولدى وصوله تبين له ان القافلة لن تسافر فى القريب العاجل وعلى ذلك أعد العدة للاقامة فى وندى مدة لأنه نظرا لما كانت تبديه قبائل النيامبارا والبارى المقيمون على طريق لادو والذين لم يخضعوا للآن لسيطرة الحكومة من ضروب العداوة كانت هذه تأبى ، ولها الحق فى ذلك ، أن تسمح

له بالسفر مخفورا بحرس قليل العدد .

وانقضى النصف الاول من شهر مارس وتقـــرر السفر فى ٢٠ منـه وحصل فعـــلا فى هذا التاريخ . وكانت القافلة مؤلفـة من جمع كـبير واتبعت فى سيرها النظـــام الذى سارت عليـه فى الذهاب حتى مبيت رجال القافلة فى المعسكرات القديمة . ومرت القافلة بنيامبارا وهـــذه المحطة دواما مفتقرة الى الزاد واحتياجاتها منه كانت ترسل اليها باستمرار من مكراكا وفى نهاية الأمر وصلت الى لادو فى ٢٩ مارس ونزل معظم رجـــال القافلة خارج المحطة كالمرة السالفة .

ولدى وصول جونكر الى لادو علم بخـــبر مكدر وهـو خبر سفر الباخـــرة الى الخرطوم من أيام قلائل وفى هـــذه المرة ايضا اضطر أن يخضع لأحكام القضاء والقـــدر . نعم إنه كان من النظام المقرر سفر باخرة فى كل شهر الى هـــذه المدينة ولكن المواصلات لم تكن منتظمة مطلقا نظرا للعوائق القائمـــة فى النهر غير انه رغمـــا عن ذلك لم يطرأ على فكر جونكر انه سيضطر أن يبقى فى لادو لغاية شهر يونيـــه لأنه لو كان يتوقع حدوث ذلك لكان سافر فى الحـــال ليرتاد محطات الجنوب التى كانت على طول النيـــل وهى الرجاف و كري و موجى وغيرهـــا وهى الرحـــلة التى كان يريد القيام بهـــا فى الأيام الأول من اقامته فى لادو . وعلى ذلك امتثل لأن ينتظر والآمال تخامره بأن لا يتأخر مجىء وقت سفره زمنا طويلا .

وفى وقت غيابه فى مكراكا حدثت تغيرات جمة فى ادارة مديرية خط الاستواء فعوردون الذى تولى أمر حكمها من سنة ١٨٧٤ سافر منها وعين حكمدارا

عاما للسودان وتقرر إقامته فى الخرطـــوم وخلفه فى تولى حكمدارية مـديرية خط الاستواء أميرالألاى براوت بك غير انه لم يستمر فى هـــذه الوظيفـة إلا أمـــدا قصيرا وأتى بعـده أميرالألاى ميسون بك ودار حـول شواطىء بحيرة البرت نيانزا وعمـل لها خريطة وعـــاد بعدها الى الديار المصرية . وفى وقت وصول جونـكر كان ابراهيم فوزى بك حكمدارا لمديرية خط الاستواء . وكان هذا لا بد ألا يطول أمد تمتعه بهذه الوظيفة .

وكوتاح افندى Koutah Effendi مدير لادو الذى تعرف به الطبيب أمين افندى فى ابان رحلته الأولى كان قد نقل الى إحدى محطات أعالى النيل فقتل فيها هو ورجال حامية هذه المحطة فى أثناء هجوم قام به أهالى تلك الناحية .

وفى ٥ أبريل سافر كل رجل من رجال مكراكا القادرين على حمل السلاح الى الجنوب بقيادة بخيت بك للأخـذ بثأر كوتاح افندى وجنوده وكان قد تقرر أن يتبعهم أيضا آخرون من المحطات الجنوبية .

وانقضى شهر أبريـل بدون أن تصل أية باخـــرة . وفى ٢٢ مايـــو داخـل جونـكر الفرح لقدوم أمـــين افـدى من رحلتـه فى أوغنـدة التى أرسله اليها غوردون . ولدى وصـوله خرجت الحاميـة الى المرسى لتقـدم له مراسم التعظيم حيث استقبـله الموظفون وعلى رأسهم المـدير نور بك محمـد و جونـكر . فبعد أن سلم أمـين افنـدى على الجميـع واستعرض الجند ذهب الى الديوان وفيه قدم له واجبات التهانى كل الحاضرين .

وسر جونـكر سرورا لا مزيد عليـه لوصول أمـــين افـدى وأخـذا يتبادلان يوميا المقابلات فكان كل منهما يبدى للآخر فى غضونها ما صادفه

من المؤثرات وما جمعه من المشاهدات أثناء القيام برحلته .

وفى ٣ يونيه طرق الآذان دوى صفير مؤذن بقدوم الباخرة فكان لذلك رنة فرح فى القلوب وبعد هذا بقليل أتت وألقت مراسيها أمام المحطة وكان قدومها مباغتة تامة إذ أنه لم يعلن ذلك القدوم كالمعتاد بواسطة الدخان الذى يمكن رؤيته من مسافات شاسعة لانبطاح الاراضى المحاذية للنيل انبطاحا تاما .

ويحدث دواما وصول اية باخرة الى لادو انتعاشا وفائدة مادية فى المحطة لأنه عدا البضائع التى ترسلها الحكومة لموظفيها يجلب بحارتها ايضا معهم الاشياء فيبيعونها ويجرون من وراء ذلك مغانم .

وكانت البضائع التى ترسلها الحكومة توزع على مستخدميها بواسطة مديرى المديريات كل بحسب درجته ومركزه ويحجز ثمن ما اخذوه مما يكون استحق لهم من المرتب .

وكان يوزع يوميا للعساكر علوفة من الذرة المخزونة فى مستودعات المحطة وهذه الذرة كانت تؤخذ من الاهالى نظير الجزية المفروضة عليهم أو مما يجلب من الغنائم على أثر القيام بشن الغارات . ويوزع على المستخدمين نصيب من اللحم يوميا متى كان ذلك فى حيز الامكان . اما الجنود فيوزع عليهم أنصبة فى كل يومين أو مرة واحدة فى الاسبوع وذلك حسب عدد المواشى التى فى المحطة .

ولقد استقل من هذه الوجهة مع كر الايام عدد كبير من الموظفين بأنشاء بساتين ومزارع . وهذا العمل هو خير الوسائل لتنمية الروح

الاديـــة بين الاهالى واقربها لمتناول افهامهم . ويقول جونكر نعم ان المصريين على وجه العمـــوم أساءوا معاملة الاهالى اساآت شديدة إلا أنهم أوجدوا فى مكراكا أحوالا من شأنها أن تجعل تقدم المدنيـة فى حيز الامكان وتكسب البلد شكل حكومة جامعا لعناصر من مختلف الشعوب تسودهم حكومة وحيدة موطدة الاركان .

وذكر جونكر فى المجلد الأول من كتابه الآنف الذكر بالصفحة ٥٠٠ مامعربه .

« ان الفضل فى الزام الزنوج بضرورة الاحتفـــاظ بالسلم مع القبائل المجاورة لهم ، ومكثهم على قـدر الامكان فى مواطنهم وحراثة اراضيهم يرجع الى ضغط المسلمين عليهم . وهـذا أمر لا يلزمنـا ان نبخس فوائده . فبحسن مساعى الحكومة المصرية وضعت بـلاد الزنوج تحت سيطرة المسلمين فقتحت بذلك الطريق لاحسن المدنيـــات ومهما اشتد ضغط حكومة اجنبية فان هـذا الضغط يكون دواما أفضل وأفيـد كثيرا للزنوج من استبداد رؤسائهم الوطنيين ذلك الاستبداد الذى ينتج منه على وجه العموم حروب ابادة وفناء بين العبيد » . اه

وقضى جونكر أيام اقامته الاخيرة فى لادو مغتبطا مسرورا وهـــو يتأهب للرحيل . وكان ابراهيم فوزى بك الحكمدار العام فى هذه المـــدة يطوف فى أنحـــاء المراكز ووصل الى لادو قبـــل سفر الباخرة بزمن يسير . وقد كان تأخر اقلاع هـــذه الباخرة أياما قلائل لدواع مصلحية . وفى النهاية أبحـــرت تقل كمية كبيرة من العـــاج الى الخرطوم . ودفع جونكر أجرة سفره هـــو وخادميه ومتاعه مبلغا قـــدره ١٦٢ ريالا ثم

ذهب ليودع أمين افندى وهذا رافقه الى أن استقل ظهر الباخرة . وكان ذلك يوم ١١ يونيه . ورست الباخـــرة فى محطات بور و شمبي و السوباط و فاشودة و جهات أخرى لأخذ وقود ووصلت فى نهاية الأمر الى الخرطوم بتاريخ ٢٩ يونيه بدون حدوث أى طارىء فى طريقها وذلك بعد أن قضت فى رحلتها هذه ١٨ يوما .

وحالما وصل جونكر بادر بتقديم تشكراته الى غوردون للتسهيلات التى صادفها بناء على أمره . ثم بعد أن أقام شهرا فى الخرطوم بارحها فى ٢٨ يوليه ميمما القاهرة عن طريق وادى حلفا ثم رحل من القاهرة الى أوربا .

٣ — ملحق سنة ١٨٧٨ م

رحلة المبشر فلكن
من لادو الى أوغندة (١)

القسم الأول

من ١٨ نوفمبر الى ٣١ ديسمبر

فى فصل الربيع من سنة ١٨٧٨ م وردت الانباء الى جمعيـــــة مبشرى الكنيسة الانجيلية الانكليزية بأن الأهالى قتلوا عضوين من أعضاء بعثتها التى فى أوغندة عند شواطىء بحيرة فكتوريا نيانزا وعلى ذلك لم يبق من تلك البعثة فى أوغندة سوى المبشر ولسن Wilson . وعلى أثر هذه الانباء قررت الجمعية المذكورة أن ترسل إليه امدادا مؤلفا من المبشرين « ليتشفيلد » Lichfield و « بيرسون » Pearson و « هول » Hall و « فلكن » Felkin ووقع الاختيار على ان تسير هـــذه البعثة عن طريق النيل لأن غوردون باشا الذى كان وقتئذ حكمدارا عاما للسودان كان عرض ان يدفع نفقات جماعة من المبشرين ويدعهم يمرون من حكمداريته الفسيحة المترامية الاطراف بدون ان يدفعوا شيئا ما .

---

(١) — راجع الجزء الذى وضعه فلكن من كتاب « أوغندة والسودان المصرى » الفصل ١ و ٢ و ٤ و ٥ و ٦ .

وليس من اغراض هـذا الكتاب التعرض لوصف القسم الخاص برحلتهم خارجا عن حدود مديرية خط الاستواء فنكتفى بالقـــول إنهم سافروا من انكلترا فى ٨ مايو سنة ١٨٧٨ وبلغـوا لادو عاصمة المديرية فى ٩ أكتوبر من نفس ذات السنة فاستقبلهم امين بك الحكمدار وبذل لهم جميع ما فى استطاعته من التسهيلات .

وكان المبشر هول قد افترق من هـذه الجماعة فى سواكن ومن هـذه قفـل راجعـا الى بلاد الانكليز وذلك بسبب مرضـه . وحـــال وصولهم الى الخرطوم أصـــدر غوردون باشا أمرا بتزويدهم بالحمالين بدون أن يدفعوا شيئا وأن يعطى لهم عند الاقتضاء حرس من الجند وأن تقدم لهم مساكن فى كل محطة مصرية فى جميع دائرة حكمداريته .

وفى ١٨ نوفمـــبر تابعوا مسيرهم من لادو ميممين الرجاف ومن هـذه أبحـروا على متن سفينتين ليصعدوا شلالات بيدن ولم يتم لهم ذلك إلا بعـد أن اقتحموا اخطـــارا شديدة وبعد أن جـــر التيار رجلين من أولئك الذين كانوا يجرون السفن بالاحبال . وكان المر رائعا جميلا وأفراس البحر يموج بكثرتها ماء النهر .

واستغرقت رحلتهم الى دوفيليـه ستة أيام ودخـلوها فى ٢٤ نوفمبر فأعجبتهم متانة بناء محطتها وهى واقعـــة على ضفة النيل وذات أهميـــة عظمى وشوارع هـــذه القرية نظيفة ومتسعة ومساكنها مصنوعة من أعواد الخـيزران بينما مكتب الحكومـة وهـــو فسيح الارجـــاء مبنى من اللـــبن وكان يوجد مخازن كبرى مبنية بالآجر والعمارة الأكثر أهميـة فيها هى الترسانة النهرية لأنها رأس خط الملاحـــة الى الجنـوب ومحـل مرسى الباخــــرتين

« الخـــديوى » و « نيانزا » ، والاولى منها ذات قوة كبيرة ولها رفاسان وحمولتها ١٠٨ أطنان وطولها ١٠٠ قدم وحالة الاثنتين فى غاية من الجـــودة وللسفينة الأولى أيضا مخادع يجد فيها المسافرون الراحة التامة . ويكتنف المحطة سياج من الخشب وبها ثلاثة مدافع ميـــدان وللمستخدمين بساتين حسنة فيهـــا سائر أنواع الخضر المحلية . ويوجـــد على الضفة الشرقية مساحات واسعة مزروعة ذرة . وهـــذا النوع يتوسعون فى زرعه فى هـــذه المنطقة كثيرا جدا .

وكان النهر صالحا للملاحة لغاية ماجونجو وبحيرة البرت نيانزا ويستغرق السفر ٣ أيام وكانت الباخـــرة « الخديوى » لنكد حظهم داخلة فى العمرة فالتزمـوا الابحار على متن الباخرة « نيانزا » التى أقلعت من « دوفيليه » فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٧٨ .

وكانت كل المسافة تموج بالقرى والمزارع لكثرتها على الضفتين .

وفى ٢٣ منـه وصلت الباخرة الى مصب بحـــيرة البرت نيانزا وأخـذت تمايل بسبب تماوج مياه البحيرة ولكن بعد ملاحة ساعة دخلت ثانية فى النيل وعندئذ عادت الى الهدوء وبعد قليل افضت الى ماجونجو .

وكانت محطة هذه الناحيـة قد أقيمت فى الأصل على الرأس الفاصل بـين مصب النيل والبحيرة . ولما كانت التيارات أخذت تعدو على هذا الرأس فتجرفه ذعت الحالة لنقل المحطة الى داخل الأرض .

وكانت هـذه المحطة مبنية بناء جيدا والنظافة مرعية فيها ويحيط بهـــا متراس قـوى من التراب وخندق عمقـه ١٠ أقدام ويوجد بها مدفع ميدان

وأنبوبتان للصواريخ وعدا الحرس كان يوجد فيها أيضا نقط أمامية لأن كباريجا ملك أونيورو كان يرنو اليها بعين الجشع .

وكان المرسى على شكل حدوة الفرس وكان الوابور يرسو فيه لعمقه . ولدى وصول المبشرين اصطفت فرقة من الجند أمام المرسى وعلمها يخفق على رؤوسها وحال نزولهم من الباخرة حياهم أولئك الجنود وعزفت الابواق السلام الوطنى المصرى .

ونظرا لغياب القومندان مرجان افندى الدناصورى استقبلهم وكيله محمد افندى وهو ضابط باسل لم يزل فى ريعان الشباب بحفاوة كبرى . وكان منظر العساكر بكساويها البيضاء بهجة للناظرين .

وأنزلوا أولئك المبشرين فى اكواخ قائمة فى بقعة جميلة جدا تحت شجرة باسقة وخارج المتراس بالضبط .

وكانوا قد قرروا أن يقوموا فى الغد ٢٤ ديسمبر بجولان عند مساقط مورشيزون ولذا استيقظوا مبكرين ولدى وصولهم الى المرسى وجدوا الباخرة نيانزا متأهبة للسفر وكان محمد افندى قد أعد لهم غذاء فاخرا ليأخذوه معهم فى جولانهم وسافروا فى الحال .

وبعد أن تركوا وراء ظهورهم ماجونجو أخذ النهر يضيق تدريجيا وابتدأت الضفاف فى الارتفاع . وطفقت الأعين تقع فى الجانبين على أشجار بلغت مبلغا عظيما فى الجسامة ونبت بهيج وطيور ريشها جامع لمختلف الألوان وقردة . أما النهر فاؤه كان يموج بكثرة ما فيه من تماسيح وافراس بحر . وبالاجمال تحتوى هذه البقعة على جميع ما احتوى عليه منظر المنطقة الحارة

من بهاء وجــلال . وكلما اقتربوا من المساقط زاد اضطراب الماء وازداد دوى سقوطه . وفى نهاية الامر صارت المساقط بمرأى منهم غير انهم لم يتمكنوا من الاقتراب منها الى مسافة تقــل عن نصف ميل وظلوا برهة طــويلة منذهلين أمام جمــال سقوط الماء سقوطا رأسيا من علو ١٢٠ قدما . ثم حاولوا النزول من الباخــرة ليقتربوا من المساقط سعيا على الاقدام ولكنهم باءوا بالفشل بسبب تراكم الاشجار وكثافتها . ثم بعد ان متعوا ابصارهم مرة أخــرى بهذا المنظر الفتان وهم فى الباخرة قفلوا راجعين الى ماجونجو .

ووقع عيد الميلاد فى اليوم التالى فأتى اليهم موظفو المحطة وقدموا لهم أحسن التمنيات ودعاهم قائد المحطة للغداء عنده وكان هذا الغداء على حسب اعترافهم من ألذ ما تناولوه من الطعام فى افريقية .

وأقامــوا أيضا يومين فى ماجونجــو ليظفروا بحمالين غير ان هذا الأمر لم يكن سهل المنال لأن كباريجا سمع بقدومهم فأمر بأن لا ينقل أحد متاعهم ولكن محمد افندى أخذ على عاتقه ان يقدم لهم مطلوبهم وفعلا أحضر لهم الحمالين .

وفى ٢٨ ديسمبر انطلقوا فى السير بعد ان حيتهم الجنود التحية العسكرية كما حدث عند قدومهم وبعد ان ودعوا الضباط ذاكرين لهم كرم ضيافتهم وعظيم فعالهم وحسن مقاصدهم .

وتركوا الباخرة فى ماجونجو لأنها لا تستطيع ان تبعد اكثر من ذلك وساروا برا على ظهور الحمير وتجشموا كثيرا من الصعاب مع الحمالين الذين

كانوا من طبقة الاوغاد غير أنه كان يرافقهم لحسن الحظ حرس قوى من الجنود فعاونهم معاونة كبرى . وهجم عليهم وهم فى الطريق رجال كباريجا فى اليوم الأول لأن هؤلاء الرجال ما كانوا يتوقعون ان يروهم مخفورين بحرس . وارتد المهاجمون تاركين على الثرى رجلا منهم . وأقيم فى الليل حرس قوى وحدث فى غضونه عدة هجمات فردتها نيران الجنود . ومما زاد الطين بلة تهاطل الامطار وهبوب الزوابع وعصف الرياح وبالاجمال كانت الرحلة غير سارة أبدا .

وبقية هذه الرحلة مسطورة فى الملحق الثانى للسنة القادمة .

٤ — ملحق سنة ١٨٧٨ م

رحلة المبشر ولسن

من أوغندة الى كسونا [١]

ذهابا وإيابا

القسم الأول

من ٢١ نوفمبر الى ٣١ ديسمبر

كتب استانلى فى مارس سنة ١٨٧٥ وكان عندئذ فى أوغندة رسالة نشرتها الجرائد الانكليزية يقول فيها ان هذا البلد صالح جدا لأعمال المبشرين . وفى بحر عدة أيام عرضت عدة هبات على جمعية مبشرى الكنيسة اذا هى تعهدت بارسال بعثة الى بلد متيسا . وقبلت الجمعية ووجهت الدعوة الى المتطوعين فلبوا دعوتها . وفى ربيع سنة ١٨٧٦ سافرت من انكلترا الى زنزبار بعثة منظمة تنظيما تاما برئاسة الملازم « سميث » Smith . ووصلت الى شاطىء بحيرة فكتوريا نيانزا الجنوبى فى مايو سنة ١٨٧٧ .

وكانت هذه البعثة مؤلفة من أربعة أعضاء مات منها الدكتور سميث لدى وصوله الى البحيرة وقتل الملازم سميث والمستر « أونيل » O'Neill

(١) — راجع الجزء الذى وضعه ولسن من كتاب « أوغندة والسودان المصرى » ، الفصل العاشر .

بيد الاهالى فى جزيرة من جزر البحيرة وبقى منها المبشر ولسن وظل وحده فى أوغنده لغاية خريف سنة ١٨٧٨ م

وعندما علمت الجمعية بهذا المصاب بادرت بارسال بعثة أخـــرى . وفى ٦ نوفمبر وصل الى ولسن من الحكمدار أمين بك فى روباجا خطاب يقول له فيه انه سيأتى قريبا ثلاثة مبشرين عن طريق النيل الى مرولى وهى آخر محطة عسكرية مصرية فى الحد الجنوبى واقعة على بعد ٣٠٠ كيلومتر من روباجا .

وفى ٢١ نوفمـــبر سافر ولسن من روباجا الى مرولى وفى ٦ ديسمبر شاهد العلم المصرى على مسافة يخفق على هذه الناحيـــة . ولدى وصوله اليها أطلقت المحطة مدفعين إيذانا بقدومه ووجد فرقة من الجنـــد مصفوفة خارج المحطـــة فقدمت له الاسلحة تعظيما وعزفت الأبواق السلام المصرى . واستعلم عما اذا كان رجال من البيض قد قدموا فأجيب سلبا . غير انه قدم اليه خطاب من بيرسون وهو مبشر آخر يدعـــوه فيه أن يأتى الى فويرا وهى محطة عسكرية مصرية أخرى واقعة على بعد زهاء مائة كيلومتر من مرولى .

واستقبل ولسن احسن استقبال وقدم له الضباط واجبات الضيافة فى محطة مرولى ووضعوا تحت تصرفه ديوان الحكومة وقدموا له الطعام بالمزيد لأن الحكمدار كان أصدر الأوامر بأن يعامل اذا أتى الى مرولى أو أية محطة أخرى من محطات مديريته معاملة ضيف عزيز نازل عنده .

وفى ٩ ديسمبر شخص من مرولى الى فويرا فوصل اليها فى ١١ منه وكان يأمل أن يجد فيها اصدقاءه إلا أنهم ما كانوا وصلوا اليها لغاية هذا التاريخ .

ووضع تحت تصرفه محمد افندى قومنـــــدان المحطة الذى كان عقـد معه عروة الصداقة كوخا حسنا جدا خارج المحطة مطلا على النيل ومشرفا على منظر جميل وعلى النواحى المجاورة .

وفى النهاية ورد له فى ٢٦ ديسمبر خطاب من بيرسون وفلكن يقولان فيه ان المرض عاقهما وانهما سيأتيان بطريق البرت نيانزا وماجونجو .

وبقية هذه الرحلة مذكورة فى الملحق الأول للسنة التالية .

سنة ١٨٧٩ م

حكمدارية أمين باشا

إنجازه للأعمال الادارية فى ماجونجو

لم يتصل بنا شىء من أخبار تنقلات هذا الحكمدار لغاية شهر نوفمبر من هذه السنة وقد يجوز أنه ظل مقيما فى لادو . وقد سافر فى هذا التاريخ الى دوفيليه ومن هذه الجهة شخص نحو الجنوب .

وفى ١٧ نوفمبر وصل الى وادلاى فلم يحضر اليه شيخها المسمى أيضا بهذا الاسم غير أنه أرسل اليه أخاه مصحوبا بثلثمائة زنجى ومعه نابان من أنياب الفيلة بصفة هدية . وسبب عدم قدوم الشيخ على ما يظهر أنه رجل بادن بدرجة لا يقدر معها على المشى .

وقدم له الحكمدار هدايا وحادثه بصدد إقامة محطة فى ناحيته وطال بينهما الأخذ والرد إلا أن الخاتمة كانت مرضية ووعده الحكمدار بأن يشدد الرقابة على جنوده وعلى ذلك وافق على إقامتها ثم طلب منه أن يحضر له وقودا للباخرة فأجيب الى طلبه فى الحال . وعلم من الأهالى أنهم يتبادلون متاجر واسعة النطاق مع الشوليين Shoulis فى الضفة الشرقية وأنه فى حيز الاستطاعة الذهاب الى فاتيكو عن طريق فابو فى ظرف ثلاثة أيام .

وتحركت الباخرة بعد شحن الوقود وكان التيار شديدا جدا وبعد

ابحار ست ساعات ألقت مراسيها عند سفح سلسلة تلاع بقصد مقابلة شيخ آخر غير أنه لسوء الحظ بمجرد إدراك القرية الواقعة خلف التلال لوحظ أن جميع الأهالى تعلقوا بأذيال الفرار وقضت الحال أن يرسل اليهم ترجمانا ليدخل فى روعهم الطمأنينة . وفى نهاية الأمر أقنع واحدا منهم بالرجوع وهذا وعد بأن يذهب فيستحضر الشيخ ولكنه عاد فى اليوم التالى وقال إن الشيخ يأبى اجابة دعوة الحضور لأنه استقبح عدم المجىء اليه مباشرة .

وانطلقت الباخرة تشق عباب الماء فوصلت فى العشى الى ماجونجو الواقعة عند مدخل بحيرة البرت نيانزا حيث عقد هذا الحكمدار النية على الاقامة وقتا يسيرا .

وقضى مدة إقامته فى إنجاز الأعمال الادارية ودرس العلاقات المتبادلة مع الأهالى وكان شأن هذه المحطة شأن المحطات الأخرى من جهة نفاد الذخيرة ومختلف الواردات بسبب انسداد النهر فى مناطق السدود الأمر الذى نشأ منه قطع المواصلات مع الخرطوم زهاء حولين .

وفى ٦ ديسمبر قدم من أوغندة وفد يحمل هدايا من متيسا ووزيره الاول كاتيكيرو برسم الحكمدار ومكاتيب منهما ومن عرب أوغندة والمبشرين الانكليز والفرنساويين .

سفره الى محطة ماهاجى وزيارته الضواحى التى حولها

وأبحر الحكمدار بعد أن أنهى ما لديه من الأعمال فى ماجونجو الى محطة « ماهاجى » Mahagi الواقعة على شط بحيرة البرت نيانزا الغربى

ومشت الباخرة مع امتداد الشط المذكور وكان عمق الماء لا يتجاوز ثمانى عشرة قدما . وصادف صعوبة فى النزول لدى وصوله أمام المحطة بسبب قلة غور الماء .

وهذه المحطة قائمة فى وسط حقول نضرة منظرها يأخذ بالالباب وخلفها سلسلة طويلة من الجبال المرتفعة وأمامها ماء البحيرة ممتدا الى مسافات شاسعة .

وذهب أمين بك لزيارة سوندا Sonda وهو رئيس قرية كبيرة تسمى « توا » Toa واقعة قرب المحطة . واكواخ هذه القرية مبنية على نمط اكواخ الأونيورو . فوجد نساءها منهمكة فى القيام بالاشغال المنزلية والرجال يشتغلون بالفلاحة وبصيد الأسماك والقنص وحلب البقر والعنز . أما مزروعاتهم فهى الذرة البيضاء والصفراء والتبغ والسمسم والقثاء والبامية .

والطريق البرية بين محطتى ماهاجى و وادلاى تمر بمنطقة جبلية وقائم عليها قرى كبيرة . أما أمر النظافة والنظام فيها فحدث عنها ولا حرج . وهذه القرى حافلة بكثرة سكانها وبها من الأنعام القطعان الكثيرة . وقدم الى أمين بك بعض رؤساء الزنوج المقيمين فى الضواحى لزيارته فأثروا فى نفسه تأثيرا حسنا سواء أكان من جهة الهيئة أم من جهة أساليبهم . وعلم منهم أنهم يقرون لكباريجا بالسيطرة عليهم وانه يوجد بينهم وبين منطقة الأونيورو صلات متينة وأنه يوجد كذلك تجارة واسعة النطاق تقوم بنقلها مراكب تسير بمحاذاة ضفة النهر الغربية الى ان تصل الى مصب النهر فتجتازه وتذهب الى ماجونجو أو « كيبيرو » Kibiro وتبادل على

ما فيها من الحاصلات . وسكان هذه الناحية يختتنون .

وكان الحكمدار يود لو أتيحت له إطالة إقامتـــه فى هـذه المنطقة الكثيرة الأهمية غير أن اعماله كانت تتطلب قيامه الى جهات أخرى فولى وجهه شطر الشمال . وجاء آخر الحول وهو فى دوفيليه .

١ — ملحق سنة ١٨٧٩ م

رحلة المبشر ولسن
من أوغندة الى كسونا (١)

ذهابا وإيابا

القسم الثانى

من أول يناير الى ١٤ فبراير

وفى أول يناير تلقى ولسن رسالة من بيرسون يقول له فيها إنهم أمسكوا مرة أخرى فى كيروتو عن متابعة السفر بسبب ما لحقهم من التعب والنصب . وكيروتو هذه محطة مصرية أخرى على مرحلة ثلاثة ايام من فويرا . وعلى ذلك قرر ولسن أن يذهب لمقابلتهم إذ أنه لم يعد فى استطاعته ان ينتظر أكثر من الوقت الذى قضاه فى الانتظار فسافر فى اليوم التالى بصحبة ثلاثة من الجنود وثلاثة حمالين وخدمه .

ولدى بلوغه « كسونا » الواقعة على بعد بضع ساعات من كيروتو وجد فيها أنفينا رئيس الناحية فعلم منه أن أصدقاءه بارحوا كيروتو وأنهم سيكونون فى كسونا فى عشية نفس اليوم . وفى الساعة الثالثة وصلت القافلة

(١) — راجع الجزء الذى وضعه ولسن من كتاب « أوغندة والسودان المصرى » الفصل العاشر .

فكان ضمنها پيرسون و ليتشفيلد فقط إذ كان فلكن بقى فى كيروتو مع الترجمان الذى كان يعالج سكرات الموت . وقضوا الليل معا يتسامرون فى مختلف الشؤون الى الهزيع الأخير منه .

وفي الغد لحق بهم فلكن وكان الترجمان قد أدركته منيته فى الليل . وتابع الجميع السير الى فويرا من جديد فدخلوها فى ٧ يناير وأقاموا بها أسبوعين ثم شخصوا الى مرولى لأنهم علموا أن الحمالين الذين طلبوهم من متيسا قد وصلوا الى هذه الجهة .

وفى ٢٧ يناير أفضوا الى مرولى فوجدوا فيها الحمالين الذين بعث بهم متيسا وسافروا منها فى ٣ فبراير . وفى ٨ من هذا الشهر اجتازوا الحدود المصرية . وفى ١٤ منه حطوا رحالهم فى روباجا .

٢ — ملحق سنة ١٨٧٩ م

رحلة المبشر فلكن
من لادو الى أوغندة (١)

من أول يناير الى ١٤ فبراير

فى أول يناير من سنة ١٨٧٩ وصلت جماعـــة المبشرين الى كيروتو وهى محطة عسكرية مصرية . وداخلهم شيء كثير من المسرة عندما وجدوا أنفسهم فى كنف سياجهـــا إذ أنهم فى غضون جـولاتهم فى المسافة الواقعة بين ماجونجـــو والمحطة المذكورة كانوا عرضة لتغير حالة الجو وعدم اعتـــداله ومجاهرة الاهالى بالعدوان . وحاق بهم شيء من الاحزان بسبب موت ترجمانهم نقـــولا السورى الذى لبث بعض وقت مريضا ثم عاجلته المنية عند وصولهم ودفن فى موضع مناسب .

وموقع المحطة بديع للغاية . ويوجد هـذا الموقع فى وسط أرض مكشوفة لا شجر فيها تحيط بها غابة شاسعة مترامية الاطراف . وأنشىء حولها فضاء مساحته ٢٠٠ متر حتى لا يجد العدو ملجأ يأوى اليه . ولما لم تكن الحامية ذات قوة كافية لتقـوم بالحراسة وتشتغل فى وقت واحد كانت لا تمتار إلا بصعوبة لا سيما أن القرى التى تكتنفها ليس فيها مصاف ولا صديق وكباريجا لم يأل

---

(١) — راجع الجزء الذى وضعه فلكن من كتاب « أوغندة والسودان المصرى » الفصل ١ و ٢ و ٤ و ٥ و ٦.

جهدا ان يخلق لها المتاعب دواما .

وقد قال المبشر فلكن فى المجلد الأول من كتاب « أوغندة والسودان المصرى » ص ٣٢٤ :—

« انه لما يؤسف له عدم القضاء على حكم هذا الملك المستبد الغشوم - يعنى كباريجا - ذلك الأمر الذى كان قد تم من زمن لولا المعارضة الشديدة التى كان يبديها بعض اشخاص فى بلاد الانكليز . وهؤلاء الاشخاص هم أولئك الذين يرون بعين الحسد كل امتداد يحدث فى الاراضى المصرية نحو الجنوب . وزاد على ذلك بأن قال : ان فى استطاعته ان يقرر وهو مستريح الضمير ان اجزاء البلد الواقعة تحت السيطرة المصرية والمحكومة بنفس ذات الطريقة التى يسير عليها فى حكمه حكمدار مديرية خط الاستواء الحالى لهى فى حالة احسن كثيرا مما كانت عليه تحت سيطرة ملوكها الغشم المستبدين » . اه

ويظهر من هذا الكلام ان الانكليز منذ ذلك الوقت كانوا واقفين لنا بالمرصاد فى السودان ولا يرغبون أن نتوغل فيه ونمتلك من اراضيه شبرا .

وأتى اتفينا ليزورهم فى كيروتو وفى ٤ يناير ولوا وجوههم شطر « بانياتول » Panyatole وهى مقر اتفينا . وهبت عليهم فى الطريق عاصفة مصحوبة بمطر فبللتهم . ولدى وصولهم اليها وجدوا المبشر ولسن الذى كان قد قدم اليها من أوغندة بقصد مقابلتهم .

وكانت كل قرى هذه الناحيـــة تحيط بها زرائب ذات أوتاد لوقايتها من كباريجا ومن عادية النمـور . وهذه الزرائب ليس لها سوى مدخل واحد يقفل ليلا .

وقابلهم انفينا مقابلة ودية للغاية وأحسن مثواهم وكان ديوانه غاية فى النظافة وأرضيته مفروشة بالابسطة التركية .

وانطلقوا فى اليـــوم التالى فى الطريق ميممين فويرا . وكان الطريق وعرا ويمـــر فى جوف ارض فسيحة واسعة مغطاة بالاشجـــار والحشائش العاليـــة وبها جذوع اشجار تحول دون المرور . وكان يرافقهم حرس من الجنود .

وبلغـــوا فويرا فى اليوم التالى لسفرهم . وكانت المحطة قائمـــة على مرتفع عنـــد منعرج النهر وذلك ما جعلها حصينة من جانبين . أما اتساع النهـــر فى هـذا المكان فيبلغ ٨٠٠ ياردة وماؤه عميـق جـــدا فتستطيع البواخر الكبيرة أن تمخر فيه لغاية أوروندوجانى . ويوجـــد بعد هذه الناحيـــة الاخيرة مساقط تحول دون الدخول فى بحيرة فكتوريا نيانزا . ولا بد من ايجاد ميناء بين فويرا و ماجونجو لأن انحدار النيل بين هاتين الجهتين يبلغ ٧٠٠ قدم .

وفى الغـــد أبحروا فى زوارق من فويرا وبعـد ستة أيام أفضوا الى مرولى وهى أقصى محطة مصرية فى الجنـــوب وكان وصولهم اليها فى ٢٧ يناير سنة ١٨٧٩ م .

وفى ٣ فبراير بارحـوا مرولى وتركوا فيها حرسهم المـــؤلف من

الجنــــود المصرية آسفين أشد الأسف لفـــراق رفاق غاية فى المـــودة والاخلاص .

وكان متيسا قـد أرسل لمقابلتهم ١٥٠٠ رجـل و ٤٠٠ حمـال . وفى ١٤ فبراير دخلوا روباجا عاصمة بلاده .

وعند سفرهم من بلاد الانكليز كانوا قد سخروا من فكرة امكان الوصول الى أوغندة بطريق النيل . حتى ان استانلى أكد لهم بأنهم لن يصلوا ومعهم نصف أمتعتهم . ومع ذلك قد وصلوا من سواكن الى روباجا ولم يفقـد لهم طرد واحد .

٣ — ملحق سنة ١٨٧٩ م

رحلة المبشر فلكن من أوغندة الى لادو (١)

من ١٧ مايو الى ١٨ سبتمبر

سفره الى مرولى

كان قد تقرر أن يسبق فلكن المبشر ولسن فبعد أن أقام فلكن فى أوغندة ثلاثة أشهر بارحها فى ١٧ مايو سنة ١٨٧٩ وسافر الى مرولى فوصل اليها فى أول يونيه من هذه السنة . وبما أنه لم يخبر أحدا بقدومه فلم يقدم له التحية سوى بوق واحد وطبل واحد وخمسة من الجنود . وبادر صديقه القديم « فرج افندى اجوك Ajok » قومندان الموقع بالاتيان للسلام عليه وليعبر له عما خالج قلبه من عظيم المسرات لمشاهدته مرة أخرى . وكان هذا الضابط وهو فى ريعان الشباب من جنود الحرس الخاص لسير صمويل بيكر وقد حدث فى يوم من الأيام ان أمر باعدامه رميا بالرصاص لهربه من الجندية ثم عفا عنه وبعد ذلك ترقى الى أن صار ضابطا من خيرة الضباط .

---

(١) — راجع الجزء الذى وضعه فلكن من كتاب « أوغندة والسودان المصرى » ، الفصل ١ و ٢ و ٤ و ٥ و ٦ .

وكانت جميع الجنود مشتغلة بتقوية المتاريس وكان سلاحهم مصفوفا على شكل باقة بجانبهم استعدادا للدفاع فى حالة ما اذا طرأ هجوم لأن كباريجا كان قد هدد المحطة وقتل الأهالى بعض الجنود ولكنهم عوقبوا عقابا زاجرا واستولت الجنود منهم على ٨٠٠ رأس من الأنعام غنيمة .

وفرح الضباط لاياب فلكن لانهم ما كانوا يتوقعون أن يروه مرة ثانيــة بعد الاشاعات التى تواترت عنــه بسبب مالاقاه من الصعاب فى أوغندة .

ولم يطب فلكن نفسا بالاقامة فى مرولى لأن ماحولها كان مغمورا بالماء وفيها اسراب كثيرة من البعوض وكان أكثر الضباط وجميع رجال المدفعية وهم مصريون ، مصابين بالحمى .

وكان ريونجا يسكن بالقــرب من مرولى وكان يتيه عجبا بالعلم الذى أعطيه وكان من وقت ما تبادل الدم مع سير صمويل بيكر الحليف الأمين للحكومة .

سفره الى محطتى كودج و فويرا

وفى ١٠ يونيه غادر فلكن مرولى ووصل فى اليوم ذاته الى « كودج » Kodj . وكودج هذه هى المعسكر العام لريونجا ويوجد فيها حصن مصرى وقومندانه سليم افندى مطر الذى ترقى فيما بعد ونال رتبة بك ولعب دورا هاما فى فترة حملة استانلى واخلاء مديرية خط الاستواء . وقطع فلكن هذه المسافة فى زورق بالنيل . وكان اتساعه ٨٠٠ ياردة وكانت ضفتاه جديرتين بريشة المصور وبهما نباتات وافرة منظرها يأخذ بمجامع القلوب .

وكانت محطة كودج هـــذه واقعة فى موضع ذى منظر فتان على شاطىء النهر . فأقام فيها فلكن فى لذة وحبور يومين كاملين وأبحر ثانيـــة منها فى زورق قاصدا فويرا . وكانت المسافة بين كودج وفويرا ثلاث ساعات لا أكثر وقوبل من قومندانها احمد افندى محمد وأقام بها لغاية ٢ يوليه إلا أنه كان منحرف الصحة طول مدة اقامته .

وفى ١٨ يونيه عندما كان مقيما فى فـــويرا سمع اطلاق مدفع مؤذنا بأن البريد أصبح بمرأى من المحطـة فسر لذلك ولكنه ماعتم أن حاق به شىء من الأسف إذ لم يرد له سوى مكتوب من أمـــين بك يدعوه فيـه الى الحضور فى فاتيكو حيث نوى الذهاب لمقابلته . ولما لم يكن قد وصله أى خبر عن ولسن وكان يريد أن يقابل أمـين بك ليعرض عليـه مشروعاته قرر أن يسافر حالما يوجد الحرس وعقد النية على أن يرجع لمقابلة ولسن ولكن الظروف حالت دون تحقيق غرضه .

سفره الى فاتيكو واستقباله بها

وعلى ذلك بارح فـــويرا فى ٢ يوليه وبعد ستة أيام وصل الى فاتيكو . وعلى حسب العادة المتبعة أطلق عيـــار نارى عند اقترابهم من المحطة فأجابه الحصن بطلق آخـر ورفع العلم المصرى وفى الحال ظهرت الجنـــود بكساويهم البيضاء واصطفوا صفين ليحيوا القادمين بتقديم أسلحتهم وانتظم ايضا الحرس . ولدى وصوله أمام الحامية وقف بمواجهتها وحيا الفريقان بعضهما . وفى هـذه البرهة رددت الابواق السلام الوطنى المصرى ونزل العلم .

وبعـد تأدية هـذه الرسميات سلم فلكن على قائد المحطة عبد الله افندى

غير وعلى صاحبه القديم مرجان افندي الدناصوري قائد محطة ماجونجو الذى كان فى فاتيكو فى ذلك الوقت وعلى الضباط ووجد خطابا جاءه من ولسن من مرولى وكان الساعى قد نسى أن يسلمه اياه غير انه تكدر غاية الكدر إذ رأى ان أمينا لم يأت الى فاتيكو لأنه استدعى الى لادو لأعمال هامة وهو فى منتصف الطريق .

وقضى فلكن فى فاتيكو أسبوعا وهو مغتبط غاية الاغتباط . وكانت المحطة موضوعة وضعا جميلا وكان الهواء عليلا بليلا ولا أثر للبعوض . وكانت قبائل الشوليين الواقعة المحطة فى بلدهم مخلصين للحكومة فلا يكبدونها شيئا من التعب . وكان فى استطاعة الجنود ان يسيروا بغير سلاح واذا وقع أحدهم فى مخالب المرض بعيدا عن الحصن حملوه على نقالة وأتوا به الى المحطة .

وكان السهل الذى يحيط بالمحطة خصبا للغاية ويلمح المرء على مد البصر حقولا مزروعة حبوبا وهذه الناحية هى فى الواقع مستودع حبوب المديرية فمنها ترسل الذرة الى مرولى و كيروتو بل فى بعض الاوقات الى لادو أيضا .

سفره من فاتيكو الى محطة كري

وفى ١٤ يوليه غادر فلكن فاتيكو بعد ان ودع القائد والضباط الذين أظهروا له الشيء الكثير من التودد والمجاملة مدة اقامته بينهم وذهب الى دوفيليه فدخلها فى ١٦ منه ووجد المحطة حدث فيها تحسين كبير فأقيمت اكواخ جديدة ودهنت البواخر حديثا وكانت كل الاشياء مرتبة

ومنظمة تنظيما متقنا .

ولما كان الحمالون متأهبين للرحيل عقد العزم على السفر في اليوم التالي لوصوله وكانت المناطق التى اجتازها غاية فى البهاء فالجبال من ناحية والنيل من ناحية أخرى لاسيما عندما ينحصر النيل فى المضيق الواقع شمال دوفيليه ويتدهور ماؤه بسرعة فوق الصخور مرغيا مزبدا .

ومر فلكن ورفاقه بلابوريه وهى محطة واقعة على ضفة النهر فى موضع بلغ نهاية الحسن بجانب جبل يشرف على النهر ويبلغ ارتفاعه ٢٦٠٠ قدم . وكانت المحطة محصنة تحصينا عظيما وكان يوجد بها عدا الجنود الذين خرجوا ليحيوه اربعة من الفيلة الاليفة .

وبعد لابوريه أفضى فلكن ومن معه الى موجى وهى المحطة التى فككت فيها البواخر لاعادة تركيبها فى دوفيليه لأنه كان يستحيل جرها فى المساقط بالاحبال . وباشر جميع هذا العمل مهندس مصرى يقال له ابراهيم افندى خليفة فقام به خير قيام واستحق جزيل الحمد ومزيد الثناء .

وعند زيارة فلكن الأخيرة كان تشييد المحطة قد أعيد فى موضع آخر جميل بسبب غمرها بماء الفيضان وأقيم المعسكر على ضفة النهر تحت شجرة ضخمة باسقة تجاه جبل علوه ١٥٠٠ قدم على الضفة المقابلة . ويتألف من كل هذا منظر يسحر الالباب ويسبي العقول .

وفى اليوم التالي شرعوا ثانية فى الترحال واستمروا فى مسيرهم حتى بلغوا محطة كري . ويشغل حصن هذه المحطة بقعة فى غاية المناعة وهو واقع على منعرج النهر الذى يقى ذلك الحصن من ناحيتين والناحيتان الاخريان

يحميها سور متين مشيد بالاحجار ولما كان يكتنفه أرض مكشوفة صار أمنع من عقاب الجو .

وقبل أن يصل اليها رأى على الضفة الاخرى تحت شجرة كبيرة قبر إرنست دى بلمون الذى قتل فى هذه الناحية . وقضى فلكن فى كري يوما هنيئا مع انه التزم أن يعالج عددا ليس بالقليل من المرضى عرضوا أنفسهم عليه .

سفره من كري الى لادو

وفى ٢٢ يوليه أبحر من كري فى زورق ميمما « بيدن » Bedden . وكان اتساع النهر فى تلك الناحية لا يزيد عن ٤٠٠ يارده وضفتاه مرتفعتان كثيرا فوصلوا اليها فى زمن يسير إذ قطعوا المسافة بين المحطتين وقدرها ٥٠ كيلومترا فى ظرف أربع ساعات . وهاجم مركبهم فى اثناء الطريق فرس ماء فقتله فلكن والجاويش الذى كان يرافقه بطلقين ناريين .

ومحطة بيدن قائمة على جزيرة فى كل جانب من جوانبها مساقط ماء . والنيل فيما وراء هذه المساقط صالح للملاحة لغاية الخرطوم . ولذلك كان يوجد هناك باخرة صغيرة واقفة . وأنشأ غوردون باشا فى هذه المحطة « طوفا » معدية يعبر النهر بواسطة حبل من الصلب وكان يستحيل اجتيازه النهر بغير واسطة هذا الحبل بسبب قوة التيار . أما منظر ما حول الجزيرة فيسحر الالباب ويأخذ بمجامع القلوب وكان فلكن يجنح الى ان يطيل مدة اقامته فى بقعة بلغت نفاستها هذا المقدار العظيم غير ان وقته لم يكن

يسمح له بذلك فأبحر ثانية فى مركب آخر الى الرجاف بعد وقوف ساعة وهنا اختلف شكل الاراضى إذ أنها بعد ان كانت جبلية من الناحيتين انقلبت سهولا تتواتر فيها مزارع الذرة الواسعة .

ووصل الى الرجاف فى نفس اليوم فاستقبله فيها صديقه قديما قائد محطتها اسماعيل افندى خطاب الذى يصفه فلكن بأنه ألطف مصرى وقعت عينه عليه . وسر سرورا لا مزيد عليه إذ حباه ذلك القائد بصفة هدية بقدر من البن والسكر والشمع والصابون تلك الاشياء التى حرم منها زمنا طويلا .

وسافر من الرجاف وحط رحاله فى غندوكورو الواقعة فى منتصف الطريق بين محطتي الرجاف و لادو . فوجد حالتها تغيرت تغييرا كبيرا عما كانت عليه فى عهد سير صمويل بيكر إذ أمست نقطة صغيرة قائمة على ضفة النهر من وقت ما نقلت عاصمة المديرية الى لادو . وزار فلكن المعسكر القديم فلم يجد منه قائما غير متاريسه وزار أيضا قبر « هجنبوثام » Higginbotham مهندس سير صمويل بيكر الذى توفى فى زمن الحملة كما زار قبور المبشرين الرومانيين الكاثوليك الذين كانوا أنشئوا بيعة فى غندوكورو ولم يتركوها إلا بعد أن توفى منهم ستة وعشرون مبشرا فى حول واحد . ولم يبق الآن من تلك البيعة إلا أطلالها وأشجار الليمون التى كانوا زرعوها .

واستمر فلكن نازلا مع النهر وبعد خمس ساعات وصل الى لادو وفيها استقبله الحكمدار أمين بك استقبالا وديا للغاية . وشعر فلكن بسرور لا مزيد عليه لهذه المقابلة الجديدة ونزل فى ضيافته من ٢٣

يولـــيه لغـــاية ١٨ سبتمبر ولحق به المستر ولسن ورسل متيسا فى ١٩ أغسطس .

وكان أمين بك يدير حكمداريته بمهارة كبرى وعدالة ومع أنه ظل عامـــين لا يصل اليه شيء من الخرطوم استطاع بما كان يجبيه من المديرية من الايرادات أن يقوم بسداد المصروفات بدون أن يدع سبيلا لاحد من جنوده أن يتذمر أو يتململ . وكانت علاقة الاهالى مع الحكومة فى غاية من الصفاء والمودة . أما « اللورون » Laron رئيس « البارين » Baris الذى اقتتل مرارا مع سير صمويل بيكر فكان يعيش هو والمصريون عيشة صداقة واخاء . وفى مدة اقامة فلكن فى لادو قتل جندى يوما تمساحا كان من عادته أن يترقب النساء اللواتى يذهبن لاغتراف الماء فيختطفهن . وبشق جوفه وجد فيه سبع فتخات من نحاس « دبل » .

ولما كان فلكن قد أقام زمنـــا فى ضيافة الحكمدار فقد استطاع أن يعرف نظام مديرية خط الاستواء وهاك ما قاله فى هذا الصدد :—

« ان لادو عاصمة المديرية هى مدينـــة حسنة البناء فديوانها ومكتبها ومسجدها وجميع مبانى الحكومة فيها مشيد بالآجر ومسقوف بالحديد المصفح المتماوج . وكافة المساكن الأخرى مقامة من الخشب والحشائش وترمم كل سنتين أو ثلاث سنوات بسبب ما يحدثه بهـــا من التلف السوس ونوع من النمل لونه أبيض . وسائر الشوارع فسيحة ومستقيمة فى الامتداد وبواسطة تنظيم وتنسيق فضاء طلق تبلغ مساحته ٣٠ ياردة بين الدور والحصون أضحت المحطـــة محاطة بمجل رحب للنزهة . ويوجد خارج الاسوار بساتين وحدائق مترامية الاطراف بها عدا الموز كمية كبيرة من الزهور الأوربية

واغراس شبه جزيرة بلاد العرب يعمل الحكمدار وهو الطبيب أمين بك بهمة كبيرة فى سبيل تبليدها أى تعويدها على مناخ المنطقة . وتوجد شجرة من أشجار الكافور بلغ ارتفاعها للآن ٢٥ قدما . وستستفيد أواسط افريقية من هــذا النوع من الاشجار عندما تنتشر زراعته لأنه خلا تأثيره العظيم فى الاحوال الصحية فى البلد فان خشبه يسد فراغا يشعر بوجوده منذ زمن بعيد .

وللمحطة ثلاثة أبواب يقيم عليها حراس ليلا ونهارا . وتفتح هذه الابواب من الساعة السادسة صباحا الى الساعة الثامنة مساء . ومن غير المصرح به مطلقا اطلاق أعيرة نارية بجوار المحطة ابتداء من غروب الشمس الى حين شروقها اللهم إلا اذا كان الطلق اشعارا بحدوث هجوم . وفى الساعة الخامسة والنصف صباحا ينفخ فى البوق إيذانا بالاستيقاظ . وبعد هـذا توقد النيران فى الحال . وفى الساعة السادسة يقومون بالمناداة بالاسماء ثم تفتح الابواب وعندئذ يقوم الجند بعملية التمرين وتأخذ النساء فى كنس الشوارع . وفى الساعة الثامنة والنصف يذهب الجميع ما عدا الحراس للشغل فى المزارع وجلب الماء أو لجمع الحطب وترسل القطعان للمراعى حالما يرتفع النداء . وتستمر الاشغال لغاية الساعة الحادية عشرة والنصف وتظل معطلة للراحة للساعة الثانية والنصف وتعود بعد ذلك لغاية الساعة الخامسة مساء وعندئذ يرجع الجميع الى الحصن . وفى الساعة الثامنة ينادون الاسماء وتقفل الابواب . وفى الساعة التاسعة تطفأ الأنوار ويطوف ضابط ليتحقق مما اذا كان هذا النظام مرعيا ومعمولا به .

والأوامر التى بصدد النار فى غاية الشدة . فاذا هب إعصار فى النهار نفخ فى البوق حالا ايذانا باطفائها ويعاقب كل من لم يبادر بالعمل بهذا الأمر عقابا صارما . وهذه الحيطة ضرورية جدا لأنه إذا اشتعل كوخ من الاكواخ

يصعب كثيرا انقاذ المحطة بل تدمر تدميرا . وفى ربيع سنة ١٨٧٨ م راحت لادو نفسها طعمة للنار التى التهمت المئونة والميرة الكثيرة التى كان سير صمويل بيكر باشا قد أتى بها لتموين المديرية .

ويوجد على مقربة من كل محطة عدد من القرى يسكنها الاهالى وتقسم المديرية الى محطات يقام فى وسط كل منها حصن . ومن المفروض على الاهالى توريد رسوم الحبوب والماشية فى هذا الحصن . وسائر الجنود تقريبا من سكان مكراكا . ويتكون منهم جيش يتعسر وجود مثيله من حيث شكل الجسم ولياقته وهم جنود بواسل . ولقد يستطيع المرء ان يجترئ فينعتهم بالبطولة والنشاط التام . فهم يطيعون قوادهم اطاعة عمياء ويؤدون فى الوقت نفسه واجباتهم بفطنة وذكاء . وكلهم مسلحون ببنادق من طراز رمنجتون وهم يجلون هذا النوع من السلاح ويفخرون بحمله لامعا لمعانا تاما . أما كساويهم عندما يقومون بالخدمة فى المحطة فهى بذلة بيضاء وحذاء وطربوش وجعبة للظروف « الخرطوش » من جلد النمور يتمنطقون بها فى خواصرهم ويعلقون بها سنكهم ومداهم . ولدى المسير يلبسون سترة قاتمة وسروالا « بنطلونا » قصيرا وقلما ينتعلون احذية . ورجال المدفعية هم وحدهم من المصريين وحالتهم الصحية على غير ما يرام حتى الضباط فاغلبهم الآن من الاهالى .

وعلينا أن نذكر كلمة بشأن التراجمة فنقول : ان هؤلاء اصلهم أرقاء لأولئك الرجال الذين كانوا يشتغلون فيما سلف بالنخاسة وكافتهم يتكلمون اللغة العربية ودربوا فى بادئ الأمر على حمل الاسلحة . اما الآن فيتألف منهم نوع من الشرطة الاهلية . وكل قرية من قرى الاهالى مكلفة بتموين

رجال أو أكثر من هؤلاء الرجال الذين تقع عليهم مسئولية الأمن ومراقبة جباية الرسوم المضروبة على الحبوب ويقطن منهم نحو العشرين أو الثلاثين بجوار الحصن ومتى احتاج الأمر الى حمالين أو كان بعض الأهالى مطلوبا للشغل فى المحطة يكلف أولئك الرجال بجمع العدد اللازم . وبما أن الافريقيين يعسر عليهم العد فهم ما زالوا للآن يستعملون الطريقة التى نسخت وهى تقديم حزم من القش عددها مساو للعدد المطلوب .

وقلما تقع جناية . والصعوبة الوحيدة التى تواجهها الحكومة هى العمل فى سبيل حفظ ورعاية نظام دقيق إذ بدون ذلك يتعذر ايجاد حكومة حسنة . والواقع أن الافريقيين هم أولاد كبار فلا بد من الاستمرار على مراقبتهم مراقبة دقيقة مقرونة بالحكمة . ولا يمكن ممارسة الحرية بالكيفية التى يفهمها الانكليز من هذه الكلمة . ولا بد من الامتثال واطاعة أوامر الحكومة الخاصة بدفع الضرائب فى أوقاتها وتقديم الحمالين ونقل البريد بانتظام ومراعاة اللوائح والقوانين الأخرى . ويلزم لبلوغ هذه الغاية أن يخضع الأهالى لمراقبة الموظفين وتدخلهم تدخلا بارزا أكثر مما ينبغى أن يعمل فى بلاد أخرى أعظم تقدما فى المدنية .

ويجب القيام للآن بعملية النقل بواسطة الحمالين لأنه لم يتم الى هذه الساعة ادخال طريقة العجلات التى تجرها الثيران . ومما يؤسف له ان محاولة غوردون باشا ادخال النقل على ظهور الفيلة مثل « الهند » لم تنجح . وقد قيل لى انه من المستطاع اقتناص وتدريب اثنى عشر فيلا فى عام واحد بواسطة أربعة أفيال مدربة تدريبا حسنا واثنى

عشر فيـــالا . غير أن بعض مقامات اعترضت على هذا القول بأن فيلة افريقية لا تصلح لهذا الغرض ومع ذلك فقد روى أنها كانت تستعمل فى الازمان الغابرة بطريقة عامة .

وبصرف النظر عن المصاعب الأخرى فان الحمالين مع كل هذا اناس ذوو عناية كبرى فلم يحدث قط مرة أنى تكدرت لـكسر صندوق . نعم ضاع لى مرة طرد واحد إلا أنه جاءنى سليما بعد بضعة أيام .

ويقود كل ثلة من الحمالين مكونة من ١٠ أو ٢٠ حمالا جندى حسب أهمية القافلة . وهذا الجندى مسئول عن الأحمال فيقوم بحراستها وحراسة المشاة معا . وهـذه طريقة مفيدة للأوربيين لأنها تعفيهم كلية من الاهـــتمام بمسألة متاعهم وتمكنهم من توجيـــه كل أنظارهم الى التمتع بمشاهدة محاسن الطبيعة والابحاث العلمية .

أما نظام السير فهو بالطريقة الآتية وهى : تبتدىء المقدمة فى السير حاملة العلم يتقدمها ترجمان يؤدى فى الوقت نفسه وظيفة دليل ويسير خلفها الحمالون على بعد ٢٠ أو ٣٠ ياردة ويسير جنـــدى خلف كل ١٠ أو ٢٠ رجـــلا . وتنقل طرود الزاد والذخـــيرة فى وسط القافلة بحراسة أربعة من الجنـــد بقيادة جاويش يحمل بندقيته شاب صغير . ثم تأتى النساء عقب جميع الحمـــالين يحملن الزاد والحجارة التى يسوين بها الخـــبز . ثم يأتى خلف الجميع المؤخرة ناشرة علمها . ويكابد الضابط المناوب فى الخدمة عناء جما فعليه أن يلقى بنفسه بين آونة وأخرى فى الحشائش العاليـــة ويمشى من المؤخرة الى المقدمة ويستعلم من كل جندى يمر أمامه عما إذا كانت كل الأمور جارية فى مجراها الحسن وعما إذا كان كل شيء تاما فلا ينقص طـــرد ولا رجل . وإذا سمع

صوت بالاستغاثة تركض المقدمة الى الذخيرة وأولئك الذين خلفها يعدون الى الامام وتفتح الصناديق وتوزع كميات اضافية من الذخيرة . أما الحمالون والنسوة فينضمون داخل حلقة مكونة من الاحمال التى تكدس بشكل متراس منيع على قدر الاستطاعة . وأولئك الذين حضروا هذا المنظر لأول مرة وشاهدوا السرعة التى يتم بها أخذ هذه الاحتياطات يحكمون ان ذلك عمل مدهش . ولدى السير فى المناطق التى الأمن فيها موطد قليلا ترسل كشافة الى الامام ويمشى فى الوقت نفسه عدد من الرجال بجانبى الحملة على بعض مسافة منها .

ومن المستحيل اقناع الأهالى بالسير ليلا ومن ضمن الاسباب التى تحملهم على عدم السرى تشاؤمهم من القمر .

ومن الأمور العجيبة انى ما من مرة سريت والبدر تام إلا وأصبت بعد ذلك بحمى .

وتشمئز الأهالى كثيرا أيضا من السفر فى البكور بسبب الندى واذا اكرهوا على ذلك يعلقون على صدورهم جلودا أو غصونا من غصون الشجر حتى لا يبتلوا . والقاعدة العامة عندهم هى أنهم يأتون هذا العمل فى ساعة السفر الأولى حتى ولو كانوا لابسين ملابس لا يخترقها الماء مفضلين وهج الشمس على القر والندى .

وعند الوصول الى المكان المعين لاقامة المعسكر يجتمع الحمالون وتعد الأحمال وتكدس وتوقد النساء النيران ويسرعن فى طهى الطعام ويذهب الرجال للأدغال ليحتطبوا وليجمعوا حشائش لاقامة أكواخ . ولا يستغرق

هـــذا العمل وقتا طويلا ففى ساعة تقريبا يتم تشييد اكواخ حسنة هـذا اذا لم يكن قد ران على الرجال الكسل المفرط أو لحقهم شيء كثير من التعب والنصب .

وعندما تتـــوارى الشمس بالحجاب يقدم لجميع من بالقافلة طعام العشاء وتوقد النيران ليلا حول المعسكر ويرتب الحرس ولا يؤذن لأحد ان يبارح المعسكر مهما كانت الاسباب اللهم إلا اذا أخذ معه مشعلا . والغرض من هـذا الاحتياط منع اللصوص أو العـــدو من مهاجمة المعسكر بغتة . وكل انسان يجـــول حول الخطوط بدون ان يكون حاملا مشعالا يعدم رميا بالرصاص فى الحال .

فلله هـذا المنظر الغريب الذى تقع عليه عين من يتنزه حول المعسكر ويرى الرجال متكئين على جميع الاوضاع يأكلون ويغنون ويدخنون والنساء يسهرن على النيران وطحن الحبوب وصنع الخبز ! ! هذا المنظر الذى يضيئه لهب النيران ! !

وعندما ينفضون من الطهى والطعام يسارعون احيانا الى الرقص وبهذه الطريقة يزيحون عن قلوبهم لوعة الساعات الدامسة المدلهمة ولا ينامـون الا ساعتين أو ثلاث ساعات قبل الرحيل القادم . فكيف يستطيعون مقاومة مشاق السفر مع انهم لم يمنحوا انفسهم راحة إلا تلك المدة القصيرة . هذا ما حار فيه فهمى وضل فيه صوابى .

وكل حارس له نمرة خاصة فيصيحون ذاكرين نمرهم الواحـد تلو الآخر بين آونة وأخـــرى فى مدة لاتتجاوز بضع دقائق ويصيح الصف ضابط لدى سماعه النمرة الاخيرة : « تمام » . ثم تعيد الدورية عملها واذا فات أحد الحراس دوره تقف الدورية . والويل كل الويل للحارس الذى لا يصيح ذاكرا نمرته

عندما يأتى دوره فانه يجلد من ١٥ الى ٢٠ جلدة فلا يعود بعد تغمض له عين أثناء الليل » . اه

وانهدم صرح الآمال الذى بناه المبشران ولسن وفلكن حينما علما أن النيل خلافا لما كانا يأملان عاد فانسد فى منطقة السدود وأمسى غير مفتوح للملاحة فصار فى غير استطاعتهما الرجوع بطريقه الى الخرطوم فقررا أن يسلكا فى عودتهما الطريق المار من بحر الغزال و دارفور . وعلى ذلك ودعا أمين بك فى ١٨ سبتمبر عام ١٨٧٩ آسفين جد الاسف بعد أن قدما له الشكر الجزيل لحفاوته بهما واكرام مثواهما . وقد نالا من كرم الضيافة وعظيم الحفاوة فى جميع محطات الحكومة مثل ما لقياه فى مديرية خط الاستواء ووصلا الى الخرطوم فى ١٦ فبراير عام ١٨٨٠ .

٤ — ملحق سنة ١٨٧٩ م

رحلة المبشر ولسن من أوغندة الى لادو [١]

من ١٦ يونيه الى ١٩ سبتمبر

أقنع المبشرون متيسا فى مايو عام ١٨٧٩ م بأن يرسل مندوبين الى انكلترا وقد اختيرت لذلك طريق النيل وفضلت عن طريق زنزبار لأنها أكثر منها أمنا . ولما كان من اللازم اخطار أمين بك فقد سافر فلكن الى مرولى ليتحادث معه فى هــــذا الصدد . وعلى ذلك شخص من روباجا الى مرولى فى ١٧ مايو عام ١٨٧٩ م .

وسافر ولسن هو الآخر فى ١٦ يونيه ووصل الى مرولى فى ٥ يوليــــه ونزل كالمرة الأخيرة فى ديوان الحكومة فوجـــــد خطابا من فلكن يقول له فيه انه ذهب الى فويرا وأوصاه أن يخطره بوقت وصوله الى مرولى وينتظر فيها الرد لأنه يأمل أن تأتيه أخبار من أمين بك . وكانت هذه المحطة قد تحسنت تحسنا كبيرا عما كانت عليه فى زيارته لها قبل هذه المرة الاخيرة وأقيم فيها متراس حفر حوله خندق . وكان الضابط المعين لقيادتها فرج افندى اجوك

(١) — راجع الجزء الذى وضعه ولسن من كتاب « أوغندة والسودان المصرى » الفصل العاشر .

وهو جندى من جنود سير صمويل بيكر .

وورد بعد ذلك بقليل الى ولسن خطاب آخر من فلكن يقول له فيه انه بارح فويرا ميمما فاتيكو فقرر ان يسافر هو الآخر ورحل من مرولى فى ١٦ يوليه موليا وجهه شطر فويرا بطريق النيل فدخلها فى ١٧ منه واستقبله فيها صديقه قديما احمد محمد افندى قائد هذه المحطة . وأقام فيها يومين ثم شخص منها الى فاتيكو بعد أن ودعه الضباط وداعا شيقا .

وقابل فى اليوم التالى لسفره من فويرا ثلة من الجند آتية من فاتيكو فسلمته خطابا من فلكن يقول له فيه انه سافر الى لادو بناء عن طلب أمين بك .

وفى ٢٤ يوليه بلغ فاتيكو فوصفها بأنها نقطة عسكرية تشغل مكانا حصينا فى وسط حقول مزروعة حنطة . واستقبله فيها القائد عبد الله افندى نمير وهو ضابط سودانى احسن استقبال وأكرم مثواه . وهنا زاد على ذلك بأن قال : انى فى جميع رحلاتى فى أرجاء السودان وهى رحلات يبلغ مداها عدة الوف من الأميال قوبلت بغاية التودد واللطف من الموظفين المصريين من أكبرهم الى أصغرهم .

وأقام ولسن فى فاتيكو زهاء ١٥ يوما على أتم ما يكون من الغبطة والسرور وزايلها فى ٨ أغسطس ووصل فى ١٥ منه الى دوفيليه وهى محطة عسكرية كبيرة ومنها عاود السير فمر بلابوريه و موجى و كري ومن هذه المحطة الاخيرة أبحر فى مركب ونزل والنيل فمر بييدن

وفيها انتقل بسبب الشلالات الى مركب اخـــرى واستمر مقلعا فى النهر الى ان أفضى الى الرجاف ثم الى غندوكورو ولبث فيها ساعة وبعـــد ذلك بلغ لادو وهى عاصمة مديرية خط الاستواء فى ١٩ أغسطس فاستقبله فيها أمين بك و فلكن الذى كان سبقه اليها .

٥ — ملحق سنة ١٨٧٩ م

رحلة الطبيب جونكر الثانية في مديرية خط الاستواء

القسم الأول

من ١٦ أكتوبر الى ٣١ ديسمبر

بارح جونكر الخرطوم فى ٢٨ يوليه كما ذكرنا فى الملحق الثانى لعام ١٨٧٨ م قاصدا القاهرة واوربا عن طريق وادى حلفا . وأقام فى أوربا لغاية أكتوبر سنة ١٨٧٩ وسافر منهـا ثانية ووجهته مصر فالسودان ووصل الى الاسكندرية فى ١٦ من الشهر المذكور .

وبعد ذلك شخص الى القاهرة حيث فرح بلقاء صديقه « شوينفورث » Schweinfurth الذى كان قد بلغها قبله بأسبوع . ولما كان يريد أن يسافر فى أقرب وقت ، كان عليه ان يقوم بأعمال كثيرة ليتمم معدات سفره وان يحصل قبل كل شىء على ترخيص من الحكومة المصرية .

وحصل بواسطة قنصله العام وهو قنصل الروس المسيو « م. فون ليكس M. Von Lex » على اذن بمقابلة الخديو توفيق وكان وقتئذ قد تولى عرش الخديوية بعد والده اسماعيل فقابله فى ٢ نوفمبر ووعده الخديو فى غضون هذه المقابلة بأن ستصدر الأوامر اللازمة لحكومة السودان إلا أنه أوعز اليه بالتريث لآخر الشهر ريثما يكون غوردون قد وصل الى القاهرة . وكان غوردون

فى ذلك الوقت فى مأمورية يلاد الاحباش . وبما ان هـــذا كان جـل مراد جونكر ايضا فقد قبل هذا الايعاز باغتباط إذ أنه كان يتمنى مقابلة هذا الموظف قبل أن يرحل .

ولم يأت مع ذلك هذا الانتظار بثمرة لأن النجاشى « يوحنا » Johannès عاد فطلب ثانية غوردون باشا بعد ان وصل الى القلابات لتسوية بعض المسائل . ونظرا لهذه الظروف قابل جونكر الخديو مرة أخـــرى فى ٢٢ نوفمبر وعرفه رغبته فى السفر فوافق الخديو على ذلك .

وبعد ان استوفى اجراآته مع الحكومة سافر الى السويس ومنها أبحر فى ٥ ديسمبر الى سواكن فدخلها فى ٨ منه . وشخص منها فى ١٤ من الشهر المذكور وبلغ بربر فى ٢٧ منه وأبحر من هذه فى اليوم التالى لقدومه اليهـــا قاصدا الخرطوم فوصل اليها فى بداية العام الجديد .

وبقية هذه الرحلة مسطورة فى الملحق الأول للسنة القادمة .

فهرس

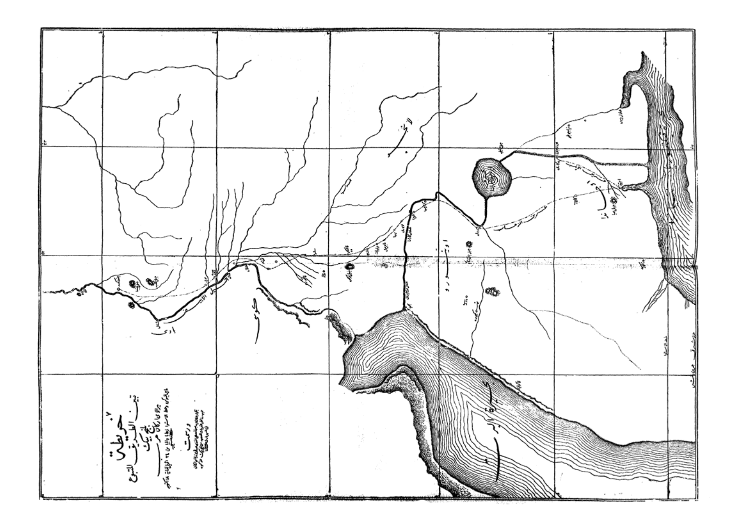
صور الكتاب

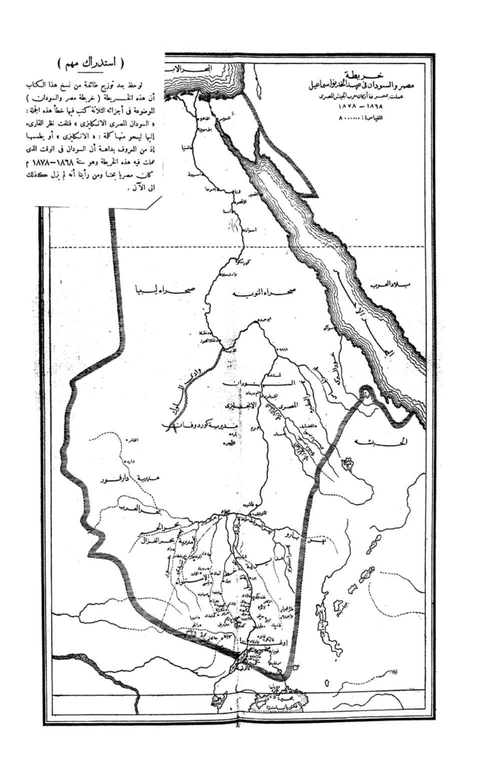
فهرس

موضوعات الجزء الأول

استدراك

الصفحة	السطر	الخطـــأ	الصـــواب
٩	١٩	أمانتهم على	أمانتهم وحرصهم على
١٨ (الصورة)	١	بين فروسكو وأبى حمد	بين كروسكو وأبى حمد
٤٠	١٣	٢٩ يونيو	٢٩ مايو
٧٢	١	Kabb - Miro	Kabba - Miro
٧٨	١٤	كباريحا	كباريجا
٧٨ (الصورة)	٢	٨ يونيه سنة ١٨٧١	٨ يونيه سنة ١٨٧٢
٩٤	٦	رؤسائها	رؤسائهم
١٥٨	١	عبد الرحمن الغوراوى	عبد الرحمن الفوراوى
١٨٨	١٢	أعباء	إعياء
٢٠٠	١٢	دوفيلية	دوفيليه
٢١٤	٨	عند	عن
٢٣١	١٤	« أرجو »	« وارجو »
٢٨٥ (هامش)		والآن أوروندوجانى	والآن انتيبى
٣٥١	١٤	الملحق الأول	الملحق الثانى
٣٦٠	٢١	وعند (فى بعض النسخ)	وعندما
٣٦٨	١٧	أكثر امتداد	اكثر امتدادا
٣٨٥	١	ضعف عزيمته	





(استدراك مهم)

لوحظ بعد توزيع طائفة من نسخ هذا الكتاب أن هذه الخريطة (خريطة مصر والسودان) الموضوعة فى أجزائه الثلاثة كتب فيها خطأً هذه الجملة : « السودان المصرى الانكليزى » فنلفت نظر القارىء إليها ليمحو منها كلمة : « الانكليزى » أو يطمسها إذ من المعروف بداهة أن السودان فى الوقت الذى عملت فيه هذه الخريطة وهو سنة ١٨٦٨–١٨٧٨ م كان مصريا بحتا ومن رأينا أنه لم يزل كذلك الى الآن .

